

أبراهام ملتسر

صنع معاداة السامية أو تحريم نقد إسرائيل

ترجمة: سميّة خضر



مكتبة العربي

PDF

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



صنع معاداة السامية

أو تحريم نقد إسرائيل

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يسطع بها "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات"، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى "سلسلة ترجمان" بتعريف قادة الرأي والشعب الثريوبه والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الآنية الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وستأمن "سلسلة ترجمان" وسترشد بأراء نقية من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوّهة أو المصنّعة المستوى.

ولسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساعدة في تعزيز برامج "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات" الرامية إلى إثراء روح البحث والاستقصاء والتفكر، وتطوير الأدوات والمنافع وكيّات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

صنع معاداة السامية

أو تحريم نقد إسرائيل

أبراهام ملتسر

ترجمة

سمية خضير

مراجعة

رشيد بوطيب

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
منشر، أبراهام

صنع معاداة السامية، أبو، تحرير نقد إسرائيل / أبراهام منشر؛ ترجمة سمية خضر؛ مراجعة
رشيد يوحنا.

359 ص.: 24 سم. - (مسلسلة ترجمان)

يشتمل على دليل لمرافعة (ص. 341-343) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-460-3

1. معاداة السامية. 2. الصهيونية. 3. العنصرية. 4. اليهود - أحوال اجتماعية - ألمانيا.
5. اليمن واليسار (سياسة) - ألمانيا. 6. إسرائيل - السياسة والحكومة 1993- . أ. خضر، سمية.
ب. يوحنا، رشيد، ج. العنوان، د. المسلسلة.
305.8924043

هذه ترجمة مأخوذة بها حصرياً من النادر الكتاب

Die Antisemitismmacher:

Wie die neue Rechte Kritik an der Politik Israels verhindert

by Abraham Melzer

© Westend Verlag GmbH, Frankfurt/Main 2017

عن دار النشر

Westend Verlag GmbH

الأرداء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن
الجهات ببناءها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



شارع الطرقة - منطقة 70

وادي البسات - ص. ب: 10277 - الطالين، الحار

هاتف: 40236888 00974

جادة الجزائر، إزاد الشهاب شارع سليم 174 بداية الصيفي 174

ص. ب: 114945 11 رافق الصليح بيروت 2180 1107 لبنان

هاتف: 8 991827 00961 فاكس: 1991839 00961

البريد الإلكتروني: beirutoffice@dehainstitute.org

الموقع الإلكتروني: www.dehainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى

بيروت، نيسان / أبريل 2022

المحتويات

7	تصدير المؤلف للطبعة العربية
9	1. كيف أصبحت يهوديًا في ألمانيا
32	2. ماذا تعني معاداة السامية؟
49	3. ألفا عام على معاداة السامية
69	4. معاداة السامية في الوقت الحاضر
87	5. أسطورة معاداة السامية الجديدة
103	6. إسرائيل ليست وطني
137	7. المجلس المركزي لليهود في ألمانيا لا يمثلني
157	8. هل هناك معاداة للسامية مستوردة من صفوف اللاجئين؟
171	9. عدائي للصهيونية
181	10. يهوديتي
191	11. برودر وبرومليك وشركاؤهما
221	12. عدائي مع ميشا برومليك
237	13. تشويه سمعة غولتر غراس

251	14. منظمة أوستلي كونسريند
	15. مركز سيمون فيزنثال، كلود لانتسمان أو:
259	تهمة معاداة السامية باعتبارها أضحوكة
271	16. سفير إسرائيل ناشرًا البروباغندا
283	17. حركة معادي الألمان والمواقف التقاربي من اليمين الجديد
299	18. هل تتم الرقابة لأجل إسرائيل؟
313	19. هل هناك ما يدعو اليهود إلى القلق؟
325	خاتمة
331	ملاحق
333	الملحق (1): مجموعة فرانكفورت اليهودية
335	الملحق (2): "النكبة" في مدينة برمن
337	الملحق (3): إعلان سلام برلين (شالوم 5767)
341	المراجع
345	فهرس عام

تصدير المؤلف للطبعة العربية

أودّ أن أثير بدايةً عن عميق سروري بنقل كتابي إلى اللغة العربية وانتشاره في العالم العربي. لقد كتبت هذا الكتاب لأنني شعرت بالاستياء والإحباط مما يقوم به اللوبي الإسرائيلي من استغلال لمسألة الهولوكوست والانتهاكات بمعاداة السامية في الصراع السياسي بين إسرائيل وجيرانها.

إن معاداة السامية عنصريةٌ خالصة، حتى عندما يريد من يطلق عليهم صفة "الخبراء"، الموالين لإسرائيل، إقناعنا كلنا بأنها "توع خاص" من العنصرية، وتحديدًا عندما يتعلق الأمر باليهود. لكن لنعلم أن كراهية اليهود ليست أسوأ أو أفضل من كراهية الآخرين الملونين أو الفجر أو المثليين أو العرب. والحال أن ما يربط بين هذه الأشكال هو حقيقة أنه لا يمكن أبدًا من هؤلاء الناس الخروج من جلودهم. وكما أن الأفريقي لا يمكنه التخلص من جلده أو تغييره، فقل الأمر نفسه أيضًا عن اليهودي أو المثلي أو العجري.

لقد توجهت في هذا الكتاب إلى الجمهور الألماني وبرهنتُ له أن الانتشغال الدائم بمسائل معاداة السامية، والادعاء السخيف والزائف أن نقد السياسة الإسرائيلية هو عداوة للسامية، قضايا تجسّد هستيريا خالصة، يد أنها تُستخدم تحديدًا من جانب اللوبي الإسرائيلي في الخطاب في سياق الصراع في الشرق الأوسط. وبالفعل، فإن الـ "هستبارا" (Hesteria) الإسرائيلية (الاسم الذي يُطلق على وزارة الدعاية هناك) تستخدم هذا السلاح منذ أن أجاب سفير إسرائيل في واشنطن عن سؤال أحد الصحفيين الإسرائيليين عن أعظم ما

أنجزه لإسرائيل فأجاب: "يمثل أعظم إنجاز في أنني تمكنت من إقناع الإدارة الأمريكية بأن معاداة الصهيونية هي نفسها معاداة السامية".

منذ ذلك الحين، لا يمضي يومٌ في ألمانيا إلا ويُعطَّرق إلى معاداة السامية ويكتب عنها كثير ممن يُفترض أنهم خبراء، يدّعون أنهم في الحقيقة لا يحيطون بالقهم الكافي بشأن هذه الموضوعات. بل أبعد من ذلك، وهنا نذكر مثالاً، قد نفرد لنا أكبر الصحف اليومية الألمانية، بيلف، صفحة كاملةً لقضية كراهية اليهود، فتحتفنا به 115 مثالاً عن معاداة السامية اليومية، كل يوم من 1 كانون الثاني/يناير 2019 إلى 28 آذار/مارس 2019، وتقدّم أمثلة من قبيل ما حدث في منطقة فلزنبرغ (Felsenberg) في 7 شباط/فبراير بشأن رسم صليب معقوف (الرمز النازي) على أبواب الحمامات، أو ما حدث في الثامن من الشهر نفسه في مدينة فولدابروك (Fuldabruck) حينما وُجد أيضًا صليب معقوف على أكتافك بيع الماء. لقد احتلت بالفعل أنماط كهذه من الكتابة على الجدران - والتي قام بها بالتأكيد شبان هائجون - صفحة كاملة من الصحيفة، والأهم أنها تقدّم دليلًا على كراهية اليهود في ألمانيا.

لقد غدت اتهامات كهذه في كراهية اليهود في السنوات الأخيرة تُلقن بالمسلمين من الذين لجأوا من الشرق الأوسط - كسورية مثلاً - إلى ألمانيا، كما لو أن هذا البلد بحاجة إلى استيراد معاداة السامية. وهذه الحقيقة تغير الاستياء بالنسبة إليّ، لأنني أعرف كيف تسامح العالم العربي، وعلى مدى العصور - من شمال أفريقيا حتى البلقان وفي الشرق الأوسط ومصر - مع اليهود وكيف كانوا يحترمونه، هذا فضلًا عن استقباله في القرن الخامس عشر اليهود الذين فروا من إسبانيا. لذلك، فإنني أعتبر الأمر يجسّد الزيت والجحود بعينه في إلصاق تهمة معاداة السامية "الحديثة" بالعالم العربي.

أرجو أن يتسع صدر القارئ العربي لقراءة كتابي، وكلي أمل أن يستخلص الدروس الصحيحة منه.

أبراهيم مكسر

I

كيف أصبحت يهوديًا في ألمانيا

كان والدائي من الناجين في حفة حكم الرايخ الثالث في ألمانيا. لكن، لم تكن نجاتهما من النازيين لأنهما أقلما في أحد معسكرات الاعتقال النازية، بل على عكس كثيرين من أبناء جيلهما الذين كانوا يعانون كعبيد للنازيين هناك، عاشا في الاتحاد السوفياتي حُرِّين، بصرف النظر عن المدى الذي يمكن الحديث به عن الحرية هناك. وصحيح أن حياتهما في هذا البلد اتسمت بالفقر والتعاسة، حيث لم يكن يُرسل إليهما شيء مما يمكن أن يقتاتا به، بيد أنه في المقابل لم يوجد من يرغب في حرفهما أو تسميتهما بالفار. لقد عملا وتسلَّوا وتدبرا أمر معيشتهم، حتى يفرقت غير جيدة أحيانا. فذات مرة، مثلاً، قصد والدي أحد المشافي في سمرقند بسبب إصابته بحرارة عالية نتيجة الملاريا؛ وتمكَّن إذاك من إقناع طبيب يهودي هناك بمعالجته، ولم تكن موافقة الطبيب على ذلك إلا بسبب قناعته أن والدي سيعوت فلا شك في الأيام اللاحقة. أخيره والذي رقاً على هذه القناعة: "إنك على حق يا دكتور، ولكن أفضل الموت على أحد أسرة المشفى".

ولم يمضِ والدي، كما رفض طلب الطبيب اليهودي إخلاء السرير حين تحسنت حالته، سراً ذلك بأن حالته تحسنت في المستشفى ولا يفكر في مغادرتها؛ وهو ما استلزم مساومة ما مع الطبيب: أن يتلقى والذي كل يوم نصف قطعة خبز على مدى شهر، وذلك للبقاء في قيد الحياة. وفي أي حال، التزم الطبيب هذا الاتفاق، رغم أن سلوك والذي لم يكن سوى ابتزاز.

أما أنا فقد ولدت في سمرقند، تلك المدينة المعروفة من حكايا ألف ليلة وليلة، والتي تقع على طريق الحرير في آسيا الوسطى، والمعروفة اليوم باسم جمهورية أوزبكستان. حينذاك كان "اتحاد الجمهوريات الاشتراكية

السوفييتية- الكبير لا يزال قائماً، وكان الرفيق القائد العام جوروف ستالين، الملقب بـ "شمس الشعب"، مهيّطاً وحاكماً على نحو مطلق. يمكن أن يسهب المرء في الحديث عن ستالين: فهو بلا شك دكتاتور ومرتكب مجازر وكاره للبشرية، إلا أن الحق يقال، إنه أنقذ حياة كثيرين من اليهود؛ فهو لم يسمح بالقتل المنهوج كما الحال عند هتلر، حتى لو سمح بموت مئات الآلاف في معسكرات الغولاغ⁽¹⁾.

في الحديث عن مكونات الشعب في سمرقند، فإن الأوزبكيين هم في أغليتهم من المسلمين السنة ويتكلمون اللغة الأوزبكية، بيد أن اللغة العربية كانت أيضاً شائعة ومألوفة لديهم. وقد أطلق عليّ والدائي اسم إبراهيم، تبعاً بالجد الأكبر الذي رحل منذ زمن بعيد. إلا أن جيراننا الأوزبكيين كانوا ينادوني بإبراهيم، وهو الأمر الذي شكّل لديّ أول معرفة لأوعية بالعالم الإسلامي. وبحسب ما كان والدائي يخبرني، لم يكن الناس أعداء لنا، ولا معادين للسامية، بل كانوا بسطاء وفقراء ويمتلكهم الخوف من النظام الحاكم هناك. ونظروا إلينا على أننا لاجئون بسطاء كذلك ومساكين، ولهذا كانوا يمنحون أمي، من وقت إلى آخر، الأرز والحليب والخبز لابتها الصغير إبراهيم.

أذكر، في إحدى الوقائع عن أجواء الفقر هذه، أن أبي قد تعقّب كلباً يحمل في فمه قطعة خبز كبيرة وتمكّن من انتزاعها منه، ثم أحضرها إلى البيت مفتخراً بنفسه، وحضرت والدتي الحساء منها، كل ذلك لأجلي. ولهذا كبرت دون أن أمي البؤس الذي يحيط بي، أما والدائي فكاننا سعيدين بأنني في قيد الحياة وبصحة جيدة.

حينما بلغت بالكاد الستين في عام 1947 قررت "الوكالة اليهودية"، التي كانت بمنزلة الحكومة المؤقتة في فلسطين قبل التأسيس الرسمي لدولة إسرائيل، إحضار اليهود إلى الغرب ثم أخيراً إلى إسرائيل؛ وهؤلاء اليهود كانوا قد هربوا من الحكم النازي إلى الاتحاد السوفييتي حيث أقاموا خلف

(1) غولاغ (Gulag)، اسم أطلق على معسكرات الاعتقال السوفييتية. (المترجمة)

الستار الحديد^(٢٧). كان هذا العمل بإحضار اليهود يتم سرية ويسمى بالعبرية "Habrich" (أي اللجوء) وقد نظّمه أشهر من ناتان (1921-2014) الذي سيصبح لاحقاً أول سفير لإسرائيل لدى جمهورية ألمانيا الاتحادية وفي الطريق إلى أوروبا مررنا بكثير من المدن المدمرة، من بينها مدينة فرونسواف، تلك المدينة التي ولدت فيها زوجتي وكانت قد دُمّرت تدميرًا كاملاً تقريباً في الحرب. وفي الواقع، حينما أفكر في صور هذه المدينة المدمرة، التي خالفتني الحظ أن أراها مرة أخرى لاحقاً، تتأبني فكرة أن فرونسواف لم تكن تُعثل قطعة جغرافية ثابتة بل مكاناً معشداً في كل الأصقاع: مكاناً يجري فيه قصف البشر وقتلهم، ويجتر الناس على معادرة قراعم وبيوتهم. فكرة كهذه تفودني إلى التفكير في أن فرونسواف يمكن أن تكون غرة وكل القرى التي أجبر ساكنوها على الرحيل، هذا فضلاً عن تفكيري كذلك في إسرائيل، دولتي، التي تزعم إلى اليوم أن الفلسطينيين وحلوا عن مداهم "طوعاً". بالتأكيد يحوي التاريخ البشري كثيراً من قصص الشعوب التي هُجرت من بلادها، إلا أن تاريخنا المأساوي لا يمنحنا الحق ولا لدولة إسرائيل بمصادرة الأراضي وتدمير المنازل وإقتلاع أشجار الزيتون التي زرعها أجيال عديدة ورعتها، وذلك من أجل إيجاد موطن ليهود العالم فحسب. ومن يفعل ذلك فإنه يستهزئ بالمحرقة، ذلك أن العكس هو الصحيح. أقول هذا الكلام باعتباري ابن عائلة لاجئة، فأنا في نهاية الأمر كنت لاجئاً أيضاً.

في ولاية شتايرمارك في النمسا كان علينا الانتظار وتحمل عناء البقاء في مخيمات "النازحين"، إلى حين خدث فلسطين في أيدٍ يهودية وإلى أن تُقرر الوكالة اليهودية أمور الهجرة. أمضت مدة سنة تقريباً في مخيم في أدمونت، وهو مكان ليس بعيداً من مدينة غراتس، وفي هذا المكان ولد أخي نسيقي سيمون. وقد عمل أبي في إدارة المخيم وكان مسؤولاً عن المهرجة الأسبوعية التي كانت

(٢٧) نصير "الستار الحديد" هو يشير إلى سياسة العزل التي انتهجها الاتحاد السوفياتي الذي منع العرب الدخول إلى البلاد، إذ أقام حواجز صارمة عزلت البلاد ودول أوروبا الشرقية عن بقية العالم. (المترجمة)

تصدو باللغة اليديشية اليهودية⁽¹⁾: *Admoner Hapir* ". بالطبع لا يمكنني في هذه الأثناء تذكر كل أمر، إلا أن ذاكرتي بدأت مع مغادرتنا المخيم باتجاه فلسطين، على أمل أن تتغير البلاد إلى حين وصولنا إلى إسرائيل. أبحرنا على ظهر سفينة متهالكة عبر مدينة تريستي إلى الشواطئ الفلسطينية، حيث مدخل ميناء حيفا كان ذلك في 10 و11 أيار/مايو 1948. وقد وجب علينا الانتظار لمدة ثلاثة أو أربعة أيام خارج الميناء لحين مرور الأسطول الإنكليزي المزدحم بالجنود البريطانيين التابعين للملك جورج السادس الذين غادروا "منطقة الانتداب" بعد حكم دام 28 عامًا.

الوصول إلى إسرائيل

لقد تأسست الدولة اليهودية، وكنتُ في تلك الأثناء مع عائلتي على متن السفينة الأولى التي سُمح لها بالدخول إلى ميناء حيفا الذي غدا الآن "يهوديًا". بالطبع، لم أكن أعلم حينذاك أن هذا الميناء كان ميناءً عربيًا فلسطينيًا. وقد خصصت لنا الحكومة منزلًا لنقيم فيه وكان، بالطبع أيضًا، عربيًا وفي منطقة كانت في السابق عربية بالكامل. حينما دخلنا المنزل، بعد تهجير أهله العرب على يد القوات الإسرائيلية، وجدنا هناك الطاولة التي تركتها العائلة المالكة على عجل بسبب فرارها، وعليها الطعام الذي لم يؤكل موضوعًا. وقد استغفنا من كل ما احتواه منزلهم من أدوات، حيث إننا لم نكن نملك أي شيء، فلي نهاية الأمر نحن لاجئون، وقد فقدنا كل شيء. كان والداي يفران عن صيفهما عندما يفكران في مصير هؤلاء اللاجئين العرب.

لم أعر هذا الأمر اهتمامًا حينذاك بسبب صغر سني. دخلت المدرسة الابتدائية التي كانت في السابق أيضًا مدرسة عربية، بيد أن ما من أحد أخبرنا

(1) لغة يهود أوروبا، ويحذر عبرها إلى ألف سنة، ويحفظ فيه لغات مختلفة منها الآرامية والألمانية والإيطالية والعربية والعبرية ولغات أوروبا الشرقية. يتحدثها ما يقرب ثلاثة ملايين شخص في العالم، أغلبهم من اليهود الأشكناز. (المترجمة)

(2) نخفي الخريطة تخفيًا مبرصوع الجاني من اليهود الروس، واسمها الكامل *Admoner Hapir* - *der yidische tsaytung* (المترجمة)

هذه لأن الحديث به كان من المحرمات التي يُمنع التكلم بها، وكان العرب لم يكونوا هنا البتة. وقد بقي في حيفا وجود العرب فلسطينيين يقيمون فيها، لم يرحلوا عنها لأسباب أجهلها. ربما لم يتمكنوا من الوصول إلى سبيعة ثقافتهم إلى لبنان أو عرة، أو لعلهم لم يرغبوا في الرحيل عن وطنهم أو ربما بقوا هناك بسبب رفض أحد العناصر المساعدين، لاعتبارات أخلاقية، أوامر الحين الإسرائيلي المشكل حديثاً والتابع لسر غوريون، بالتطهير العرقي؟ في أي حال، كانت تصدر أوامر كهذه.

في بعض الأحيان كما مرأ بالاطفال العرب حين مراقبتهم، ويجب أن أعترف بأنا للأسف كنا نحمل لهم الاحتضار والكرهية. كنا نعي أهمية العنصرية "Arabs" "sollen nur noch da sein" (عربي قديم، سن، برني له) وبلاحظ أن هذه الجملة في بناتها النشوي الأصلي مُقفاة، وفي أي حال، ثم أكرر أنني متعاضداً. لقد تعلمنا في المدارس أن هؤلاء الناس أعداؤنا، لذا يجب علينا احتضارهم وكرههم، على الرغم من أنهم لم يقوموا بأنّي عملي بسمي "إلبا" من هنا كانت بتملك الخوف من الزيادة المساحق التي يقفها العرب. إلا أنه يمكن أن يخطئ أحد من العرب طريقه فيقصد المنطقة "اليهودية" ويدخلها بهدف شراء المراكه والحظير، أو ربما كانت تملكه الرعة في أن يلقى نظرة فحسب على مرأه الذي كان يسكنه قبل طرده منه.

في 2 حزيران/يونيو 1948 كتب أول رئيس وزراء لإسرائيل دافيد بن غوريون إلى رئيس بلدية حيفا اليهودي أنا حوشي (Abba Hushi) رسالة تتعلق بالفصل البريطاني في حيفا في ذلك الوقت سيريل ماريوت (Cyriel Marriot) معادها: "أسمع أن السيد ماريوت يهتد بإعادة العرب إلى حيفا، لا أعرف كيف يبدو هذا الأمر عند السيد ماريوت، ولكننا لسنا مهتمين بإعادة العدو إلى حين انتهاء الحرب. وعلى المؤسسات كافة أن تعمل بموجب ذلك". بعد نهاية العرب أصبحت هذه العودة أمراً غير مرغوب فيه إلى حد بعيد، حتى لا يتمكن أحد من المهجرين من استرداد مرأه. والحال أن قيام دولة إسرائيل قد لزال فلسطين ومعها أثرها. وكل شعافية، كتبه بن غوريون في عام 1948 إلى ابنه رسالة يقول فيها: "قربنا لن نكون فلاديين على مواجهة العالم".

انتقلنا بعد سنوات قليلة إلى منطقة أفضل وكانت يهودية بأكملها، وهنا لم يكن بمقدور أي فلسطيني أن يحطن طريقه ويقترب منها، وفي الحقيقة لم يحصل هذا البث. لقد كانت المنطقة إحدى ضواحي حيفا التي يسودها اللون "الأبيض" تماما، حتى اليهود السفارديون (السفارديم) لم يسلخوا طريقهم وبدخلوا هذه المنطقة؛ هؤلاء السفارديون الذين ينحدرون من دول عربية وكانوا بالنسبة إلينا يبدون مثل العرب. إنهم لم يقرّبوا منطقتنا ليس بسبب أنه لا يوجد من يحثون عنهم في منطقتنا، سواء أكانوا أقارب أم معارف يستكون هناك بل في الحقيقة لأن المنطقة كانت تمثل مجتمعا نخوياً، خالص اليهودية، يشبه الغيتو.

لم أعطني يهودي ولنا في إسرائيل، فما وعيته هو أنني كنت إسرائيلية، وأكثر من ذلك ذهنت بعد سنوات عدة حينما استلمت الهوية الشخصية الإسرائيلية واكتشفت تسجيلي على أنني أعمل الجنسية "اليهودية". وفي الحقيقة، اكتشفت لاحقا بعد استلام جواز السفر أنه يجري في إسرائيل التفريق بين الجنسية (Nationalität) والمواطنة (Staatsbürgerschaft). أما المواطنة لدي فكانت إسرائيلية، في حين أن جنسيتي كانت يهودية. وعلى الرغم من أن أبي لم يكن متدينا، بل اشتراكيا، قلنا نعرفنا إلى الأعياد اليهودية، أما زيارة الكنيس اليهودي وطقوسه فقد بقيت غريبة عنا. وكان عيد الفصح هو المحبوب لدي، خصوصا اليوم الأول عند الاحتمال بـ "السفر" (Seder)⁽¹⁾. وكان ما تقوم به والدتي من التحضيرات اللازمة له كل سنة من أعذب الأشياء بالنسبة إلي، وإلى يومنا هذا أشعر بروحة طعم طبق كنادلأخ (Knedlach)، وهو عبارة عن كرات من العجين توضع ضمن نوع من الحساء مع مكونات أخرى. وعموما، فقد نشأت وترعرعت شخصا حرا ليست لديه عقدة نقص وكنت فخورا بأني إسرائيلي وفخور بكل الأشياء المرتبطة بإسرائيل.

(1) كثير من العائلات اليهودية تحتفل في مساء عيد الفصح بأسرة سفر. تتراشد عدة حروب لعب إسرائيل من مصر، ويكون هذا مصحوبا بالثناء والصلوات والأكل.

في المدرسة الصهيونية

كانت صفوفها المدرسية مختلطة، نتعلم فيها سوية ذكورا وإناثا، ويُسمح لنا بالتنجس عن طافلتنا ضمن منطعات شبيهة عسكرية كان تعدادها كبيرا حيث إن كل حزب من الأحزاب الكثيرة في إسرائيل امتلك تنظيمه الشبهي الخاص الذي يؤثر سياسيا في مسيرة هذه الأحزاب. كنت عضوا في إحدى الحركات الشبابية الاشتراكية الصهيونية التي تسمى بالعبرية "Hamachane Hashod" [معسكرات المهاجرين] والتي كانت تسمى لبناء مجتمع عادل ومتساو في الحقوق وترغب في العيش بسلام مع حيرانها. أسست هذه الحركة في عام 1926¹⁶. وفي الواقع، كانت المدرسة صارمة من جهة، ومن جهة أخرى تقدم لنا حياة مليئة بالمغامرات كما في مغامرات توم سوير، ولم ننقصنا إلا مشاهد نهر الميسيسيبي. وهذا يذكرني بلفاتي أخذ العنود الأمريكيتين الإيميلين السود، الذي قدم إلى إسرائيل في بداية عام 1950 مقعنا لرغبة الذهاب إلى نهر الأردن، ولم يكن يعرف أنه نهر صغير جدًا حتى إن عرضه لا يزيد عن 5 - 10 أمتار ولا يجري فيه سوى القليل من الماء. أصيب الرجل بخيبة أمل وكانت الدهشة تملو وجهه حينما وقف على الشاطئ، ذلك أنه نشأ وترعرع على ضفاف الميسيسيبي واعتقد باعتباره مسيحيًا أن نهر الأردن يجب أن يكون أعظم وأقوى بكثير من نهر الميسيسيبي¹⁷ لقد اتساع الضحك سبب هذا.

التحقّت بالمدرسة الابتدائية في ضاحية من ضواحي حيفا، وحظيت بمنحة لمتابعة الدراسة في مدرسة ثانوية بعد أن اجتازت الامتحانات النهائية. إلا أنني لم أتمكن من الحصول على هذا الاستحقاق بسبب قرار والذي المودة إلى ألمانيا، التي عاش فيها إلى عام 1933. القرار هذا كان صادفًا لامي: فقد فقدت عائلتها كلها في معسكر أوشفيتز النازي، الأخوات الخمس والأخ، مع والديها

(16) لقد هذه الحركة أول تفتح شامي تأسس في إسرائيل، وحظّل بالعنود الصهيونية والاشتمالية (الترجمة)

(17) ضيف هذا سبب د لهر الأردن من أهمية هبة في الكتاب المقدس، خاصة شار معمودية يسوع التي ذكرت في الإنجيل عند قام يوحنا المعمدان تصبغ المسيح في نهر الأردن (الترجمة)

وجديها، فضلاً عن العداوات والأعداء وأبنائهم، لا بل تقريباً كل أقرانها. ومن هنا رغبت في البقاء في إسرائيل، بيد أن قرار والدي كان حاسماً ولا يمكن العدول عنه، فهو يود العودة إلى الأدب الألماني والكتب الألمانية واللغة الألمانية، على الرغم من أن لغته العبرية كانت أفضل بكثير من لغة والدي. ويمكنني إلى الآن تذكر تلك الأحاديث المسائية التي كانت تجري بينهما بسبب هذا. والحال أن كل تلك النقاشات لم تساعد في العدول عن القرار. لقد حررنا أمتعتنا كلها في صندوق كبير وشحننا إلى ألمانيا، [أي] إلى كولونيا.

في الحقيقة، ما اكتشفته لاحقاً، أن والدي ما كان يشعر بالراحة قط في إسرائيل، وهذا ما استنتجته من قرائتي مذكراته التي كتبها بواسطة الآلة الكاتبة إيريكسا (Linka-Schreibmaschine)، فكل ما في إسرائيل ذكره بالفترة قبل سيطرة النازيين على الحكم: من مظاهر حدة صعود القومية، إلى الرابات الكثيرة المنتشرة، إلى الطاعة العمياء وانتشار بروفاغندا أن العالم كله يكره اليهود. من هنا استنكر أبي مشاركتي في تلك الحركة الشبانية شبه العسكرية، حيث كان يهمس أحياناً: "شبيهة هتلر أيضاً لا يختلفون عنها". لهذا كان من الطبيعي معارضة إسرائيل مباشرة حينما صنعت له الفرصة.

من إسرائيلي إلى يهودي في ألمانيا

كنت أبلغ الثالثة عشرة من العمر حينذاك واعتبرت هذه الرحلة إلى ألمانيا أشبه بمغامرة: من عبور البحر المتوسط والوصول إلى جنوة، ثم ركوب القطار عبر جبال الألب، ثم الاستراحة القصيرة في سويسرا وإفانتا لدى أقاربنا في بارل وأخيراً الوصول إلى كولونيا. منذ وصولي إلى كولونيا الألمانية والتحاقفي بالمدرسة هناك، أصبحت فجأة يهودياً وما عدت إسرائيليّاً، من دون أن تملكني الرغبة في أن أعي ذلك. فجأة بدأت أعيش حياة أخرى، ولقدمت في الصف الجديد في المدرسة على أنني أراهم القادم من إسرائيل، إلا أنني في الحقيقة كنت أشعر بأنني أراهم اليهودي.

هنا أذكر في هذه البداية ما حدث معي. ما إن دخلت الصف وحلست

وكانت حينئذ حصة التاريخ، حتى سألتني الأستاذة: "نحن نتحدث عن حرب الثلاثين عامًا يا أبراهام، هل يمكنك إخباري كم استمرت؟"

كان جوابي: "من عام 1618 إلى عام 1648". صدم الأستاذ شرودر - هذا كان اسمه - من إجابتي، ولم أفهم بعدها ما تلعثم فيه. ومنذ تلك الحادثة وهو يتعامل معي بحذر شديد على عكس الطلاب الآخرين، كما أنه لم يجرؤ على صفعي البتة، بالنسبة إلي كانت حقبة الصفح غريبة وروحية لأنني لم أعرف حقبة كهذه في إسرائيل. لقد ضبط هذا الأستاذ مرة أحد الطلاب وقد ارتكب خطأ ما وسأله بطريقة فظة: "هل أصبت من قبل بالتهاب الأذن الوسطى؟"، فأجاب الطالب: "لا"، لكن قبل أن يخلق الطالب فمه تلقى صفعة قوية، سُمع صوت الصفعة بقوة، وغدا لون خد الطالب أحمر مثل راية الاتحاد السوفياتي، وتفرقت الدموع في عينيه، لكن لم يكن أحد يجرؤ على البكاء في هذه الأجواء.

شعرت منذ البداية بأنني جسم غريب في هذا الصف؛ فلأن اليهودي الوحيد في ذلك الصف الذي كان متقسماً دينياً بين الكاثوليك والبروتستانت. وكان كلما زاد وعيي بأنني اليهودي الوحيد غدوت يهودياً أكثر. لقد كنت أشارك في المحاضرات الدراسية الدينية، مرة مع الطلاب الكاثوليك ومرة أخرى مع الطلاب البروتستانت. وقد حدث مرة أنني كنت أشارك في حصة مع الطلاب الكاثوليك عندما أتاني أحد زملائي من صف البروتستانت فجأة وسألني أن أتي إلى ذلك الصف بناءً على طلب الأستاذ، واتضح لي أنهم لم يتمكنوا من الإجابة عن مسألة في الكتاب المقدس، حتى الأستاذ نفسه؛ وكان هذا الطلب جراً السعة التي لصقت بي بأني معلم جيد بالمعهد القديم.

كنت أمضي أوقات بعد الظهر في تجمع خاص باليهود في شارع روك شتراسه أم راتناويلاتس (Rosenstraße am Rathausplatz). وقد كنت من الأوائل الذين شهدوا حادثة الكتابات المسيئة على الجدران الخارجية للمعبد اليهودي هناك، وُسم ودُفن مؤخرًا في عام 1959. وأظن أنها كانت أول مرة أرى فيها الصليب المعقوف [شعار النازية]. وكان هذا التجمع اليهودي، المكون بأغليته

من اليهود العائدين مرة أخرى من إسرائيل، يولي الاهتمام لرعاية الشبان الذين وجدوا أنفسهم فجأة وقد غدوا غير إسرائيليين، ولكنهم أيضًا ليسوا ألمانيين، بل أشخاص يهود فحسب في ألمانيا. أطلق علينا في إسرائيل نحن الذين نهاجر منها اسم الخارجين (Juden)، أما من وفدوا من جديد إلى إسرائيل فأطلق عليهم اسم الداخلين (Chim). وفي إطار العناية والاهتمام ببناء وظف المجتمع اليهودي أحد الطلاب الإسرائيليين وكان من المحاربين القدماء في الجيش، لمساعدتنا في كل ما نحتاج إليه، كما كان يلقنا دروسًا في الصهيونية.

لقد سافرنا مرة إلى معسكر اعتقال برغن-بلزن (Bergen-Belsen) وذلك لإحياء احتفالية تذكارية، وقد عنت لي عاطفياً الشيء الكثير. وأمضينا أوقات عطلة الفصح والصيف والعياد في إحدى المنشآت اليهودية في منطقة ياد وورنهيلم بالقرب من فمياخ في مناطق الغابة السوداء، أو فيها نفسها، وهناك تعرفنا إلى شبان [وشابات] يهود آخرين قادمين من مناطق أخرى من ألمانيا، كما التقيت كذلك فتاة يهودية قادمة من فرانكفورت ووقعت في حبها. كانت فمياخ مقصدنا للسفر دائماً في الشتاء وهناك حاولت عبثاً تعلم التزلج. وسافرنا ذات مرة مع الشباب الصهيونيين إلى سويسرا وأمضينا وقتاً في إحدى القرى القريبة من مدينة زوريخ. كانت أحداثنا تدور دوماً حول إسرائيل وحقوق اليهود في العيش هناك، وحول العرب المتعطشين إلى سفك الدماء والذين يحاولون من دون مبرر حرمان اليهود من حقهم هذا. حينذاك كان العالم بسيطاً ومنقسماً بين الخير والشر، وجرى تلقينا أننا نحن الأخيار.

من خلال هذه المحادثات كان يمكن المرء تلقس ومعرفة من أي العائلات ينحدر هؤلاء الشبان: أمم العائلات التي نجت من معسكرات الموت في لوشفيتز أو في برغن-بلزن، أم من العائلات التي نجت في المنفى من الهولوكوست؟ كان هناك بعض الشبان [والشابات] بيتنا ممن نجا أهلهم من تلك المعسكرات إلا أنهم أمضوا كل فترة صباهم في ظل الهولوكوست، ولم يتجرأوا على الحديث عن معاناتهم الخاصة لأن من السخف مقارنة بمعاناتهم بما لاقاه أهلهم من الأسى. وكيف يمكن مقارنة حزنهم بالحزن على كثير من

الذين لقوا نحيهم من معارف وأقارب، خاصة مع أفراد عائلات سعدوا إلى السماء مع دخان المحارق؟

بالنسبة إلي لم أترعرع وأنا في ظل الهولوكوست لذلك كنت مختلفاً. وبالنسبة إلى أهلي فهم لم يشهدوا المحارق أو يخبروها إلا أنهم عرفوها على الألب من قصص الناجين الذي كانوا يفضلون الصمت على أن يتكلموا على تلك القصص. وإلى اليوم نسين المحرقه قلوب كثير من هؤلاء الذين في عمر الشباب. وعندما أفكر في صديقي هنريك برودر (Henry & M. Broder) فإنني أشعر بالأسف حياله، ذلك أن ذكرى المحرقه لم توارقه قط. أما أنا فكانت أحمل ذاكرة عن طفولة سعيدة عندما كنت في إسرائيل وربما يقال عني أيضًا أنني كنت طفلًا مشاكسًا.

وعلى عكس الآخرين، فإن ثقل المحرقه بالنسبة إلى برودر وأمثاله كان شاعصًا دائمًا أمام أعينهم. في كل فرصة ملاتمة أو غير ملاتمة كان يتذكرون أن ملايين الأطفال اليهود قتلوا القذرة على اللعب والمرح.

كان أقصى ما أتساءل هو إتقان اللغة الألمانية، وقد عانيت في سبيل تحقيق هذا الهدف المنشود، وأشعر اليوم بالامتنان لوالدي الذي ساعدني على تحسينها بشكل دائم. فبعد سنوات عدة كنت قادرًا على التكلم والكتابة بالألمانية على نحو جيد إلى حد ما. لقد صاحيني يهود في محارلاتي الغضة للكتابة، وكان يتساءل عندما يقرأ نصًا جيدًا: "من كتب هذا النص؟"، وما كان ذلك إلا إشارة إلى أن نصي كان جيدًا. وهنا أتذكر أمرًا مما حصل معي، حينما أودعت بطاقة بريدية في صندوق البريد وكانت موجهة من والدي إلى أحد معارفه في هامبورج يعلمه فيها زيارته له، وقرأت ما جاء فيها وأنا في الطريق. فكنيت فخورًا بأنني استطعت فهم الرسالة رغم أنه لم يمضي علينا وقت طويل في ألمانيا، وأخبرت بعض المعارف بذلك، لكنني لم أكن أدري أن والدي لم يرغب في أن يعلم هؤلاء الأشخاص بالذات عن رحلته تلك. وكانت النتيجة غضب والدي الشديد الذي أوقعني في حيرة لأنني توقعت أن يكون فخورًا بي لأنني تمكنت من تعلم اللغة بسرعة.

ما استرعى انتباهي بسرعة في أثناء نقاشاتي مع [فتة] الشاب اليهود الآخرين هو مدى تأثير حياتهم باليهولوكوست ومعسكرات الاعتقال والإعدام الشارية، أكثر بكثير مني. ربما يعود هذا السبب إلى أن والدتي لم يعرف ذلك العالم ولم يكونا مجبرين على كتمان أمر ما عني. لقد أغبرني والدي بالتفصيل عن حادثة ترحيله إلى روسيا، أما والدتي فلم يكن لديها ما لا ترغب في الحديث عنه. لقد قُتل إخوانها في معتقل أوشفيتز، إلا أنها ذاتها لا تستطيع الحديث عن هذا المعتقل، لأنها ببساطة لم تكن هناك. وعموما لم تكن والدتي تحب ألمانيا ولا الألمان، لكن هذا لم يكن في البيت موضوعا ذا أهمية. لقد كنا نتطلع إلى الأمام بكثير من الأمل والفضول وليس إلى الوراء والعيش في الحزن والسخط.

فترة التدريب المهني في دار للنشر والخدمة العسكرية في إسرائيل

أنهيت دراستي الثانوية في مدينة كولونيا وبدأت بعدها تدريباً مهنيًا لدى دار نشر متخصصة بالأدب، هي دار ورنر (Werner) في مدينة دوسلدورف. ولم يكن هناك ما يستهويني أكثر من الكتب وما تحويه، وهو الأمر الذي أجعلني الآن - وبين الحين والآخر - كانت تتاح لي فرصة المشاركة في تصميم أغلفة بعض الكتب الشخصية. وكنت أفاخر أحيانًا بقبول بعض هذه الأغلفة وطابعها لاحقًا. وفي فترة التدريب نفسها أسست بالتعاون مع كريستيان فون تسيتغن، الذي كان هو الآخر متدرباً هناك، مجلة بوخ ماركت (Buchmarkt) [سوق الكتاب]، التي مولها المدير التنفيذي لدار نشر فرنز، ومنذ ذلك الوقت بقي كريستيان هناك وحاصر يمتلك المجلة حاليًا.

بعد أن أنهيت فترة التدريب في دوسلدورف، انتقلت إلى فرانكفورت وعملت هناك سنة كاملة تقريباً في مكتبة جامعية تدعى ملاسك وبرلمان (Blasch & Bergmann) في شارع غوته. إلى جانب هدا، كنت قد أصدرت بالتعاون مع هريك برودر في كولونيا ولاحقاً في دوسلدورف مجلة يهودية عنوانها كونتاكته (Kontakte).

في صيف عام 1967 اندلعت حرب الأيام الستة بين إسرائيل وجيرانها العرب، وانتهت بهزيمة ساحقة للدول العربية، وحينذاك كنت أبلغ الثانية والعشرين من العمر. منذ ذلك الحين شكّل الاحتلال الإسرائيلي للقدس الشرقية والقبضة العربية ومرتمعات الجولان وقطاع غزة أساساً للصراع الشرق الأوسطي الذي لا يزال بلا حل إلى يومنا هذا.

بعد ذلك انتقلت إلى العمل من مكتبة لبيع الكتب إلى دار نشر كانت تُصدّر وقتذاك مجلة أدبية ساخرة اسمها بارفون (Parfön) وأُنتِج معرفتي الحالية بإنتاج الكتب الجميلة إلى ما تعلمته سابقًا في مطبعة شتروكس (Struckm) وقد مُنحت بفضل ذلك جائزة "أجمل كتاب ألماني" عن اثنين من الكتب التي قمتُ بتصميمها. وعلى الرغم من مضي عشر سنوات على عيشي في ألمانيا، فإن الجيش الإسرائيلي لم يستني، لا بل لم تكن لديه الرغبة في ذلك. فبعد بلوغي الثامنة عشرة وأنا أنظف بانتظام رسائل من إسرائيل تطالبني بالتسجيل لدى الجيش للتجنيد. وذات مرة وصلتني رسالة تهديد بأنه سوف يجري تصنيفي هاربًا من التجنيد إذ لم تكن لدي نية العودة على الفور، وهذا يعني بأنه قد لا يُسمح لي بالسفر إلى إسرائيل مرة أخرى.

كنت أرغب في تجنب هذا الموقف لأنني كنت أحب إسرائيل حينذاك وكنت بحاجة إلى تعزيز ثقتي بنفسي من خلالها، وذلك لأتمكن من إعداد حياتي للعيش في "الشتات" (Diaspora) هنا في ألمانيا. لم يكن لدي شعور في ألمانيا بعدم الراحة، إلا أنني كنت أفتقد الحرية التي تحسنتها وأنا في إسرائيل. وكنت أظن أن بإمكانني فيها فحسب العيش لمدة سنة كاملة أشهد بها نفسي. وهكذا كنت أسافر مرة في السنة باستخدام جواز سفر ألماني إلى إسرائيل لأتسوق هواة "الحرية" ثم أعود لأمضي سنة أخرى في ألمانيا. أما اليوم، فإن كثيرًا من الإسرائيليين يفعلون عكس هذا.

سافرت إلى إسرائيل وسُجّلت اسمي لدى الجيش، وكان من واجبي المثل أمام محكمة عسكرية فيها ملازم شاب لا يكبرني سنًا. إنني أضحك اليوم عندما أستذكر هذا الأمر، فقد كان عبارة عن مهزلة. أخبرني هذا الشاب

بداية بأن هناك متخلفين آخرين مثلي إلا أنهم لم يأتوا إلى هذه اللحظة، وما دمت قد حضرت إلى هنا فإنه سوف يوجه الحديث إلي. طرح أسئلة شخصية بلغت حد سؤالي إذا ما كنت متزوجاً أم لدي صديقة، أجبته أن لدي صديقة في ألمانيا، ثم سأل: "هل هي يهودية؟"، فكان جوابي: "لا"، فكانت ردة فعله المباشرة "ليس هذا بالأمر الجيد". ثم أردف: "لا يهتم، فبالأكيد مستلغتي فتاة جديدة يهودية هنا في الجيش، إن جيشنا مشهور بأنه أكبر سوق للزواج في هذه البلاد". وكان علي لمدة ساعتين أن أحدثه عن كل شؤون حياتي في المهجر؛ وكل الحديث لم تكن له صلة بالمحكمة العسكرية. ثم سأل: "ماذا أفعل بك الآن؟ علي أن أحاكمك، هل أنت موافق على الخدمة في الجيش لمدة نصف عام ثم تتركه على نحو مشرف؟" سألته: "وماذا إن لم أوافق؟" أجاب: "لا شيء، إلا أنني يجب أن أطلق حكمة عليك". وبالنتيجة خدمت لمدة نصف عام في هذا الجيش الذي يُفترض أنه من أكثر الجيوش أخلاقية في العالم، وكنت لراغب الفوضى (الأخلاقية) أو كنت حتى أشرك فيها.

منذ اللحظة الأولى لدخولي الجيش بدأت العد العكسي توفقاً إلى اليوم الذي أعيد فيه ما تسلّمت من زي رسمي وأسلحة. وبالفعل سافرت عائداً إلى ألمانيا مباشرة بعد يوم واحد فقط من نهاية خدمتي. كنت قد تدربت خلال هذه الخدمة، ولمدة نصف عام، على الإسعافات الميدانية. ولحسن الحظ كنت أحمل وثيقة التدريب معي حينما سافرت، حيث استرعى انتباه المسؤولين في مطار فرانكفورت العدد الكبير من الخزائن الواضحة في كلا ساعدي. ففي تدريبات كهذه كنا تُقسّم إلى مجموعتين، على كل مجموعة أن تتدرب على أجساد المجموعة الأخرى. وتشمل هذه التدريبات عدداً لا نهائياً من الإبر، وحتى عمليات نقل الدم التي من عادة الطبيب بحسب القيام بها، كنا نقوم بها أيضاً. وحدث مرة أن أخفق أحد الضباط في شك الإبرة، فاندفع الدم إلى وجهه كالنافورة، فقال بهدوء وروية: "ليس هناك من مشكلة، هذه الأمور تحدث في البداية ويحتاج المرء إلى مرّتين حتى يتعلم". ومع نهاية الدورة التدريبية وفي أثناء كلمة التخرج كنا قد تحدثنا إلى رئيس طاقم الإسعاف حين جاء إلينا نخبره بأننا غير متأكدين من قدرتنا بعد هذه الأسابيع الأربعة على الإسعاف في

حالة الطوارئ الحرجة، إلا أنه أجاب: "ليس هناك من مشكلة، فرمما يموت أول شخص بين أيديكم وربما يموت الثاني، ولكن مع الشخص الثالث ستعلمون كيفية التعامل مع هذه الأمور". لقد كانت تلك آخر مرة أسمع فيها جملة: "ليس هناك من مشكلة". فقلتُ راجعاً إلى منزلي، بيد أن بعضاً من زملائي كان عليهم الالتحاق بالحرب، وبالتالي صدقت تلك الكلمات لرئيس طاقم الإسعاف؛ فقد مات في الحظيرة كثير من الجنود الجرحى بين أيديهم.

في خضم مشاكل عام 1968

عد عودتي إلى فرانكفورت، كان ثمة حالة ثمرد في دار النشر ملشر (Melzer Verlag) التي تعود إلى والدي، حيث ترك مدير الدار يورغ شرودر وأيضاً المحرر ذو التوجه اليساري فولف العمل في الدار. حتى المتدرب والسكرتيرة وأيضاً الناشر لم يكلفوا أنفسهم عناء الاستقالة على نحو نظامي والترام مهلة انتهاء مدة العقد النظامية. والحال تلك، فقد سادت في تلك الأوقات "الحركة المتعاضدة للسلطوية". كانت دار النشر إذاك في بناء مستوي منخفض الارتفاع مع مستودع واسع، في جناح جاسي لبناء معهد هاوسمان للطباعة الحجرية (Litho-Anstalt Hausmann)، كان شرودر مع بقية زملائه يعملون في هذا المستودع، الذي كان استأجره كـمستأجر ثانٍ [أي من مستأجر أصلي]، تحديداً من المستشار الضريبي لدار النشر الذي اعتقد بأنه يسدي خدمة لوالدي الذي لم يكن موجوداً حينذاك لبضعة أيام، إذا ما خفض التكاليف الثابتة. وبالطبع هكذا يفكر المحاسبون.

كانت دار النشر تصفر بالأشباح عندما وصلت إليها في آذار/مارس 1969، حيث انتقل جميع الموظفين إلى المستودع وكانت الغرف في الطابق العلوي خالية تماماً. واكتشفت عند نزولي إلى المستودع أن كل ما هو موجود - من طاولات وكراسي ومواد كتابة ومصنفات المشاريع - كانت تعود إلى دار ملشر. ورفاً على سؤالي لشرودر إذا كان حصوله على هذا المستودع نظامياً ولعن يعود، دفع فولف قلم رصاص بأذنه في اتجاهي وأجاب بأنه يعود إلى والدي، فصدمتُ إذاك ودعشت، من دون أن أتطّل بكلمة، ومن دون أن تملكني الخيرة إزاء ذلك. لم أكن أدري ماذا عليّ فعله. ثم أرسل والدي

لاحقاً إلى المستشار الضريبي الساذج والقديم الخبرة لتوضيح الموقف. إلا أن الأمر برمته انتهى بدفع شرودر مبلغ خمسين ألف مارك ألماني، وأسس هو في هذه الأثناء دار نشر خاصة به أطلق عليها اسم مارتس (MARZ). بيد أنني عرفت لاحقاً بأن الضرر الحقيقي يتدفق بمئات الآلاف من الماركات الألمانية.

لقد عمل شرودر لدى دار ملنسر منذ عام 1965، وفلم في ذلك الوقت بتطوير وتوسيع برنامج للكتاب الألمان الشبان أمثال (Dieter Hellmann)، وباسون بروك (Baron Bruck)، وبيرت خوليفيتس (Peter 'Jupp' Jupp)، وأيضاً لكتاب أميركيين أمثال جاك كرواك (Jack Kerouac) (صاحب رواية على الطريق (On the Road)). كما نشر كتاباً لفيلكتور كلمبر (Victor Klemperer) بعنوان لغة الرايخ الثالث (Lingua Terti Imperii) الذي تناول فيه لغة الرايخ الثالث [اللغة الاشتراكية حينذاك] ونشر أيضاً نصوصاً سياسية لفيديل كاسترو وتشي غيفارا لم يكن والذي يقف إلى جانب هذا النمط من المنشورات، لأن نصوصاً كهذه وكتاباً جديداً كهؤلاء، لم يكتوبوا من قائمة اهتماماته. اتفرد شرودر بدار النشر وحده، وكان أعظم نجاح حققه من خلال ترجمة رواية تاريخ أو. (Die Geschichte der O) التي بيع منها أكثر من 100.000 نسخة [للفرنسية أن ديكولو]. إلا أنه عثف الكثير من القوضى والدمار عندما ترك دار النشر على نحو مفاجئ.

كانت الأيام الأولى بعد عودتي إلى دار النشر مثيرة وهائلة. ولأسباب ما رلت أجعلها رفض بنك الاقتصاد الاشتراكي (BSG) إلغاء قرصنا المالي وبالتالي تركنا لمدة سنة كاملة ونحن في تحبُّط. بالطبع كان هذا أمراً طبعياً، ولا بد من أن يحصل. فقد كانت دار النشر في نهايتها ولا سيما أن شرودر كان قد استولى على حقوق نشر عاوين دار نشر أولمبيا برس (Olympia Press) وهي دار أميركية مختصة بالأدب الإباحي. وللمناسبة، كان هذا النمط من الأدب يتلام مع تلك المرحلة. وقد حصل شرودر إذاك على حقوق النشر الألمانية لدار نشر ملنسر، ثم قام على نحو غير قانوني بغفل العقد إلى نفسه حينما فصلت الداران عن بعضهما. وكان ترخيص دار أولمبيا برس قد حقق وقتذاك مبيعات تقدر بالملايين، فضلاً عن المبيعات التي وصلت إلى أعداد هائلة بفضل الفضل مبيع

لرواية قصة أوف. لكن للأسف، أتفق هذا المال بالسرعة نفسها التي كتبها به. لا بل خلّف وراءه عند مغادرته دار نشر ملنسر تقريبًا ديونًا تقدر بنصف مليون مارك ألماني.

وحينما سمع لنا بنك الاقتصاد التشاركي، حاولت إنقاذ دار النشر هذه. إلا أنني فلتت براماج الدار رأسًا على عقب؛ فقد نشرت كتبًا تصويرية وكتبًا عن المخدرات مثل كتاب طيخ الحشيش (Hätschisch-Kochbuch) الذي كتبه هانز غيورغ بير (Hans Georg Beyer)، والذي ما زال يُنشر من اليوم كثير من النسخ المسروقة. وعلى الصفحة الأخيرة للكتاب نشرت قائمة بالأسماء الأولى، من دون ذكر الكنيات، لأصدقاء وزملاء لي من المفترض أنهم شاركوا في تقييم نتائج العمل. وكانت دهشتي، بعد بضعة أيام من نشر الكتاب، أن جامني رحلا شرطة من قسم المخدرات في شرطة فرانكفورت؛ كانا يودان معرفة الأسماء الكاملة لهؤلاء الأصدقاء وعناوينهم. بالطبع رفضت ذلك، وأحلتنيما إلى دليل الهاتف العام وقديما، بالتالي، كما أتيا.

فتحت لي معرفتي بهانز غيورغ بير عالمًا جديدًا وغريبًا عني، عالمًا يحتوي مغامرات المخدرات التي تقود إلى الترفاناء، وثقافات مع كبار المسرحيين السابقين في ذلك الوقت كأبطال الكومونة الأولى أمثال راينر لانهائز (العارضة) أوشي أوبرماير أو مع موسيقي فرقة كرلوت روك أمون دول (Krautrockband Amon Düül) الذين كانوا يعيشون حينذاك في كومونة في شارع ليوبولد في ميونيخ. والتفتيت كذلك كبار عالم القصص التصويرية أمثال هال فوستر، المعذ في سلسلة برنيس آيزنهيرتز (Pam Fuester) [الأمير الشجاع] وأيضا الرسام اليهودي الكاويكاتوري الشهير قبل أسير، الذي حصده شهرة كبيرة من خلال سلسلته ذي سيريت (The Spirit).

قمت بنشر كتب سياسية أيضًا مثل كتاب محادثات مع جنود إسرائيليين (Gespräche mit israelischen Soldaten) الذي حرره عاموس حوز، والذي لم تكن له قيمة أدبية كبيرة حينذاك؛ أو كتاب تقرير المدرسة (Schulreport) لعضو البرلمان اللاحق ذي التوجه اليساري ديتير ديم (Dieter Dittmer) الذي انتقد فيه

انتقاداً لاذعاً سياسة التعليم. كما نشرت كتاب إضراب فعال: وثائقي عن سياسة جامعة فرانكفورت أم ماين لمدة عام (44er Stadt eine Demonstration zu Maing für eine Hochschulpolitik am Beispiel der Universität Frankfurt/Main) وقد توافقت صدوره مع أعمال الشعب الطلابية التي سيطرت على جامعة فرانكفورت في السبعينيات. وفي الحقيقة، ألفت الحركة المناهضة للسلطوية بظلالها على دار النشر، وكنت إذًا قد نشرت على الصفحة الأخيرة من هذا الكتاب، إضراب فعال، الحسابات الداخلية لدار النشر عن هذا العنوان، والتي أظهرت أننا خسرنا ما يقارب 10.000 مارك ألماني من بيع أول طبعة (30000 نسخة)، إلا أننا كنا فخورين بهذا.

شاركت في تظاهرات السبعينيات، ووافقت حينذاك يوشكا فيشر ودانييل كون بنديت، وأذكر أن فيشر كان بعد التظاهرة يأكل التفاح وهو يشدد على قضايا البروليتاريا، في حين كان كون بنديت يذهب ليأكل طعمًا صبيًا. إنني أذكر الآن ذلك النقاش الذي كان يستمر حول ما إذا كان من المسموح ليساري أن يأكل طعمًا صبيًا. بالطبع، لا يمكن تخيل هذا من وجهة نظر اليوم. وكنت أحتفل بطريقة مجتونة مع تناول أنواع مختلفة وعديدة من المخبضات ابتداء من حمض البيسرجيك (H-SB) حتى الكوكاكين، لكن بحركات متواضعة، وكان هذا يحدث في فيلا، استأجرتها دار نشر في شارع فرانكفورت أوتر، مقابل الأوست بارك [الحديقة الشرقية] حيث أسكن في الطابق الثاني. حتى إنني أذكر كذلك أن الكاتب غرهارد تسويرتس (Gerhard Twerntz) قد دُعي للغاية عند قدومه إلني وأنا في حالة شكر، حيث لم يتحيل أنني تناولت جرعات مخدرة.

أما الحادثة الثانية الجديرة بالذكر فهي أحد الاحتفالات التي وصفتها الكاتبة إيفا ديمسكي بإسهاب في إحدى رواياتها السافرة. فقد أثناني صديقي هاري روفولت، الذي تعرفت إليه منذ فترة تدريسي المهني، وأخذ مني صديقتي. وقد كان عليّ في الواقع أخذها في اليوم التالي من شفته. بالها من معامرات!

كانت حياتنا فعلاً في تلك الأيام مليئة بالمتع والمغامرات، فقد استمتعنا بالثورة الجنسية وحركة الهييز [شعارها Flower-Power-Bewegung، وتظاهرها ضد دار نشر أكسل شبرنغر (Axel-Springer-Verlag) وضد الحرب على فيتنام،

وظالتنا مقاطعة نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا (لم تكن إسرائيل وقتذاك بعد موضوعاً للنقاش) وكنا على يقين بأننا نمثل الأخيار. وقد كان هنريك برودر ينتمي حينذاك إلى صفوفنا، حتى إن دار ملتزم نشرت أول كتاب له من يخاف من البورنوغرافيا؟ (Wer hat Angst vor Pornografie?) وحلّ ضيفاً دائماً على منزلنا. كان والدي يحبه ويقدره ويقول دائماً: "ستكون له مكانة ما". لكن، للأسف، لم يعرف والدي ما سيؤول إليه هذا الرجل لاحقاً.

الحياة الأسرية والانتفاضة

مع ولادة طفلي نيامين في عام 1980 كانت فترة الشباب العاجز قد انتهت وأصبحت أميل إلى الهدوء أكثر وبدأت في ليلا على طراز فني (Liedertafel) في شارع بوخسلاخ (Buchsach) قرب فرانكفورت، بنشر الكتب أدار النشر الصغيرة التي أملكها، إضافة إلى عملاء كبار أمثال برنلمان وفيلسد أو دار نشر [الفرنسية] فوريه (Fourey). لقد كانت أموري تسير على ما يرام، إلا أن النظم المستمر في فلسطين دفعني إلى الانشغال بقوة بالصراع في الشرق الأوسط. وفي عام 1984 سافرت مع بعض الأصدقاء إلى إسرائيل لأريهم بفخر "بلدنا"، كما كنت أجادل سابقاً من وجهة نظر صهيونية خالصة وألقي باللوم بهذا التراجع على الفلسطينيين. في زيارتنا تلك مرونا بقرى عربية وشاهدنا الفيلات الفاحرة، وتأكدت أن أحوال الفلسطينيين جيدة. إلا أن هذا الهدوء المخادع كان هدوء ما قبل العاصفة الذي سيعجز. وبالفعل، فقد اندلعت الانتفاضة الأولى للفلسطينيين ضد الاحتلال في عام 1987، ومنذ ذلك الحين وأنا متشغل بهذه القضية. ويلومي بعضهم على موقعي بأنه مفرط في الخوف مع الفلسطينيين، الأمر الذي يُعدّ بمنزلة خيانة لإسرائيل ولليهودية. أسست مجلة سميت (Salam) بالتعاون مع الصحافي العبري الفريد أوزوالد ليوبتر (Oswald Lubliner) الذي يُعتبر أحد الجهابذة النادرين وقد كتب كتاباً عن شكسبير وانتقل إلى العمل مع الاستخبارات الأمريكية.

لقد أصدرت بالتعاون مع ليوبتر هذه المحلة التي جلبت لنا الغضب

والأعباء الكثيرة، فضلاً عن كثير من الأعداء والقليل من الأصدقاء. وسرعان ما وجدت المجلة طريقها بين ألفي مشترك ومشتري ووُزعت في المحطات، ولكن للأسف لم تنشر سوى القليل من الإعلانات. وكما أخبرني أحد معارفي، وكان حينذاك موظفًا بارزًا في بنك دريسدن، أن مصرفه الذي كنت أرغب منه في الحصول على موافقة للإعلان عنه قد حوّل الطلب إلى المجلس المركزي لليهود. وسأل ما إذا كان مسموحًا له الإعلان في مجلة سيبيت، فكان الجواب فورًا لا.

سجلت المجلة كهيئة صحافية رسمية، وكنت قد تلقت دعوة إلى حضور مؤتمر صحافي للمجلس المركزي اليهودي في ألمانيا في خريف 1991 بمناسبة السنة اليهودية الجديدة، وباعتباري كنت عازمًا على عدم الذهاب إلى هناك رمية الدعوة في سلة المهملات. إلا أن دهشتي الأكبر كانت عندما تلقت اتصالًا من أمانة المجلس اليهودي قبل ثلاثة أيام من موعد المؤتمر وأخبروني بلسان السيد هانتس غالينسكي أن هذه الدعوة كانت خطأ، وأنه غير مرحب بي هناك وقد لا يُسمع لي بالدخول.

بد أن هذا الاتصال كان له تأثير عكسي تمامًا: فلمت بشهيق إعلانين سميكتين من الورق المقوى، ولففتهما على شكل سندويش، بحيث يمكن حملهما على كتفي. وكُتبت عليهما بأحرف واضحة وكبيرة "أنا صحافي يهودي، وناقد للمجلس المركزي، ولم يسمح لي بالمشاركة في هذا المؤتمر الصحافي". سافرت إلى برلين مع هذه اللافتة ووقفت على الرصيف المقابل لمدخل المبنى الذي يقام فيه المؤتمر في قاعة جميع هناك، في شارع أورايبل برغر. وهذا ما استرعى طبعًا انتباه جميع الصحافيين الذين قدموا إلى المؤتمر، وحلما توجهوا نحوي وقرأوا كلماتي وسمعوا قصتي قاموا بأخذ الصور التي نُشرت في اليوم التالي في الصحف في برلين بل حتى في نيويورك وإسرائيل، وبالطبع متضمنة تعليقات ناقدة. وعمومًا، وصلت هذه الأخبار إلى قاعة المؤتمر في الداخل، وبالفعل لم يمض وقت طويل حتى خرج سكرتير المجلس طالبًا مني الدخول وحضور المؤتمر إلا أنني رفضت طلبه بكل أدب.

بعد مدة وجيزة من سقوط جدار برلين، احتدم جدل في هذه المدينة بين المجمع اليهودي القديم في غرب برلين بقيادة هابنيس غالينسكي، ومجمع الكنيس اليهودي المؤسس حديثاً هناك، [المسمى] أداس يسرويل، الذي أسس في عام 1889 كمحركة مضادة للتوجه الإصلاحى للمجمع اليهودي، وكانت الاستخبارات السرية النازية (الغيتو) قد أمرت بفكك أداس يسرويل وإدماجه في ما يسمى "رابطة يهود الرايخ في ألمانيا" التي أسسها النازيون. وفي عام 1986 أعاد أحفاد أعضاء المجمع اليهودي السابق في شرق برلين الحياة إليه مرة أخرى وألزت حكومة جمهورية ألمانيا الديمقراطية (DDR) في كاتون الأول/ ديسمبر 1989 بإعادة الحقوق السابقة إلى المجمع. كما استعادت ملكية قطعة أرض في شارع توغولسكي، وجذدت كذلك المقررة المتهاككة فيه. وفي عام 1997، بعد توحيد ألمانيا، جرى الاعتراف بالمجمع اليهودي بموجب بيان صادر عن محكمة الدولة الإدارية على أنه هيئة عامة.

بعد أن أصبحت على دراية بهذا الصراع، وجدت نفسي منخرطاً في هذه المواجهة. وأثار لدي موقف هابنيس غالينسكي، رئيس المجمع اليهودي في برلين، سخطاً كبيراً. فقد رأى أن ملكية أداس يسرويل، التي اعترف بها رسمياً مجلس شيوخ برلين، تعود إلى المجمع اليهودي، مستنداً في ذلك إلى ما ينتمي إلى الاستخبارات الألمانية حيث كل شيء هو ملك "رابطة الرايخ"، و[هكذا] فإنها إرث له كما يشعر غالينسكي. والحال أن استناد يهودي إلى إجراءات النازيين ليس أمراً غير منطقي فحسب، وإنما سخيف أيضاً. ولقد انتهى هذا الصراع أمام المحكمة مع ذلك الرئيس المستبد للمجلس المركزي لليهود في ألمانيا والذي كان في الوقت نفسه رئيس المجمع اليهودي في برلين، باعتبار المجمع ملكاً خاصاً له. وللأسف لم يُضَف إلى هذه القضية شيء، بسبب وفاة غالينسكي في 19 حزيران/ يونيو 1992 عن عمر يناهز الثمانين عاماً.

كان انحرافي في النشر يشغلني كثيراً على حساب أحاسيس الاعتراف والعواطف والروابط الأسرية. فمثلاً انهارت علاقتي بأختي التي تعيش في إسرائيل على نحو تام، لا بل حتى الصلاتنا في أعياد الميلاد حدثت نادرة. فهي

تعتبرني غائباً أو حتى أسوأ من ذلك. أما العلاقة بأخي الذي يعيش في ميونيخ فلم تنقطع كلياً لكنها أصبحت باردة. وعلى عكسي أنا، فهو يتجنب النقاشات السياسية. ساعدني هذا الأمر على فهم ما كنا نتعلمه في المدرسة في إسرائيل، كيف أن قضية دريغوس⁽¹⁾ الفرنسية قد فسحت الفرنسيين، حتى بين أفراد الأسرة الواحدة. لم يكن بمقدوري تحيّل أن أموراً كهذه تحدث بالفعل حينما كنت طفلاً أو حتى شاباً، إلا أن الأمر ذاته يحصل الآن في قضية الصراع في الشرق الأوسط: حيث قسم هذا الصراع العائلات اليهودية كما هو الأمر أيضاً في العائلات غير اليهودية.

منذ أكثر من 35 عامًا وأنا أقاتل على هذه الجبهة بكل جوارحي وبكل قوة، ولن أسمح للصهيانية الحاقدين بنشوبه وجهي الإنساني. وسوف أستمّر في الكفاح في سبيل مقصد أتى إليه الكتاب المقدس في إحدى جملته التي يعتبرها لودوي ألنبري أكثر العبارات إنسانية: "خلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه" (سفر التكوين، الأصحاح 1: 27). ولذلك يقال دائماً، وهو ما يُذكر به من خلال تكراره، أن كل البشر ومن دون استثناء، تُخلقوا على صورة الرب أو معائنين له، من دون فرق سواء كانوا يهوداً أو عرباً، أو كانوا من أصول أخرى أو أي دين آخر.

تعرفني الأول بمصطلح معاداة السامية

لم تشكل لديّ وأنا في إسرائيل أيّ فكرة عن معاداة السامية باستثناء أننا نعلمنا في المدرسة أن كل شعوب العالم كانوا يهوداً دائماً لليهود. لقد كنت إسرائيلياً وأتكلم العبرية وعضواً في إحدى المنظمات الشبابية الصهيونية؛ بلا شك لم تكن لديّ دوافع أيديولوجية لذلك، ولم يرغب والدائي في إجباري على

(1) قضية دريغوس، صراع اجتماعي وسياسي حدث في فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر، تحلته التدمير، لخدمة شخص يدعى ألفرد دريغوس، فرسي الجنسية يهودي الديانة. أثارت هذه القضية المجتمع الفرنسي بين عامي 1894 و1906 ولستة فرنسيين مؤيدو دريغوس المشهورين براءات، ومعارضوه المعتدلون أنه ملتبس. (المترجمة)

ذلك، لكل ما في الأمر أن زملائي الإسرائيليين كانوا كلهم موجودين في هذه المنظمات.

لم أبح بذاتي أنني يهودي إلا بعد أن غادرت إسرائيل في آب/ أغسطس 1958 وأُقيمت إلى ألمانيا. وما غيرت أول مرة ماذا تعني كلمة معاداة السامية، حينما نعتني أحد الطلاب في المدرسة الثانوية في كولونيا بـ "اليهودي القذر"، ولا أدري إن وعى هذا الطالب ما يقوله، فربما أخذ هذا الكلام من منزل والديه. ربما لم يكن يعرف مطلقاً من أو ماذا يعني الشخص اليهودي. إلا أن علاقتنا بعد هذه الحادثة لم تتغير وقيمت كما كانت في السابق. وإلى يومنا هذا أدعى بشكل منتظم إلى حضور لقاء زملاء المدرسة ولم أشعر البتة بأن أحدهم يرى في شخصاً مختلفاً عن باقي الرملاء. باستثناء هذه الواقعة المؤسفة، فإنه لم يحدث قط أنني قُتشت أو عوملت معاملة سيئة. ربما كان للطلاب اليهود في أماكن أخرى من ألمانيا هنا وهناك تجارب مزعجة أو محرجة أحياناً، لكن، مع ذلك، فإنني مقتنع تماماً بأن هذه الحوادث هي حالات فردية ولا تعكس الوضع في ألمانيا على الإطلاق.

المرّة الثانية التي اصطدمت فيها بما يُعرف بمعاداة السامية، والتي تركت آثارها في داخلي، كانت في ليلة عيد الميلاد ويوم العيد من عام 1959، عندما رُسم الصليب المعقوف في ليلة 24 وصباح 25 كانون الأول/ ديسمبر على الكنيس اليهودي المرمم حديثاً في مدينة كولونيا. وقد اكتشفت ذلك صباح اليوم التالي كوني أعيش فيه. وفي اليوم الذي نلّي ألقي القبض على عضوين من حزب الرايخ الألماني اليميني المتطرف، فاعتقلاً وأُلبِنا ورغم القبض على هذين الرجلين، نسلل القلق إلى الجالية اليهودية الصغيرة، وسيطرت حالة من البلبلة وعدم الهدوء. وإنه لأمر مفهوم. فاجتمعوا أمام الكنيس وأخذوا يحدقون في الصليب المعقوف بذهول وغير مصدقين.

شكّل هذا الحدث لي ولأصدقائي الإسرائيليين صدمة. وكان هناك صبي عمره ثلاثة عشر عامًا، ليس إسرائيلي الأصل لكن بدا عليه الاضطراب على سحر خاص، ويدهى هنريك برودر. ربما تركت هذه الحادثة أثرًا أعمق عنده

أكثر مما تركته في أعمالنا نحن "الإسرائيليين". لقد كنا نحن نتحدث العبرية، ولم يكن يفهم ما نقول، لذلك كان يجلس متعزلاً وحده. المكان الذي كنت أمضي فيه معظم وقتي في سنواتي الأولى في ألمانيا، أكثر من أي مكان آخر، هو في مركز للشباب تابع للمجمع اليهودي. وتواصلت كان ضيقاً مع البنات غير اليهودية باستثناء المدرسة. وكنا نتحدث بالعبرية في ما بيننا في أثناء وجودنا في مركز المجمع اليهودي. وكان لدينا مدير أو مدرب (Madrich) إسرائيلي، وهو محارب قديم في الجيش درس في كولونيا، وكان هذا التجمع اليهودي يتدبر كل ما هو في حاجة إليه، حتى في شؤون الرحلات المشتركة لكل الشباب إلى برغن-بلزن.

لقد انقطعت العلاقة بالمجمع اليهودي حينما عطلت مع برودر لإصدار مجلة في عام 1965، وبالفعل صدرت المجلة ولم تزل رضى مجلس إدارة هذا المجمع. أطلقنا على المجلة اسم كونفاكته (Konfakte) وهذا بسبب رغبتنا في الانفتاح على البنات غير اليهودية. استطعنا تمويلها من الإعلانات والشرعات، ووُذعت كذلك في المجمع اليهودية الأخرى. بالطبع كنت أنا وهنريك شخصين متعربين وكنا نتفقد كل ما يسمح به النقد، وليس لدينا خوف حتى من مهاجمة السلطات اليهودية. ومرةً وقعنا في حرج عندما كتب هنريك مقالة مثيرة للجدل ضد ناشر اسمه كارل ماركس^(٩)، وهو ناشر صحيفة يوديشه ألفمانته (Jüdische Allgemeine) وكان هذا الرجل قد توفي قبل يوم واحد من نشرنا لعدد مجلتنا.

ورغم ذلك، كان قرارنا إكمال نشر عدد المجلة، ذلك أن نقدنا لم يكن موجهاً إليه على نحو شخصي أو يتعلق بأمور شخصية، وإنما يرتبط بقضايا أساسية تتعلق بموقف اليهود تجاه ألمانيا والموقف من الحقبة النازية السابقة. وأرفقنا بالمجلة نصاً توضيحياً: "عندما تلقينا خبر وفاة كارل ماركس، كان عدد المجلة كونفاكته قد طُبع بالفعل؛ ولبست المسألة الجدالية المنشورة في هذا

(٩) دهر هذا الصحفي، كارل ماركس (1867-1946) د خلال حكم الاشتراكية القوية (النازية) وقد أحد مؤسسي الصحافة اليهودية في ألمانيا بعد عام 1945

العدد من المجلة موجهة ضد شخص بعينه، بل ضد جهاز الصحافة الممانس من خلال هذا الشخص، هذا الجهاز الذي امتد من وجهة نظرنا بأداء وظائفه لتتجاوز اختصاصه. نؤمن بأن بعض الظواهر الاجتماعية المحددة لا يتهي بالموت البيولوجي للأشخاص؛ ولهذا السبب ما زلنا نعير حاليًا كما في السابق أن هذا النص المنشور هو نصٌ راقٍ، مع هذا كله تعرضنا للفصححة، إذ التقد هنريك برودر ماركس سبب دعمه كورث كيزنغر في الانتخابات، وتبريره ذلك بأن كيزنغر "ديمقراطي بلا عيوب"، لأنه شخصٌ غير معادٍ للسامية.

مر وقت طويل منذ ذلك الحين. لكن لم يقضي يوم في السنوات الأولى من دون أن أتذكر أنني يهودي وأعيش في "بلد الجلالة". لقد كانت حياتي منذ بدأ تشغيلي بالسياسات المتعلقة بإسرائيل طبيعة وعادية. ومع مرور الزمن أخذ ابتعادي يكبر أكثر فأكثر عن المهام القومي والعنصري لليهودية، حتى عدا وراء ظهري. كنت أعظم كناشر منشور كتب الرسوم المتحركة، مثلاً كتب ديني و"الأمير الشجاع" و"تيمو الصغير"، والرسوم المتحركة الكلاسيكية، ولكن من جهة أخرى اهتممت بشر كتب سياسية اختصاصية يسارية مثل تلك التي تتناول مسائل اللاسلطوية أو القاشية في اليونان، إضافةً إلى عدد كبير من الكتب المتخصصة في اليهودية والرموز والطقوس اليهودية فضلاً عن معجم خاص بالثلثون. وأيضاً كتب نقدية لسياسة إسرائيل القومية والشوفية، وصولاً إلى نشر تقرير لجنة الأمم المتحدة تفحصي الحقائق حول المجزرة الإسرائيلية بحق السكان في قطاع غزة عام 2008/2009 والذي أطلق عليه اسم "تقرير فولدستون" وأحدث ضجة كبيرة حينذاك. تشغلت كثيراً في السنوات الأخيرة بالصراع في الشرق الأوسط. ومن دون تحطيط رأيت نفسي مجبراً أن أكون خصماً لهريك برودر الذي كان صديقي في فترة الشباب وراقبي لوقت قصير في مساري النقدي الذي لا يزال قائماً.

2

ماذا تعني معاداة السامية؟

بعد الإبادة الجماعية التي طاولت اليهود في ظل حكم هتلر، غدت معاداة السامية من القضايا المستكبرة التي يعاقب عليها القانون. وما يدعو إلى الغرابة اليوم أن أناساً، سواء أكانوا محاضرين أم قاننين على مؤتمرات ترتبط بموضوعة معاداة السامية، يتساءلون عن مصدر هذا الاصطلاح 'معاداة السامية' وبالفعل، إن لمن المدعش تجاهل عسيل الأدمغة الذي قامت به المسيحية على مدى آلاف السنين. وهنا نشير إلى أنه رغم معاداة المسيحية للسامية وما نجم عنها من معاداة عنصرية تكاد تكون غير موجودة اليوم، فإن الأحكام المسيقة والشكل الذي عاشت به معاداة اليهودية في الثقافة الغربية على مدى آلاف السنين قد تركت آثارها العميقة فيها. ولا ننسى أن أحداثاً كبرى وصغرى، مثل الحروب الصليبية وحروب الفلاحين والطاعون وما جرى إبان الحكم النازي في ألمانيا، قد دغلت مجتمعات يهودية بأكملها، ما أدى أخيراً إلى الهولوكوست، أو كما يسميها اليهود المحرقة (Shoah)، حيث قضى على ما يقرب من ثلث يهود أوروبا.

بالطبع، إن معاداة السامية ليست قضية ثابتاً غير متغير لا يخلطع للتغيير أو إنها بقيت ثابتة على مدى قرون طويلة. والحال أنها قد تبدلت كثيراً مع الوقت، ولامت نفسها كثيراً مع الاتجاهات السائدة وروح العصر والقوى السياسية الحاكمة.

يعدُّ مصطلح "معاداة السامية" حديثاً نسبياً، وقد ظهر أول مرة في منتصف القرن التاسع عشر وانتشر بسرعة بين أوساط المثقفين والأساتذة الجامعيين. حينذاك كان كثيرون من كارهي اليهود يفرزون بكل قعر بقاعاتهم، حتى أطلقوا على أنفسهم لقب معادي السامية (Antisemite). وفي الواقع لم تكن معاداة

السامية هذه سوى كراهية قديمة لليهود، حيث أُفْرِغَ هذا المصطلح من مكوّنه الديني وأُلِيسَ طابعًا "إثنيًا"، فضلًا عن دعمه لاحقًا بنظرية عنصرية مبهمة وسبّية. وفي الواقع، فإن هذا التعبير "معاداة السامية" ورد أول مرة في عام 1865 في معجم الدولة روتيك فلكيشن (Brockhaus-Wörterbuch des Staatsrechts). وليس من الصحيح نسب هذا التعبير لاحقًا إلى الصحفي الألماني فيلهلم مار (Wilhelm Marr) (1819-1904). وكان مار قد عزّف اليهود، في كتابه الشعبي انتصار اليهودية على الألمانية (Der Sieg des Judentums über das Germanentum) في عام 1879، بأنهم "غرباء شرفيون" ينسبون إلى "عرق سامي"، وقارنهم بـ "الطغليات". ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد دعا هذا المحرّض مار في العام نفسه إلى تأسيس رابطة أطلق عليها اسم رابطة معادي السامية (Antisemiten-Liga)، وحرر أيضًا كتيبات بعنوان أوداق معاداة للمسلمة (Antisemitische Hefte). ويادر الرجل هذا نفسه، إضافة إلى ذلك، في عام 1880 إلى تشكيل "حركة برلين" و"عريضة معادي السامية" التي طالب فيها مستشار الرايخ آنذاك أوتو فون سمبارك بحسب قانون المساواة القانونية المتعلق بالمواطنين اليهود في الرايخ الألماني. ومنذ ذلك الحين غدا تعبير "معاداة السامية" عمومًا يشير إلى موقف الموقفين على العريضة وأتباع مار.

لم يكن هذا المصطلح قد اكتسب شعبية بعد، حين ظهر بالفعل أول المجلدات في معاداة السامية بين عامي 1879 و1881، وبمجه نواجه أبطال كبار مثل المؤرخ هاينرش فون ترايشكه (Heinrich von Treusckke) المعروف بمعاداته للسامية ونيودور مومزن (Theodor Mommsen). وكان قد انتشر حتى بداية الحرب العالمية الأولى عدد لا يستهان به من الكتب التي أخذت تطرح ما عُرف بـ "المسألة اليهودية" والتي تخلطها بشكل واضح نزعًا إلى معاداة السامية. كما تفادى الوضع بعد الحرب العالمية الأولى بعد أن ظهر في ألمانيا ما عُرف بأسطورة "الطعن في الظهر" ("Dolchstoß"-legende)، التي ألقي فيها باللائمة على الهزيمة في الحرب على اليهود "الخائنين". أما ذروة الأدب المعادي للسامية فقد جسده أدولف هتلر في كتابه كفاحي (Mein Kampf) الذي تنبأ فيه بالفعل بكل ما سيحدث لاحقًا. وهكذا، تميزت فترة ما بين الحربين

العالميتين معاداة السامية التي أدت في نهاية المطاف إلى الهولوكوست وإبادة اليهودية في أوروبا.

وبهجة وبربرية النظام النازي غير المحدودتين انقضت معاداة السامية إلى الأبد، لا بل حتى أيضا "عداء السامية المحترم" في الطبقات الشعبية والذي كان مقبولا اجتماعيا إلى حد بعيد، أو حتى السلوك اليومي لمعاداة السامية في بيئة العمل، والتي وصفها أوغست بيل ذات مرة بـ "اشتراكية الشباب الأغبياء".

والحقيقة أن كراهية اليهود بهذا الشكل لمي كراهية قديمة جدًا، أساسها كره الكنيسة لهم؛ إذ تشكل اليهودية خصمًا لها، في حين أن المسيحية خرجت من اليهودية. وأدت غيبة أصل الكنيسة في تحول جميع اليهود إليها، وفي أن يتخلوا عن دينهم اليهودي، إلى كراهية أبدية. كانت هذه الكراهية موجهة ضد الدين اليهودي الذي كانت المسيحية تعده أكر خطر على فكرة الخلاص لديها. وهنا نشير إلى أن اليهودي كان يمكن أن يتخلص من وصمة العار التي كانت تلاصقه بأن يغير دينه ويعتق المسيحية. وهذا ما وصفه هاينرش هاينه (Heinrich Heine) بأنه "تذكرة دخول إلى الثقافة الأوروبية"، بمعنى من يعتنق من اليهود المسيحية، فإنه يضمن الدخول إلى هذه الثقافة.

لقد كان من الممكن التخلص من هذه المعاداة لليهودي بقبول العباد ليصبح مسيحيًا، واستمر هذا حتى منتصف القرن التاسع عشر. الأمر ضده يمكن قوله في ما يخص العالم الإسلامي الذي فيه أيضًا اضطهد اليهود، وباعتناقهم الإسلام كانوا بالمثل يتخلصون من ذلك الاضطهاد. ومع ظهور "الظلمة العرقية" في منتصف القرن التاسع عشر، بدأ الناس بإدانة اليهود لأسباب تتعلق بأصولهم.

نذكر هنا كلمة يهودية انتشرت تقول بأن يهوديًا اسمه "موشيه" اعتنق المسيحية وأصبح كاثوليكيًا. وبعد بضعة أسابيع تحول مرة أخرى وأصبح بروتستانتيًا، فكان يجيب أصدقائه الذين يسألونه لماذا اعتنقت البروتستانتية بعد أن اعتنقت الكاثوليكية؛ حين يسألني شخص ماذا كنت سابقًا قبل أن تتحول إلى البروتستانتية أجيب بأنني كنت كاثوليكيًا.

بلا شك، إن معاداة اليهودية هي جزء لا يتجزأ من الثقافة الغربية وتعود إلى قرون عدة، حيث شكّل اليهود لوقت طويل - ولبعض الناس حتى وقتنا الحالي - كيش فداء مثاليًا، طبعًا نقول هذا على الرغم من تحول هذه الكراهية والأفراء المتزايدين مؤخرًا ضد المسلمين.

كان أوري أفنيري، وهو أحد أشهر الكتاب والصحافيين الإسرائيليين وناشط من أجل السلام، قد نشر مرةً توبيخًا لمعاداة السامية: "يسمع الأطفال المسيحيون في كل مكان في أوروبا وأميركا في فترة مبكرة من شبابهم قصصًا من العهد الجديد، ويتعلمون أن جموع اليهود في القدس، في عهد الإمبراطورية الرومانية، كانت مغطشة إلى دم يسوع، في وقت حاول فيه الحاكم الروماني يولايوس السطري حاكمًا إيفاء حياة [ذلك] الواضع الروحاني. وبهذا يتم تصوير الحاكم الروماني على أنه إنساني ومتسامح، في حين يوصف اليهود بأنهم رعاغ خيلاء وشنيعون وغسبيون".

قد يكون هذا التفسير صحيحًا. فقد دُرِجَت العادة عند الحكام الرومان أن يقوموا بصلب المتمردين الذين يشكّلون خطرًا محتملًا، وربما لم يتفق سلوك القيادة اليهودية إزاء ذلك مع الشريعة اليهودية. غير أن العهد الجديد كُتب بعد مدة طويلة من هذه الأحداث، وكُتب بالتأكيد وعن وعي للرومان، الذين كان يتعمى المسيحيون اعتناقهم المسيحية، الأمر الذي أضر لاحقًا باليهود.

إضافةً إلى كل هذا، فقد شكّل المسيحيون في القدس اليهودية طائفةً مضطهدة ودليّة، وبقيت كراهيتهم لمضطهديهم اليهود إلى حدٍّ ما حاضرة إلى اليوم. لقد حُفرت صورة اليهود الأشمراء الذين كانوا يتوقفون إلى صليب المسيح، عميقًا في لاوعي المسيحيين، ولا نستغرب كره اليهود الذي نرى في الأجيال اللاحقة. ماذا كانت النتيجة؟ مجازر كبرى، وتهجير جماعي، ومحاكم تفتيش، واضطهاد من كل الأشكال ومذابح صدعهم، لينتهي بهم المطاف بالهولوكوست.

لقد أخذت كراهية اليهود العنصرية منذ منتصف القرن التاسع عشر بالانتشار، وبات حتى اعتناق اليهود للمسيحية لا يشكّل أيَّ ضمان للتخلص

من هذه الكراهية. والحال أنه كان بإمكانهم الهروب من هذه الكراهية بتغيير دينهم، بيد أنهم لم يستطيعوا الانسلاخ عن جلدتهم. وهكذا تحولت كراهية اليهود الدينية إلى أشكال جديدة من معاداة السامية العنصرية، وأخذت في التزايد على مدار مئة عام حتى وصلت إلى ما شهدناه في ألمانيا في ثلاثينيات القرن الماضي. لقد أدت النظرية العرقية في النهاية إلى حرمة شعاء في ظل الحضارة الحديثة، وبسببها قُتل ستة ملايين يهودي، ولماذا؟ لأنهم كانوا يهودًا فحسب.

فضلاً عن ذلك، انتشرت نظريات وأفكار فيها الكثير من الشطط بشأن ما يسمى العنصرية اليهودي. هل يمكن حقاً أن يكون من مسخرة التاريخ أن تنشأ نظريات مثل "العرق النقي" أو فكرة "العرق الآري النقي" في وسط أوروبا، الذي شهد كثيراً من ظواهر اختلاط شعوب عديدة على مدار مئات وآلاف السنين؟ في الحقيقة، أدت هذه العقيدة المجنونة إلى القتل الجماعي لملايين البشر من يهود ولعبر وروس وأوكرانيين وغيرهم باعتبارهم شعوباً ذات "قيمة وضيفة".

معاداة السامية من اليهود

لم تقتصر معاداة السامية على الأوساط المسيحية فحسب، بل كان هناك بعض من اليهود أنفسهم معادون للسامية. وبالفعل هذا ما شهدته العصور الوسطى من انتشار أمثال أولئك اليهود الذين قطعوا صلحتهم على نحو حذري بديانتهم وأصولهم وبنوا منها. فمن هؤلاء اليهودي الألماني الدوميتيكني يوهانس بغيركرون (1469-1521) الذي اعتنق المسيحية وكان من المؤيدين لحرق التلمود، وكانت شهرته قد بلغت أوجها خصوصاً بعد جدالاته في شأن درس التوراة مع عالم الإنسانيات يوهانس رويشن الذي كان من المسيحيين المختصين بالعبرية. ومع مطلع القرن العشرين برزت مصطلحات مثل "كراهية اليهود لأنفسهم" و"اليهود المعادين للسامية". وهنا نذكر في هذا السياق نشر الكاتب والفيلسوف اليهودي الألماني تيودور ليسنغ (1872-1933) من دار نشر يهودية في عام 1930 كتاباً بعنوان كراهية اليهود الذاتية (*Der jüdische*

Sothenberg). ففي هذا الكتاب، كرس لسبع الحديث لمعاصريه من المثاليين في التمازجهم في الثقافة غير اليهودية والقوميين الألمان أمثال الفيلسوف النمساوي أوتو فاينغر (1880-1903) الذي صعد إلى مرتبة كاتب مجل بعد انتحاره عن عمر يناهز الثالثة والعشرين عامًا، وأيضًا أمثال الطبيب وفيلسوف الأخلاق بول ريه (1849-1901)، فضلًا عن تناول الكاتب وابن الصناعي آرثر ترييش (1880-1927)، الذي دعم وموّل ماليًا الحرب النازي في بداياته.

في تلك الأثناء كان الانتحار قد انتشر بين اليهود، أمثال الفيلسوف النمساوي أوتو فاينغر، وذلك بسبب كراهيتهم لأنفسهم كونهم يهودًا غير قادرين على تعبير جلدتهم والتخلص منه. وبالفعل هذا ما كان يمتدّ فاينغر، أن يكون "شخصًا من العرق الآري أشقر الشعر ومعين زوقاوين"، وهذا ما لم يكن يستطيع تحقيقه رغم تعميده، إنا نقرأ بالفعل عن أوتو فاينغر في المعجم الجديد لليهودية (*Newen Lexikon der Juden*)، ذلك الرجل الذي دعا إلى "صراع الأريين ضد اليهودية".

ولم يكن فاينغر الوحيد في كل هذا، فالأحاسيس ذاتها سيطرت على الشاعر هاينرش هاب (1797-1856)، الذي عانى مساوئ الكراهية العنصرية والعرقية بحق اليهود ولم يستطع الإفلات منها رغم تعميده وتحوّله إلى المسيحية. كما أتاحت له فرصة لقاء أحد معادي السامية، وهو ريتشارد فاغنر، المؤمن بإبعاد اليهود عن الحياة الثقافية والحياة الاجتماعية لأنهم يهود فحسب. لقد أتى فاغنر في تلك السلوكيات في التعامل بالصور النمطية والمواقف من معاداة اليهودية والسامية التي سيطرت على وسطه الفكري والأدبي، وللعلم، اكتسب اصطلاح معاداة السامية "رغمًا جديدًا" في تلك الأثناء على مسامع الآخرين، ولا سيّما على شخص مثل روجيه فاغنر، كوزيما، التي اتخذت موقفًا متطرفًا في معاداة السامية. والحال أن فاغنر لم يعكس فحسب الصور النمطية لمعاداة السامية في عصره، بل طوّرها كذلك وعمّقها إلى حد بعيد في كتاباته مثل كتاب اليهودية في الموسيقى (*Das Judentum in der Musik*) وكان أيضًا لفاغنر تأثير كبير في الكاتب الإنكليزي هوستن ستبولوت تشامبرلين (Houston

S. Chamberlain الذي ألف كتابًا بعنوان أسس القرن التاسع عشر (Grundlagen des neunzehnten Jahrhunderts) وهو عمل يتشرب فيه تبجيل الألمان القوي لأفكار معادية للسامية. ليس هذا فحسب، فقد تزوج تشامبرلين في عام 1908 أيضًا ابنة فاعتر الثانية وتدعى إيدا، ويُعتبر بالفعل أحد الأصوات الأيديولوجية التي مهدت لصعود القومية الاشتراكية (النازية) المعادية للسامية. وبهذه الأفكار التي يحملها حاول تشامبرلين إعادة تفسير أعمال فاعتر بما يتوافق وفكر هذه القومية الاشتراكية. وعلى رغم الحفاوة الموسيقية التي تلقاها فاعتر إلى اليوم، فإنه يدان كذلك بسبب مواقفه وكراهيته لليهود. إلا أن ذلك لا يمنعنا من القول إن موسيقى فاعتر تُشعر المرء بالدفء والحماسة، حتى إن قائد أوركسترا برلين اليهودي الأصل أيضًا دانييل مارنويوم، يدعم إمكانية عزف موسيقى فاعتر في إسرائيل أيضًا. فهو يرى أن إحدى فضائل الديمقراطية أن تفرّق بين العمل الإبداعي في حد ذاته والشخص المبدع الذي أنتجه. فعلى الرغم من أن هذا الموسيقي فاعتر، ابن القرن التاسع عشر - والرأي لمارنويوم - قد حُرّض ضد اليهود، إلا أن موسيقاه في حد ذاتها ليست معادية للسامية.

بالطبع لا يخفى على أحد وجود مقاييس هذه الفئات المعادية للسامية في كل المجتمعات الأوروبية، إلا أنها غالبًا ما انحسرت جيدًا هناك، وما عاد الأمر كما في السابق. والحال أن أحزاب اليمين واليمين المتطرف السافقة، في فرنسا وألمانيا وهولندا، مفتنة بالأسس برامجها التي تحمل عدا للسامية زبًا آخر في سبيل تحقيق نجاحها. أما في ألمانيا فكان لا بد لحزب البديل لأجل ألمانيا (AfD) من التأي بنفسه عن الأعضاء الذين يحملون فكرًا معاديًا للسامية، حتى لو جرى ذلك على مضط.

عمومًا، ما عاد هناك في ألمانيا، كما هو الحال في كثير من الدول الأوروبية، من مكان للفكر والخطابات أو التعاملات التي تتم عن معاداة السامية. ويرى الباحثام جويل بيرغر من شتوتغارت على نحو لا يس فيه أنه لا يمكن الحديث عن معاداة السامية إلا حينما يحدث المصطهاد لليهود من الدولة. لكن، رغم هذا، فإننا نجده يستخدم هذا المصطلح كبديل أو مرادف لمعاداة

الصهيونية وانتقاد إسرائيل. وفي الحقيقة، فإن معاداة السامية، منذ الحرب العالمية الثانية، ما عادت تشكل خطراً كبيراً، وهذا رغم وجود بعض الأشخاص المتشددين ممن يشتكون بها على نحو باتس؛ غداً مثلاً الانتفاصين وناكري الهولوكوست أو ما يدعى بأخوية يوس الكاثوليكية.

عدم أكثرالي بمعادي السامية

القول إن معاداة السامية ما عاد لها مكان في ألمانيا، قولٌ يمكن التعبير عنه بحسب ما جاء في الفقرة الأولى من الدستور الألماني. إن كرامة الإنسان مصانة ولا يمكن المساس بها^{١٢} والمقصود بالإنسان هنا جميع البشر، وبالتالي أيضاً اليهود. إن ديمقراطيتنا تضمن لنا حرية التعبير عن الرأي والحق في الظاهر، كما يضمن هذا الدستور عدم السماح لأحد بتهميشنا واستبعادنا أو إهانتنا أو التشهير بنا.

وبلا شك، فإنه عندما يُعندى على أحد رجال الدين اليهود في برلين من شاب فلسطيني ما، فإن ذلك يجسد فعلاً جانباً يُعاقب عليه. بيد أن الشاب الفلسطيني، أو العرب من الدول الأخرى الذين يشاركون المعاناة والنضال مع الفلسطينيين، لا يمكن اعتبارهم نماذج عن معاداة السامية الأوروبية أو الألمانية التقليدية المعروفة. معاداة السامية هذه عرخت من الفضاء الأوروبي وصُنعت فيه وصُدرت إلى الشرق مع بداية القرن التاسع عشر. ذلك أننا نجد في أفعالهم مريباً من الدوافع السياسية مع الأحكام المسبقة تجاه اليهود ورفضهم لهم ككل.

في ظل هذا الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي يصعب وضع خطوط حمراء للتمييز بين ما يعبر عن الكراهية الفعلية لليهود أو ما يؤول إليه هذا الصراع. فما يحدث في إسرائيل فهو أمر فطيع، لا بل إنه يحدث في ظل الحكومة هناك وباسم اليهودية. وعلياً، كما هو حالى، مقاومة ذلك: فعندما نقرا خيراً في الصحافة أو نسمع في الإذاعة عن مصادرة أراضي الفلسطينيين باستخدام العنف أو القلاع المستوطنين المتعصبين أشجار الزيتون، وبقوة القوانين

الإسرائيلية التي تخدم ظلم الفلسطينيين وتذلهم، فإن علينا الاحتجاج ضد هذه الأعمال ووقفها.

لماذا لا أكثرث بمعادي السامية؟ وما هو إمكان قضائهم علي؟ بما أنني أعيش في دولة قانون، وقوانين الدولة ملزمة حمائي وحماية جميع اليهود وغير اليهود فيها بغض النظر عن الحزب الذي يصوتون له، وأي نوع موسيقى يحبونه، وأي شكل للعلاقة الجنسية يفضلونه، لهذا يصبح الخوف من معاداة السامية شيئًا مألوفًا إليّ، ووجود معادي السامية من عدمه سواء. ويؤكد ذلك كثير من فقرات الدستور الألماني. يكفيني أن أعرف بوجود هذه القوانين ووجود أجهزة للشرطة لتطبيق هذه القوانين في سبيل حمائي وحماية الآخرين. ينبغي علينا، والحال هذه، ألا تشغل بالنا بما يريد معادو السامية أو بما يفكرون فيه؛ فالتعبير عن الرأي في هذه البلاد هو حرية شخصية وكل شخص له الحق في أن يفكر كما يريد. وفي أي حال، لا يمكن أحدًا السيطرة على هذا ببساطة لأن من غير الممكن التلويح إلى أذهان البشر ومعرفة أي أفكار تحملها حتى لو كان من المقربين إليك. فكثيرون من معادي السامية يقومون بأفعال سيئة ليكشفوا بذلك عن هوياتهم. ولكن أيضًا ليس كل من يصرخ "سأقتلك" سيقتل ذلك. بعضهم يقول هذا في موقف معين وانطلاقًا من غضب عفوي، ولا تملكني الرغبة في مجالسة أي من معادي السامية أو تكوين صداقة معه أو تلقي المديح منه، كما يتعامل بذلك كثير من اليهود الرجعيين حينما يتعلق الأمر بخدمة الشأن الإسرائيلي. كما أنني مرتاح في مساباتي، لأن الناس الذين أعرفهم وأتعامل معهم هم أشخاص موثوقون ويرثون من أي شكوك.

لقد عبر، في 17 تموز/يوليو 2017، هاتر كريفز، الموظف السابق في إذاعة مقاطعة بايرن، لكونه مواطنًا مهتمًا بهذا البلد وبقائه ما يحدث، بشأن طلب كل من حزب الاتحاد الاجتماعي المسيحي (CSU) والحزب الاشتراكي الديمقراطي (أو الاجتماعي الديمقراطي) (SPD) في ميونيخ عدم إتاحة الفرصة للمنظمات المتنفذة لإسرائيل، فقال: "بلا شك علينا مكافحة معاداة السامية، إلا أن علينا حماية أنفسنا ضد تلك التطفللات في مسائل معاداة السامية والتي تم

من خلالها حماية سياسة الاحتلال الإسرائيلي المخالفة للقانون الدولي من الانتقاد المشروع. فمن يطلق على التهجير القسري الذي طاول 750,000 فلسطيني في عام 1948 صفة تطهير عرقي، فإنه شخص غير معادٍ للسامية، بل يصف حدثاً تاريخياً شديداً، أقره حتى المؤرخون الإسرائيليون. وليس كل من يدعم حملات مقاطعة إسرائيل (100%) أو بيررها (وهذا ما يفعله كثير من الإسرائيليين) هو معادٍ للسامية أو أنه يشكك في حق الوجود لإسرائيل. مثل هؤلاء لا يرفضون سيطرة سوى استخدام وسائل ما - يمكن أن يُجادل في مقاصدها وشرعيتها - لإنهاء سياسة الاحتلال الإسرائيلي المعوقة لعملية السلام. وبالتالي الذاتية التدمير (وهذه الإجراءات نجحت في جنوب أفريقيا). كما أن حملات المقاطعة غير موجهة ضد اليهود بصفتهم يهوداً بل موجهة ضد ظلم الدولة الإسرائيلية؛ هذا الظلم المتجسد في الاستحواذ على الأراضي وضربها إليها تحت ستار الدفاع عن النفس.

أخيراً: ليس مجلس المدينة أو المسؤول الثقافي أو حتى عمدة المدينة مسؤولاً عن برامج كتلك التي تقام في أمكنة في ألمانيا مثل المكتبات، والمراكز الثقافية [مثل] غاستايف أو آينه فلت هاوس، وصالات المسارح الصغيرة. كما أن الرقابة المسبقة من جانب تلك المقارنات غير مضمونة عليها في القانون الألماني. ولو كان جدعون ليفي ألمانياً واشتكى في الصحف الألمانية بعزم وشجاعة من الظلم الألماني، كما ينتقد هو الظلم الإسرائيلي في إسرائيل، لكان شبح من ميونيخ جائزة الأخوين شول (Götschewitz-Scholl-Preis). ألا يحق لإنسان شجاع وجدير بالثقة كهذا الظهور في مجتمع حضاري يعتبر نفسه ليبرالياً ومنتقداً على العالم؟ حقاً... ليس تعيش إذا؟.

3

ألفا عام على معاداة السامية

سمع على نحو متكرر مزاعم مضعونها أن معاداة السامية تعود إلى أكثر من ألفي عام. لكن هل هذا صحيح؟ يمكن أن نستدل إلى هذه الأقاويل بما كتبه أحد هواة كتابة التاريخ من أصول بولندية أرنو لوستيغر (Arno Lustiger) في جريدة فرانكفورتر ألجيمائنه تسايتونغ (Frankfurter Allgemeine Zeitung) [صحيفة فرانكفورت العامة] أنه كان هناك في "القرن الأول الميلادي سبل من الكتابات المعادية لليهود للكاتب الإسكندراني أبيون"، الأمر الذي دعاه إلى أن يطلق على أبيون اسم "بوليوس شترايغر القديم"¹¹. أبيون هذا كان مؤرخاً عاش في القرن الأول الميلادي وعرفه الأجيال اللاحقة بسبب كتاباته السجالية التي رد عليها فلافيوس يوسيفوس [أيضاً في القرن الأول الميلادي] في مخطوطة له عنونها ضد أبيون (Contra Apionem).

إن هذه المقارنة بين أبيون والنازي بوليوس شترايغر ناشر دير شتورمر (Der Stürmer) [المهاجم] تمثل غداء مرطفاً، لا بل إنها وقيل كل شيء غير تاريخية. إنها مقارنة نموذجية في محاولة لتأكيد استمرارية متخيلة ومفترضة مع العالم القديم في مسائل معاداة السامية، إلا أنها في الواقع غير موجودة وغير صحيحة. ذلك أن معاداة اليهود في عصر أبيون القديم لا يمكن مقارنتها بمعاداة السامية في العصر الحديث، وبالتالي لا يمكن أيضاً بالحقيقة النازية التي استندت إلى نظرية عرقية لم يكن لها وجود في ذلك العصر مطلقاً. علاوة على ذلك، استند أبيون بعده ذلك إلى "الطغوس الخبيثة" المزعومة لليهودية والخطيئة والاستعلاء في دينهم بكونه صاحب الحظيفة الوحيدة، كما أن قلده كان موجهاً أساساً ضد

(11) بوليوس شترايغر (1883-1944)، كان قاتلاً بارزاً وشاعرًا لصحيفة دير شتورمر المعادية لليهود. من هنا نسب لبيون الإسكندراني بوليوس شترايغر، بحجة أنه معاد لليهود (المفترضة)

فلافيوس يوسيفوس وكتابات تلك التي تتعلق بوصف التاريخ اليهودي. فضلاً عن ذلك، لم يطالب أيون على الإطلاق بإهلاك اليهود أو إبادةهم، إلا أنه ببساطة هاجم هذا الدين قسب. وقد حاول فلافيوس يوسيفوس بدوره في رده ضد أيون أن يحط من شأن الديانات الأخرى باعتبارها "أدياناً مزيفة" وباعتبار اليهودية التي يتبعها "الرؤية الحقيقية من الرب"، فضلاً عن تصويرها أنها "التقوى الحقيقية". أما الأديان الأخرى، فلم تمثل بالنسبة إليه سوى "الموضى".

يستند الخلاف الديني بنحو غير مباشر بين أيون وفلافيوس يوسيفوس بالفعل إلى العداوات القديمة الثقافية التي كانت قائمة بين اليهود والمصريين. ولأسباب تتعلق بالتراث الديني اليهودي، كانت تصورات الشعب المصري للجانب اليهودي سلبية للغاية، وهذا ما ساهم بدوره في انتشار كتابات معادية لليهود من الجانب المصري في أوساط كثير من الكتاب حينذاك. وهنا تجسدت محاولة فلافيوس يوسيفوس تنفيذ هذه الكتابات لمنع انتشارها ووصولها إلى روما.

والحال أن أجواء من الحرية الدينية سادت في العصر القديم على نطاق واسع، خصوصاً في أكبر الإمبراطوريات العربية، [أي] الإمبراطورية الرومانية، طبقاً في ظل وجود أديان كثيرة مختلفة، حيث كان يوجد كثير من الآلهة، ولكل شأن من شؤون الحياة إلهه الخاص؛ وكان بإمكان كل شخص أن يتعبد لإلهه سواء كان مصنوعاً من الخشب أو المعدن أو الرخام، طالما أنه لا يمسح عن الآخرين عبادة آلهتهم. أما اليهودية في عصر الإمبراطورية الرومانية فلم تكن سوى واحدة من الديانات العديدة المنتشرة في أرجاء الإمبراطورية.

ولم يكن المرء في روما يهتم بأمر اليهود إلا عندما يمنح هؤلاء من طاعة القيصر أو مثليه أو عن أن يمنحوا قيصراً "ما هو له"، أو عندما يقومون بتدمير معابد للآلهة الرومانية أو اليونانية؛ باختصار عندما يقومون بتهمرد. وهذا ما حدث في أثناء تمرد المكابيين⁽²⁾ في القرن الثاني قبل الميلاد ولاحقاً في حرب

(2) المكابيون: مجموعة عسكرية يهودية قامت ثواراً على حكم سورية السلوقيين ونسكت في توكوس (السلالة الحشمونية التي حكمت فلسطين 114-63 ق م) (المرحمة)

اليهود ضد الرومان التي بدأت في عام 66 بعد الميلاد وبعد أربع سنوات لاحقة انتهت بغزو القدس وتدمير المعبد اليهودي فيها.

لقد وصف فلافيوس يوسيفوس تاريخ هذه الحرب اليهودية (Bellum Judaeum). وقد كان الأمر هنا يتعلق بمحاولة اليهود التحرر من السلطة الرومانية. وفي القرن الثاني الميلادي ثمرد اليهود من جديد ثمرقا جامعا ضد الإمبراطورية الرومانية انتهت بتدمير الرومان لكامل فلسطين. وهنا نجد عاملتي المال والسلطة الدينية اللذين أذا دورا في ذلك: فلم يكن طموح الإمبراطورية نشر عقائد دينية، بل جمع خراجها من دون مشاكل. أما مسائل معاداة اليهود أو حتى معاداة السامية فلم يكن لها أي دور في تلك السياقات التاريخية.

لا بل إننا نجد اليهودية عمومًا، في ذلك الوقت، تحظى بقدر من الاحترام، حيث اعتنقها كثير من الرومان في روما القديمة، وحتى عائلات رومانية كانت تحظى بوجاهة ما. ولمدة طويلة لم يكن التحول إلى اليهودية جريمة تستوجب العقاب. لقد كان معظم الرومان، بوصفهم وثنيين، مؤمنين بتعدد الآلهة، ومتسامحين تجاه الأديان الأخرى، وبذلك كانت اليهودية أيضًا مسموحًا بها رسميًا. وقد روى لنا الكاتب السياسي الروماني الفيلسوف شيشرون في القرن الأول قبل الميلاد عن العدد الكبير من الناس الذين اعتنقوا اليهودية في روما.

سفر إستير

لا يمكن التمسك، والاحال تلك، بالمزاعم التي تقول بوجود عداوة عامة لليهود. ورغم ذلك، فإننا نسمع رواية يتناقلها اليهود في ما بينهم عبر الأجيال تقول كيف أن الوزير الأعلى هامان، وهو أعلى مسؤول في بلاط الملك الفارسي أخشويروش (486-465 ق.م.)، الذي عاش قبل أيون بزمان طويل، كانت تملكه الرغبة في إبادة اليهود. يذكر العهد القديم - في سفر إستير - كيف أنقذت الملكة إستير اليهود بمساعدة اليهودي مَرْدَخَاي. وقد قُتِبَ سفر إستير وفقًا للتراث اليهودي قرابة عام 400 ق.م. ويُعد إحدى اللفاظ الخمس

المقدمة للكتاب المقدس العبري⁽¹⁾. ويذكرنا احتفال اليوم بخلاص الشعب اليهودي من هذا الخطر. إلا أن بعضهم في وقتنا الحالي يدعي أن أول اضطهاد معادٍ للسامية ضد اليهود قد أوردته سفر إستير. إلا أننا من نظرة متفحصة وقراءة متأنية للصفحات الاثني عشرة لتلك الرواية، القصيرة نوعاً ما، التي ترد في الكتاب المقدس، نجد أن هذه القصة قد حدثت تماماً في سياق مغاير لما يُراد منها.

على العرء أن يأخذ في الحسبان أن سفر إستير قد قُسم إلى شريعة الكتاب المقدس في وقت لاحق جداً، إضافة إلى حقيقة عدم وجود دليل تاريخي يؤكد حدوث هذه القصة الخيالية، كما هو حال ندرة وجود أدلة تاريخية على القصص والأساطير التوراتية. ومن الحدير بالذكر أن كلمة "الرب" لم ترد ولو مرة واحدة في الكتاب. وفي المدارس الأسريلية يُفادون هامان بهتزر رغم أنه لم يقتل أي يهودي. وفي نهاية الأمر فقد عُلق هامان على الشجرة نفسها التي كان يرغب في أن يشتق عليها اليهودي مردخاي. ورغم ذلك أخذت هذه القصة تُنشر على أنها المثال الأعلى لكل الاضطهادات اللاحقة لليهود، ولا سيما منها الاضطهاد الذي أصاب اليهود في الحقبة النازية.

لم يكن هامان غاصباً من اليهود لذاتهم، بل من مردخاي فحسب المتفاجر بنفسه الذي لم يقدّم له الاحترام اللازم. فقرر معاقبة هذا الشخص المتعالي الذي "لا يحنو ولا يسجد له". وفي أي حال، فقد كان هامان الوزير الأول للملك حتى استمد الحق بناءً على ذلك في أن يُعامل باحترام وتيجيل. "ولأدري في عينه أن يمد يده إلى مردخاي وحده لأنهم أخبروه عن شعب مردخاي. فطلب هامان أن يُهلك جميع اليهود الذين في كل مملكة أخشويروش شعب مُردخاي"⁽²⁾. وهذا بالفعل ما ورد في سفر إستير (الأصحاح 3: 4-6).

في الحقيقة، كما أخبرنا سفر إستير، إن أي شيء من ذلك لم يحدث، بل

(1) العنايف الخمس هذه: من حكمة أسفار من كتب الحكم والأخلاق في العهد القديم. و"معلّمة" (Mishna) كلمة عبرية تعني العنايف التي يكتب عليها. "حين تُذكر الكنيسة في عبادة العزراء، فهذا عادة ما تشير إلى سفر إستير. وكتب، حيناً تُذكر في عبادة الجميع، فإنها تشير إلى العنايف الخمس." (المترجمة)

على العكس قام اليهود الناجون مذبحاً بحق الشعب العنفي وتأثروا ممجزة بحق الآلاف من الناس الأبرياء. الكتاب المقدس يخبرنا عن 75,000 قتل، بيد أن لا أحد يعرف مدى صدقية هذه الأرقام، فربما يكونون أقل أو أكثر. وهنا لا أتوي على الإطلاق مقابلة ظلم بظلم آخر. إلا أن التاريخ يسير أحياناً على نهج يختلف عما تخبرنا به الأساطير والأعباد.

ظهور المسيحية المعادية لليهودية

بدأ عهد جديد بدخول المسيحية إلى روما على يد خليفة المسيح بطرس، في الواقع كانت المسيحية يهودية مخففة، وقد تميزت بالامتثال عن الختان وكثير من المحرمات والوصايا اليهودية الصارمة. وانتشرت بسرعة كبيرة بين الطبقات الوسطى الرومانية وكذلك بين طبقة التلاء الرومان وأصبحت بذلك تشكل خطراً على الدولة الرومانية، وهو ما عرّض أتباعها للاضطهاد، فأدانهم القيصر نيرون الذي أحرق مدينة روما بالدار. ومع ذلك، نمت المسيحية وأصبح أتباعها أقوى وعددهم أكبر إلى أن أعلنت بعد ذلك في القرن الرابع دين الدولة.

لم يدم الأمر طويلاً حتى ظفرت المسيحية بالسلطة والنفوذ. وابتداء من القرن التاسع الميلادي بدأ المسيحيون بإقصاء اليهود على نحو متزايد عن أغلبية المهن، وتركوا لهم المهن المحققة منهم لحسب كتنجارة الخردة وبعض الأعمال التجارية الأخرى. وبرزوا لاحقاً عداوتهم لليهود. بأن هؤلاء أشخاص مرابون ومتفادسون عن العمل، وإبان الحروب الصليبية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وأيضاً خلال نقشي وباء الطاعون في القرن الرابع عشر ارتكبت المذابح الأولى بحق اليهود، ولاحقاً في أراضي أوروبية مختلفة، خصوصاً في ألمانيا. وعندما انتهت حروب الاسترداد الإسبانية قرابة عام 1492 بالاستيلاء على شبه الجزيرة الأيبيرية من أيدي الموريسكيين⁽⁴⁾، فرضت حينذاك محاكم التفتيش بقيادة توركيبيلدا ومن خلفوه تعبير "نقاء الدم" (limpieza

(4) مصطلح شعبي أطلق على كل سكان شمال إفريقيا من منطقة المغرب، وأندلس وجزيرة السلطنة (الترجمة)

de sangre) وهو تعبير كان يطلق فحسب على المسيحيين الذين يتحدرون من دم يهودي. ولم يعتقدوا تعميماً قسرياً من اليهود أو المسلمين، ليهؤلاء المسيحيون كانوا هم الأتقياء. وفي عام 1492 قام ملكا إسبانيا الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا بطرد اليهود الذين كانوا يعيشون هناك.

لم يكن المسيحيون الكاثوليك الوحيدين في عدائهم الموجه ضد اليهود؛ فحتى الإصلاحى مارتن لوتر قدّم في عام 1543 في مخطوطته عن اليهود وأكاذيبهم (*Von den Juden und ihren Lügen*) النصيحة للأمرء بتدمير المعابد والبيوت اليهودية التي تقع في مناطق نفوذهم. وفي القرن التاسع عشر تطوّر عداء المسيحية المبرر ضد اليهود إلى عنصرية معادية لليهود، لكن هذه العنصرية مبنية على حجج بيولوجية "علمية" مرعومة. لقد قام بالفعل من جديد معادو السامية ومعادو اليهودية باستحضار أحد طفوس ما يسمى عرية الدم (*Racialmischeligen*).⁽¹⁾ وفي أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كان المسيحيون القوميون من المعادين للسامية، أمثال حزب المسيحيون الألمان⁽²⁾ الكنسي الإنجيلي، في الحفة النازية.

عاش اليهود في القرون السبعة الأولى حتى الثامن الميلادي كما هو حال باقي الشعوب الأخرى. ولم يكن هناك من اضطهاد أو ملاحقة خاصة ضدهم؛ بل على العكس، حظي اليهود في زمن إمبراطورية شارلمان بحماية خاصة، وفضلاً عن ذلك اعتمد عليهم كوسطاء مع ممالك الشرق وأيضاً في داخل إمبراطوريتهم. والسبب وراء هذا أن هؤلاء اليهود كانت لهم صلات في كل مكان، لأن المجتمعات اليهودية من أسترادام حتى سالونيك كانت تتواصل بعضها مع بعض بالعبرية، ومن هنا كان بمقدوره أن يرسل رسائل سرية بواسطة بعضهم. فقد كان معروفاً أنه بفضل استخدام مبعوثين من اليهود لإدراكه أنه يمكن الاعتماد عليهم بسبب مهاراتهم اللغوية وعلاقاتهم بالمجتمعات اليهودية.

(1) يُطلق عليها كذلك اتهام لوتر، وهي تهمة أُطلقت على اليهود خلال فترات تاريخية متعددة عن الأسس التيهم بالصحبة بأحد مسيحيين خلال عهد الفصح اليهودي (الترجمة)

لم تهتم الكنيسة في القرون الأولى لظهورها بمحاولة غير المؤمنين وإنما كانت تسعى لاستغلالهم أو جعلهم يعتقدون المسيحية. كان يجب على غير المسيحيين، خصوصاً اليهود، أن يدفعوا لها ضرائب خاصة. ومع مرور الوقت أبعدوا عن وظائف ومهن محددة، وفي نهاية المطاف كان عليهم أن يعيشوا بعضهم مع بعض في عزلة، في غيتوات. إلا أنه لا يمكن مقارنة هذا كله بما حدث لليهود أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية، وأيضاً لسكان الإسكيمو في القطب الشمالي والسكان الأصليين في أستراليا عندما توسعت أسم أوروبا المسيحية لتصل إلى تلك الفارات. فلقد ادعوا أن هذه الأراضي مثل سهول أميركا الشمالية والأراضي العشبية وحتى الجبال الجليدية في القطب الجنوبي ملك لهم، الأمر الذي تسبب بقمع السكان الأصليين وتزويجهم عنها، هذا فضلاً عن الإبادة الممنهجة لشعوب الهيريرو^(١) في جنوب أفريقيا، لكن يجب الإشارة هنا إلى أن ممارسات كهذه لم يكن سببها الدين وإنما أسبابها تتعلق بالسيطرة على أراضي تلك الشعوب. وحتى الألمان أنفسهم كانوا يريدون لهم "مكاناً تحت الشمس" وأن يوسعوا نفوذاً إمبراطوريتهم.

هنا نشير كذلك إلى أنه في وقت أبديت فيه شعوب كاملة واخضعت، نجا اليهود في أوروبا على الرغم من كمية الحقد والكراهية ضدهم و كل أنواع الاضطهاد. لقد كانت حقبة الحروب الصليبية الأسوأ بالنسبة إليهم عندما مرت جماعات محمولة في مدن راينلاند الألمانية في الألفة اليهودية وقامت بنهب المنازل هناك واغتصاب النساء وقتل الأطفال والمسنين واضرام النار في المعابد اليهودية. مع ذلك، فقد نجت مجتمعات يهودية لألف سنة أخرى. وما حدث في وقت لاحق خلال ثورة الفلاحين ومع دعوة لوثر إلى إبادة اليهود شكّل خطراً على المجتمعات اليهودية، خصوصاً في ألمانيا. لقد هرب كثير من هؤلاء اليهود باتجاه بولندا حيث كان الملك كازيمير يحكم هناك، فاستقبلهم بحفاوة وأقنعهم بالبقاء، فتمكنوا بذلك من الاحتفاظ بلغتهم الألمانية، التي تطورت منها لاحقاً اللغة اليديشية لليهود الشرقيين.

(١) مجموعة إثنية تعيش في مناطق من أفريقيا الجنوبية. أغلبية أفرادها يعيشون في ناميبيا (المترجمة)

نقطة أخرى في سياقتنا: فعلى الرغم من تامي مستوى خطير من معاداة السامية في مولندا وفي ما بعد في روسيا، والذي أوجبه الكنيسة الأرثوذكسية، وحدثت أعمال شغب بين الحيين والآخر، فضلاً عن بعض المذابح التي سقط بسببها كثير من الضحايا اليهود، نقول إنه على الرغم من ذلك، لم تحدث إبادة كاملة لليهود قط؛ على الأقل ليس قبل ما سمي "الحل النهائي" (Endlösung) على يد النازيين. لقد عاش اليهود حتى ذلك الوقت، وعلى مر القرون، شبه استقلالية في قراهم، لا يلبسوا أغلبية سكانية في كثير من المستوطنات، ولم تُمنح ثقافتهم وديانتهم إلا حتى منتصف القرن العشرين في أثناء حملات الإبادة التي قام بها الألمان ضدهم.

اليهود في ظل حكم المسلمين

كانت أحوال اليهود في ظل الحكم العربي الإسلامي أفضل بكثير على مرّ القرون الماضية. لقد عاشوا في الأندلس مع المسلمين جنباً إلى جنب بسلام بين القرنين العاشر والخامس عشر، أي لمدة تتجاوز الخمسةة عام، إنهم اليهود الأندلسيون ويهود شمال أفريقيا الذين قاموا بترجمة كتب الفلاسفة اليونانيين والمؤلفين المسرحيين من العربية إلى اللاتينية للأحياء القادمة. وعلى الرغم من أن الموريسكيين [العرب المسلمين] شكّلوا الطبقة الحاكمة حيث شغل المسلمون الوظائف العليا، فإن اليهود والمسيحيين عاشوا بحرية وسلام. وبصرف النظر عن الأحكام الصارمة التي فُرضت على أديانهم، فقد اختلطت الثقافات بعضها ببعض: كان اليهود يتقدمون لجيرانهم المسلمين بحيز الحصّة⁽⁷⁾ ويدعونهم إلى الموائد التقليدية عشية احتفال البدر، وكان المسلمون يردون الجميل لليهود بتقديم الخبز الطازج لهم في نهاية عيد الفصح اليهودي. وعالمياً ما كان المذكور المسلمون يُختنون بيد ختان يهودي.

لقد انتهى ذلك العصر من التعايش العشر على نحو مفاجئ في عام 1492 مع القرار الذي أصدره الملوك القشتاليون في إسبانيا والذي أدى إلى

(7) خبز غير مسفر وهو خاص بعيد الفصح اليهودي. (لمترجمة)

هجرة اليهود منها. وقد طُرد معظمهم من إسبانيا مع صدور ما سمي "مرسوم الحمراء"⁽¹⁾ في عام 1492.

نص المرسوم على طرد اليهود من جميع الأقاليم الواقعة تحت حكم القشتاليين وحكم الأراغون إلى حد أقصاه 31 تموز/ يوليو من السنة نفسها، في حال عدم اعتناقهم المسيحية حتى ذلك التاريخ.

أما من بقي من اليهود فكان عليه أن يتعمد ليغدو مسيحيًا، وكل من يُضبط وهو يمارس عقيدته اليهودية سرًا كان يُضطهد ويحاكم من جانب محاكم التفتيش. ووفقًا للروايات القديمة للكنيسة الكاثوليكية فإن تسعين في المئة من اليهود المتهمين من محاكم التفتيش الكاثوليكية قد تحولوا إلى المسيحية بين عامي 1478 و1530، وكانوا منسكين بمعتقداتهم سابقًا. لقد حُكم على النصف في جميع الحالات بالموت - مثلاً 900 شخص في طليطلة وحدها - وأُعلنتهم "محكمة الإيمان" (Auto-da-fé).

يطلق اليهود على أنفسهم وعلى أحفادهم اسم السفارديين من الذين عاشوا في شبه الجزيرة الأيبيرية (الإسبانية) حتى تهجيرهم منها بين عامي 1492 و1513. وقد استوطن القسم الأكبر منهم بعد هذا التهجير في أراضي الإمبراطورية العثمانية وفي شمال أفريقيا والمغرب. وفي الواقع، تمكّن قسم كبير من اليهود الإسبان من النجاة، طبعًا على عكس المسيحيين الأرمن الذين قُتِلُوا من قراصم ومدنهم في الأناضول، على يد "حركة تركيا الفتاة" في بدايات القرن العشرين، ومات القسم الأكبر منهم من شدة الجوع في الصحراء. هكذا، بدأت اليهودية الإسبانية حياة جديدة في أنحاء كثيرة، وفي غيرها أيضًا، في شمال أفريقيا والبلقان واسطنبول والإسكندرية وسالونيك وأستردام وهامبورغ. وتجد ما يشهد لهذه الحياة إلى اليوم تلك المعابد السفاردية الرائعة في كل من أاستردام وهامبورغ واسطنبول وسالونيك والمغرب. فعلى رغم كل

(1) أصدر الملك الكاثوليكي الإسباني فربيان الثاني والملكة يريشلا الأولى مرسوم "الحمراء" في 11 تموز/أغسطس 1492 وبمصر على طرد كل يهود من مملكة إسبانيا وألجيما (البرتغالية)

الاضطهادات التي تعرضت لها اليهودية السفاردية، فإنها عاشت، لا بل إنها تشكل اليوم قوة لا يستهان بها في إسرائيل.

عموماً، عاش كثير من اليهود في الدول الإسلامية، مثل الجزائر والمغرب وتونس ومصر وتركيا وإيران والعراق ولبنان وسوريا، لقرون عديدة بسلام وحسن جوار مع المسلمين والمسيحيين على حد سواء. وحتى لو لم يتمتعوا بحقوقهم الكاملة، فإنهم كانوا مُحترَمين ومُعَظَّمين. ولم يبدأ العداء بين الجماعات إلا مع تنامي الحركات المناهضة للكتولونية وتشو الدول القومية الحديثة، التي صعدت في ظلها القوميات التركية والفارسية والعربية. ولم تكن الدول العربية وإسرائيل الناشئة حديثاً بريئة تماماً من تشوب هذا العداء. فلقد جرى تنظيم هجرة اليهود من العراق ومصر والمغرب إلى إسرائيل من جانب الموساد الإسرائيلي؛ وهذه السياسة كانت في جزء منها ضد إرادة السلطات المحلية وصد إرادة المجتمعات اليهودية المعنية. ونذكر هنا أن بعضاً من اليهود الذين هاجروا من المغرب والجزائر والعراق ومصر بالإنحاح من الصحابة إلى إسرائيل يودون اليوم العودة مرة أخرى إلى بلادهم، إذا كان ذلك ممكناً. وصحيح أنهم يتكلمون عن كراهية جيرانهم العرب لهم إلا أنهم يتحدثون أكثر عن الاحترام والتقدير اللذين تمتعوا بهما في العالم الإسلامي.

لقد أوصى النبي محمد المؤمنين أتباعه بالتعامل مع اليهود بعدل وسلام، حيث اعتبرهم أنهم "أهل كتاب". وصحيح أنه دخل في جدال مع قائل يهودية كان يفضها، إلا أن القرآن احتوى تعليمات واضحة وصريحة بشأن كيفية تعامل المسلمين مع أهل الكتاب وأتباعهم مثل اليهود والمسيحيين؛ مثلاً إعفاؤهم من الجندية مقابل دفعهم الجزية ووجوب معاملتهم باحترام وأدب. وصحيح كذلك أنه كانت تحدث على مر القرون بين الحين والآخر، في بعض الدول الإسلامية، بعض الهجمات العدوانية ضد اليهود والمسيحيين، إلا أن وضع اليهود في العالم الإسلامي كان أفضل مما لا يقارن من وضعهم في العالم المسيحي، وإلا لما كان من وجود لـ "عصر ذهبي" كان عنوانه التعايش السلمي بين المسلمين واليهود في الأندلس، ولما استقبلت الإمبراطورية العثمانية مئات

الآلاف من اليهود الذين طردوا من إسبانيا. ولا ننسى هنا أنه حتى الطبيب اليهودي المعروف الذي يُعتبر من أعظم المفكرين في عصره الحاخام موسى بن ميمون - الذي يُعرف في أوروبا المسيحية باسم Maimonides - قد ارتقى وأصبح طبيباً والمستشار الشخصي لسلطان المسلمين العظيم صلاح الدين الأيوبي. ويُقال إن نصف سكان مدينة القاهرة ساروا خلف جنازته حين وفاته في عام 1204م.

باختصار: من الممكن الإشارة بكل ثقة في عالم الأساطير إلى أن اليهود هم الشعب الأكثر اصطفاً على أرض الرب. ولم تكن جريمة الهولوكوست في بعدها الصناعي سوى جريمة فريدة من نوعها تاريخياً. والحال أن تاريخ البشرية مليء بالصفحات المظلمة من الجرائم التي ارتكبت بحق كثيرين؛ أمثال الأرمن على يد الإمبراطورية العثمانية، وما فعله ستالين بالأوكرانيين، وما ارتكب بحق الهنود الحمر في جنوب أميركا وشمالها على يد الأوروبيين البيض، وما حدث للقبائل النوتسي من جماعات الهوتو الراديكالية في رواندا.

من المؤسف أن يتشكل لدى أجيال كثيرة من اليهود وعي يرون من خلاله أنهم المصحبة الوحيدة في التاريخ. فمن جهة، يقتصر المرء اليهودي بأنه ينتمي إلى شعب مختار من الرب "من بين كل شعوب الأرض". لكن من جهة أخرى، تتشكل لديه مشاعر مسخط تجاه الرب نفسه الذي سمح لبشر في إرادتهم أن "يضطهدونا ويبيدونا جيلاً بعد جيل". والحق، وأتحدث بكل موضوعية، أنه حدث لشعوب أخرى وفي أوقات محددة أسوأ بكثير مما حدث لليهود. فمثلاً جرت إبادة الهنود الحمر في أميركا الشمالية بشكل كامل تقريباً، وإلى اليوم يعامل النحج معاملة سيئة في أوروبا. وهذا ما حدث للأقليات الدينية والقمومية على مر القرون، ولا يزال يحدث إلى اليوم بحق كثيرين، كشعب التيبب والأكرد والفلسطينيين. يحجب على الشعوب، سواء برغبتها أو من دونها، الفضال من أجل المساواة في الحقوق والحرية والاستقلال. ونأمل أن يأتي ذلك اليوم الذي يكون حاله على غير ما هو عليه اليوم بحيث تتمكن الشعوب من العيش بسلام بعضها إلى جانب بعض.

معاداة السامية العنصرية

لم تترك معاداة السامية الحديثة مجالاً لليهود لينسلخوا عن جلدتهم ولبناء هوية جديدة، حتى لو اعتنقوا المسيحية. ويمكن قراءة ذلك من خلال ما حدث في فرنسا بعد تلك القضية التي طاولت الرعيم اليهودي ألفرد دريفوس (Alfred Dreyfus) الذي أُلهم بالنجس لمصلحة الجيش الألماني ودين بتهمة الخيانة الوطنية في عام 1894. وعلى الرغم من تضاح برأيه، طُرد من الجيش بطريقة مدلة ومخزية ونُفي إلى جزيرة الشيطان الفرنسية في الكايوسي. ومن حضر الإهانة التي لحقت بهذا الشخص في باحة المدرسة العسكرية في 5 كانون الثاني/يناير 1895، الكاتب النمساوي الهنغاري الجنسية واليهودي الأصل تيودور هرتزل (Theodor Herzl). لقد قرر هرتزل أن يدافع سياسياً ويعمل من أجل شعبه بعد أن تأثر ببراسم إهانة دريفوس وشعر بأن هذين الذل والإهانة قد مثا شخصياً هو أيضاً. ومعروف عن هذا الصحفي والناشر أنه كان مؤسس الصهيونية السياسية الحديثة والمفاند الرائد الأول ومسهّد الطريق الفعلي لنشوء دولة يهودية حديثة، أصبحت في ما بعد حقيقة واقعة: دولة إسرائيل الحديثة.

نشر تيودور هرتزل في عام 1896 كتابه *الدولة اليهودية* (Der Judenstaat) الذي كتبه في ثلاثة أسابيع في ظل الأثر القوي الذي تركته قضية دريفوس في نفسه. وتقوم فكرة هذا الرجل على أنه لا يمكن إنقاذ اليهود من معاداة السامية سوى بأن تكون لهم دولة خاصة بهم. وبلا شك استغرق الأمر خمسين عامًا حتى أصبحت رؤيته حقيقة واقعة، كان في خلالها قد أيد نصف يهود أوروبا الغربية وتقرّباً معظم يهود أوروبا الشرقية.

وفي عام 1924 كتب الجندي العريف، "المحارب القديم" في الحرب العالمية الأولى، أدولف هتلر، كتاباً آخر هو *كفاحي*. وذلك حينما كان مسجوناً في منطقة لاندسبرغ أم ليش (Landsherg am Lech). وأنشأ كذلك منظمة قومية هي حزب العمال الألماني القومي الاشتراكي (NSDAP). كانت أيديولوجيا هتلر قائمة على قومية متعصبة لا تحفل بالرحمة وتستند إلى معاداة عنصرية للسامية. كان معاداة السامية هذه بدائية جداً، وحملت اليهود مسؤولية صعود

الرأسمالية، فصلًا عن الشيوعية. وصفت هتلر اليهود بأنهم جشعون ومتعصبون إلى السلطة وبأنهم لصرون الملكية الفكرية للشعوب المضطربة لهم وعلماء من الدرجة الثانية ومحتالون ومستعملون ومتعصبون من الأنظمة التي يكونون في ظلها. لقد تمثل هدفه في طرد اليهود الأوروبيين، خصوصًا اليهود الألمان، أو إبادتهم. هكذا، لم يتردد الرجل في قتل ستة ملايين يهودي بالغاز وإطلاق النار عليهم وحرقهم قبل أن يضع حدًا لحبائه في نيسان/أبريل 1945، بعد أن خسرت ألمانيا الحرب، واضطرت إلى القبول بالاستسلام غير المشروط.

ما يلفت هنا هو محاولة رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، في تشرين الأول/أكتوبر 2015 زعزعة هذه الحقائق التاريخية، عندما ألقى خطابًا أمام الجمهور في المؤتمر الصهيوني السابع والثلاثين في القدس. قاده يوفاتة وجدية أن هتلر كان يربح "مخسب" في ترحيل اليهود، إلا أن مفتي القدس محمد أمين الحسيني، الذي كان زعيمًا للفلسطينيين، هو الذي أكتفه في إنشاء رياوته لبرلين في تشرين الثاني/نوفمبر 1941 بـ "حرق" اليهود. على الرغم من أن قائد قوات الرايخ الخاصة آنذاك هاينرش هملر كان قد أمر منذ مدة طويلة بإنشاء معسكرات الاعتقال في أوشفيتز وكان أكثر من 30,000 يهودي قد قتلوا في يادي يار (Babi Yar) في أوكرانيا. غير أن نتنياهو، وبطريقة وفتحة وغيبية، يحذف الآن الحقائق التاريخية المعروفة لخدمة أجندته السياسية الحالية، حتى يسيء إلى الفلسطينيين تاريخيًا وأخلاقيًا.

مع موت هتلر ونهاية الحرب العالمية الثانية، انتهى الفصل الحديث لمعاداة السامية العنصرية. بالتأكيد قد يوجد معادون للسامية إلى اليوم، إلا أن كراهية اليهود بالنسبة إلى معظم الناجين والأجيال القادمة تُعتبر من مخططات الزمن الماضي. بيد أن هذا لم يمنع المحرصين الصهيئة، دائمًا وفي كل عام، من أن يتصيدوا أحد الأشخاص ممن يزعمون أنه معاد للسامية أو إظهار ذلك علانية؛ كما حدث في الأونة الأخيرة مع ياكوب أوغشتاين^(٩١) الذي ظهر معادًا

(٩١) صحافي وناشر مجلة دير شيفل واحد منكهيد، وهو من مؤسس الصحيفة وديريك لومشيد (الترجمة)

على قائمة المشكوك فيهم، تلك القائمة التي يجمعها سنوياً مركز سيمون فيرنثال (Simon Wiesenthal Center) في ولاية كاليفورنيا، وهنا نجد أن هذا الرجل قد عُذ من بين أخطر عشرة معادين للسامية في العالم، حتى يشعر المرء بأن تهمة معاداة السامية قد أصبحت كرفناً لا سنوياً تقوم بتنظيمه جماعة من البلهاء.

لا بكل أمثال هؤلاء من ضناع معاداة السامية من الادعاء أن أشخاصاً، أمثال هايو ماير والفرد غروسر ونوام تشومسكي وغيرهم من اليهود الذين ينتقدون دولة إسرائيل، هم "يهود كارهون لأنفسهم" أو حتى "يهود معادون للسامية". لا بل حتى الفيلسوفة حنة أرندت (1906-1992) قد أُلهمت بأنها شخصية مدفوعة ومتأثرة بنزعة كره اليهود لأنفسهم، لماذا؟ لأنها بسبب شجاعتها قُدمت بعضاً من الطروحات، في كتابها⁽¹⁾ عن معاقبة الألمان، التي لم تتناسب مع المؤسسة اليهودية. فعلى سبيل المثال تبنت أرندت طرخاً محرّجاً بأن معاداة أدولف أيخمان للسامية لم تكن عن قناعة منه، بل كان الرجل عبارة عن موظف مجتهد يسعى بكل جوارحه ليحصل على الرضى الكامل من رؤسائه. وما جعلها تمنع في التفكير هو تفاجؤها باعتراضات أيخمان في صالة المحكمة في القدس حينما قال بكل ثقة بأنه لم يكن يكره اليهود وإنما كان يؤدي واجبه فحسب، حتى إنه لم يقتل يهودياً واحداً وكان عمله مقتصرًا على نقل اليهود في القطارات إلى معسكر أوشفيتز النازي. من هنا عدم شعوره بالمسؤولية تجاه اليهود حينما جرى اقتيادهم بالقطارات. وأكدت حنة أرندت أن الأوامر لو وُجّهت إلى أيخمان بعبئة القطارات بأشخاص من الصين أو من الإسكيمو أو من البوذيين لكان بعد الأوامر كذلك. هذا ما تعبه أرندت بدقّة في القصر (Banality des Evil): ذلك القتل الوحشي الهائل والمنظم إدارياً لملايين البشر الذين لا نعرفهم ولم يكن لديك أي شيء ضدهم.

قولت حنة أرندتاحتجاج عفيف على الطرح هذا وأُلهمت بأنها تقتل من أهمية جرائم النازية ضد اليهود وتصور المجنّة على أنهم ضحايا أبرياء وغير

(10) كتاب أرندت المصنوع لها هو الألمان في القدس تقرير حول ثلاثة الشر، (Eichmann in Jerusalem: Ein Bericht von der Banalität des Bösen) (الشر جسد)

مؤذنين. وبالتأكيد لم يكن مقصدها ذلك. فقد كانت أفعال القتل تلك وحشية. حتى لو كان الفاعلون غير وحوش، فهي لم ترغب في التقليل قط من وحشية هذه الأفعال. ما أرادتته أرادت من هذا الطرح هو أن تفكر بحسب ما أن لا حاجة كبيرة إلى ارتكاب أفعال كهذه. وفي النهاية، فقد عبرت عن هذا الرأي بعيداً مما كان يحدث في إسرائيل وما زال للأسف يحدث إلى اليوم. وقد أسرت كلمة نقاعة (Barabara) في عنوان مخطوطتها، على نحو سيء: حتى إن تعبير نقاعة الشر غداً اليوم في ألمانيا شائعاً جداً.

الفيلوسامية في زمن ما بعد الحرب⁽¹¹⁾

بموجب القانون حُظرت كراهية اليهود الواضحة بعد الحرب، الأمر الذي جعل كثيرين ممن كانوا مازين قدامى أو حتى مقتنعين بمعاداتهم السامية يصمتون أو يبتعدون عن تلك الأحاديث علانية. شيئاً فشيئاً ما عاد لمثل هؤلاء المتشدين من وجود وحل محلهم في ألمانيا جيلٌ جديدٌ ميال إلى الانفتاح على العالم افتتاحتاً كاملاً، وليبراليون وديمقراطيون ومحبون للسلام. ورغم ذلك يظهر ألماناً أحياناً أن ثمة متشدين لا يزالون موجودين ولا يمكن إزالتهم.

لقد اعتُقد لوقت طويل أن معاداة السامية قد اختفت تماماً، لشهد بدلاً من ذلك موجة من الفيلوسامية والانتهاز بموسيقى كليسمر⁽¹²⁾ والحماسة الساذجة لإسرائيل. أول دولة يهودية. لكن كثيرين من اليهود يحتفرون بشدة هذه النزعة المفرطة في الفيلوسامية. فمن غير الممكن أن تنشأ علاقة طبيعية ومريحة مع اليهود، خصوصاً في ألمانيا التي كانت ولا تزال نحمل وِزر الهولوكوست كثيمة سوداء في تاريخها.

(11) يستخدم المؤلف، كما هو دارج في الألمانية وغيرها، اصطلاح *Philosemitismus* الذي يعني، من بين ما يعنيه، الحب أو التعاطف أو إعجاب شعرة لـسامية. هذا ما تعنيه لفظة *Philo* ويُستخدم بعض الأحيان كمقابل لـ«سامية» في ما يلي مستخدمة في الترجمة الصيغة المقربة «السامية الفيلوسامية». (المترجمة)

(12) مزج من الموسيقى والأغاني اليهودية للأشكناز مزيج من موسيقى شعوب هذا، وأُلك إلى شرق أوروبا ووسطها. (المترجمة)

مرة، في أحد المؤتمرات الألمانية - الإسرائيلية الذي عُقد في برلين في عام 2014، حاول معظم المشاركين الإسرائيليين هناك أن يقتربوا أكثر من هذه المزعة القبلوسامية الألمانية. في أثناء ذلك عرَّ أحد الأشخاص بقوله إن الألمان لا يرون في اليهود سوى ضحايا لا حول لهم لا يمكن المرء أن يكون شيئاً تجاههم. وهذا هو سبب الادعاءات المتكررة في ألمانيا أن إسرائيل ليست عدوانية وإنما تدافع ببساطة عن نفسها. إن القبلوسامية، وفقاً لتلك الآراء، هي جزء من الحب الذاتي في ألمانيا. هكذا، فإن الألمان يحبون اليهود ليشككوا بذلك من حب ذاتهم أيضاً، كما يعلمهم التاريخ.

في الحقيقة، ظهرت القبلوسامية في القرن التاسع عشر بالتوازي مع ظهور معاداة السامية. فقد كان التنوير الألماني في ذلك الوقت متاعباً للسامية؛ لماذا؟ لأنه كان في الأساس متاعباً للمسيحية. أخذ مثلاً كاتباً وفلاسفة أمثال غوتهولد لسينغ (1729-1781) ويوهان هرر (1744-1803)؛ فقد كان أمثال هذين من المعجبين بالعهد القديم والمحين لليهود. ولشده أنه قد وُجد ذلك الحب الرومانسي لليهودية الذي كان مليئاً بالشغف خلف يهود لهم دم حار، ذوي شعر أسود، وحتى نذكر أن بعض هؤلاء اليهود قد أدلوا بحالونات ثقافية خاصة في برلين عُدَّت من أهم أماكن اللقاءات الثقافية في تلك الحقبة الزمنية. أما ما نشهده اليوم في زعة القبلوسامية فهو باهت أو ساذج ثقافياً: إنها تفتت على مشاعر الذنب والتكفير [الألمانية]، لهذا ليس من الغريب أن يقابل المرء كثيراً من المسيحيين في الدوائر المعالية لإسرائيل وفي تظاهراتها. ولدينا مثال مسيحي على ذلك: حركة "مسيحيون من أجل إسرائيل" (وهي حركة قوية في داخل الكنائس المسيحية). فضلاً عن ذلك، فهناك أيضاً اتجاه حب إسرائيل، ولا سيما بين الإنجيليين، التيار المسيحي المحافظ. وربما يكون هذا الطابع المسيحي أحد أسباب وغوف أنجلا ميركل تقليدياً إلى جانب إسرائيل. ومن الغريب أن يواجهنا قليل من المواقف المعادية للسامية أكثر عند متقدي السياسة الإسرائيلية منه عند القبلوساميين، الذين يعتقدون أن واجبهم الدفاع عنا نحن اليهود من معادي السامية وعصوصاً الدفاع عنا من أولئك اليهود الذين لا ينتمون إلى المؤسسة الصهيونية.

يصح أن الفيلوساميين يحبون اليهود إلا أنهم، وفي المقام الأول يحبون أنفسهم، حيث تعزز لهم الفيلوسامية تقديرًا لقوتهم، وهم فخورون بأنفسهم بأنهم أناس طيبون ويشعرون بالتالي بالرغبة والإشباع الروحي الذاتي، كما أصبحت عبارات مثل: "إني لا أكره اليهود، إذا أنا إنسان طيب" متداولة ودارجة إنها عبارات تطورت كذلك إلى جمل كهذه: "إني أقرأ كيشون، إذا أنا غير معاد للسامية"⁽¹⁾ أو جمل مثل "لهم الآخرين بمعاداة السامية، إذا أنا براء منهم". ويمكن ذكر عدد لا نهائي من الممثلين هؤلاء من الجمهور الألماني. لكن لا ننسى: سيبقى اليهود بالنسبة إلى مناصري السامية يمثلون شئنا خاصًا جدًا.

لقد تشكل لدى كثير من الألمان بعد الحرب العالمية الثانية وعي بأنهم ألمان طيبون طالما لم يقتلوا يهوديًا واحدًا. لكن أيضًا ما داموا بصمتهم على تلك الجرائم قد سمحوا بحدوثها، فإنهم يفضلون كبت ذلك.

بالتأكيد لا يريحني وجود أشخاص بكرهوني كمجرد أني يهودي. وبالتأكيد يمكنني الدفاع عن نفسي بشكل جيد عند التعرض لمواقف فيها اعتداءات لفظية، ولكن كيف عليّ الدفاع عن نفسي أمام هؤلاء الفيلوساميين؟ وهناك مثل شعبي عندنا نحن اليهود: "لحمي الرب من أصدقائي". أما أعدائي فلنا كفيلاً بهم". وفي الواقع، فإن صداقة الأشخاص الفيلوساميين محرجة ومتعبة وغير محمودة. إني لا أرغب باعتباري يهوديًا في أن أكون مكروهاً أو محبوباً لأنني يهودي فحسب. إني أفضل معادياً صادقاً للسامية على مناصري زائف للسامية. وكما هو التعبير الجميل: "إن المناصرين للسامية [الفيلوساميين] هم أعداء للسامية، لكنهم يحبون اليهود".

(1) إشارة هنا إلى الكتاب إيزرايم كيشون *Against the Anti-Semite* الكتاب الإسرائيلي الشهير، من أصل عبري. يعتبر أحد ألحج عفاي القرن العشرين في البلاد الناطقة بالألمانية (المترجم).

عندما سيبحث المؤرخون في المستقبل في العلاقات الألمانية - اليهودية على مدى الخمسة والعشرين عامًا الماضية، سيرون في أغلب الظن عدم وجود معاداة للسامية تقريبًا، على الأقل من الجانب الرسمي أو من جانب الدولة. لا بل على العكس؛ حيث تقرّ مثلًا جميع الجهات وتؤكد، خصوصًا المعاهد الإسرائيلية واليهودية، بأن المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل تقف بحزم إلى جانب إسرائيل، إن في جميع الأحزاب السياسية، بما فيها حزب الخضر، من هم مثل هولكر بيك وكلاوديا روت يفتقون موقفًا لامباليًا أمام ما تفعله إسرائيل، ويغضون النظر عن جرائم الحرب وانتهاكات القانون الدولي وأيضًا المعاملة الشائنة لإسرائيل تجاه الفلسطينيين. ذلك أنهم يؤمنون أو ربما يأملون بأنهم يفتقون إلى الجانب الصحيح من التاريخ. ما يريدونه مثل حزب الخضر [أمن فئة] الشباب هو التكفير عن خطايا آبائهم الذين يثرون ضدهم والقيام بتصحيح أخطائهم؟ كيف؟ بصمتهم الدائم عن الأخطاء التي تقوم بها إسرائيل. وهذا ما نجده في مسعى الكنيسة الإنجيلية أيضًا للتكفير عن سلوكها. أيام الرابع الثالث، حينما وقعت بحزم وإخلاص خلف حنظر، وصمت كذلك كثير من المسيحيين الألمان البروتستانت تجاه الجرائم المرتكبة بحق اليهود، بل كانوا شركاء في ما حدث لهم. ولا يبدو الأمر مختلفًا أيضًا مع الكنيسة الكاثوليكية، التي كان لها نصيب في ارتكاب تلك الجرائم. إن سلوكيات كهذه يمكن للأسف أن نجدها عند اليساريين، أمثال شرا باور الذين يتجهجون هذه السياسة في التكفير عن الذنب إلى حد أنهم يرون أيّ انتفاذ بسيط لإسرائيل دليلًا على معاداة السامية. وهذا بالضبط ما يؤلمني عندما أرى الشكل الذي يمثل به هؤلاء السياسيون المصالح الإسرائيلية في ألمانيا.

من يريد بالفعل فهم ما تعنيه معاداة السامية الحقيقية يمكنه النظر في كثير

من الكتب التي تحدثت عن ذلك، حيث لدينا ما يكفي من الكتابات عن ذلك ومن السير الذاتية التي تحدثت في فضائها، لقد كان على الأبطال اليهود أن يختبروا، وعلى نحو مباشر يومياً قبل الحرب العالمية الثانية، ما تعنيه معاداة السامية. يكفي المرء، مثلاً، قراءة أسطر قليلة كتبها ياول سيلان في عام 1933 إلى صهته التي كانت تقيم في فلسطين، يشكو بها تألمه من الكراهية التي لا تقاوم اليهود في مدرسته والتي كانت بالنسبة إليه تحارب قاسية.

وبما أنني شخصياً أتيت إلى ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية والتحقّت بالمدرسة هناك، فلا يمكنني أن أروي عن أي تجارب سلبية، باستثناء حادث واحد مؤسف، يل على العكس من ذلك، أدعى حتى اليوم إلى لقاء زملاء المدرسة ويُرثب بي دائماً باحترام وتقدير. ولدي لقاعة كاملة بأن حالتي هذه ليست فريدة، فها عاد من وجود لكراهية اليهود، كما أن معاداة السامية بمفهومها الكلاسيكي قد انتهت مع سقوط الرايخ الثالث، لهذا فإن من السخف وعدم المسؤولية وضع أبسط انتقاد لإسرائيل على قدم المساواة مع معاداة السامية.

رغم ذلك، يمكن أن يسأل المرء عن وضع معاداة السامية في ألمانيا، ألا يزال تأثير الأساطير "السامية" في ما يخص اليهود بأنهم مضاعف دماء ومراوغون ومرايون موجوداً؟ وإذا كانت الإجابة نعم، فأني المواقف والأحداث تعكسها هذه الأساطير؟

تعلن وزارة الداخلية على نحو منتظم عن عدد الجرائم التي تتفجّر تحت مسمى "جرائم معاداة السامية". وتشمل هذه الجرائم أعمالاً عنصرية موجّهة ضد يهوديات ويهود، وحرقة متعمداً للمعابد اليهودية، وتدنيساً للمقابر اليهودية أو تخريباً لشواهدا الحجرية، فضلاً عن أعمال عنف نافذة. ومع الأخذ في الحسبان الأرقام التي تقدّمها وزارة الداخلية على الأمد الطويل، يمكن ملاحظة أن ما من اتجاه تصاعدي في الاعتداءات، وكما نجد فإنها تآرجح بين سنة وأخرى، وتتعلق معظمها بجرائم الغرض منها الترويع والحق الضرب بالمتلكات، وبجرائم تحرّيش وفتن، وأيضاً مخالفات لقانون التجمعات.

وكما عثرت وزارة الداخلية، فإن أعمال عنف مثل حالات الحرق أو التضجير التي تطاول النصب التذكارية أو المعابد اليهودية لا تجري على نحو ممنهج. وتُظهر كذلك إحصاءات الجرائم في ألمانيا أنه ليس هناك سوى جزء صغير من الجرائم ذات الدوافع السياسية تكون موجهة ضد اليهود أو المؤسسات اليهودية. كما سجلت وزارة الداخلية في عام 2012 عدد الجرائم ذات الدوافع السياسية، التي بلغ عددها 2464 جريمة، ولم يكن من بينها سوى 41 حالة صفت من ضمن جرائم "أعمال عنف معادية للسامية". وبهذا تُعبر هذه الأرقام عن مدى صالة حوادث كهذه. لكن، على الرغم من القلق الذي تسببه هذه الحوادث، والتي يجب رفضها طبعاً، فلا يمكن، والحال هذه، الحديث عن "موجة من معاداة السامية".

كذلك لا تؤرّقني نتائج الإحصاء التالي الوارد في دراسة أجرتها مؤسسة فريدرش إيسرت (عنوانها "تحول المركز")، والتي ترصد المواقف العنصرية المتطرفة في المجتمع في عام 2012 كالآتي:

- يعتقد 28 في المئة ممن شملتهم الدراسة أن اليهود قد يكون لهم تأثير كبير في العالم؛
- يجد 36 في المئة منهم أن اليهود استفادوا من الماضي ويجعلون الألمان يدفعون ثمن ذلك؛
- بينما يُعبر 61 في المئة منهم عن وجوب أن تطوى صفحة الجدل بشأن تعرض اليهود للاضطهاد.

ماذا يعني في ما تعضده نسبة 28 في المئة أو ما إذا كان هناك 61 في المئة من الناس يجدون أنه يجب وضع حدٍ للنقاش في شأن اضطهاد اليهود؟ بالنسبة إليّ، لا تعني هذه النتائج. فما بهم أننا نعيش في دولة حرة بحيث يمكن كل شخص التعبير عن أفكاره ومعتقداته وما يريد، والأهم أنني أضع تقني بدولة القانون.

الجرائم المعادية للسامية

يشير أول تقرير نشره البرلمان الألماني [البوندستاغ] في عام 2012 بشأن معاداة السامية إلى أن 90 في المئة من الجرائم المعلن عنها كجرائم معادية للسامية قد ارتكبتها جناة مرتبطون سياسيًا بفضاءات يمينية. ووفقًا للتقرير، تنتشر مواقف معادية للسامية مستمرة وتعتبر الأنموذجية في ذلك، "إلى حد بعيد" يصل إلى "مركز المجتمع". ويقدّر الخبراء والمختصون الذين عملوا في هذا التقرير أن معاداة السامية تنطبق على 20 في المئة من السكان. وما يبدو بالنسبة إليهم أنه الأخطر هو "ما يخص أفكار اليمين المتطرف في قدرة الارتباط بمعاداة السامية التي تتجاوز حدودها إلى مركز المجتمع فضلًا عما هو غير متبؤ منها على نحو كافٍ". ويُذكر التقرير بالإنترنت باعتباره الوسيلة التي تنتشر من خلالها مواقف معاداة السامية وكذلك [يستخدمها] المتطرفون اليمينيون ومتكرو الهولوكوست والإسلاميون المتطرفون الذين ينشرون دعاياتهم. كما أوصى فريق الخبراء بأنه يجب على لجنة التحري المختصة بالإنترنت والمجتمع الرقمي (Internet and digital Gesellschaft) أن تناقش ما يسمى القوالب النمطية السلبية المعادية للسامية ومحتوياتها. وبالفعل، هناك كثير من العث والنفو الذي ينتشر على الإنترنت كتحريضات هريك برودر على سبيل المثال من خلال مدونته التي عنوانها "محور الخير" (Achse des Guten) التي تهدف في المقام الأول إلى الوقوف ضد المسلمين والمعارضين السياسيين والمختلفين معه فكريًا.

بالأكيد هناك وجود لمعاداة السامية المستمرة، إلا أن السؤال الذي يُطرح هنا يتعلق باعتماد المعايير في صطلها. ما يدور إلى الشك هنا هو عندما يترك المرء سلطة تفسير (Deutungshoheit) مصطلحات كهذه لأشخاص لهم تصوراتهم الخاصة أيضًا بشأنها. ومؤخرًا نُشرت دراسة للحكومة الاتحادية الألمانية عن التطرف اليميني نُشر بولسوح الأرمية الحصة للفكر اليميني المتطرف. أما أن نسمع من أشخاص مثل برودر، ويوتا ديتفورت عن تلك الخلفيات لليمين المتطرف، فهذا ما لا يمكن أن يتوقعه المرء.

صرّح هذا الشخص [برودر] مرةً خلال جلسة الاستماع الأولى التي عقدتها

البرلمان الألماني بشأن موضوع معاداة السامية في 17 حزيران/يونيو 2008: "إن معاداة السامية ليست لها علاقة بالأحكام المسبقة بل هي مرتبطة بمشاعر الاستياء، حيث يسري "الحكم المسبق وفقاً لمسلوك شخص ما، في حين أن الاستياء يتعلق بوجود هذا الشخص، فلا ينظر معادي السامية إلى اليهودي بتحيي سلبي بسبب وضعية هذا اليهودي أو وفقاً لما يفعله، بل بسبب منه سبب وجوده في حد ذاته". إلا أن برودر نفسه يمارس هذا الاستياء ضد المسلمين ويضعهم بكل سرور على قدم المساواة مع الإسلاميين والإرهابيين ويعلن أنهم يشكلون خطراً على حضارتنا الغربية. وهناك أيضاً من يستاء من وجود السود واليهود أو البدو ويشير إليهم بازدراء على أنهم "خجر".

في الواقع إن لمن الصعب الوقوف ضد مشاعر الاستياء هذه. وحتى أنا ألاحظ بأنني شخصياً لدي مشاعر استياء أحملها بين الحين والآخر. وقد اكتشفت أنني أحمل تحفظات تجاه النساء المثليات، وأكثر من ذلك تجاه النساء اللواتي يغطيهن الحجاب تماماً. كما لدي تحفظات أيضاً على اليهود الذين يحملون نجمة داود على صدورهم وكأنها ميدالية عليهم إظهارها للناس. كما أشعر بالرغبة وعدم الارتياح مع المسيحيين الذين يطلقون الصليب حول أعناقهم.

لكن عليّ القول هنا إن ما أحمله من مشاعر كهذه ليس موجهاً ضد أشخاص بعينهم، بل ضد ارتداء الرموز الدينية. إنني أحاول تفهم هذا حينما يتعلق الأمر بأحدى النساء المهاجرات وأقع نفسي بأن لباسها مرتبط بالنفاق الذي تحملها، لكنني لا أنفهم هذا الأمر مع النساء الألمانيات اللواتي يحتشن ديناً آخر. أعلم جيداً أن هذا، وبحكم المنطق، خطأ مني، إلا أنني لا أستطيع إلا الوقوف ضد ذلك. وعموماً، فإن هذا الشعور بالاستياء الذي يصدر عني تجاه هؤلاء النساء المثليات ليس سوى شعور عابر ويحتفي مع اختلاف الحنفية من أمام ناظري.

والحال أن اختزال معاداة السامية، التي قادت إلى موت يهود كثرة، في أنها مجرد استياء لهُو أمر خطائي وخطير وسخيف. إن معاداة السامية هي عنصرية خالصة وخطرة يجب مكافحتها.

لدى الجميع مشاعر استياء أو أحكام مسبقة على الآخرين. ومعظمنا لا يلاحظها مباشرة، وقد نفوذ عند القليل منا إلى اعتداءات. إن الأشخاص الذين لديهم مشاعر استياء أو أحكام مسبقة عادة لا يشكّلون خطراً إلا أن الأمر يختلف مع مشاعر الكراهية والاحتقار، ذلك أن الكراهية هي عاطفة شديدة، كما هو أمر عاطفة الغيرة، لهذا السبب تبحث عاطفتا الغيرة والكراهية مع بعضهما عن كل ما تخلقه المعاناة. لكن يمكن الإنسان التخلص من عاطفة الكراهية. الأصعب في الحقيقة هو مشاعر الاحتقار، ذلك أنها تتميز بكونها سمة شخصية يعود سببها إلى عجز كاسمٍ في ميزة التعاطف عند الإنسان، والتعاطف هو مسألة لا يمكن الإنسان تعلمها. وأعتقد أن مشاعر الاحتقار والازدراء تؤدي إلى الخط من شأن الآخرين وتؤدي في النهاية إلى التمكن من إبادة إبادة الآخرين، سواء أكانوا يهوداً أم مسلمين أم بقواً أم من السود... أم غير هؤلاء.

قد يتساءل المرء: هل يحمل الإسرائيليون أحكاماً مسبقة متحيزة أو لديهم مشاعر استياء ضد العرب؟ الجواب: نعم، بالتأكيد لدى الإسرائيليين أحكام متحيزة مسبقة على العرب، بل وأكثر من ذلك: تملكهم مشاعر احتقار ضدهم. إن الإسرائيليين لا يكرهون العرب فحسب، بل يحذرونهم، الأمر الذي يسمح لهم، نظراً إلى مصيرهم والمقولات التي تتناول موتهم، بعدم الشعور بالذنب تجاههم.

من البدهي، والحال هذه، ألا يحب الفلسطينيون الإسرائيليين، ولا يمكنهم محبتهم، وذلك بسبب كل ما فعله اليهود وما زالوا يفعلونه إلى اليوم بحق الفلسطينيين. وغالباً ما يسمع المرء بهذا الشأن مزاعم ساذجة، مثلاً: لا يمكن أن يكون العرب معادين للسامية لأنهم هم أنفسهم ساميون. ما يجب على المرء إدراكه هنا هو أن مصطلح معاداة السامية هو مجرد اصطلاح أكاديمي يعبر في جميته عن كراهية اليهود. أما (تاريخياً) فيدلّ مصطلح الساميين على الشعوب التي كانت تتكلم اللغة السامية مثلاً العرب واليهود والآراميون وغيرهم.

العرب هم جماعة إثنية ناطقة بلغة سامية في شبه الجزيرة العربية وشمال أفريقيا، وأغليتهم أصبحوا مقيمين في البلدان العربية. واليهود أيضًا هم جماعة إثنية ناطقة بلغة سامية ومنتشرون إلى الشعب اليهودي، ورأى أنهم يمثلون جماعة ذات مصير مشترك. ليس كل اليهود إسرائيليين، وليس كل الإسرائيليين يهودًا. كان لدى كثير من الألمان أحكام مسبقة وتعامل على اليهود وقد حرصوا على تنمية ورعايتها على مدى قرون طويلة، إلا أنه، من خلال الأيديولوجيا النازية والتلاعب بمشاعر الناس من طريق البروباغندا ضد اليهود، والتي كان لها حضور في روضات الأطفال، تطورت مشاعر الاحتقار للتأثير في الألمان جعلهم يحضرون اليهود ويشتمون منهم كما يشتم المرء من الجردان، كما لو أن اليهود ليسوا بشرًا من هنا لا تفاجأ من تلك المقارنات في البروباغندا النازية التي كانت تقارن اليهود بالجرذان، الأمر الذي كانت تمكنه مشاعر الاستياء والأحكام المسبقة الجائرة عن اليهود ضمن مشاعر الاستمراء والازدراء. ولهذا السبب يمكن المرء قتلهم جماعيًا من دون تأليب ضميم، بل يمكنه أيضًا ارتكاب جرائم قتل جماعية حينما تُفتقد أي مشاعر عاطفية، مشاعر الاستياء وحدها لا تكفي لقتل ملايين الناس، فالأمر يتطلب وجود أشخاص، أمثال أدولف آيخمان، يتفنون الأوامر بهدوء وبلا تفكير، أو أقسى ما يمكن أن يسألوه هو إن كان عملهم يتم على أكمل وجه وإذا كان فعالاً.

أيضًا هناك من الفلاسفة من وقف على اصطلاح مشاعر الاستياء، مثل فريدريك نيتشه الذي يرى أن المرء الذي يحمل هذه المشاعر تجاه شخصي أو مجموعة أخرى فإنه يحمل في لاوعيه مشاعر القصور منهم. وهذا القصور هو في الأصل عبارة عن مشاعر ناتجة من الأحكام المسبقة على الآخرين، والحسد، والشعور بالدونية وما شابه ذلك.

تعتبر البيانات الرسمية في فرنسا عن جرائم معاداة السامية أدق إلى حد ما، ووفقًا لهذه البيانات نجد أنه قد سُجل في فرنسا، في النصف الأول من عام 2012، قرابة 310 حوادث مرتبطة بمعاداة السامية، من بينها 81 جريمة تُعد جرائم عنف. ونشير إحصاءات السنوات الماضية إلى أن أغلبية جرائم العنف ضد اليهود في هذا البلد تُرتكب من جانب أشخاص ذوي خلفية عربية أو

مسلمة أكثر منها من جانب أشخاص ينتمون إلى اليمين المتطرف. وفضلاً عن ذلك، تشير التقديرات غير الرسمية إلى أن نصف جرائم العنف ضد السامية يقوم بها شيان مسلمون. وهذا أمرٌ خطير نظراً إلى أن المسلمين يشكلون حوالي 8 في المئة من نسبة السكان. مع ذلك ليس لهذه الجرائم علاقة بمعاداة السامية بمعناها الكلاسيكي. وعندما يقوم ذوو خلفية عربية في ألمانيا أو فرنسا بالتعبير عن إحيائهم من اليهود فهذا أمرٌ مرتبطٌ بالصراع الدائر في الشرق الأوسط. أيضاً اليهود الفرنسيون يصطفون جزئياً بحماسة خلف إسرائيل، ولا يتردد بعضهم في إظهار كرهه للمسلمين ونفوره منهم. بيد أنهم، مع ذلك، لا يرتكبون جرائم أو أعمال عنف ضد العرب، على الأقل في فرنسا.

تشير استطلاعات الرأي في ألمانيا أيضاً إلى تزايد المواقف المعادية للسامية بين فئة الشباب من المسلمين، كما تُرتكب أيضاً هنا اعتداءات على اليهود من شيان يحملون خلفية مسلمة أو عربية. ووفقاً لاستطلاع نُشر في عام 2010، نشره يورغن ماسل وفينكتوريا شيلزير¹¹، فإن شاباً بنسبة 24.9 في المئة من خلفية تركية وشباباً بنسبة 40.4 في المئة من خلفية عربية يرون، ومن دون أي تحفظ أن "اليهود لهم تأثير كبير في العالم". بينما كانت النسبة 3 في المئة فقط بين الشبان الذين ليست لديهم خلفية مهاجرة. مع ذلك، فإنني لا أرى أن هذا يؤشر إلى معاداة السامية بل إنه عبارة عن أحكام مسبقة، وهو أمرٌ تقع مكافحته على عاتق الجميع. وإن أحكاماً مسبقة كهذه لا تتحول إلى معاداة للسامية إلا عندما تنفوخ منها مشاعر الكراهية والاحتقار ضد اليهود كلهم.

فضلاً عن ذلك، فإن معاداة السامية، وفقاً للدراسات التجريبية في جمهورية ألمانيا الاتحادية، هي في حالة تراجع منذ ستينيات القرن الماضي. وأظهرت كذلك استطلاعات حديثة مثل دراسة البروفسور فيلهلم كيبف، وعنوانها "معاداة السامية ونقد إسرائيل"، أن 13 في المئة فقط من الشعب الألماني لديهم أفكار معادية للسامية. وهذه النسبة تُعتبر كبيرة. أحد الأسئلة

(11) Jürgen Maass & Viktoriya Schelzer: Ausgrenzungserfahrungen. In: *soziale Lage* (Agenda für Antidiskriminierungsarbeit) (Münster & Basel: Beltz Juventa, 2013).

التي طُرحت في هذا الاستطلاع على نحو مكرر: "ما هو شعورك إذا كان جارك يدين باليهودية؟"، وكانت إجابة الأغلبية العظمى بسبة 85 في المئة من الألمان "لا يهمني". أما من فضلوا عدم وجود جيران يهود، فوصلت نسبتهم إلى 2 في المئة. لهذا يصعب الحديث، والحوار هذه، عن وجود عداوة مضمر للسامية يحملها الألمان. أما أغلبية فئة الشباب بين 14 و28 عامًا فليس لديهم دور في هذا الأمر بل لديهم أقل نسبة تحفظات. وماذا يهمني أنا كيهودي بشأن تحفظات أماسي يحملونها تجاهي؟ هناك أيضًا تلك التحفظات الواسعة الانتشار تجاه البدو والعجم، والمثليين والسود أو حتى المشردين. ولا نسي كذلك أن لليهود أحيانًا تحفظاتهم تجاه الألمان والبولنديين والعرب، أو المسلمين.

علينا في هذا السياق أن ندرك أن التحفظات تجاه اليهود تزداد، مثلاً، عندما تقصف إسرائيل قطاع غزة من دون مبالاة وتسمح بموت كثير من المدنيين في وقت يشاهد العالم كله تلك الصور على شاشات التلفزة.

وبالفعل، فإننا نجد ازديادًا في انتشار التحفظات تجاه سياسة إسرائيل في الأراضي المحتلة أكثر من تجاه اليهود. وقد خلص استطلاع الرأي السابق ذاته إلى أن كثيرًا من الناس في أوروبا يعتقدون أن يهودًا كثيرًا يشعرون بالولاء لإسرائيل وليس لوطنهم الخاص. وهنا يعتقد بعض الباحثين المختصين في شؤون معاداة السامية أن هذا يُعدُّ مؤشرًا إلى عداوة مضمر للسامية، وذلك لارتباطه بتعامل قديم معادٍ للسامية.

يبد أننا نجد مع هؤلاء الباحثين تبسيطًا للمسألة هذه؛ ذلك أن معاداة السامية لا شك فيه أن كثيرًا من اليهود، خصوصًا ممثلهم الرسميين، أمثال المجلس المركزي لليهود في ألمانيا، هم مؤيدون لإسرائيل ويؤكدون في خطبهم العامة أن إسرائيل هي وطنهم وأن قلوبهم هناك عندما. وليس غريبًا أن يرى المرء عند دخوله مجمعًا للحالية اليهودية صورًا لسياسيين إسرائيليين وعلماء إسرائيليين. وبالتالي، لماذا يتفاجأ المرء من اعتقاد كثير من الناس في ألمانيا أن اليهود ليسوا ألمانًا وإنما هم إسرائيليون؟ والحكومة الإسرائيلية لا تقصر من جهتها، في ذلك في كل فرصة مناسبة أو غير مناسبة لتحتشد إلى صفها كل اليهود في العالم.

من المحتمل أن يكون نقد إسرائيل بالنسبة إلى بعض الناس يمثل صمام أمان يجري التنفيس من خلاله عن عواطفه ومواقفه المعادية لليهود. لكن أيضًا بالنسبة إلى معظم متقدي السياسة الإسرائيلية، لا تؤدي مشاعر العداء لليهود أي دور، خصوصًا عندما يكون هؤلاء المستقدون يهودًا، مثلًا حدوثت بتلر أو نواح شومسكي أو دانييل مارنويوم أو نازمي كلاتين. إضافة إلى ذلك، لا يتعلق الأمر عند معظم هؤلاء النقاد بمسألة إنكار حق دولة إسرائيل في الوجود أو "نزع الشرعية" عمومًا عنها، وإنما بإيجاد طريق عادلة ومنصفة لحل النزاع في الشرق الأوسط. والقول إن بعض الانتقادات لإسرائيل يخفي حقًا خلفه معاداة للسامية، فهو قول لا يبرر الحكم في التشجيع بأن كل متقدي إسرائيل هم معادون للسامية، ولا سيما حينما يكون هؤلاء يهودًا، خصوصًا أكثر أن هذه الدولة - إسرائيل - تقدّم لنا كل يوم ما يكفي من الأمثلة لانتقاد سياستها ورفضها.

وفقًا لدراسة أخرى أجرتها مؤسسة برتلزمان (Berlmann-Stiftung) ونشرت في عام 2015، هناك كثير من الألمان ينظرون دائمًا إلى إسرائيل نظرة نقدية، حيث إن 48 في المئة من الألمان لديهم تصوّر سيئ عن إسرائيل، في حين ترتفع هذه النسبة لتصل إلى 54 في المئة ضمن فئة الشباب بين 18-29 عامًا أكثر من ذلك، ثلثا الشعب الألماني ينظرون على نحو سلبي إلى الحكومة الإسرائيلية، من هنا رؤية الباحثين إلى نسبة ازدياد وتيرة انتقاد السياسة الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين. إلا أن المزيج في هذا الأمر، هو تقسيم "خبراء الشأن الإسرائيلي" في هذه المؤسسة، برتلزمان، بأن النقد الموجه إلى إسرائيل هو جزء من "معاداة السامية متعلقة بإسرائيل"، على الرغم من أن هذا الأمر لا يرتبط حقًا إلا بمعاداة الصهيونية، ولشدة في نهاية هذا الجزء، على أن دراسات كهذه لا قيمة لها، ما دامت تفتقر إلى التمييز الواضح بين هذه القضايا (أي تمييز معاداة إسرائيل والصهيونية من معاداة السامية). وهذا بالضغط ما يجب التنبيه إليه في هذه التصانيف، خصوصًا حينما ندرك تراجع معاداة السامية بين فئة الشباب، من جهة، ولكن من جهة أخرى، ارتفاع نسبة الانتقادات للسياسة الإسرائيلية عند هذه الفئة العمرية الشابة نفسها.

أوشفيتز والقومية الإسرائيلية

لا نستغفِر أن الكارثة الإنسانية التي حدثت في معتزل أوشفيتز بحق اليهود قد صادرتها إسرائيل بالكامل وحصرتها في نفسها. تعتبر إسرائيل أن ما حدث في هذا المعتزل يجسّد قصة يهودية بحتة، وتتجاهل كثيرًا من الشعوب الأخرى التي قُتلَت هناك. لقد أعلنت ذكرى أوشفيتز يومًا وطنيًا في إسرائيل، فضلًا عن إرسال نخريجي المدارس سنويًا إلى هذا المعتسكر، ليفدوا يهودًا جديدين أكثر، وليكونوا مستعدين للتضحية بحياتهم من أجل إسرائيل.

في الواقع، إن التعامل مع أوشفيتز وذكره هو في المقام الأول من مهمة ألمانيا للحفاظ على الذاكرة الإنسانية في ذلك الأمر. كتب البروفيسور والفيلسوف الإسرائيلي، موشيه تسوكرمان (Moshe Zuckermann) الذي يدرّس في جامعة تل أبيب، في كتابه الصادر في عام 2014، *مسير إسرائيل: كيف تنهي الصهيونية وجودها* (Israel: Wie der Zionismus seinen Untergang bereitet)، بمقدار ما جرى فهم الهولوكوست على أنها ليست كارثة إنسانية عامة، بل على أنها محرقة ضد اليهود، وبمقدار ما تأسست مصادرة هذه الرواية بنيويًا وذلك من خلال خلق معنى جزئي، أي معنى له طابع قومي، حيث اختفاء هويات الجماعات العرقية للقتلى في إطار كود رمزي لـ "سنة ملايين" شخص، طغى مع غزو اليهود "قمة فارقة تلغي التناقضات بذلك، وحيث إن الجماعات الناجية التي لم تهاجر إلى إسرائيل لم تستطع في أوطانها الجديدة تشكيل مجموعات اجتماعية واضحة مستقلة وجماعات أخرى هاجرت إلى إسرائيل تم تجاهلها على مدار سنين، تقول إنه بمقدار ذلك فقد استطاعت الصهيونية، والحال تلك، احتلال الفضاء التاريخي الشاغر ومنحه معنى وفق ما تريد هذه الصهيونية. إن مسألة إضفاء اللامعنى باعتباره تنويجًا لتطوّر حضاري - أي قتل الزوائد البشرية الذي غدا مقصودًا في حد ذاته، وبالتالي اليقين من الاحتمالية الدائمة للانتكاس إلى البربرية - بمعنى علماني إيجابي تقريبًا، لهي مسألة حولت مصادرة التوحش إلى أيديولوجيا غير متجانسة، ليس نظرًا إلى المصلحة السياسية الخاصة فحسب، ولكن أيضًا من حيث جوهر ما حدث في أوشفيتز، في سياق الحضاري العالمي الشامل".

يلقي هذا الأمر نظرة على العلاقات الألمانية - الإسرائيلية. فليس من المعبد استغلال الهولوكوست لأغراض سياسية. وبالتأكيد ليست لدى الرغبة في التقليل من شأن معاداة السامية في ألمانيا. وعلى المرء كذلك ألا يتجاهل خوف المواطنين اليهود أو [قناة] الشباب اليهودي، حتى لو افترضنا أن هذه المخاوف تعزى عن عمد في بعض المجتمعات. لكن ألمانيا بلد عالمي متفتح وفيه استعداد كبير لتقديم المساعدات، مثلاً للاجئين. وقد توصل مسح استطلاعي قامت به الكتبة البروتستانتية في صيف 2016 إلى أن أكثر من 80 في المئة من الألمان يعتقدون بوجود مساعدة المحتاجين. وهذه هي النسبة التي تحتل المساحة الأهم بالنسبة إليّ.

لا وجود لموجة جديدة من معاداة السامية

هل نعيش بالفعل في ألمانيا موجة جديدة من معاداة السامية؟ لا، هذا هو الجواب الذي تقدمه إحدى الدراسات التي قام بها منتدى برلين للوقاية من العنف. لقد نشر في عام 2013 كُتْل من ميشائيل كولشتروك (Michael Kohlstruck) وبيتر أولريش (Peter Ullrich) من مركز أبحاث معاداة السامية في الجامعة التقنية في برلين دراسة عن معاداة السامية عنوانها "معاداة السامية مشكلةً ورمزاً - ظواهر وتدخلات في برلين" (Antisemitismus als Problem und Symbol - Phänomene und Interventionen in Berlin). ونُشرت الدراسة بتكليف من لجنة الدولة لمكافحة العنف التابعة لوزارة الشؤون الداخلية والرياضة مجلس الشيوخ في برلين. وكان هدفها رصد مظاهر معاداة السامية في برلين بين عامي 2010 و 2013، واستكشاف أسبابها ووضع الخطوط العريضة لمكافحتها.

ووفقاً للنتيجة الأساسية التي خلصت إليها الدراسة، فإنها لم تتمكن من رصد صعود لمعاداة السامية، طبعاً على عكس الصورة النمطية التي يقدمها الإعلام على نحو واسع والتي ترسم لنا وجود "موجة جديدة من معاداة السامية" أو "معاداة السامية الجديدة" التي تنتشر خصوصاً بين الشبان ذوي الأصول المهاجرة بحسب هذا الإعلام. إلا أنه وفقاً للتقارير المسجلة لدى الشرطة فإن الجرائم ذات الدوافع المعادية للسامية لا تزال، كما كان حالها

سابقاً، مرتبطة بالعنصريين اليمينيين. والحال أن كولشتروك وأولريش بعالجان في دراستهما تلك معالجة مختلفة الاصطلاحات المختلفة (طبقاً للإشكالية سيّياً) وطرائق فهم معاداة السامية. فمثلاً جرى تحليل الأيديولوجيات المعادية لليهود والتصريّحات وأنماط من الجدالات، فضلاً عن الجرائم، كل ذلك وفق سياقها السياسي-الاجتماعي والتاريخي الخاص بها.

كما حلّزت دراسة لمركز أبحاث معاداة السامية المرموق (ADL) منذ بداية عام 2015 من "معاداة السامية" المبالغ بها. فالأشخاص الذين يرفضون الدولة اليهودية، ولا يحملون عداوة لليهود في حد ذاتهم، يجب عدم اعتبارهم معادين للسامية. وبالطبع هذا أمر بداهي.

على أثر ذلك وجهت اللجنة الأميركية اليهودية (AJC) في برلين انتقادات حادة إلى هذا الطرح الذي قدّمته تلك الدراسة. ووفق ما جاء في بيان صحفي صرحت به اللجنة، فإن العلماء "لا يأخذون في الحسبان مخاوف اليهود وقلقهم في ألمانيا على محمل الجد ولا يولون هذا الأمر الأهمية الكافية". وقد اقتضت [الدراسة] في ذلك على تحليل و"شرح" الظاهر، بدلاً من القيام "بتسمية ومكافحة" معاداة السامية. بل أكثر من ذلك، قامت الدراسة، وفقاً لذلك النقد، بترجمة معاداة السامية، عندما عزت العداوة المتشتر بين الفلسطينيين تجاه اليهود على سبيل المثال إلى أنه يعود مباشرة إلى ما يرتبطون به في الصراع الدائر في الشرق الأوسط.

في المقابل كانت مبادرة سلام - شالوم (Shalom-Shalom-Initiative) في برلين قد رحبت بمنهج الدراسة هذه التي قامت على التمييز بين المظاهر المختلفة لمعاداة السامية، والتحدث في الوقت نفسه ذلك الانتقاد غير الموضوعي من اللجنة الأميركية اليهودية، الذي تنقصه المؤهلات المطلوبة. وبالفعل، لقد دخل هؤلاء المبادرون في سلام - شالوم من جراء ذلك في وضع لا يُحسدون عليه. وبذلك طُرد مؤسس المبادرة الطالب الحاخام أرئيل لانغر في آذار/ مارس 2016 من كلية أبراهام غايغر في منطقة بوتسدام (بالقرب من برلين). حيث كان يدرس. طرده مديرها فالتر هومولكا شخصياً، وقد جرى هذا

بالطبع بدفع من المجلس المركزي لليهود. لقد كان هذا قراراً سياسياً بحثاً، يزعم أن هذا الشخص قد أعان المجلس المركزي لليهود في أحد التعليقات في الصحيفة اليومية دي فاغسترايتونغ (1921 - Die Tagesrechnung).

أكد مؤلفا الدراسة أن من الضروري تمييز معاداة السامية لمجتمع ذي أغلبية مسيحية من وجهة نظر سياسية وسوسولوجية وتاريخية بشكل أساسي عن العناصر المعادية للسامية في الانتفاضات الموجهة إلى السياسة الإسرائيلية. ولا تهدف هذه الملاحظات إلى إخفاء الشرعية على مواقف معادية للسامية منتشرة بين الفلسطينيين الذين يعيشون هنا والقائمة على تجاريلهم الشخصية مع السياسة الإسرائيلية. إنها تميز فحسب بين معاداة السامية الثقافية العنصرية والتفد في الدوافع السياسية الموجهة إلى السياسة الإسرائيلية، والذي يمكن أن يتحول معاداة للسامية.

ورغم أن هناك إمكاناً لوجود معاداة للسامية في التفد الموجه إلى إسرائيل، وهذا مما لا شك فيه، لكن ينبغي عدم جعله على الإطلاق مناسبة لتزج الشرعية بالمجمل عن أي انتقاد صادر عن الجانب الفلسطيني؛ أو كما يعبر أعضاء مبادرة سلام - شالوم اليهودية: "علينا الأخذ في الحسبان أن المدنيين الفلسطينيين ما زالوا يدفعون ثمناً كبيراً للأمن المزعوم للدولة اليهودية. كما أن الاعتراف بالارتباط الشخصي للفلسطينيين في ما يتعلق بالصراع لا يضيء وفقاً لذلك شرعية على معاداة السامية، إلا أن ذلك يشكل شرطاً أساسياً للحلول والتعايش في برلين".

لماذا نحتاج الصهيونية إلى وجود معاداة السامية

تعارض مبادرة سلام - شالوم، في قضايا "إيملا" شبه معاداة السامية، ربطها بالمسلمين عمومًا والفلسطينيين خصوصًا في المجتمع الألماني. واستراتيجيا كهذه لها تأثير إعلامي وسياسي في الساحة هنا تمنع أغلبية الشعب الألماني من مناقشة المسائل والدوافع المعادية للسامية المبطنّة وتلك المعاد إنتاجها في اللاوعي عند الألمان. ومن جهة أخرى، نخدم الاستراتيجية كذلك قيام نازين

أساسي من اليهود والمسلمين في ألمانيا. فعلى الرغم من إمكان تعزيز التعاون بين هذين الجانبين، فإنهما يقدمان أحدهما في مقابل الآخر.

والحال أن معاداة السامية ما دامت، في الآونة الأخيرة، تُحصر بشدة في الأقلية المسلمة، فإننا نجد أن أغلبية المجتمع الألماني "تحرّروا" نفسها من رؤية العنصرية المعادية للمسلمين فيها. وبالتالي تُطرح قضية "معاداة السامية" على أنها بذاتها تدرج في سياق الثقافة العنصرية: يحب على المسلمين أن يتربّوا "على أيدي" الألمان واليهود. وهنا سيفدر، مع طروحات كهذه، الوقوف في وجه معاداة السامية صعباً للغاية، سواء في أغلبية المجتمع الألماني أو بين المسلمين. فضلاً عن ذلك، فإن التعايش بين المواطنين اليهود والمسلمين الذين يعيشون في ألمانيا سيكون أيضاً عرضة للخطر مع هذه الأمشاط في مكافحة معاداة السامية، كما تفهمها مثلاً منظمات ومؤسسات أمثال اللجنة الأميركية اليهودية، ذلك أنها تعتمد السياسة الإسرائيلية، وهذا أمر يسهل اكتشافه.

إنني أعيش في هذا البلد منذ سنين عانا، ولم أنثي خلالها إلا بعدد قليل جداً من الأشخاص المعادين للسامية والذين يمكن عدّهم على أصابع اليد الواحدة. لهذا السبب لا أهتم بأمر معادي السامية. وبالنسبة إليّ يضرنني ضياع وقتي في الاشغال طوال حياتي بهم، أو بكل شخص ينتقد إسرائيل أو يرى في اليهود نظرة غير جيدة فأنظر إليه على أنه معادٍ للسامية، كما يفعل هنريك برودر ووفقاً لتقديرات جريدة زودويتشه تسايتونج (Zuiddeutsche Zeitung) (أجريدة جنوب ألمانيا)، هناك أكثر من 20,000 إسرائيلي يقيم حالياً في برلين، وقد صرحت السفارة الإسرائيلية قبل سنوات عدة بأن آلاف اليهود قد استقروا في برلين وحدها. إضافة إلى ذلك، يوجد أيضاً حالياً الآلاف الأخرى التي يمكن إضافتها إليهم. لذلك فإن الحديث عن وضع سين في ألمانيا بخصوص معاداة السامية لا مكان له.

إن وضع اليهود في أوروبا وأميركا جيد عمومًا، وما يبحث على السور أن معظم اليهود في القارتين لا يلقون في فتح نداءات الحكومة الإسرائيلية التي تقوم بترويج الهجرة إلى إسرائيل وتستغل كل حادث، وإن كان غير سيء،

لندعوة اليهود إلى مفادرة أوطانهم في أوروبا. وفي الواقع، تحتاج إسرائيل إلى زيادة عدد اليهود لتوازن ذلك النمو الديموغرافي للسكان الفلسطينيين. وفي ما لو نجح هذا الأمر، سيحقق على الأمد الطويل حلم جميع التارين وجميع المنطوقين اليمينين في جعل أوروبا "تقبة من اليهود" وسيصبح هذا الأمر حقيقة. ومن الواضح أيضًا أنه بالنسبة إلى كل يهودي مهاجر إلى إسرائيل، يجب أن يكون هناك فلسطيني يخشى على مكانه.

يمكن تشبيه الصهيونية ومعاداة السامية بـ "اليس واليمين"، فكلاهما يكمل الآخر على نحو بديع. تنفي الصهيونية مع معاداة السامية التي تود تهجير جميع اليهود نحو فلسطين، الأمر الذي يشكل هدف الصهيونية الذي تسعى لتحقيقه. لهذا، سيغدو من السخف تصوير الصهيونية ومعاداة السامية على أنهما تشكلان أيديولوجيتين متعارضتين مع بعضهما أو متنازعتين. وبالطبع لا يمكن أن يساوي المرء بينهما، إلا أن من الممكن مقارنتهما ببعضهما، إذا ما تعمق المرء في فهمهما.

إننا نشهد اليوم، بالفعل، ارتباطًا وثيق الصلة بين معاداة السامية والصهيونية، وهو أمر تدل عليه، مثلاً، الهجمات في باريس وكوبنهاغن في ربيع عام 2015 وما أظهرته دعات الفعل في القدس على ذلك. إلا أن ردّ الرئيس الفرنسي حينذاك، هولاند، والمستشارة الألمانية على دعوة رئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو لجميع يهود العالم للهجرة إلى إسرائيل، كان التضامن الكامل مع المواطنين اليهود والمطالبة بعدم الهجرة إلى إسرائيل. وفي سياق ذلك، نشرت إحدى المنظمات اليهودية الناقدة لإسرائيل هي - كول (ICAH) إعلانًا على صفحة كاملة في جريدة يومية شهيرة تقول فيه: "لا سيد لنتنياهو، أنت لا تمثلنا".

أسطورة معاداة السامية الجديدة

عادة ما تلجأ وزارة الدعاية الإسرائيلية إلى استجواز أسطورة "محاولة معاداة السامية" من صندوق العقاريت، عندما لا تعرف كيف تواجه الانتقادات المتزايدة ضد السياسة الإسرائيلية، وتشكي بقصص "نزع شرعية إسرائيل"، هكذا يتحدث المجلس المركزي لليهود في ألمانيا، كأحدى أكثر الجبهات الفعالة للدعاية الخارجية لإسرائيل، من "معاداة السامية الجديدة المنتشرة في العالم".

إلا أن العكس تمامًا هو ما تشير إليه جميع الإحصاءات التي قامت بها في السنوات الأخيرة مؤسسات ومعاهد علمية¹¹ بشأن الانخفاض الكبير المستمر لمعدلات معاداة السامية في العالم. ويلاحظ المرء الذي يعيش في ألمانيا مثلاً، كما هي خبرتي بهذا البلد، أن معاداة السامية باتت لا أهمية لها في الحياة اليومية مطلقاً، وبالكاد يمكن ملاحظتها. هكذا، فإن من الطبعي جداً أن يرى المرء أن العالم ممتلئ بأشباح معادي السامية عندما يتم حلق كل انتقاد موجه إلى إسرائيل بمعاداة السامية أو اعتباره كذلك.

وبحسب مزاعم منتقدي معادي الصهيونية فإن لمن الممكن تسلي "معاداة جديدة للسامية" في ظل سائر معاداة الصهيونية وانتقاد إسرائيل. ومثل هؤلاء من المدافعين عن السياسة الإسرائيلية لا يودون الأخذ بعين التقدير مسألة التصار المسألة على "معاداة الصهيونية". ولهذا السبب فإننا، ومنذ سنوات، نخوض نقاشات عنيفة في موضوع معاداة السامية بدلاً من نقاش جوانب السياسة الإسرائيلية التي تتعارض مع القوانين الدولية، بسبب خشية سياسيتها ومثقفينا وقسم كبير من الصحافة تسمية الأمور بمسمياتها، فمسألة عدم وجود أصوات

(11) مركز أبحاث معاداة السامية هي جامعة برلين للتكنولوجيا، ومركز الدراسات اليهودية في برلين، تقرير صادر عن مجموعة أبحاث "المستقبل في معاداة السامية" الصادر عن معهد أبحاث (إسرائيل) لدراسة (إسرائيل) الأثنية، ويمكن العثور على مزيد من التفاصيل على موقع مركز أبحاث معاداة السامية. <http://berlin.de/berlin>

صد تهمة معاداة السامية التي تكون موجهة ضد المواطنين الألمان الشرقيين من متقاضي وفنانين وسياسيين ومتقاعدين، لهم مسألة تُظهر لنا إلى أي مدى في وقتنا الحالي يزدهر الترهيب والتخويف. وهذا ما يُظهره لنا في الوقت نفسه شيوع تلك الوسائل المضادة السائدة في الصراع السياسي، وإلى أي مدى أصبح مفهوم معاداة السامية في عصرنا الحالي أجوف.

مع ذلك، نجد الكثير من النقاشات في هذه النقاط. وتذكر مثلاً ذلك النقاش الذي استمر مرة بشأن مسألة معاداة السامية قرابة عام 2000 في ما يخص السياسي يورغن مولمان من الحرب الديمقراطي الحر (GDP) الذي تعرض لاحقاً لحادث مميت. وأعقب ذلك وفي هذا الخط نفسه من النقاشات كثيرًا من القضايا، صغيرة كانت أو كبيرة، مثلاً مؤخرًا ما جرى في أثناء حرب غزة في عام 2014. واليوم هناك الكثير مما يرتبط بما يدعى معاداة السامية، الذي ليس في الحقيقة سوى ردة فعل على صهيونية حقيقية قائمة تمارس سياسة عدوانية توسعية على حساب شعب آخر، وتضطهد من جراء ذلك بانتقادات واحتجاجات في كل مكان.

لقد سُرت الآلاف الكثيرة من الكتب والمقالات والأطروحات التي تتناول هذا الموضوع في كل الجرائد، من جريدة فاغستشتاتونغ إلى جريدة فرانكفورتر ألفماينه. خذ مثلاً عناوين كهذه في جريدة فرانكفورتر روندشاو (Frankfurter Rundschau): "الأمر يتعلق بإسرائيل، وليس باليهود"، ومداغنة ياكوب أوجشتاين في جريدة رايڤشه پوست (Rheinische Post) الذي يكتب: "لنا نست معادياً للسامية". كما تنبّه جريدة يوديشه ألفماينه إلى الجدل التاريخي بشأن مسألة معاداة السامية في الأمم المتحدة. وفي أحد التساؤلات التي تطرحها جريدة فرانكفورتر ألفماينه نقراً: "إلى أي مدى نخدم تهمة معاداة السامية تقويض أي انتقاد في ألمانيا لسياسة إسرائيل؟". ونجد أيضاً تحليلاً من جريدة دي فلت (Die Welt) [العالم] "من التثرثرات الخطرة حول اليهودية والإسلام". كما كتب عالم الاجتماع أولريش بيك في جريدة دير فويلتاغ (Der Freitag) [الجمعة] عن "معاداة السامية الجديدة". لا بل أيضاً نجد برهنة من أحد

موظفي جريدة زودويتشه على إقدامه وشجاعته في "اعتبار الفلتسوة اليهودية (الكيبه) في ميونيخ" كما عنوت مرةً جريدة زودويتشه "حول معاداة السامية في الحياة اليومية في ألمانيا". وأيضاً جحرنا الراديو الألماني دويتشلاند هوك (Deutschlandfunk) بأن معاداة السامية هي "جزء من الحقيقة". هذا فضلاً عن ميشيل فريدمان الذي يحذّرنا في فرانكفورتر رونداشو من "هذا السم الذي يهددنا جميعاً" [والسمّ المفصود به طبعاً: معاداة السامية]. وفي جريدة دي تسليت (Der Zeit) [الوقت] يكتب يوريف يوفه أن "اليهود" يشعرون "مرة أخرى بالتهديد في ألمانيا". حتى إن جريدة يونغه فرايهات (Junge Freiheit) [الحرية الشابة] القومية المحافظة قد دخلت على الخط نفسه في هذا النقاش ولادّعت أن معاداة السامية في أوروبا ليست "ظاهرة جاثية، بل نيار متنام"، ولا سيّما بين المسلمين.

فضلاً عن كل ذلك، لدينا أيضاً عدد ضخم من الكتب التي تتحدث عن "كراهية اليهود القديمة الجديدة". حدّ مثلاً من هذا النمط كتاب نُشر في عام 2003، حرره كلٌّ من كلاؤس فاير (Klaus Fajer) ويوليوس شوس (Julius Schoeps) وساشا ستافسكي (Sacha Stawski). وقد استطاع هؤلاء جمع كثير من الباحثين (26 باحثاً)، لإثبات وجود معاداة للسامية تكسّي اليوم اصطلاحاً آخر: معاداة الصهيونية. وصدر كتاب آخر في ربيع 2015 عنوانه إسرائيل هي المذبذبة في كل شيء (Israel ist an allem schuld)، نشرته إستر شاييرا (Esther Schapiro) وغيورغ هافتر (Görg Hafner)، العاملان في إذاعة هسن (Hessen). وقد صنعت شاييرا كصهيونية راينكالية اسمًا لها بالفعل. إنها أيضاً تستنكر في كتابها كل نقد لسياسة إسرائيل وكل معاداة للصهيونية وتصفها بأنها "معاداة جديدة للسامية" وبكل صدق، فإنه لا يمكنني تخيل أن كتاباً كهذا قد كتبه هذان الاثنان.

ونظراً إلى حررتي في هذه الأمور فإني أعرف إمكان حدوث قضايا كهذه، مثلاً هناك حادثة بيانه كلاسفلد، فعندما نُشر في عام 1989 كتاب واثافي بعنوان "Die Geschichte des PG 263/2930 Krieger" [قصة كيزينغر] صنعت هذه لظها لقباً على أنها مؤلفه، ثم صنعت شهرةً عندما وُجّهت صفة

إلى المستشار الألماني آنذاك كورت غيورغ كيزينجر في البوندستاغ [البرلمان الألماني]. لكن في الواقع كُتب هذا الكتاب في برلين الشرقية في ظل جهاز الاستخبارات الذي ساد هناك، ويُجهز من أرشيف هذه الاستخبارات⁽¹²⁾ [الكتاب عن مافيه في النازية]. حتى أنا عندما قمت بنشر الكتاب من دلو نشر ملستر في عام 1969، لم أتمكن من معرفة صاحب هذه المخطوطة، ولا سيما أن بيانه كلاسفلد قد سلّمني المخطوطة شخصياً وفي الحقيقة، لم أكتشف ذلك إلا بعد 20 عامًا بعد سقوط الجدار. لذا يمكنني الآن تحيّل أن ذلك الكتاب الذي نشرته إستر شاييرا وغيورغ هافتر قد كُتب في "القسم الألماني" لوزارة الدعاية العملاقة في القدس. لا بل إن كليهما أثبت كثيرًا أنه، كما أشار سريتم رافائيل سليمان (Rafael Schigmann) في جريدة يوديشه ألقمايه: "يقفان خلف إسرائيل من دون أي شروط".

وبالتأكيد لن يكون كتابهما هذا هو الأخير المنشور في هذه المسألة. ويبدو أحيانًا وكأن الخطاب السائد في ألمانيا عن معاداة السامية في السنوات الأخيرة قد انفصل عن موضوعه الفعلي، ألا وهو معاداة اليهود الحقيقية. وقد أدت المحرمات وملاحقة الدولة لمسائل معاداة السامية في ألمانيا إلى تراجع دائم في الحوادث المرتبطة بها⁽¹³⁾.

اليوم نشهد في ألمانيا ازدهارًا لونيّة الحدالات المتعلقة بمعاداة السامية أكثر من أي وقت مضى، وهو ما تغلبه دوائر المتفقيين اليهود والجمعيات اليهودية. وهي حدالات ترتبط عمومًا بالطابع المعروف لمعاداة السامية في مسائل معاداة الصهيونية أو أشكال نقد محددة لسياسة دولة إسرائيل. ما تعنيه مناهضة الصهيونية هو بالضبط رفض القومية اليهودية الإسرائيلية الحالية. وللعلم، فإن هذا النقاش لا يتم على نحو محموم في أي مكان أكثر مما هو الأمر في إسرائيل نفسها. أما خارج إسرائيل فإن السؤال هذا يطرح بشأن التمييز

(12) الكتاب عن مافيه في النازية. (المترجمة)

(13) Michael Kublitz & Peter Elsch: Antisemitismus als Problem und symbol. Phänomen und Antisemitismus in Berlin. Berliner Forum Gesellschaftswissen 52, unter Mitwirkung von Ingrida Paul und Jakob Jurekno. 2. Aufl. Auflage (Berlin: Landeskommission Berlin gegen 2014).

في كيفية تنفيذ المشروع من غيره في ما يخص إسرائيل. وبالطبع، إن توجيه سؤال كهذا إلى الصحابة المزمين بها والمقتنعين بها، غير وارد إطلاقاً، ذلك أن كل نقد لإسرائيل هو نقد غير شرعي.

لم يحتج الحاخام السابق لولاية بادن فورتمبيرغ (Baden-Württemberg)، جويل برغر، على سبيل المثال، من مهاجمة الكنائس في منطقة شتوتغارت الألمانية في عام 2015 بمناسبة الاجتماع في يوم الكنيسة البروتستانتية الألماني. فكتب في جريدة يوديشه ألغمانته عن أولئك الكارهين المعروفين لإسرائيل، "والذين يستخدمون سرور هذه المنصة بهدف نزح الشرعية عن الدولة اليهودية". وكان المميون ها أشخاصاً يهوداً أمثال البروفسور رونف فريغر، والبروفسور جف هالير، ومارك بريرمان، وجوزيبي زاسون، والمغنية اليهودية إستر بيرانو، وآخرين.

يشكي برغر: "من الواضح عدم وجود أي فعالية في يوم الكنيسة [هذا] توجه إلى المسيحيين الذين يجري قتلهم في الشرق الأوسط بسبب معتقداتهم، وأن الأمر الوحيد الذي يمكن أن يشيرا هو حينما يتعلق الحديث بما هو ضد إسرائيل واليهود". لكن لتركز أنه مع استخدامه تعبير "من الواضح" فإن الرجل ليس متأكدًا إذا كانت اتهاماته تعكس الحقائق أم لا. إن قلقه المصطنع بشأن موضوع المسيحيين في الشرق الأوسط لهو أمر يعبر عن كذب وتضليل؛ ذلك أن إسرائيل ومنذ سنوات تقسّطه المسيحيين الفلسطينيين، حتى إن نسبتهم انخفضت بسبب سياساتها هذه من 20 إلى 2 في المئة. وإسرائيل ستكون على حق عندما يهاجر العرب المسيحيون إلى الغرب، حيث يرحّب بهم هناك؛ وهذا هو الأمر الحاسم، أي في انخفاض نسبة السكان العرب.

كما دعا برغر في هذا السياق الكنائس إلى مقاطعة مجموعات نقدية غير مرشّبة بها مثل AGI التابعة للكنائس المسيحية في بادن فورتمبيرغ أو حركة باكس كريستي (Pax Christi) الكاثوليكية. وكتب أيضًا: "علينا تدكير ممثلي الكنيسة بمسؤوليتهم، بأن هناك منظمات مسيحية تدعو من أجل تفريع إسرائيل". وبالطبع ليس هناك من وجود لمسألة "تفريع إسرائيل". والحال أنني

حضرت هذه القذافية الكنسية، التي كان فيها محاضرون يدافعون عن إسرائيل من دون أي تردد، وكذلك محاصرون من إسرائيل انتقدوا السياسة الإسرائيلية بموضوعية ومهنية. أمثال الباحث في الأنثروبولوجيا والتأشط من أجل السلام البروفسور جلف هالير، الذي شارك في عام 1997 في تأسيس لجنة إسرائيلية في القدس ضد تدمير العارل هالك. ولشدد على أن ما تحويه العقوبات الكبيرة، التي فرضها الجيش الإسرائيلي على عائلات الانتحاريين أيضًا هالك، تدمير منازل أقاربهم. وكان من المفترض أن يكون هذا رادعًا إلا أنه ليس سوى عقاب جماعي يحاسب فيه حتى الأقارب. وبعد أن تم التخلي عن هذه الأساليب بين عامي 2005 و 2014 بسبب الاعتقاد بزيادةها لوتيرة العنف، نجد أن السياسة الإسرائيلية عادت مرة أخرى في السنوات الأخيرة.

السؤال الآن، لماذا يدعي هذا المحامام برغر التفوق بأشياء لا وجود لها؟ هل هو غير ملزم قول الحقيقة؟ من المفترض أن المرء ينتظر منه كمحام ديني إيلاء الأخلاق أهمية أكبر، ولكنه مخلص للدولة اليهودية، لا بل للسياسة الإسرائيلية، وهو أمر ينف فوق التزام الوصايا اليهودية.

يدخل المدافعون عن السياسة الإسرائيلية في مباحثات حربية هائلة ويحسبون حسابًا كبيرًا لكل كلمة. كل ذلك كي يجمعوا انتقاد السياسة الإسرائيلية. فعندما يتحدث سياسي ألماني مثل نوربرت بلوم عن أن إسرائيل تقوم "حرب إبادة بلا هوادة" ضد الفلسطينيين، أو عندما يتحدث شخص مثل ياكوب أوعشتاين عن "معسكرات" [الاعتقال]، تنهال عليهما الاتهامات مباشرة بأن من غير المسموح لأي شخصي مقارنة ما يحدث في إسرائيل بمصطلحات أو صور أو أحداث تنتمي إلى الحقبة النازية، لماذا؟ لأن هذا يمثل معادة للسامية. إلا أن هذه الاتهامات يطرحها أشخاص لا يتمتعون هم أنفسهم من المقارنات عندما تحدم أهدافهم السياسية وتلائم أيديولوجيتهم. كما يحلل كثير من النقاد بين مصطلح "المقارنة" ومصطلح "المساواة". فعندما أقارن الجيش الإسرائيلي بعنظمة إس إس العسكرية (Waffen-SS) [أي الحقبة النازية]، فلا شك لا تغيب عني الفوارق بين هذين التنظيمين، بل أشير إليها. والحال أنني لا أحجب تلك الفوارق، إلا عندما أضعهما على قدم المساواة.

لدينا الآن اصطلاحان اثنان يثيران ردات فعل المجلس المركزي لليهود في ألمانيا والمتعاطفين مع الحكومة الإسرائيلية هما: الـ "غيتو" والفصل العنصري"، خصوصاً عندما يستخدمهما المرء مع الأخذ في الحسبان وضع الفلسطينيين الواقعيين تحت قبضة الاحتلال الإسرائيلي. والحال أنهم لا يودون معرفة ما يفعله الجيش الإسرائيلي ولا سبباً المستوطنون الإسرائيليون بالفلسطينيين. وحينما يتعلق الأمر بإسرائيل، نجدهم شديدي الحساسية. بالطبع، نجد من الخطأ إنكار حق إسرائيل في الوجود، لكن السؤال: من يعتقد بهذا؟ حتى عندما نجد من يعتقد بهذا، فإنه اعتقاد لن ينهي حياة أي إسرائيلي؛ إلا أننا بالنسبة إلى الآخرين نتحمل مسؤولية كل ما يحدث هناك.

هكذا نجد أيضاً أوسكار لافونتين (Oskar Lafontaine) يكتب في حريدة ييلده تسايتونغ (Bild-Zeitung) مقالة يدّعي فيها أن الذي يحكم في إسرائيل هو العهد القديم، متعرضاً للاتهام بأن ذلك يمثل معاداة السامية. ذلك أن بقدر إسرائيل، مثلاً وفقاً لباحث معاداة السامية فولفغانغ بتس وآخرين غيره، [النقد] المحتكم إلى "أفكار وصور نمطية مسبقة" والذي يُربط باليهودية، يتحول، والحال تلك إلى عداوة لليهودية. بيد أننا نسمع في الأخبار وباستمرار عن "هجمات انتقامية" إسرائيلية. وهذا "الانتقام" ليس سوى ثأر وعقاب يتطابق مع مبدأ "العين بالعين، والسن بالسن". طبعاً من الممكن رفض هذه المعادلة، إلا أن الدستور يسمح لنا بحرية التعبير، التي لا تعجب فولفغانغ بتس والحكومة الإسرائيلية.

من هنا نجد ذلك الغضب ضد ياكوب أولغشتاين بسبب مقارنة هذا الأخير الوضع في غزة بـ "معسكرات الاعتقال"، وهو المصطلح الذي يدّخر بمعسكرات الموت في الحقبة النازية، وبالتالي بالهولوكوست. قد تكون هذه المقارنة غير صائبة، لكن، وهنا يسأل عالم الاجتماع (رايتر شرايبر (Rainer Schöberl) في كتابه المنشور في عام 2014 الدين والشعب واليهودية: اليهودية في مأزق القومية الحديثة (Das Judentum in der Nachkriegszeit) (Religion, Volk, Identität) "هل فعلاً تعني كلمة "معسكر" بذاتها "معسكر إبادة" أم إنه أريد منها فهم ذلك، أو تم صوغها إلى حد ما لتخدم إمكان الرفض

الشديد للاتهام بتشكيل المعسكر". وأيضًا نجد الغضب نفسه على أوعشتاين عندما يقارن الأصوليين الإسلاميين المتعصبين باليهود الأرثوذكس المتطرفين. ولكن هل هذه المقارنة خاطئة؟ أذكر هنا كذلك مقارنة مشابهة، "حينما قارن أوري أفيري أعمال القتل التي يرتكبها الجيش الإسرائيلي بأعمال الفلسطينيين الراديكاليين الذين ينتمون إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، سرعان ما اقترح المتطرف اليمني الإسرائيلي باروخ مارتسال اعتيالا متعمدا لهذا النشاط من أجل السلام، أفيري، وأكد بطريقة شنيعة رفض المقارنة السخيفة".

يشكك شراير في أن كل مقارنة خاطئة وكل جدل معاد لإسرائيل وكل استعارة نقدية تتعلق بإسرائيل ومبالغ فيها تمثل معاداة للسامية: "يفترض المدافعون بلا حدود عن إسرائيل أن حقيقة الهولوكوست وحدها كافية لمنع كل شكل من أشكال انتقاد إسرائيل والصهيوية والقومية اليهودية وتضع كل هذا جميعا في دائرة معاداة للسامية".

مثل هؤلاء نجد لهم حضورا أيضا في المحاكم. ففي مدينة إسبن (Essex) الألمانية اعتبرت مثلا قاضية في كانون الثاني/ يناير 2015 أن كلمة "صهيوني" تمثل شجرة معاداة للسامية بذل بها قائلها على "اليهودي"، وكما ورد وفقا لما يدعى بتهمة التحريض فقد ألهم شاب يبلغ من العمر 24 عامًا في تموز/ يوليو 2014 بسبب هتافه بعبارات "الموت والكراهية للصهيانية". ولربما اقتبست القاضية هذا الرأي من صفحة ويكيبيديا أون لاين التي يرد فيها أن كلمة "صهيوني" هي: "كلمة شجرة رمزية يختص بها معادي السامية الشخص اليهودي". ولا ننسى أن الحرب استمرت في قطاع غزة في عام 2014 وكان من الواضح أن هذا الشاب يقصد بهتافه لإسرائيل. ثم ألا يفهم الإسرائيليون أنفسهم على أنهم صهيانية؟ فمن هذه الناحية بعد هتاف الشاب صحيحا. ولكن على ما يبدو لم يكن لدى القاضية أي فكرة عن هذا الصراع ولم تسمع أن ليس كل اليهود صهيانية. أما أن يُعتبر كل اليهود في هذا الأمر متساوين، فهذا في حد ذاته خرافة قديمة في معاداة السامية.

هناك كذلك البروصورة المخضرة في العلوم المعرفية مونیکا شفارتس -

فريزل (Monika Schwarz-Friesel) في جامعة برلين التقنية التي تقبم الرسائل الموجهة إلى مجلس اليهود المركزي وقد توصلت إلى الاستنتاج أن هذه الرسائل مشبعة بمعاداة السامية. ياله من أمر هائل! من كان يظن ذلك؟ وفي سؤال من أحد الطلبة عن كيفية رؤية معاداة السامية الحديثة على يوتيوب، كانت إجابتها تتمثل بأن معاداة السامية تتفتح خلف ما سمته "أساليب التواصل الملتوية". فعلى سبيل المثال تذكر البروفسورة أحد التعابير التي استخدمت سابقاً وهو "الاقتصاد اليهودي العالمي" الذي ما عاد بالطبع معاداة السامية الجدد يستخدمونه. حيث باتوا يطلقون مصطلح "الاقتصادية" أو "الاقتصادية العالمية". اقتصادية أي؟ حقيقة لم أسمع بهذا المصطلح من قبل⁽⁴⁾. على أي معنى ينطوي؟ يرشد مصفح غوغل حين كتابة المصطلح: "هل تعني الإدارة المالية (المسؤولة عن الضرائب)؟". ألا ينبغي أن تكون نصف صفحات غوغل مليئة بهذه السموم العينية المتطرفة المعادية للسامية وأن يوجد مصطلح "الاقتصادية" ثلاثة مليارات مرة؟ كيف يمكن أن تطرح عالمة علينا مصطلحاً كمثل بارز على "أساليب التواصل الملتوية" في قضية مثل معاداة السامية وهو في الوقت نفسه لا يُستخدم أبداً؟ إننا بالفعل نتعامل هنا مع جماعة سرية حديثة معاداة للسامية. قد يكون للسيدة شعاعش-فريزل لمصانئها، ولكن مع هذا النوع من التلميظات حوّلت النية الحسنة إلى العكس تماماً.

لدينا أيضًا مثال عن أنصار إسرائيل المتحمسين لها: المؤلف والممثل جيرد بورمان (Gerd Burmann) من مدينة كولونيا، الذي يدير مدونة اسمها "شجاع في أي مكان" (Tapfer im Nirgendwo)، ويخوض هو وأمثاله جدالات ومباحثات متخفية متطرفة الهدف منها إلصاق اليشر بتهم معاداة سامية متخفية لاواعية. كما وصف مرة المؤلفين في جريدة تسليت بـ "Hamburger Idioten" [أي المخادعون الهامبورغيون]. ذلك أنهم كتبوا عن حريق إحدى سيارات المستوطنين في فلسطين المحتلة، وعُتِن ذلك بعنوان وصين

(4) يستخدم المؤلف هنا المصطلح الذي ترمزه البروفسورة Tarnowski والمؤلف كما ملاحظ هنا يستعربه لعدة شيوخه في ألمانيا. ولست هنا بقلة "إسرائيل" كـ "اقتصادية"، لتيسر من اصطلاح الاقتصاد. لكن في سبيل الأمانة، فإنه لا يمكن أني معنى سوى ما برز في سياق التحدث معاداة السامية عند هذه البروفسورة ومن يشعرون إلى إعطائها. (المترجمة)

"حريق متعمد لسيارة أحد المستوطنين". كان يورمان بالطبع ليقتل الحديث عن هجوم ضد يهودي ما، ذلك أنه يعتقد أن الهجوم على الأب وابنته قد حدث لأنهما يهوديان فحسب. وإذا كان ذلك اعتقاده، فإنه هو في قراءة صانع معاداة السامية في حد ذاته معادٍ للسامية. ولعاقبة لم يفترض أن فعلًا كهذا قد يحدث كما في كل مكان من العالم لأسباب تتعلق بالثأر أو ببساطة الحق أو الضيرة وإلى ما هنالك من دوافع أخرى. لكن من الواضح أن السيد يورمان يرى في اليهود شيئًا مثيرًا أو قل شيئًا خاصًا جدًا، ينحى على هذا الشخص نفسه، المعادي للسامية أن يخجل من نفسه! ورغم ذلك، فوفقًا للاستخدام اللغوي الشائع والمستخدم لليهود المقيمين في أراضي فلسطين المحتلة رسميًا فإنهم يُدعون "مستوطنين" ويطلقون على أنفسهم أيضًا هذه التسمية، حيث يتجاوزون القانون الدولي وحقوق الفلسطينيين. لهذا، فالهجوم متعلق بمحتلين، يجوز أن يكونوا مسيحيين أو هندوسًا أو هنودًا. وعموماً، فإن هذا الخداع تجاه الفلسطينيين عملٌ غير شريف، بيد أن أصدقاء إسرائيل لا تعينهم الحقائق، بل البروباغندا.

إن مثل هؤلاء يكافحون بشراسة بشأن امتلاك سلطة تفسير الصراع في الشرق الأوسط. ويمكن أن نلاحظ هنا الجمعية الألمانية الإسرائيلية (DIG) في مدينة بريمن التي تقدم برنامجًا دعائيًا يطلق عليه "برنامج الدعاية حسرة" للمدارس مع إمكانات تقديم محاضرين حاصيين ومختارين ومتعربين، طمناً كل ذلك مجاناً، والبرء هنا له أن يختار ما بين "محاضرة كبيرة" (مدتها 45 دقيقة) في موضوع تاريخ إسرائيل من إبراهيم حتى وقتنا الحاضر، أو "محاضرة صغيرة" (مدتها 30 دقيقة) بشأن "قيام إسرائيل الصهيونية ونشوء الدولة"، أو حتى "حلقة نقاش" في موضوع معاداة السامية، فضلاً كذلك عن تقديم عرضي يتلاءم مع الشباب الأصغر خصوصاً لما يدعى "معلومات" عن دولة إسرائيل. طبعاً، في النهاية، من غير الممكن البدء بهذا التأثير في وقت مبكر جدًا، ولكن من الجدير ذكره هنا أن هذا العرض قد قُدم لكل وزارات الثقافة في جميع الولايات الألمانية.

لنا أن نتخيل هنا ردة فعل المجلس المركزي لليهود في ألمانيا في ما إذا قام الفلسطينيون بخطوة مماثلة في تقديم برنامج مشابه لهذا الطلاب المدارس. خذوا مثلاً كيفية ردة فعل كل من المجلس المركزي لليهود والجمعية الألمانية الإسرائيلية وأيضاً كثير من الجاليات اليهودية على "معرض النكبة" الذي أقيم في مدن مثل فرانكفورت ودوسلدورف وفرايبرغ وأخن وميونخ وبريمن وأماكن أخرى. طبقاً لماذا ردت الفعل التي أثبتت حول هذا المعرض الفلسطيني المتقل: لأنه يقدم وجهة النظر الفلسطينية بشأن إسرائيل وقيام دولتها.

بالأكيد لا مكان لوجهة النظر الفلسطينية في ألمانيا، حيث يقف القسم الأكبر من رجال السياسة والإعلام والمجتمع بإخلاص شديد أو حتى أصمى إلى جانب إسرائيل ويعتصمون أي نقد ضدها. لنلاحظ هذا الرأي مثلاً من ماتياس دوفنر (Matias Döpfner) الرئيس في شركة أكسل شيرمر، في كانون الثاني/يناير 2015 في أثناء إلقائه كلمة ترحيب أمام الموظفين في شركته، حيث رأى: "نحن من يحمي إسرائيل لا يحمي دولة اليهود فحسب، بل يحمي مجتمع القيم الغربي". دوفنر، وللعلف، ينتمي إلى خط المدافعين عن دولة إسرائيل من دون قيد أو شرط وممن يؤمنون بأنهم بهذا الدفاع يحمون المصالح اليهودية. ما يلتفت الانتباه هنا هو عدم التطرق البتة في خطابه إلى مشكلة تهجير الفلسطينيين والاستيلاء على أراضيهم واحتلالها، ولا حتى إلى التفريق بين اليهود والإسرائيليين وأيضاً المعاملة السيئة التي يتلقاها هناك العرب الإسرائيليون. والإحجام عن هذه الأحاديث أيضاً نجده عند الفيلوسوفيين وأصدقاء إسرائيل والسؤال هنا، هل سيلتزم دوفنر وأصدقاؤه الصمت في حال تصرفت الحكومة الألمانية كما تصرفت الحكومة الإسرائيلية؟ جولي أنا أنفي لا أنسى ذلك. إنني أشعر دائماً بالفصيص من اللامبالاة أمام الجريمة الفظيعة التي حدثت في عام 1948 والتي تمثلت بطرد شعب بأكمله والاستيلاء على أرضه. وما يقلقني وبعضني أكثر من الجريمة هذه نفسها هو مسألة اللامبالاة عند الحناة التي تدعم سرور من الشعور برحمة وأحذية الأنا واستفانتها، حيث لا يُظهرون أي تماطف أو تدم على ما يفعلونه. بالطبع لم يُد جميع الألمان الندم على جرائم النازية والتعاطف مع ضحاياها، إلا أن هذا هو الموقف الرسمي للحكومة والبرلمان وجميع الأحزاب والكنائس والثقافات وكثير من منظمات المجتمع المدني.

إن نقد الحروب المخالفة للمواثيق الدولية التي تقوم بها دولة إسرائيل ليس نقدًا ضد اليهود أو إشارة إلى معاداة السامية، بل هو نقد لسياسة الدولة الإسرائيلية. وهناك حاليًا قسم كبير من الشعب اليهودي في كل العالم يلقب ضد هذه السياسة أخذ متلاً منظمة "الصوت اليهودي من أجل السلام" (Jewish Voice for Peace) التي تضم حاليًا أكثر من 200.000 عضو ولها تمثيل في أغلب الدول الأوروبية ومعروفة في ألمانيا باسم "الصوت اليهودي من أجل السلام العادل في الشرق الأوسط" (Jüdische Stimme für gerechten Frieden in Nahost - JSJ).

ولا ننسى كذلك أن هذه السياسة هي أيضًا أمرٌ جدالي بين المواطنين اليهود أنفسهم في إسرائيل. إن نقدًا مماثلاً ممكنٌ لإسرائيل، طبعًا مع عدم إغفال وجود من يعارضه، كما هو حال شركاء بنيامين نتنياهو في الائتلاف الحاكم أمثال نفتالي بينيت الذين يردون منع أيّ نقد، لا بل وصم من يعارسه (من اليهود) بأنه خائن؛ كما تمنع الصحف الإسرائيلية بعثل هؤلاء، عمومًا، ومنذ وقتٍ طويل، ما عاد منتقدو سياسة نتنياهو يُعتدون خصوصًا ديمقراطيين لهم، بل خونة وعملاء، سلطَة عدوٍّ مشكوك فيهم.

بالطبع توجد زُجعة كراهية اليهود في ألمانيا وهذا أمر لا يمكن إنكاره، بيد أنه يجب القول، ولحسن الحظ، بعدم وجود هذا النوع من كراهية اليهود التي تقود إلى حرب تستند إلى العنصرية أو تؤدي في نهاية المطاف إلى إبادة ستة ملايين يهودي، أي تقريبًا نصف يهود أوروبا، كما أن الوضع في إسرائيل مختلف كليًا. أما أن تقوم منظمة عامضة مثل "أونستلي كونسيرن" [معنية بصدق] بمقارنة معاداة الإسرائيليين المزعومة بالمعاداة الفعلية للإيزيديين الذين اضطهدوا على يد القوات البربرية لتنظيم داعش وذبح الآلاف منهم في شمال العراق في صيف 2015، فإن هذا يمثل قمة التفاعلة.

لتذكر قيام النظام النازي بتنظيم ارتكابات ومذابح ضد اليهود، كما هو الحال في "ليلة الكريستال" [أو ليلة البلور] الشهيرة والشنيعة في 9 تشرين الثاني/نوفمبر 1938، حينما أشجعت الحرائق في كل المعابد اليهودية والمحال التجارية اليهودية في ألمانيا كلها. الشعب الألماني تعاضى عن

ذلك، هذا إن لم نقل قد حمل ورثاً في ذلك كما هو معروف. وقد تحدثت معاداة السامية المطبولة اجتماعياً في الولايات المتحدة، والتي عبّرت عن نفسها برفض انضمام اليهود (والسود) إلى أندية التنس والفولفس، من الأحداث التي أصبحت اليوم جزءاً من التاريخ الماضي. إننا نعيش اليوم في وضع مختلف كلياً عما كان سابقاً. فالיום لا يقتصر الأمر على قيام الدولة والأحزاب والشباب والكنائس وتقريباً كل منظمات المجتمع المدني بتحريم معاداة السامية، أو قل المجتمع المدني كله يقوم بذلك، بل غدت معاداة السامية فعلاً غير مقبول وعرفوضاً اجتماعياً. كما أن أغلبية الأجيال التي ولدت بعد الحرب لا تعرف معاداة حقيقية للسامية. فإذا ما واجهتنا هنا وهناك بعض حوادث معاداة للسامية بين والحي والآخر، فهذا لا يدل سوى على مدى الغباء البشري الذي لا يمكن استتصاليه تماماً.

وإنه لأمر جيد بالطبع أن تكون المنشآت اليهودية محمية من الشرطة وليس هناك أسوأ من تسكع مسعور في هذه الأرض. بيد أن ما أراه يشير الغضب هو المبالغة والتضخيم اللذين تنتهجهما وسائل الإعلام والتلفاز والراديو بسبب حادثة صغيرة تحمل طابع معاداة للسامية لتتحول هذه إلى حالة هستيرية. ألم يفكر أحد في كيفية شعور اليهود في هذا البلد حيث يجب عليهم دائماً وأبداً سماع أن حياتهم معرضة للخطر؟ ماذا نقول إذا عن كيفية شعور المسلمين الذين يتعرضون لهجمات معاداة ضدهم في مساجدهم التي تفوق عدد الهجمات المعادية ضد اليهود، حتى لو كان هناك تعرّض للطلاب اليهود في فرنسا وألمانيا للمضايقة على أيدي زملائهم المسلمين؟ إنني أعتقد بخطأ أن نرعى هذه الحوادث في سلة معاداة السامية. ألا يُفترض ربط معظمها بما يجري من اضطرابات في الشرق الأوسط؟ ثم وإلى أي مدى بالفعل تمت دراسة فيما إذا كان الأتراك والمراهقون العرب ما زالوا يتعرضون بلا رحمة للظلم في مقابل أقرانهم من اليهود والمسيحيين، ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً ونفسياً؟

لا نعيش الآن في القرن التاسع عشر. وما عاد مجتمعنا اليوم هو نفسه ذلك

المجتمع الرتيب وغير المتعلم كما كان الأمر عليه في السابق. إننا نعيش في مجتمع متعدد ومختلط يسفي على المرء فيه ألا يحمل قلقاً من أنواع الكراهية الجماعية، أو على الأقل يسفي عدم المبالغة في ذلك إلى درجة مستبينة. حتى لو حاولت وسائل التواصل الحديثة إخافتني أحياناً، فإنني أعتقد بعدم السهولة لجمع البشر في ألمانيا تحت راية واحدة أو خلف فكرة موحدة للجميع. وحتى حركة بيفيدا اليمينية (Pegida) لا تستطيع ذلك. وأيضاً إذا ما قرأنا عن نتائج [مساعدة] تثير القلق تقريباً لانتخابات الحزب اليميني، حزب البديل لأجل ألمانيا، في إحدى المناطق البالية والمائسة، مثل منطقة فورسومرن (Försummen)، فإن رأيي هنا أن (انتصارات يمينية) كهذه تمثل حالات عرضية لحظية وتعتبر؟ للسكان عن غضبهم وإحباطهم بشأن وضعهم المزري الحالي.

6

إسرائيل ليست وطني

تمثل إسرائيل بالنسبة إليّ بلدًا ككل البلدان الأخرى، فإنا لا نكرهها ولا أحبها. ثم لماذا يجب على المرء كرهها؟ ورغم أنني لا أشكك في حقها في الوجود، إلا أنني أنتهز حقًا عاديًا بسيطًا في انتقاد سياستها. ألم يكن جواب هاينرش لوبيكه، عندما طُرح عليه سؤال هل يحب ألمانيا، -أنا أحب روجتي؟- الأمر نفسه ينطبق على البلدان كلها. ولماذا لا ينطبق الأمر على إسرائيل أيضًا؟ إنني لا أطالب إسرائيل بأي مطالب أخلاقية خاصة لا أطالب بها أي دولة أخرى في هذا العالم. وإضافة إلى ذلك، فإنني لا أتوقع أن تصرف هذه الدولة بأخلاقية أكثر من الدول الأخرى. وبكلمة: إنني لا أنتظر منها، ليس أكثر ولا أقل، سوى اتباع مبادئ إعلان استقلالها والتزام ميثاق الأمم المتحدة لحقوق الإنسان.

لقد منح العالم الغربي بعد الحرب العالمية الثانية وبعد الهولوكوست اليهود الناجين من المحرقة أرض فلسطين هدية لهم، وذلك لاسترضائهم عن أخطائهم التي ارتكبوها بحرقهم، وبهذا أقام اليهود الصهيونية دولة لهم على حساب الشعب الفلسطيني الموجود هناك في الأصل. ولم يكن دعم العالم الغربي للدولة اليهودية سوى تكبير عن الظلم الذي لحق بهم في أوروبا. وبهذا ظهر ظلم جديد، ظلم سواء أكان غير معلوم لكثيرين بعد السنوات الأولى لتأسيس الدولة اليهودية حتى عام 1967، أو ظلم جرى السكوت عنه بوعي ومعرفة.

في الواقع، ما عاد ممكناً بعد حرب الأيام الستة في عام 1967 التفاوض عن الظلم الذي ألحقته إسرائيل بالفلسطينيين، ولا سيما بعد أن بدأ الشعب الفلسطيني بالضال ضده. أما موقف الشعوب في كل من أميركا وأوروبا فقد كان متقسماً: هناك القلة القليلة التي دعمت حق الفلسطينيين، في حين كان موقف الأغلبية العظمى الوقوف إلى جانب إسرائيل. لكن حينما ازدادت وتيرة

انتقاد السياسة الإسرائيلية مع مرور الوقت، مدأ مروجو هذه السياسة وداعموها بانها من ينتقد إسرائيل بمعاداة السامية وتوظيف هذه الاتهامات لخدمة أهدافهم.

ثمة كثير من الإسرائيليين ممن يكتلب على نفسه كثيرًا، وذلك لعدم الرغبة في تصديق أنهم يتركبون ذنبًا بحق الشعب الفلسطيني. تقول إحدى أساطير تأسيس دولة إسرائيل إن الفلسطينيين لم يُطردوا من أراضيهم بل غادروها "طوعية". لكن هل رأينا في التاريخ مثلاً واحداً عن لاجئين يخرجون من أراضيهم طوعية: لا، ما يدعيني دائماً هو عدم رغبة اليهود أنفسهم في رؤية هذا: أن التاريخ اليهودي ممتلئ بالهجرات القسرية "الطوعية"، مثلاً الهجرات بسبب المذابح في روسيا وأيضاً الهجرات بسبب الاضطهاد في ألمانيا النازية. لنذكر دائماً أن اللجوء هو دائماً قسري، ولا بهم ما إذا أجبر الناس عليه باستخدام العنف ضدهم أو إذا ما قام به البشر خوفاً من تعرضهم للعذاب، كما حصل مع الفلسطينيين، مثلاً حينما ارتكب الإسرائيليون مذبحة بحقهم في دير ياسين قرب القدس قبل أيام قليلة من تأسيس دولتهم. كان المسؤول عن هذه المجزرة صاحيم بيغن الذي أصبح لاحقاً رئيس الوزراء. حينذاك تغاضى دافيد بن غوريون الذي كان أول رئيس وزراء لإسرائيل عن هذه المجزرة وكان راضياً عليها ضمناً. ولاحقاً ذكر بيغن في كتابه الثورة (The Revolt) على نحو صريح وواضح أن مجزرة دير ياسين قد أدت بالأساس إلى "تطهير عرقي" في فلسطين وساهمت في تأسيس دولة إسرائيل.

لقد تربيت أنا على الأخلاق اليهودية، وتعلمت أن لكل إنسان الحق في الاختيار بين الخير والشر وكل شخص مسؤول عن أفعاله. ولكني للأسف، هناك اليوم أخلاق وأسس مغايرة أخرى تنطبق على أجزاء من اليهودية الحالية. ثمة كثير من يعتقدون أن الهولوكوست تمنح اليهود الحق في تجاوز القوانين القائمة والأخلاق العالمية لكن هذا لا يسمح لنا بأن نكون ضد الألمان، فضلاً عن الفلسطينيين الذين لم يكن لهم ذنب قط في حدوث الهولوكوست.

في الحقيقة يقف عدد كبير من المواطنين الإسرائيليين واليهود في العالم

على الفد من سياسات إسرائيل غير المفهومة ويراغصونها. والحال ذاته ينطبق على الأوروبيين الذين يتعدون أكثر فأكثر عن إسرائيل للأسباب ذاتها. أما الصهاينة، من جانبهم، فلا يرغبون في استيعاب ذلك، بل يفضلون الاعتقاد أن كثيرًا من الناس في أوروبا، إن لم يكن جميعهم، لا يحبون اليهود. وهذا ما يجعل الأمور بالسهة إليهم أسهل. وأتذكر حين انفجرت قنبلة في تل أبيب قبل سنوات عدة وأسفرت عن موت عدد من الأشخاص أن جريدة ييلد تسليونغ الألمانية كتبت حينذاك بالأحرف الكبيرة "إننا نكفي مع إسرائيل" (WIR SINDEN MIT ISRAEL). إلا أنني لم أشهد في حياتي كلها أن أيًا من وسائل الإعلام الألمانية أو الرأي العام الألماني قد بكى وتعاطف مع فلسطين، مثلاً حينما انفجرت قنبلة ثقيلة في إحدى المناطق السكنية في قطاع غزة وأسفرت عن موت أكثر من مئة شخص، من بينهم كثير من العائلات والأطفال والرضع. وأيضًا ينطبق هذا الوضع على روسيا، حيث لا تشهد تعاطفًا لو حصل اعتداء وقتل بسببه المئات من البشر.

إن هذه المواقف بدأت بالتغير كما نلاحظ. الآن يدرك السياسيون الألمان أنفسهم أن تصرفات إسرائيل في المناطق المحتلة تواجج الكراهية وتزيد من خطر الإرهاب. وثمة جملة تعبر حيدًا عن هذا الوضع قالها بيتر أوستينوف (Peter Ostrov): "الإرهاب هو حرب الفقراء (والضعفاء)، والحرب هي إرهاب الأغنياء (والأقوياء)".

بإمكان الجميع أن يدرك أن أساس الأيديولوجيا الصهيونية هو الشوفينية والعنصرية والكولونيالية التوسعية. حتى إد المستوطنين الإسرائيليين الراديكاليين والمتعصبين أنفسهم لا ينكرون هذا حاليًا أو يخفونه. من هنا، فإن الادعاء المستمر بأن كراهية اليهود تقف خلف معاداة الصهيونية ليست سوى ادعاء باطل. ثم لماذا يجب أن نخفي معاداة السامية نفسها وراء معاداة الصهيونية، إذا ما غدت اليوم من جديد كما يُزعم شائعة جدًا؟ هنا يتم جمع كل الحجج التي تتوافق مع الأهداف الأيديولوجية حتى لو كانت غير منطقية.

هل انتقاد قمع اليهود لشعب آخر هو بالفعل عدااء للسامية؟ لقد سبق

لكارول ماركس، وهو من عائلة يهودية وحفيد حاخام، أن قال: "إن الشعب الذي يجمع شعباً آخر، لا يمكن أن يكون هو نفسه حراً". وبناءً على هذا فلا يمكن إسرائيل ذاتها أن تكون حرة. كما أن اليهود الذين يدعمون إسرائيل على نحو أعمى، يربطون أنفسهم بهذه الدولة اليهودية غير الحرة. لماذا هذا؟

الحال أنه ومنذ سنوات تُنتقد هذه السياسة من جانب الإسرائيليين أنفسهم، مثل أوري أفيري وجدهعون ليفي، وكذلك من جانب يهود مثل نوام تشومسكي ورولف فريغر، طبقاً فضلاً عن سياسيين من كل أصقاع الأرض. في المقابل تحاول إسرائيل تصوير هؤلاء الناقدين لإسرائيل على أنهم معادون للصامية، أما إذا كان هؤلاء الناقدون يهوداً، فتجري إدانتهم بتعريف "اليهود الكارهين لأنفسهم". هنا ينبغي للتذكير بحفل سنة ملايين يهودي في الهولوكوست أن يحملنا على تحمّل مسؤولية خاصة إنها المسؤولية في رفع الصوت في وجه كل شكل من أشكال القمع والعصوية أو التمييز، وبغض النظر أكان ذلك في جنوب أفريقيا أو النيت أو تركيا أو فلسطين.

إسرائيل تفقد التعاطف معها

كسب اليهود في عام 1945 تعاطف العالم أجمع. وبعد مدة وجيزة عندما أقاموا دولة إسرائيل حصدوا إعجاب العالم أجمع ودعمه، على الرغم من أن تأسيس هذه الدولة بدأ يظلم كبير، وبالتحديد مع طرد أكثر من 800,000 من سكان فلسطين وبمرور السنين. تحول هذا الإعجاب والتعاطف والرغبة في المساعدة إلى نقد وفي النهاية إلى رفض. وما يشير الإزعاج أن إسرائيل لم تعترف بهذا الظلم الذي ألحقته بالمسلمين في عام 1948 وبعده في عام 1967، وأيضاً في عدم إيجاد حل إلى الآن للصراع العربي - الإسرائيلي. وما عاد خافياً على أحد أن هذه المسؤولية، التي يحظىها الإسرائيليون، تقع أساساً على عاتق إسرائيل.

من الطبيعي بالنسبة إلى شخص مثلي أمضى أكثر من أربعين عاماً في العمل ضد سياسة إسرائيل، والتظاهر ضدها، والكتابة ونشر الكتب والقاء

المحاصرات ألا يجد ما يدعو إلى العسرة وأن يكون دائمًا يائسا. إلا أن بضيض أمل بدأ يصعد في الأفق في الآونة الأخيرة. ذلك أن دولاً مثل بريطانيا وفرنسا والسويد والولايات المتحدة، وحتى ألمانيا التي تتحمل العبء الأكبر والمسؤولية في حدوث الهولوكوست، فقدت صبرها أمام ما تفعله إسرائيل. وفي عام 2016 عُيِّن نائب رئيس كتلة الحزب الاشتراكي الديمقراطي في البرلمان الألماني رولف مونتسنيخ (Rolf Muntenich) في لقاء مع مجلة دير شبيغل قائلاً: تتحرك الحكومة الألمانية أن تنبأهو يستغل صداقتنا. ومن المتوقع من وزارة الخارجية ومكتب الاستشارة إعادة التفكير في هذه المسارات، وثمة إشارات تدل على تغير موقف الحكومة الاتحادية.

يجب ألا يغيب عن ذاكرتنا أن معظم المهاجرين اليهود الذي هاجروا إلى فلسطين، ولاحقاً إلى إسرائيل، لم يهاجروا سبب سحر ما اجتذبتهم من خيالات إلى هذه الأرض، بل بسبب رغبتهم في الهروب من الصعوبات السياسية والاقتصادية وحالات الاضطهاد ضدّهم في أوطانهم الأصلية، فضلاً عن إحصاء جميع الأبواب الأخرى في وجوههم. قد لا يكون الأمر أن كلهم كانوا صهيبة متحمسين، وربما أقلية لحسب، ولكن في كل الأحوال لم يكن أمامهم من خيار آخر. وحتى يهود إثيوبيا لم يستطيعوا الهجرة إلى إسرائيل سوى لاحقاً كما هو الأمر كذلك مع يهود الاتحاد السوفياتي، الذين انتقلوا منه لاحقاً صوب ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

ليس من الضروري أن يختار اليهود إسرائيل مكاناً للهجرة إذا ما أتبع لهم أن يختاروا أو إذا كان لهم خيار آخر. لتذكر هنا في هذا السياق أنه حينما انتهار نظام الأبارتهايد في جنوب أفريقيا في تسعينات القرن الماضي، هاجر كثير من اليهود الذين كانوا يعيشون هناك إلى أميركا وبريطانيا وأستراليا ولم يتجهوا صوب إسرائيل. والحال ذاته كان مع يهود العراق الأعيتاء وميسوري الحال الذين هربوا من القومية العربية في ظل حكم صدام حسين وأسلافه، فلم يهاجروا إلى إسرائيل وإنما توجهوا إلى أميركا وكندا وبريطانيا طبعاً ما عدا أولئك اليهود الذين لم تكن لهم وسائل وخيارات أخرى، فقد نُقلوا إلى إسرائيل

بواسطة سلاح الجو الإسرائيلي، وكان عليهم بعدها العيش لفترات طويلة في إسرائيل في مخيمات وعوملوا على أنهم إسرائيليون من الدرجة الثانية. خلاصة القول إن الصهيونية وإسرائيل لم تكونا قط حلم كل اليهود، وهذا الأمر يمكن قوله أيضًا في الوقت الحالي.

نشر ناشط السلام الإسرائيلي أورفي ألغيزري في تموز/يوليو 2016 في صحيفة هآرتس رسالة مفتوحة طالب فيها فئة الشباب الإسرائيلي في الخارج بالعودة إلى إسرائيل. وذلك لإطاحة حكومة نتنياهو اليمينية. وكان حواب إحدى الفتيات المعنيات بهذا الخطاب غاصبًا، ذلك أنها لا ترى فائدة بإعدادها وقتها في محاولة تعير دولة أصبحت الحياة فيها بالنسبة إليها لا تطاق. فكتبت "الشعب الذي اختار العيش في صهيون، قد اختار طريقه على نحو محدد"، وأنها تقبل برأي الأكثرية، إلا أنها لا ترى نفسها ملزمة البقاء في إسرائيل والمعاناة تحت وطأة قرار الأكثرية؛ وتكمل قائلة: "لا توجد كلمات تصف الأسى إزاء هذه الحروب المستمرة والعنف في الشوارع، وفساد السياسيين الإسرائيليين والفلسطينيين، وارتفاع تكاليف المعيشة التي تختنق، فضلًا عن الإكراه الديني الذي يجعلني حبسة المنزل كل يوم عطلة، وأيضًا نظرًا إلى حقيقة أنني لا أستطيع الزواج من دون التكييل بالحاخام الذي يرى في ذاتي ملكة خاصة لزوجي". فلا يوجد مستقبل في إسرائيل للأشخاص العلمانيين أو ذوي المواقف الليبرالية. إنها لا تنوق إلى الحياة في برلين أو في أميركا، ولكنها لا ترغب في العيش في بلد حيث يصرّح أحد الوزراء علنًا: "نحن يحصل الفلسطينيون أبدًا على دولة خاصة بهم، وسيتم حكمهم دائمًا من جانب إسرائيل".

بالفعل، هذا ما صرح به نائب وزير الدفاع الإسرائيلي إيلي من دهان؛ ويمكن المرء، إضافة إلى ذلك، إيجاد أدلة على تصريحات راديكالية عنصرية في صفحات غوغل ويوتيوب. وهذا ما يتصرف به أيضًا مسؤولون في الجماعة اليمينية "عطيرت كوهسيم" (Atzeret Kohanim) (وتعني تاج الكهنة)، حينما يصادفون مئات المنارل للفلسطينيين ويسئلون عليها، ويقاضون السكان، ويعملون على إقفارهم من خلال عمليات قاترية طويلة، ومن ثم يقدمون لهم

كفأوب نجاه معترضى، الملايين من الشيكلات لتسجيل منازلهم فى السجل العقارى لهذه الجماعة اليمينية.

كثير من اليهود الآن الذين يتأون بأنفسهم عن مكائد كهذه يتزايد عددهم، لا بل حتى أولئك الذين أمضوا حياتهم كصهاينة وكانوا دائماً من داعى إسرائيل، ومنهم ستيفن ليفيسكى (Steven Levitsky)، أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفرد، وغلن ويل (Glenn Weir)، الأستاذ المساعد فى الاقتصاد والقانون فى جامعة شيكاغو، اللذان يصفان نفسيهما بأنهما صهيويان، تجرأ على إدانة إسرائيل بسبب سياستها الاحتلالية ودعوا علناً إلى مقاطعتها. وفى 27 تشرين الأول/أكتوبر 2015 نشرنا رسالة مفتوحة فى صحيفة واشنطن بوست، جاء فيها:

"لقد كنا طوال حياتنا صهيونى، ودعمنا إسرائيل كما دعمها اليهود التقدميون الآخرون فى أمريكا، ذلك أننا كنا مقتنعين، أولاً، بضرورة وجود هذه الدولة لتجنب شعباً أئى كولوت فى المستقبل، وثانياً، بأن وجود الدولة اليهودية - كنزى تعلما من الهولوكوست - لا يمكن أن يكون سوى ديمقراطى يقوم على أسس حقوق الإنسان العالمية. وكنا نظن أن التدابير غير الديمقراطية لدولة إسرائيل، كاحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة، هى تدابير مؤقتة لحسب.

ولكن علينا الآن الاعتراف بحقيقة أن الاحتلال أثبت أنه وضع دائم، ونعلم أيضاً أنه، بعد مرور نصف قرن على حرب الأيام الستة، تحولت إسرائيل إلى دولة شبيهة بدولة الفصل العنصرى، الأبارتهايد، التى حفر منها كثير من قادتها السابقين. لقد ازداد عدد المستوطنين فى الضفة الغربية ثلاثين ضعفاً من 12.000 فى عام 1980 إلى 389.000. حتى إنه يُنظر إلى الضفة الغربية حالياً وعلى نحو متزايد على أنها جزء من إسرائيل، كما تمت الآن إزالة الخط الأخضر الذى يشير إلى الأراضى المحتلة فى كثير من الخرائط. كما صرح رئيس إسرائيل مؤخراً رؤوبين ريفلين أن مسألة السيطرة على الضفة الغربية "ما عادت مسألة جدل سياسى، لقد أصبحت حقيقة أساسية للصهيوية الحديثة".

لقد ساهمت حركة المستوطنات المتنامية والعدد المتزايد لليهود الأرثوذكس الشوفينيين في تأجيج نمط يهودي راديكالي أدى بدوره كذلك إلى الانعزال عن السكان العرب الأخذ عددهم بالتنامي. وإضافة إلى ذلك، تدهور الوضع الأمني على نحو كبير بسبب الاحتلال الدائم منذ حربي 1967 و1973. ورغم أن وجود إسرائيل بتفوقها العسكري على جيرانها العرب بات غير مهدد، فإنه، كما أوضح المديرون السابقون لجهاز الاستخبارات الداخلي الإسرائيلي، شبن بيت، في عام 2012 في الفيلم الوثائقي "حراس البوابة" ("The Gatekeepers") لقد أجبر الاحتلال إسرائيل على خوض حرب غير متكافئة، حرب أضرت بسمعة إسرائيل الدولية وحذت من قدرتها وإمكاناتها على الدخول في تحالفات إقليمية لمحاربة المتطرفين العنصريين. إنه هذا الاحتلال الذي يجسد في نهاية الأمر السبب الرئيسي لعنف الفلسطينيين.

في الواقع، أضرت سياسات إسرائيل، التي اتقدها شعب ليفيشكي وغلين وويل، بسمعة إسرائيل واليهود في جميع أنحاء العالم، سواء تعاملوا بأنفسهم مع إسرائيل أو لا. لقد كتب كل من ليفيشكي وويل أن ما يؤسف له أن تغدو المعارضة في إسرائيل أكثر ضعفاً في الوقوف ضد خطاب الحكومة. كما أن الأغلبية العظمى في إسرائيل، حتى العلمانيون منهم، يشعرون بالأمان في الوقت الحاضر بفعل الانتعاش الاقتصادي والأمن النسبي الذي يوفره نظاماً الجدار العازل والدفاع الصاروخي "الفة الحديدية"، ولا يرون ضرورة للسير في طريق صعبة نحو اتفاقية سلام دائم؛ ذلك أن هذا يعني بالنسبة إليهم أنه يجب على مواطنيهم مغادرة المستوطنات في الضفة الغربية، فضلاً عن وجوب اعتراف إسرائيل بمعاناة الفلسطينيين وتحملها هذا الذنب الأخلاقي.

لقد وصلنا منذ وقت طويل إلى نقطة حرجية لا يمكن العودة عنها أو التراجع حيالها، فبناء المستوطنات غير المقيد والتطورات الديموغرافية ستجعل من غير الممكن تغيير المسار في الوقت القريب. لقد دعمنا لسنوات الحكومات المتعاقبة، على أمل أن تتعامل إسرائيل بما يتوافق مع مصالحها الخاصة على الأمد الطويل. إلا أن هذه الاستراتيجية فشلت، وبهذا ساهمنا

في هذه التطورات الكارثية. إن إسرائيل لم تحقق في الواقع الأمل في اتخاذ القرارات الضرورية والصعبة من دون ضغوط خارجية.

إن من المزمع بالنسبة إلى جميع الذين دعموا إسرائيل ممارسة ضغوط خارجية عليها؛ فالوسيلة الوحيدة المتبيلة لكي تقوم السياسة الإسرائيلية بتغيير نهجها هو منع الدعم المالي والدبلوماسي الذي تتلقاه من الولايات المتحدة الأمريكية إضافة إلى مقاطعة البضائع والخدمات وسحب الاستثمارات منها. وبالطبع، لن يكون من الكافي ممارسة مقاطعة المنتجات التي تصنع في المستوطنات بحسب لبحث إسرائيل على إعادة التفكير جذدياً في الوضع الراهن.

هذا هو السبب في رفض ليفينسكي وويل "على مضض ولكن بحزم" السفر إلى إسرائيل، ومقاطعة البضائع المنتجة في إسرائيل ودعوة جامعتيهما وممثليهما المنتخبين إلى رفض دعم إسرائيل. "ما دامت إسرائيل لم تدخل في عملية سلام تقود إما إلى دولة فلسطينية ذات سيادة وإما تضمن للفلسطينيين حقوق المواطنة لهم ضمن دولة مشتركة، فلن نكون قادرين على دعم السياسة الإسرائيلية أكثر من ذلك، وذلك لتهديدها على الأمد الطويل وجود إسرائيل نفسها".

بالطبع ليست إسرائيل الدولة الأسوأ في انتهاكها لحقوق الإنسان في العالم، لكن لم تظهر بعد المعايير المزدوجة للدعوة إلى مقاطعة إسرائيل، وذلك سبب حب إسرائيل والقلق العميق بشأن بقائها، وهو أمر لا ينطبق على الدول الأخرى. والحال أن مقاطعة إسرائيل ستكون ملزمة، بخلاف دول أخرى، مثل كوريا الشمالية وسورية، اللتين تحتلان صورة سيئة دولياً. ولن تستطيع الحكومة الإسرائيلية من دون الحماية التي تؤمنها لها الولايات المتحدة الاستمرار في هذا النهج الكارثي الذي تسير عليه.

ولنتذكر دعر وقلق تيودور هرتزل نفسه، مؤسس الصهيونية، من حالة الفصل العنصري التي سادت جنوب أفريقيا، فهو يؤكد: "إننا لا نرغب في

أن تكون كدولة البوير^{١١١} بل نزلت في أن تكون كمدينة البديلة. فمن هذا المنطلق، وحفاظًا على هذه الرؤية من هزول، يجب على الصهاينة الأميركيين اليوم ممارسة ضغوط على إسرائيل من أجل إتخاذ البلاد.

من الأمور التي تساعدني في الهدوء عندما أشعر بالسخط من إسرائيل، هو التفكير في ما تحويه القصة التوراتية عن إبراهيم والرب، وذلك حينما طلب إبراهيم من الرب أن يراف بمدينة سدوم إذا كان يعيش فيها عشرة أشخاص صالحين. والرب كان مستعدًا لتحقيق هذا الرجاء، إلا أن سدوم لم يكن يقطنها عشرة صالحين. وهذا ما دفع إبراهيم إلى الطلب من الرب أن يخفض هذا العدد إلى شخص صالح واحد، إلا أن حتى هذا الشخص لم يكن له وجود في سدوم، وفي النهاية عرفت سدوم بأكملها. ولم يُسمح بمغادرة سدوم سوى نصير (ابن أخي) إبراهيم، لوط، مع زوجته (وابنتيه)، لأنهم في الأساس لم يكونوا من سكانها، وإنما ضيوفًا عليها.

اليوم هناك كثير من الناس الصالحين يعيشون في إسرائيل، لهذا لا يجوز تكسير العصي على جميع أنحاء البلاد. بيد أن إسرائيل نفسها تنحى إلى الانتحار حين تستمر في سلوكها هذا. وللأسف، فإن العلامات الأولى على ذلك نادية أمام أعيننا. فالى جانب خطر القومية الذي يزداد يومًا بعد يومًا، نجد صعوبة متزايدة للأصولية الدينية في إسرائيل، والتي تعتبر أكثر خطورة من سابقتها القومية، وذلك لأن هذه الأصولية تتشابه بسماتها مع الإسلام الأصولي في بعض الدول العربية. لتتدد على أن الصهيونية في حالة تحول هائل. وبالفعل، يمكننا التأكيد أننا نواجه اليوم نقطة تحول بعد مرور مئة عام على وعد بلفور في عام 1917، الذي صدر قبل وقت قصير من الثورة الشيوعية في العام نفسه. لقد أصبحت الثورة الشيوعية في روسيا مجرد ذكرى. وعمومًا، فإن الأمور لم تحسم بعد، في ما إذا كان مصير الصهيونية سينتهي في النهاية كما مصير الشيوعية.

(١١) جمهوريات البوير أو دول البوير سلسلة من الدول التي أسسها البوير في المستوطنات المسيحية الهولندية الذين توصلوا في أفريقيا، وذلك في أواخر القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر في مناطق من جنوب أفريقيا وناميبيا الحالية (المترجمة)

الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط تلغي نفسها

كان حلم مهندس الصهيونية الأوائل تأسيس دولة خاصة لليهود، وقد نجحوا في ذلك. أما هدف الصهيونية الآخر فكان يمثل بناء مجتمع جديد ديمقراطي وحر وعادل يتوافق مع القيم الأخلاقية اليهودية، وبأن تسود العدالة بما يتماشى مع الأنبياء التوراتيين إلا أن إسرائيل اليوم بعيدة كل البعد من هذا الهدف. ولنتذكر حلم نيتودور هرتزل بإيجاد "وحدة أخلاقية وروحانية" كان من المفترض أن تتحقق في إسرائيل. بصور هرتزل في روايته الأرض القديمة الجديدة (Zionland) يوتوبيا دولة يعيش فيها اليهود إلى جانب غير اليهود بسلام، هذا رغم حلمه السابق بدولة لليهود فحسب. كما أن الكاتب الصهيوني الروسي ذا الأصل الاشتكاري فلاديمير جابوننسكي (Vladimir Jabotinsky) الذي يُعتبر مؤسس الجناح القومي الإصلاحي للصهيونية، كان يحلم كذلك بـ"صهيونية بيضاء"، وهذا بالضبط ما كان يقصده بها. أما دافيد بن غوريون، مؤسس دولة إسرائيل، فكانت رغبته تتجسد في خلق "مجتمع نموذجي" يكون "منارة للشعوب"، والحال أن جميع هذه الأحلام قد فشلت.

إن إسرائيل تسير اليوم في أفضل طريق للتخلي عن الديمقراطية. فكثير من القوانين التي صدرت في السنوات والشهور الأخيرة هي قوانين معادية للديمقراطية. كما تألف الحكومة من وزراء عنصريين معادين للعرب ويعبرون تعبيراً صريحاً وواضحاً عن أن الأمر الأشد أهمية بالنسبة إليهم هو أن تغدو إسرائيل دولة يهودية أكثر من أن تبقى ديمقراطية؛ حتى إن كثيراً من هذه القرارات لا يخرق الدستور الإسرائيلي فحسب، بل يطر من المبادئ العالمية للحقوق والديمقراطية.

في تشرين الثاني/نوفمبر 2014 تقدم حزب المستوطنين اليميني، البيت اليهودي، بقيادة نفتالي بينيت، شريك الائتلاف الحاكم بقيادة رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو، بمشروع قانون للبرلمان الإسرائيلي يجب بموجبه الوصول إلى أغلبية ليست كبيرة في الكنيست، 61 نائلاً من أصل 120، وذلك لنقض الأحكام التي تصدر عن المحكمة الدستورية العليا للبلاد أو بالتالي إلغاؤها.

وكان السبب وراء هذه المائدة هو السخط من حكم المحكمة الدستورية الذي أخفق للمرة الثانية في قانون مُعد ضد المهاجرين غير الشرعيين حيث إن الحكومة كانت قد حطّطت لوضع المهاجرين غير الشرعيين من أفريقيا، ولعدة عام تقريباً في مخيمات لجوء من دون أي إجراءات محاكمة أو حتى جلسات استماع، وهذا ما اعتبرته المحكمة العليا عملاً غير إنساني.

وهنا يمكن الإشارة إلى مقترح آخر كان يهدف إلى تمكين أغلبية بسيطة من النواب، عددها 61، من استبعاد أعضاء آخرين من الكنيست في حال لا يتوافق هؤلاء مع هذه الأغلبية. من هذا المنطلق يمكن القول إن الدولة التي تستطيع فيها الحكومة إلغاء قرارات المحكمة الدستورية العليا هي دولة ذات ديمقراطية زائفة. والحكومة هنا تنصّب نفسها فوق القانون، كما يسود هنا استبداد الأغلبية. ولحسن الحظ لم يجد مشروع ذلك القانون أغلبية مؤيدة له؛ بيد أنه، مع ذلك، كان يتلام مع سلسلة كاملة من القوانين التي يستطيع بواسطتها الشريك البعني لائتلاف رئيس الوزراء تنهאו، فتأتي، بينت، الضغط على رئيس الوزراء والتحكم فيه. ومن بين هذه القوانين قانون الكبة، الذي يسمح لوزير المالية الإسرائيلي بقطع وتقليص المنح الحكومية للمؤسسات التي تحتفل بيوم استقلال إسرائيل بربطه بطرد الفلسطينيين. ومثال آخر يسمح لأحد القوانين في بعض المناطق الصغيرة في إسرائيل - لأسباب مختلفة، ترفض مرشحين معينين في الانتخابات وعموماً، فإن كل هذه القوانين موجهة ضد الأقلية العربية والمسلمة في البلاد التي يتم تهميشها تهميشاً متزايداً.

بالفعل، أظهر أيضا النقاش في مسألة قانون الدولة القومية ذلك المدى في تحوّل إسرائيل نحو اليمين، حيث يفيد هذا القانون بإعلان إسرائيل دولة يهودية وبكونها "وطن الشعب اليهودي". لقد نصت الفقرة الأولى من الدستور على ما يلي: "ممارسة حق تقرير المصير في دولة إسرائيل حصرياً للشعب اليهودي". وموجبه يُعتبر رسمياً كذلك مواطنو الطوائف الدينية الأخرى مثل المسيحيين والمسلمين والدروز مواطنون من الدرجة الثانية. وقد علّق معهد إسرائيل للديمقراطية بشأن هذا المقترح على النحو التالي: "إن مقترحاً كهذا

لغير ضروري، بل هو خطير ويعمل على تدمير التوازن بين جوهرَي الدولة الأساسيين: اليهودية والديمقراطية. وفي بداية تشرين الأول/أكتوبر 2015 منع رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو من المحطات الأخيرة هذا القانون الذي يسيء التمييز ضد المواطنين الإسرائيليين غير اليهود.

في تموز/يوليو 2016 انتقدت جريدة هآرتس قرار وزارة التربية تخفيض الدعم المالي عن الطلاب الدارسين العرب إلى النصف، مع العلم أن هذا القرار لم يشمل أقرانهم من اليهود. ومع أن كلا المجموعتين مواطنون إسرائيليون. وهنا نذكر أن كلمة مواطنة (Staatsbürgerschaft) في إسرائيل تكتسي طابعاً خاصاً للغاية. حيث يحتل في الأوراق الرسمية عند حانة القومية لفظة: يهودي. بينما عند الإسرائيليين العرب تدوّن فقط لفظة: عربي، ويكتب عند الدروس: توري، طبعاً يأتي هذا مع عدم التمييز بين المسيحيين والمسلمين من العرب.

كان العبور لهذا الإجراء حجة تزايد عدد المدرسين العرب في المدارس اليهودية تزايداً كبيراً رغم أن كثيرين منهم لا يدركون سوى العربية. ومن هنا يبدو الأمر جلياً مرة أخرى أن عرب إسرائيل لا يمتلكون الحقوق نفسها التي يمتلكها المواطنون اليهود. فقرار كهذا يفتي العصرية القومية التي تسود إسرائيل. لا بل حتى برلين تُظهر الآن مدى القلق الذي تشعر به إزاء هذا المناخ السياسي الداخلي¹⁷ في إسرائيل. وهذا ما يمكن قراءته في صحيفة شيفيل أون لاين¹⁸ (SPIEGEL-ONLINE). كما ترغب إسرائيل، من خلال القوانين، في فرض مزيد من القيود على عمل المنظمات المتقدمة للحكومة، والتي تشمل كذلك كثيراً من المنظمات الألمانية. وهنا نجد على غير المعتاد التقيد الحاد للحكومة الألمانية والبرلمان الألماني.

كان الصحافي جديعون ليفي قد كتب في آب/أغسطس 2016 في جريدة هآرتس أن الديمقراطية في إسرائيل تعيش أزمة عميقة، حيث تقلد يومياً وتعمّر

(17) لا شك في أن الأمر يكتسي حسية شديدة عندما تدخل الحكومة في الشؤون الداخلية لدولة أخرى. وهذا ما يمكن قوله بصوت في سباق العلاقات الألمانية - الإسرائيلية من هنا يجب أخذ سؤال "لماذا الحكومة الألمانية من المناخ السياسي الداخلي" (SPIEGEL-ONLINE) على محمل الجد.

مشاريع قوانين عربية. مثلاً، مرّر قانون في شباط/فبراير 2017 يُحظر بموجبه على المساجد أن يُرفع فيها صوت المؤذن عبر مكبرات الصوت، على الرغم من أن 20 في المئة من سكان إسرائيل هم من المسلمين، ومن أن هذا الأمر لم يشكل أي مشكلة طوال 20 عامًا. وثمة مثال آخر يتجسد بقانون يُمنع بموجبه الإسرائيليون من الدعوة إلى مقاطعة إسرائيل. وفي الحقيقة، وعلاصة الأمر، أن رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو وأعوانه حولوا إسرائيل إلى نظام استبدادي لم يعد بالإمكان وصفه بالديمقراطية.

في شباط/فبراير 2017 صوتت البرلمان الإسرائيلي بأغلبية صغيرة على قانون مثير للجدل يعزز سلطة الاحتلال والاستيطان في الضفة الغربية على نحو دائم كما يجعل حل الدولتين أمرًا مستحيلًا. والحال أن الحكومة الإسرائيلية تريد بهذا وفقًا للقانون الإسرائيلي "تسريع" وجود الآلاف من مساكن المستوطنين على الأراضي الفلسطينية. وقد تم الترخيص بأثر رجعي لبناء قرابة 4000 منزل للمستوطنين الإسرائيليين في الضفة الغربية المحتلة، رغم أن البناء تم بشكل غير قانوني على أراضي خاصة بالفلسطينيين، حيث صوت 60 نائبًا من أصل 120 في الجلسة الثالثة والأخيرة مع هذا القانون، في حين أن 52 نائبًا من المعارضة وثمانية نواب عرب صوتوا ضده، وهنا فإن المحكمة العليا في إسرائيل هي المخولة الوحيدة إسقاط هذا القرار.

كان السياسيون اليمينيون المنطرفون يسمون مع هذا القانون لمنع عمليات إخلاء تلك المستوطنات غير القانونية، كما هو حال المستوطنة المثيرة للجدل، مستوطنة عمونا، شمال رام الله، والتي بنيت على أراضي فلسطينية. وفي عام 2014 صدر أمرٌ عن المحكمة بإخلاء المستوطنة، بيد أن الحكومة نجحت بالطبع الصراع مع المستوطنين. وتعميلاً عن هذا الإخلاء أعلنت الحكومة الإسرائيلية في شباط/فبراير 2017 إنشاء 3000 مسكن جديد للمستوطنين، على أن يتم فوراً إنشاء 2000 مسكن وفي الوقت الحالي تُسرّع في بناء مستوطنة جديدة بدلاً من مستوطنة عمونا.

نتيجة لذلك يعيش في هذه الأثناء قرابة 600.000 إسرائيلي في أكثر من

200 مستوطنة في كل من الضفة الغربية والقدس الشرقية، أي ما يشكل 10 في المئة من السكان وللعلم، فإن إسرائيل تعبر رسمياً إلى الآن بين المستوطنات التي تُبنى بموافقة رسمية من الحكومة، وتلك غير القانونية التي تجري "شرعنتها" بموجب قانون جديد ذي أثر رجعي. لكن، من وجهة النظر الدولية، ما من فرق بينهما هنا، حيث إن جميع المستوطنات المبنية في الأراضي المحتلة تُعتبر غير شرعية قانونياً.

والحال أنه غالباً ما يشار إلى أن إسرائيل هي الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط. لكن السؤال الذي يُطرح: إلى متى؟ ثمة كثير من الإسرائيليين أنفسهم يرون أن إسرائيل تتجه نحو السقوط. وحتى لو بقيت هذه الدولة لبطانة حقوق أخرى، يبقى هذا السؤال، ما نوع هذه الدولة وشكلها؟ لقد صرّح عاموس عوز، أحد أشهر الكتاب الإسرائيليين وقد كُرم في ألمانيا منحه جائزة غوته، في إحدى المقابلات مع جريدة معايريف الإسرائيلية بأنه: "عندما نستمر في السيطرة على شعب آخر، فهذا يعني إما قيام دولة عربية وإما أننا سنُصبح دكتاتورية يهودياً يقوم بقصة من حديد بقمع كل من العرب واليهود الذين يحملون رايًا مخالفاً له، ولا أظن بوجود إمكانية طريق ثالث لذلك".⁽¹⁾

هكذا نجد تحول إسرائيل شيئاً فشيئاً إلى بلد يسوده مجتمع فاشي قومي- ديني، كما تنبأ بهذا الفيلسوف الديني الأرثوذكسي بشعياهو ليبوفيتش قبل خمسين عامًا، حيث رغم اعتباره الفلسطينيين عدوهم الرئيس، إلا أنه أيضاً مجتمع يستهدف الآن بالفعل حتى أجزاء من الشعب اليهودي: النساء والمثليين واليساريين، ولاحقاً كل من يخالفه الرأي.

هكذا أصبحت إسرائيل، كما هو حال أي أمة عندما يقمع جيشها ولعدة خمسين عامًا شعباً آخر بوحشية أو تعيش لمدة سبعين عامًا في بلد وعلى أرض تم مهبها من شعب مضغوط ومضطهد؛ أمة معتدة بنفسها، إلا أنها عمياء وصماء تجاه ظلمها للآخر، ومملوءة بالكراهية وعدم الحرية. لنختم هنا بأنه إذا كان

(1) مقابلة مع الصحيفة اليومية: Haaretz، 6/11/2013.

الفلسطينيون سجناء في سجن ضخيم في الهواء الطلق، فإن الإسرائيليين هم الحراس الوحشيون عديمي الرحمة لهذا السجن. ولنتذكر: في سجون كهذه لا يوجد أحد حر، حتى الحراس أنفسهم.

هل إسرائيل دولة دينية؟

هكذا فإن هذه "الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط" تتعد دائما عن بناء الديمقراطية الغربية. والأمر يُعثر من نواح عديدة حالة خاصة. فقد نلت إسرائيل مباشرة بعد تأسيس الدولة الإسرائيلية في عام 1948 الشريعة اليهودية، الهالاخاه. وهذا يعني مثلاً أنه لا يمكن لليهود الزواج من غير يهود، ذلك أن لا وجود للزواج المدني في إسرائيل، ولا يُسمح للمثاق والمطاعم بتقديم إلا الطعام "الكوشر" (الحلال). كما يتوجب على جميع المثاق التزام قواعد "يوم السبت"، وهو ما يعني أن على الزلاء من غير اليهود أيضاً التزام هذه القواعد، ومنها الامتناع عن استخدام المصعد، والامتناع عن التدخين وعن أكل البيض أيضاً في هذا اليوم.

لقد كُلف المجلس القومي اليهودي، [أي] الصيغة السائدة للكتيبات اليوم، حينما قامت دولة إسرائيل في عام 1948، صوغ دستور للدولة في غضون ستة أشهر، وهو الأمر الذي لم يتحقق إلى يومنا هذا بسبب عدم اتفاق الإسرائيليين العلمانيين والمثقفين الدينيين والقوميين على ذلك. وبهذا جرى اللجوء إلى إعلان الاستقلال وسلسلة من القوانين الأساسية التي تشكلت عبر الزمن بكونها الأساس المبدئي للحياة، هذا فضلاً عن تطبيق القوانين البريطانية التي كانت سارية في مرحلة الانتداب.

إسرائيل تقدّم نفسها على أنها دولة يهودية، الأمر الذي يمكن قراءته من خلال الاسم التوراتي "دولة إسرائيل" ⁽¹⁴⁾ (Medit Israel) وأيضاً العلم الوطني الذي يحمل نجمة داود. أما لونا العلم، الأبيض والأزرق، فمستوحيان من

(14) بالعبرية: מְדִינַת יִשְׂרָאֵל. (المترجمة)

لناس أو شال الصلاة الأزرق والأبيض، في حين أن الرمز الوطني، الشمعدان ذا السبع مواشير، يدل على ميثوراه⁽¹⁾. وحتى في ما يسمى "إعلان الاستقلال" لعام 1948 فإننا أمام طابع ديني يرتبط بشعب هذه الدولة اليهودي وبريقته التراثية لأرض إسرائيل وبصلواته في الشتات وروى أنبياء إسرائيل... وغير ذلك. ورغم أن مؤسس الصهيونية الحديثة [يودور هرتزل] حينما كتب كتابه في عام 1896 الدولة اليهودية كان يحلم بدولة ليبرالية ووطنية وليس بدولة دينية، فإننا نجد المؤسسات الحكومية والدينية في إسرائيل تشابك ومرتبط بعضها ببعض على نحو وثيق. كما تحكم قانونيًا المؤسسات الدينية ذات الأهمية الكبرى في إسرائيل، مثل المؤسسة الحاخامية العليا ومجالس الحاخامات المحليين والمجالس الدينية، بكثير من مجالات الحياة المهمة مثل الزواج والطلاق والجنائز، وأيضًا حتى النظام المدرسي يخضع لرقابة حكومية-دينية؛ هذا فضلًا عن أن تمويل المدارس الدينية والمعابد اليهودية وكذلك المساجد والكنائس والمؤسسات وموظفيها والعاملين فيها تقوم به الدولة.

لا يوجد فصل بين الدين والدولة في إسرائيل. وعلى الرغم من عدم ذكر دين رسمي للدولة، فإن اليهودية، سواء تشريعًا أو رمزيًا، تقف على نحو جلي وواضح فوق كل الأديان الأخرى.

هذا يبدو جليًا في ما يسمى "قانون العودة" الذي يُمنح بموجبه كل يهودي في العالم، بغض النظر عن مكان إقامته، الحق في الهجرة إلى إسرائيل والحصول على الجنسية الإسرائيلية هناك. ومنذ عام 1970 أخذ يسري الحكم الديني الأرثوذكسي الذي يُعتبر الشخص بموجبه يهوديًا بمجرد أن تكون أمه يهودية الأصل. ولا يُعَدُّ يهوديًا من اعتنق اليهودية لاحقًا أو من كان يهوديًا من جهة الأب فحسب وأمه تنتمي إلى دين آخر. من ناحية أخرى لا يزال الفلسطينيون الذين هُجروا من ماضيهم التي تحتلها إسرائيل اليوم يتظرون الاعتراف لهم بـ "حق العودة" لهم ولأحفادهم إلى وطنهم السابق.

(1) أو الشمعدان السبعي العبري القديم، ويرى أن موسى وصده في حيلة لا يحتاج في شريعة لم وضع في الهيكل في القدس. (المترجم)

أما المواقف الليبرالية العالمية في إسرائيل فإنها لا تنتشر سوى بين أقلية صغيرة فحسب، وهذا الأمر يرتبط بالعلاقة الخاصة بين الدين اليهودي والصهيونية. ثمة كثير من اليهود القوميين الذين يعتقدون بأن الرب قد اختار دولة يهودية بقيادة رعيم يهودي ولم يختار دولة ديمقراطية. فلو سمحت لهم الفرصة لفضّلوا تطبيق قوانين الشريعة اليهودية [الهالاخاه] اليوم قبل الغد في كل مجالات الحياة. وتعتبر الهالاخاه بمنزلة الفقه اليهودي كما هو الأمر في الشريعة عند المسلمين.

ووفقاً لما أظهره أحد استطلاعات الرأي المنشورة من جانب مركز أبحاث بيو (Pew Research Center) في واشنطن، في آذار / مارس 2016، فإن فكرة قيام دولة يهودية على أسس الشريعة اليهودية، الهالاخاه، تلاقى بين اليهود المتدينين في إسرائيل إقبالاً كبيراً: حيث يتعاطف مع هذه الفكرة ما بين 69 و 86 في المئة من اليهود المتدينين، في حين يرفضها 57 في المئة من اليهود التقليديين و 90 في المئة من اليهود العلمانيين. وتبلغ نسبة اليهود بين الشعب الإسرائيلي عمومًا 75.5 في المئة، من بينها 52 في المئة من الملحدين والعلمانيين. أما النسبة المتبقية 48 في المئة فهي تنقسم ما بين 15 - 20 في المئة من المتدينين الأرثوذكسيين وقرابة 10 في المئة من المتدينين القوميين. لكن لا ينبغي أن نسبة المتدينين القوميين تزايد تزايداً سريعاً، سواء بالزيادة الطبيعية للولادات أو بالقناعات الأيديولوجية.

صدرت في عام 2009 رواية بالألمانية للكاتب ليون دي فينتر (Leon de Winter) بعنوان حق العودة (Das Recht auf Rückkehr) وتصور تلقّص إسرائيل إلى حد "الدولة-المدينة" المؤقتة بإحكام والتي تغطي بشكل أساسي المنطقة المحيطة بتل أبيب. واليوم يمكننا القول إن دي فينتر كان محقاً في هذه الرواية التي أصبحت الآن تقريباً واقفاً، ذلك أن إسرائيل تتكون من كتلتين: تل أبيب، وبقية البلاد. كما أنه في وقت يعيش فيه الناس في تل أبيب بشكل مشور إلى حد ما باقى علمانية وميول غربية، نجد هيمنة المتدينين والمثقفين والمثقلين على بقية البلاد، وكأنهم يعيشون في زمن آخر.

هكذا مع هذه العيادات التشريعية الجديدة، تدعى إسرائيل الخطوات الأولى للتحول إلى دولة تسير وفق قواعد الشريعة اليهودية، الهالاهاه. إنها تسير بهذا في الجهة نفسها مع الدول المحافظة جداً والإسلامية مثل المملكة العربية السعودية وإيران، حيث إن الشريعة تمثل هناك القانون.

الأساطير التاريخية لإسرائيل

إنها حقيقة مدعاة أن المستصرين في حرب مد إلى جانب الغنائم التي يكسبونها، يكتبون رؤيتهم للتاريخ. ولكن إذا ما وُجدت اليوم شكوك متزايدة بشأن الرواية الرسمية للتاريخ الإسرائيلي، تلك الرواية التي تقول بنظرية "شعب بلا أرض" - "أرض بلا شعب"، فذلك بفضل وجود مؤرخين إسرائيليين جريئين بدأوا بإعادة النظر في تاريخ العزو الصهيوني لفلسطين. وهكذا فإنه ليس غافياً علينا اليوم مثلاً مجازير دير ياسين، تلك القرية العربية في شمال غرب القدس، التي أيدت كلها على يد الصهاينة والإرهابيين اليهود في عام 1948 في ظل قيادة مناحيم بيغن. بالطبع لا يرغب أحد، رغم ذلك، في الدوائر الصهيونية ودوائر الفيلوسامية في سماع شيء عن هذا الأمر. كما أن مجرد ذكر التكبلة، تلك الكارثة التي حلت بالفلسطينيين، يُعَتَّم عليه منذ مدة طويلة في المدارس الإسرائيلية. أما في منطقة دير ياسين نفسها فقد نشأت مكانها اليوم، كما نعلم، مستوطنة يهودية أرثوذكسية هي مستوطنة جفعات شازول التي لا يوجد فيها ما يذكر بذلك الأحداث.

كان من السهل سابقاً غطر النظر وصمّ الأدب عن الوقائع التي تحدثت، أما اليوم فإن تلك الفظائع التي يرتكبها الجنود الإسرائيليون بحق الفلسطينيين لا تُنقل بعد دقائق فحسب من حدودها إلى أماكن سكنا عبر الهاتف المحمول أو كاميرات التلفاز، وإنما نوثق مباشرة على صفحات الإنترنت، مثل يوتيوب، ويمكن التحقق منها. أخذ مثلاً مشهد قتل أحد الفلسطينيين في الخليل وهو ملقى بجراحه على الأرض، بعد أن استهدفه جندي إسرائيلي برصاصة في رأسه وقتله بدم بارد. لم تشفع لهذا الجندي مزاعمه أنه كان يدافع عن نفسه، ذلك أن الصور التي نشرتها منظمة حقوق الإنسان "هيسلوم" (Hesloms) قد تحدثت

ببرواية أخرى واضحة جداً بشأن ما حصل. وهذا الأمر قاد إلى أنه لم يبق أمام السياسيين في إسرائيل أي خيار سوى اعتقال هذا الجندي، طبعاً وهم مكرهون على ذلك، رغم مراقبته عائلكه أنه لم يفعل سوى ما أمره به رؤسائه.

في كانون الثاني/يناير 2017 دُين الجندي الإسرائيلي إيلور عزوريا، وكان عمره 18 عاماً، من جانب المحكمة العسكرية في إسرائيل بتهمة القتل غير المتعمد. كان هذا الإجراء الأول من نوعه وحظي باهتمام بالغ، وتعاظم كثير من الإسرائيليين مع الجندي المتهم، ولم يستوعبوا لماذا يحدث إجراء كهذا بحقه. حتى إن حماية الشرطة خُصّصت لبعض القضاة، بسبب التحريض ضدهم على صفحات الإنترنت. وحتى قبل إعلان الحكم، أعلن وزير التعليم لغتالي بيتش أنه سيعفى عنه إذا حُكم عليه بالإدانة. وفي نهاية المطاف حُكم على عزوريا بـ 18 شهراً في السجن، وخُفّضت رتبته العسكرية. طبعاً حصل هذا رغم أن الادعاء كان يطالب له بالسجن لمدة خمس سنوات. لا بل حتى عشية إصدار الحكم طالب رئيس الوزراء نتنياهو وشدة بالعفو عن الضابط. أما بالنسبة إلى الفلسطينيين، فقد كانت هذه المحاكمة وهذه العملية تدوّن مجرد مسرحية هزلية: لا نسيئاً أنه حتى رمي الحجارة يعاقب عليه بأشد العقوبات.

بالطبع يمكن كل من يبحث عن الحقيقة معرفة أن كتابة تاريخ الصهيونية مبنية على كثير من القصص والأكاذيب. وما على المرء إلا أن يقرأ مثلاً وثائق سياسيين إسرائيليين مثل سمحيا فلاياف الذي كشف عن بعض هذه الأساطير في كتابه *ولادة إسرائيل: الأسطورة والحقيقة*⁽⁴⁴⁾ (Die Geburt Israels: Mythen und Realität) أو لمؤرخين أمثال إيلان بابيه (Ilan Pappé) الذي أثبت في كتابه *التطهير العرقي لفلسطين* (Die ethnische Säuberung Palästinas) أن العرب طُردوا من ديارهم في فلسطين بالقوة وليس كما تريد الروايات الصهيونية أن نفتننا به بأن العرب قد هاجروا طوعاً. ولا يخفى علينا اليوم أن عمليات التهجير تلك قد رافقها السطو والنهب والاختصاص. حتى إن ينسحق رابين ذاته كتب في

(44) Simcha Dajan, *Die Geburt Israels* (Potsdam: Merve Verlag, 2009).

مذكراته عن قيامه هو وجنوده بمطاردة الفلسطينيين المدنيين في مدينة الرملة وتهجيرهم من المدينة.

وكان دافيد بن غوريون الذي صُنِّرَ للعالم رواية أن الفلسطينيين قد خرجوا "طوعاً" من ديارهم، كتب خطاباً في 2 حزيران/يونيو 1948 إلى قائد الهاغاناه آنذاك في حيفا، وقد ظهرت الرسالة في مزاد علني في لندن، وكانت الهاغاناه هي جيش الدفاع قبل تأسيس دولة إسرائيل، والتي قُسمت لاحقاً إلى الجيش الإسرائيلي مع القوات الإصلاحية التابعة ليغن والتي يطلق عليها اسم إرغون.

هنا النص:

"إلى الرفيق أبا حوشي،

يوجد بالقرب من مطار حيفا مدرسة مهنية سُنَّها حكومة للعرب سابقاً، ويرغب سلاح الجو في استخدام هذه المدرسة لأغراضه، يرجى تحديد حالة المدرسة وإعلامي في ما إذا كانت هناك أسباب تقف ضد نقل هذه المدرسة إلى مصلحة سلاح الجو.

أسمع أن السيد ماريوت يهتم بشأن إعادة العرب إلى حيفا، لا أعرف كيف يبدو هذا الأمر عند السيد ماريوت، لكننا لسنا مهتمين بإعادة العدو إلى حين انتهاء الحرب، وعلى المؤسسات كافة أن تعمل بموجب ذلك.

مع أطيب التحيات، دافيد بن غوريون."

هنا نأتي إلى نقطة أخرى: إن الحفيظة غير المعروفة بالنسبة إلى كثيرين هي ذلك التعاون الذي كان يجري حتى بين بعض الصهاينة والنازية خلال فترة التحضيرات لتأسيس دولة يهودية. فقد شهدت تلك الحقبة تعاوناً على مستوى عالي بين الصهاينة والنظام النازي.

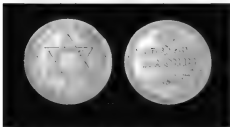
إذا ما أخذ المرء بالرواية الرسمية، فقد تمثلت سياسة النازيين بعد امتلاء أدولف هتلر على السلطة في عام 1933 بتسريع الهجرة المسيحية والمنظمة لليهود من جميع مناطق الرايخ، وذلك للقضاء على أي شكل من أشكال

"التأثير اليهودي" في السياسة والاقتصاد والثقافة الألمانية. من كان يخطر في باله حينذاك فكرة معسكر الإبادة أوشفيتز وفكرة "الحل النهائي"؟ والأمر الذي يجري تجاهله اليوم بكل سرور هو أن الوضع السياسي في ألمانيا قد حيا في الوقت نفسه فرصة فريدة لكسب اليهود الألمان إلى مصلحة القضية الصهيونية. ذلك أن أغلبية اليهود في ألمانيا حتى ذلك الوقت كانوا غير مهتمين بالهجرة إلى فلسطين؟ وقد باءت جميع الجهود لاقناعهم بالسفر بالفشل. إنه اصطهاد النظام النازي فحسب الذي قُدم فرصاً جديدة للصهاينة لتعزيز الهجرة الكبيرة إلى فلسطين. لقد عُيِّنَ رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية آنذاك، دافيد بن غوريون، عن أملة بأن انتصار النازية سيمكِّن الصهيونية من أن تُعدو "قوة" مشرعة، لأنه من خلال انتصارها ستشجع الهجرة إلى فلسطين. ووعداً للمؤرخ والصحافي الإسرائيلي توم سيفيف، سافر أحد المسؤولين الصهاينة المرموقين إلى برلين بعد تسلُّم هتلر السلطة، وذلك للتفاوض مع النظام النازي حينذاك بشأن مسألة هجرة اليهود الألمان ونقل ممتلكاتهم إلى فلسطين. همَّ أسفرت تلك المفاوضات؟ النتيجة كانت إبرام اتفاقية هعفره (Ha'avara-Abkommen) بينهما، اتفاقية توفِّق بين مصالح الحكومة الألمانية والحركة الصهيونية.

تعود اتفاقية هعفره إلى الاصطلاح العبري المرتبط بالانتقال (Transfer)، ونقطة الشراكة الألمانية التي قامت لهذا الغرض في ألمانيا وفلسطين. فقام المهاجرون اليهود قبل مغادرتهم ألمانيا ببيع رؤوس أموالهم لدى هذه الشركات الألمانية التي استخدمت هذه الأموال لشراء البضائع من الموردين الألمان وذلك لتصديرها إلى فلسطين. فحيثما كان يطلب زبون ما في فلسطين بضائع من ألمانيا، فإنه يتعامل مع مدفوعاته من خلال الشركة الألمانية، التي تُمِدُّ الأموال من جهتها إلى اليهود الذين كانوا يصلون في هذه الأثناء من ألمانيا. كان إبرام اتفاقية هعفره مع النظام النازي مشروعاً بهجرة اليهود إلى فلسطين. وبهذا جرى تشجيع اليهود الألمان بأن الهجرة إلى فلسطين كانت فرصتهم الوحيدة لإنقاذ أموالهم. أما ممتلكات وأرصدة أولئك اليهود الذين فضلوا الهجرة إلى دول مجاورة لألمانيا، فقد بقيت محبوسة عليهم. وقد استفادت ألمانيا على الصعيد المالي من هذه الاتفاقية التجارية، فكسبت من

خلالها ما بين عامي 1933 و1939 مبالغ بلغت 105 670 241.06 ماركًا ألمانيًا. وقد عمل بالاتفاقية حتى منتصف الحرب العالمية الثانية⁽¹⁾.

ميدالية تذكارية لاتفاقية هعفراف: "تأزي يسافر إلى فلسطين".
لقد سُكَّت هذه الميدالية في ألمانيا بموافقة الوكالة اليهودية.



استمر هذا التواصل مع القوميين الاشتراكيين النازيين في السنوات اللاحقة. ولأن الصهاينة كانوا مقتنعين بأن برامج لإعادة تأهيل اليهود من شأنها تسهيل توطئ اليهود الألمان في فلسطين على معو وابع، فقد تم في ألمانيا إيجاد نظام كامل من معسكرات التدريب وإعادة تأهيل اليهود. وكانت هذه البرامج موجهة في المقام الأول إلى الشبان اليهود الذين لم يكونوا قد بدأوا حياتهم العملية. فمع مساعدة هذه البرامج يمكنهم كسب المهارات والمعارف التي كانت مطلوبة منهم في فلسطين.

لم تدعم حكومة الرايخ الألمانية، خصوصًا قوات النخبة النازية، الهجرة إلى فلسطين فحسب، بل قدّمت أيضًا مساعدات عملية للغاية في مختلف المناطق. وإضافة إلى ذلك، قامت تلك القوات بتدريب الشبان اليهود

(1) <https://books.google.com>

المصالحين لأعمال عسكرية في معسكرات خاصة للتدريب العسكري. حتى إنه في فلسطين نشأ فرع محلي تابع للحزب القومي الاشتراكي النازي⁴⁸. كما أدت الصلات السرية الألمانية إلى سرر رجال أمثال أدولف أيخمان إلى فلسطين. وبعد أن ضُمت النمسا إلى ألمانيا النازية في عام 1938، رأس أيخمان هذا مركز الهجرة اليهودية في فيينا، واجتمع مرات عدة بهذه الصفة إلى مسؤولين صهيانية، وكانت إقامة طاقم أيخمان في أحد أجنحة قصر روتشيلد.

هنا تجدر الإشارة إلى أن اتفاقية هعغراه ثبت لنا بوضوح أن الحديث عن وجود تحالف معروف بين مفني القدس محمد أمين الحسيني والنازيين ليس أكثر من بروباغندا كاذبة؛ ذلك أن النازيين لم يكونوا مهتمين بالمصالح الفلسطينية، كما أن العلاقة بين المفني وهتلر بقيت علاقة باردة وقصيرة الأمد. لقد كان اهتمام النازيين في المقام الأول منصباً على مسألة التخلص من اليهود. وكانت فلسطين بالنسبة إليهم بكل تأكيد هي الوجهة الصحيحة. ولتذكر أن قرار "الحل النهائي"، وهو التعبير المطلق الذي أُطلق على القتل الجماعي لليهود أوروبا، لم يُتخذ إلا في 20 كانون الثاني/يناير 1942 في المؤتمر الشهير، مؤتمر فانتزي (Wannsekongferenz).

كما أوضح ناشط السلام الإسرائيلي أوري أفنيري في كتابه إسرائيل بلا صهيانية (*Israel ohne Zionisten*) أن القيادة الصهيونية في أثناء الحرب من النادر أن ساعدت اليهود لإتقانهم⁴⁹. أما من وجهة نظر الصهيونية فقد كانت أعمال الانتفاذ الخالصة لليهود الألمان بلا فائدة. لماذا؟ لأنهم كانوا يأتون من دون مشكلات ولم يقدموا أيّ ميزات على عكس اليهود القادمين بأروادتهم وفق اتفاقية هعغراه. أما مجرد اليهود الألمان الذين منحوا تصاريح للهجرة واعتُبروا "لاجئين"، فقد كان يُنظر إليهم حتى من طرف الصهيانية على أنهم "أشخاص غير مرغوب فيهم". لقد أثبتت هذه الحقائق غير السارة والمحزنة لإسرائيل وجيلها المؤسس على الأثل في محاكمة أيخمان في عام 1961 في القدس.

⁴⁸ Ben Segal, *Die weiße Million. Das Palästina und Jewish Reich der Zionisten* (Wien bei Wiedburg: Rowohlt, 1994), 3; Dan Kurzman, "Hitler and the 'Aryan-Abschancen'" in *Das Dritte Reich's Racial Ideology* (Leiden: Brill, 2002), 100-101.

كما هوجمت حنة أرندت وشُتمت بالخائنة حينما قدمت تقريرًا في كتابها عن ثقافة الشر.

وتطرح إحدى الوثائق¹⁹ التي تعود إلى لجنة الإنقاذ والموجودة في الأرشيف الصهيوني في القدس تساؤلًا مفاده: "من تطبق عليه شروط الإنقاذ [للإهود]؟ وهل يجب علينا إنقاذ جميع الناس الذين هم بحاجة إلى ذلك وأن تقدم لهم المساعدة بغض النظر عن كفائهم؟ ألا ينبغي لنا اتخاذ إجراء وطني صهيوني وأن نحاول أولاً وفيل كل شيء إنقاذ من يستطيعون إعادة أرض إسرائيل واليهودية؟ فإذا كنا قادرين على إنقاذ 10.000 شخص من أصل 50.000 وهؤلاء بإمكانهم المساعدة في بناء الأمة وإعادة تشكيلها بدلاً من إنقاذ مليون يهودي يشكلون عبئاً علينا أو في أحسن أحوالهم سيشكلون عناصر خاملة، فإنه يجب علينا إنقاذ 10.000 شخص، رغم كل الانهزامات والتمسلات التي تأتي من المليون. وهذا ينطبق على الرواد [من هنا] الشباب في المقام الأول، خصوصاً أولئك المتعلمين منهم والقادرين عقلياً على خدمة العمل الصهيوني".

نتذكر كذلك إحدى مقولات حايم وايزمان، الزعيم الصهيوني صاحب النفوذ الكبير وأول رئيس لإسرائيل: "بني أفضل رؤية هلاك اليهود الألمان من أن أرى دمار أرض إسرائيل لأجل اليهود". ونجد كذلك هنا دانيال بن غوريون يصرح بعد ثلاثة أسابيع من مجزرة "ليلة الكريستال" (في ألمانيا) في تشرين الثاني/نوفمبر 1938: "لو كنت أعلم بأن من الممكن إنقاذ كل الأطفال اليهود في ألمانيا بترحيلهم إلى إنكلترا، وأن من الممكن إنقاذ نصفهم فحسب من خلال ترحيلهم إلى فلسطين لكان قراري مع الخيار الثاني". وفي الواقع، صرح هذا الرجل بكثير من الأطفال اليهود الذين كان من الممكن إنقاذهم، طبعاً لمصلحة الفكرة اليهودية لساء دولة يهودية خاصة بهم. وقد رأى دانيال بن غوريون بما يتعلق بمذبحة "ليلة الكريستال" أنه يمكن "الضمير الإنساني" أن

(19) Segen.

بقوة دولاً متنوعة لفتح حدودها أمام اللاجئين اليهود من ألمانيا، بيد أنه كان يرى في ذلك تهديفاً. فقال محذراً: "إن الصهيونية في خطر!". لقد تمثلت مهمة الوكالة اليهودية وفقاً لدايفيد بن غوريون ببناء أرض إسرائيل، وليس إنقاذ أكبر عدد ممكن من اليهود. ويتفاقم وضع اليهود في ألمانيا وسوءه، ازدادت طلبات الهجرة إلى فلسطين. ولم تتوقف هذه الهجرة إلا في عام 1939 بعد مرسوم من السلطات البريطانية حذث فيه من عدد المهاجرين إلى فلسطين.

لقد كتب موشيه تسوكرمان في كتابه قهر إسرائيل (Israel's Struggle)، ليست مسألة الشتات إلى اليوم محل إنكار بالنسبة إلى كثير من اليهود. ويقدر ما أدت معاداة السامية تاريخياً وطبقياً كقوة دافعة في تكوين فكرة الصهيونية وتأسيس دولة إسرائيل، احتاحت الصهيونية إلى وجود معاداة السامية، طالما أن مشروع "إنكار الشتات" لم يته. وعلاوة على ذلك، لم يكن مسعى الصهيونية يتحمل بالفضاء على معاداة السامية في العالم، بل من مصلحتها أن تستمر".

يمكننا رؤية تلك العلاقة الجدلية بين معاداة السامية والصهيونية من خلال طريقة التعامل مع معاداة السامية في ألمانيا وأماكن أخرى. حيث لا توجه الاتهامات أو الاستنكار ضد معادي السامية الحقيقيين والواضحين ممن سجدتهم في فضاعات فيكتور أوربان أو دونالد ترامب، اللذين يجري التعامل معهما؛ بل بدلاً من ذلك تحد ذلك الغضب المناقل وهو ينصب على متفدي السياسة الإسرائيلية، الذين هم أبعد من أن يوصفوا بأنهم معادون للسامية.

والأمر الذي يمكن ملاحظته هو ذلك الترحيب من السياسيين الإسرائيليين باليمينيين الشعبويين الأوروبيين أمثال مارين لوبان من حزب الجبهة الوطنية [الآن: التجمع الوطني]، والتي تجري الإشادة بها منذ أن تخطت عن إنكار والدها المعادية للسامية، مؤسس الحزب جان ماري لوبان. يضاف إلى ذلك تلك الشخصية الهولندية الشعبوية اليمينية، التي تمعت الإسلام، غيرت فيلدروز.

الصديق الوفود لإسرائيل، ولا تفاجئ أن تراه أيضًا محطَّ إعجابٍ وعديح هنريك برودر⁽¹⁰⁾.

لنُشد على أن الصهيونية، منذ نشأتها، تحمل طابع عنصرية وكتولونية وتهدف إلى سرقة أوطان الفلسطينيين وطردهم منها. لقد كتب تيودور هرتزل في مذكراته في عام 1895: "سعى لعبور الحدود من دون أن يلاحظنا أحد من المفراء"، وهذا ما حصل بالفعل. إلا أننا نجد هرتزل يناقش في رسالة كتبها إلى يوسف ضياء الخالدي⁽¹¹⁾ في عام 1899 جاء فيها: "من سيطردهم من هناك؟ إن ما سيحدث هو مضاعفة ثرواتهم وممتلكاتهم الخاصة من خلالنا". وهذا الاتفاق ما زال الصهاينة يمارسونه إلى اليوم. فمن ناحية لا ينفكون يتلفظون بمفردات "السلام"، بينما من ناحية أخرى، يعملون دائمًا لحسم الأراضي والترحيل الشامل لكل الفلسطينيين. لقد خدمت في الجيش الإسرائيلي، وأدرك ذلك تمامًا، حيث كانت هذه الأيديولوجيا الكتولونية تقدّم يومًا مع وجبة الإفطار.

لنم كثير من لا يودون رؤية أو معرفة ما فعله، وما زال يقتصره، السياسيون الإسرائيليون بحق الشعب الفلسطيني وما ينتظره المجتمع الإسرائيلي من حدوده للقيام به. وهذا ما يمكن المرء قراءته بالتفصيل في كتاب كسر الصمت *Breaking the Silence* الذي نشرته دار إيكون (Econ Verlag) في عام 2012 لمنظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية، والذي تقدّم فيه الجنود الإسرائيليون تقارير عن وجودهم في المناطق المحتلة وعملهم فيها⁽¹²⁾.

والحال أن المعاملة المذلة والوحشية للفلسطينيين على نقاط التفتيش ليست جديدة. أدرك في إحدى المرات التي سافرت فيها إلى إسرائيل لزيارة

(10) https://books.google.de/books/about/Des_niederlandische_Folkslied_Groen_Wilde.html?hl=de&pg=PR10 wegen seines "jüdischen Empfindens" (Tina) und Henrik M. Broder. Ingeborg Isch/Sand.

(11) فلسطيني إسرائيلي، رئيس مدينة القدس الجديد، وقد حصل من تصويت المصلح مع الشعب الفلسطيني على الرغم من شاطئه مع المستوطنين اليهود.

(12) *Breaking the Silence: Jüdische Soldaten berichten von ihrem Einsatz in den besetzten Gebieten* (Berlin: Econ Verlag, 2012).

والذي المسة، أن الصحافة الإسرائيلية كانت تضع بخر الفعل الشيع الذي قام به أربعة جنود إسرائيليين بدفن أحد الشبان الفلسطينيين وهو في قيد الحياة، وحين أعبرتها بهذا الخبر، لم تضطرب أو تنفعل لذلك، بل كانت ردة فعلها هادئة، وقالت: "لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً، فالجنود اليهود لا يفعلون ذلك".

لا يمكن أن يحدث ما لا يجوز حدوثه: هذا بالضبط ما يبدو كذلك للعديد من اليهود الألمان أمثال ديتير غراومان، وهنريك بروغر، وميتشا برومليك (Mitsha Brumlik)، ومكسيم بيلر، وشارلوت كتوبلوج. ورغم أن برومليك يقارن في كتابه نقد الصهيونية (*Ansatz des Zionismus*) أوضاع الفلسطينيين غير الإنسانية في الأراضي المحتلة بنظام الفصل العنصري، الأبوتهايد، في جنوب أفريقيا، فإنه في الوقت ذاته يقلل من شأن ذلك، ويضعف: "لا يسود في إسرائيل نظام فصل عنصري، حيث يتمتع الفلسطينيون غير اليهود الذين يعيشون هناك، مع تمييز ضئيل ضدهم في مقابل الشعب اليهودي، بحقوقهم الإنسانية والديمقراطية أكثر بكثير مما هو موجود في كل دول المنطقة مجتمعة". وهذا حقيقة ما يمثل موقف كثير من المثقفين اليهود الذين يعتقدون أن مع "ازدياد قليل" من الحقوق للفلسطينيين وتمييز "ضئيل" ضدهم، فإنهم ينفون في صف الأخلاق والعدالة، إنهم يريحون ضمائرهم بهذه الأمور الناقصة. وكما نرى، فإن المثقفين الإسرائيليين أمثال برومليك يحصلون مقارنة ديمقراطية إسرائيل الناقصة بأحوال جيرانها من الدول العربية. لا شك، والحال هذه، أن إسرائيل تقدم مثالاً جيداً في هذا النمط من المقارنات، ولكن كيف ستكون الحال إذا ما قارناها بالدول الأوروبية. ستكون مختلفة جداً بلا شك. لذلك لا يقوم المدافعون عن إسرائيل بمقارنتها بدول مثل فرنسا أو بريطانيا أو ألمانيا، وإنما دائماً بدول مثل سورية والأردن ومصر.

عندما لا يشاء ديتير غراومان، الرئيس السابق للمجلس المركزي اليهودي، السفر إلى الخليل لرؤية ما يفعله المستوطنون هناك من رمي حجري السيل الفلسطينيين والسياح المارين بالقاذورات والفضلات، فإن بإمكانه على الأقل

الاطلاع على شهادات الجنود، التي وردت في كتاب كسر الصمت، والمتوفرة كذلك على صفحة www.breakingthesilence.org.il، وهم يقدمون تقارير عن خدمتهم في الخطيل، أو حتى بإمكانه، أي غراومان، مشاهدة بعض الأفلام التي قام الجنود الإسرائيليون بتحميلها على موقع يوتيوب. وهنا نشير في هذا السياق: لا يوجد دولة ولا مجتمع ولا أي إنسان في أي من النزاعات التي قد تحدث بين أي مجموعة في هذا العالم، بما في ذلك الحروب، يمكن أن يتسامح في رمي الفضائل على شخص آخر بطريقة منهجية ومن دون عقاب؛ والعمر الذي يشيع بنظره عن هذا يُعتبر أيضاً مدبّحاً.

هناك عدد ليس بقليل من الإسرائيليين ممن يمتلكون الشجاعة في تقديم هذه الحقائق. عندما بدأ يهودا شاول، الحندي الأرثوذكسي، في عام 2004 بجمع أقوال وشهادات الجنود الإسرائيليين كان عدد هؤلاء أقل من مئة شهادة. أما اليوم فإن عددهم وصل إلى الآلاف، حيث يؤثّقون شهاداتهم عن كيفية تحويل النخبة السياسية والعسكرية في إسرائيل لأطفالهم إلى مجرمي حرب. من الممكن أن يقرأ المرء في هذا مثلاً كيف يوضح أحد القادة العسكريين في شركة ما لجنوده طريقة فصل الكرة الفولاذية عن غلافها وتصويب خرطوشها على الرأس بهدف ليس قتل المعارض وإنما أن يولي اهتمامه لأن يفقد هذا المعارض إحدى عينيه على الأقل. وكيف يضحك المرء على ذلك في الشركة؛ أو كما أوضح شاول موفاز، رئيس الأركان السابق، لفائدة فرقة دبابات أنه يريد أن يرى على الأقل عشرة قتلى فلسطينيين كل يوم: عشرة قتلى في كل وحدة. وقد نُقل عنه حديثه: "أعلم حرصكم على قتل العرب".

يقول أحد الأشخاص من الذين أجريت معهم المقابلات: "أعلم أنني كنت واحداً من أولئك الأشخاص الذين حصل لهم غسيل دماغ ولتكنوا جرائم في الأراضي المحتلة، وأعتبر أن الاحتجاج في توثيق كتاب كسر الصمت هو نوع من الكفارة عن الخطايا التي ارتكبتها". ويقول شخص آخر: "إنكم تتعاملون مع مواضيع مثل نقاط التعيش وحظر التجول وغير هذا من الهراء. أما نحن فلا علاقة لنا بهذا؛ ما أرويه أنا مرتبط بحياة البشر، هل تفهم ما أعنيه؟ إنني

أتحدث عن القتل، القتل، القتل، القتل". وهذا بالفعل يتطابق مع ما يرويه لي أصدقاء إسرائيليون كانوا قد أطلعوني ويكمل فطر على قائمة إشارات، يستغل عليها عدد القتلى، وقام بها إخوانهم حينما كانوا يقاتلون في لبنان، كل إشارة فيها تعني قتيلاً إسرائيلياً.

ورغم ذلك، يود غراومان إخبارنا بأن حديث ريمغار غابرييل [السياسي الألماني الذي تولى منصب وزير الخارجية] عن وجود نظام أبارتهايد في الحليل هو أمرٌ مبالغ فيه، يقول غراومان: "لقد كنت لتوي في الحليل، إن الفلسطينيين هناك يعيشون خارج إطار القانون، وإن الحديث عن نظام فصل عنصري لا مبرر له". وكان غابرييل قد أثار في ألمانيا عاصفة صغيرة من الاستنكار واضطر لاحقاً إلى الاعتذار عن تصريحاته، لا بل إنه قلل من شأن ذلك. وعموماً، يوجد في وسط الحليل والمستوطنات المحيطة بها قرابة 7000 مستوطن يمني بين 200,000 فلسطيني يسيطر عليهم الجيش، كما يوجد شوارع "خاصة لليهود فحسب". وذات مرة رفض الأسقف توتو (Desmond Tutu) [كبير أساقفة كيب تاون الأفليكاني]، وهو الخبير جداً بنظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، مقارنة الأوضاع هنا في فلسطين بذلك التي سادت جنوب أفريقيا، لماذا؟ لأن الوضع في فلسطين أكثر شدةً وقسوةً وغير عادل". ولهذا لا تستغرب وصف هذا الرجل بأنه معادٍ للسامية. ولا ننسى أيضاً وجود ورواء ووزيرات في الحكومة الإسرائيلية ممن لا يحقون هدفهم المعلن بضم كامل الضفة الغربية إلى إسرائيل. وفي النهاية طرد كل السكان الفلسطينيين من هناك.

ولتعلم أن هناك كثيرًا من اليهود في العالم ممن يفقون ضد سياسة إسرائيل، إلا أنهم لا يمتلكون الشجاعة للخروج إلى النور لتصبح ذلك والاعتراف به كثيرون منهم يخافون من الضغوط التي يمارسها عليهم المجتمع اليهودي الذي ينتمون إليه. ومع ذلك فإننا نجد عددًا متزايدًا من اليهود ينتقد إسرائيل. وليس أقل من ذلك تلك المنظمة الجديدة التي أسسها إسرائيليون بارزون وأصحاب مبادرات سلام مع عالم النفس القحري دانييل بار تال (Daniel Bar-Tal) في

شباط/فبراير 2015 تحت شعار "نعم لإسرائيل، لا للاحتلال" (Save Israel, Stop Occupation - SISQ). الخطوة هنا التي يريد هؤلاء إيضاها هي تمكين كثير من اليهود من أن يتقوا جزءًا من مجتمعهم، لكن في الوقت نفسه من أن يتقنوا إسرائيل. ومرة أخرى، علينا ألا ننسى أن إسرائيل تحتل، وعلى نحو غير قانوني، أرضًا منذ خمسين عامًا وتُكرس أسط الحقوق الأساسية للسكان المحليين. وأبنا تكون الصفة التي يمكن إطلاقها على هذا التصرف الإسرائيلي، فإنه يبقى ظلمًا. من هنا لا نستغرب أيضًا إدانة العديد في محكمة لاهاي الدولية كمجرمي حرب بسبب ما فعله الإسرائيليون في حق الفلسطينيين.

المجلس المركزي لليهود في ألمانيا لا يمثلني

أُسِّس المجلس المركزي لليهود في ألمانيا في 19 تموز/ يوليو 1950، إلا أن هذا الاسم يوحي بالفصل بين اليهود والألمان. لقد كان بالإمكان تسمية هذه الرابطة "المجلس المركزي للألمان اليهود" أو "المجلس المركزي لليهود الألمان"، ويمكن تفسير عدم حدوث هذا سبب حالة الاعترا ب التي شعر بها كثير من اليهود بعد الهولوكوست في ألمانيا. بيد أن هذا الفصل بين اليهود والألمان المستمر إلى اليوم يُحدث نوعًا من الشيذو فرنيا.

كان إيفانس بوبس (Ignatz Bubis) الذي رأس المجلس المركزي لليهود من عام 1992 إلى وفاته في عام 1999، على سبيل المثال، يتصرف وكان ألمانيا في موطنه الأصلي. وكان عضوًا في الحزب الديمقراطي الحر وناشطًا في السياسة المحلية. إلا أنه دهن في نهاية الأمر في إسرائيل ولم يُدفن في المقبرة اليهودية في فرانكفورت، حيث يجري دفن بعض اليهود الألمان البارزين. قبل وفاته بوقت قصير قال في إحدى مقابلاته مستنشدًا: "لر دت التخلص من هذا الاستبعاد، هنا الألمان، وهناك اليهود. لقد اعتقدت، ربما يمكنك أن تحمل الناس يذكرون على نحو مختلف بعضهم عن بعض والتفاعل في ما بينهم على نحو مختلف. لكن لا، فيالكاد حركت ساكنًا".

وعندما حاول السياسي في حزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي (CDU) غونتر رايشرت في عام 1996، بمساسة زيارة الرئيس الإسرائيلي السابق لألمانيا عزرا وليمان، التعلق لبوبس قائلاً له: "لقد ألقى رئيسك خطابًا ممتازًا، فكان جواب بوبس متذمرًا: "دانتا يلقي الرئيس هرنسوغ خطابًا جيدًا"، في إشارة إلى الرئيس الألماني السابق رومان هرنسوغ. لكن ليس من المفاجئ سوء الفهم هذا إذا ما أخفقتا في الحسبان أن العلم الإسرائيلي يُعلّق في كل المجتمعات اليهودية ونحته صورة الرئيس الإسرائيلي المعني.

في مناسبة مماثلة قامت جامعة مدينة فرانكفورت وعضو حزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي بألمانيا بئرا روث بالطلب من إيلتاس بريس تسليم تهانيها لرئيس دولته [أي الرئيس الإسرائيلي] في إحدى المناسبات اليهودية المهمة وقد شعر بويس حيثك بأن هذه التهمة تعبير عن معاداة السامية ولا تزال أمثال هذه السادج موجودة إلى يومنا هذا. وكانت رئيسة المجلس المركزي لليهود السابقة شارلوت كنوبلوخ، التي كانت العميلة العليا لليهودية في ألمانيا بين عامي 2006 و2010، تعبر في كل مناسبة عن أن قلبها ينضج لإسرائيل، بيد أنها عندما تُسأل لماذا لا تنقل إذاً إلى إسرائيل، تعتبر ذلك معاداة للسامية.

من حيث المبدأ يمكن المرء أن يخلّق إلى أي بلد يختاره، فكثير من الألمان يخلّفون إلى مايبوركا، وقد أطلق غوته بشغف على إيطاليا "الأرض التي يزهر فيها الليمون"، إلا أنني لم أسمع قط سياسياً ألمانياً يعلن علناً أن قلبه في مايبوركا.

ولم يكن كذلك خَلْفُها رئيس المجلس المركزي لليهود بين عامي 2010 و2014 ديتير غراومان يَفُوت فرصة ليعلم ولأنه ووفاء لإسرائيل. وفي هذا تقضي التعاليم اليهودية وعلى نحو صريح تقديم الولاء للدولة التي يعيش فيها المرء.

وفي خطبة ألقاها في عام 2011 ضد إعلان إقامة دولة فلسطين المستقلة الذي نطق به الرئيس محمود عباس قال [غراومان]: "من يدعو الآن إلى قيام دولة فإنه يؤكد رفض عملية السلام". قد لا يكون منطق هذه الجملة واضحاً بالنسبة إليّ. فما الذي يجب على الفلسطينيين انتظاره. هل عليهم الانتظار لحين قدسهم أرضهم كاملة وحتى تحتلها إسرائيل كلها؟ وتذكر هنا أن الأمم المتحدة رفضت مجدداً قيام دولة فلسطينية، خصوصاً في أثناء محاولة الفلسطينيين أن يملوها في كانون الأول/ديسمبر 2014. ونادراً ما احتج ضد هذا التصرف من الأمم المتحدة شخص ما، هذا فضلاً عن المجلس المركزي لليهود في ألمانيا، الذي يفوقه منذ عام 2014 جوزف شومتر، وهذا الرجل

يرى كذلك أن من المبكر جداً منح الفلسطينيين دولة خاصة بهم وأن ذلك سيأتي "بتناجح عكسية"، طبعا متجاهلاً حقوقاً من الانتظار الفلسطيني. على ما يبدو، يجب على الفلسطينيين انتظار غودو.

لقد اعترفت حالياً 135 دولة من أصل 193 في الأمم المتحدة بفلسطين كدولة، وكانت أولى الدول الغربية التي قامت بهذه الخطوة هي السويد. ومن المأمول أن تحدد جميع الدول الأوروبية الأخرى هذا، حتى لو كانت ألمانيا بالتأكيد البلد الأخير. وفي أي حال، فإن لليهود دولتهم الخاصة منذ 67 عامًا، فهل يجب على الفلسطينيين الانتظار حتى يوافق لهم المجلس المركزي لليهود في ألمانيا على دولة فلسطينية؟ ثم لماذا يشكل الأمر سؤالاً في الأصل وعلى المجلس المركزي لليهود في ألمانيا قول رأيه فيه؟

إذا كان على هذا المجلس أن يقدم رأيه في قضية تتعلق بإسرائيل، فلماذا لم يرفع صوته في مسألة محاكمة الجندي الإسرائيلية أبات كام ذات الـ 24 عامًا، التي سُكِّم عليها بالسجن لمدة أربع سنوات ونصف؟ وتعلم أنها قدمت للصحافة وثائق مهمة ثبت فيها أن الجيش الإسرائيلي يواصل قتل الفلسطينيين. على الرغم من أن المحكمة العليا كانت قد سمعت ذلك، ولماذا لم ينظم هذا المجلس بقيادة جوزف شوستر إلى مبادرة قام بها 800 إسرائيلي شجاع - من بينهم أشخاص حاززون جائزة نوبل، وحاملو جائزة إسرائيلية مرموقة، وجنرالات، وأساتذة بدرجة بروفيسور، وكثاب، وممثلون وكثير من المشاهير - طالبوا الحكومات الأوروبية في رسالة مفتوحة بالاعتراف بفلسطين؟ لكن من الواضح أن شوستر يعرف جيدًا ما هو الصالح لإسرائيل أكثر من أولئك المعنيين على أرض الواقع.

فضلاً عن ذلك، يمثل المجلس على نحو مطلق خط الحكومة الإسرائيلية في ما يتعلق بقضايا أخرى. وكان شوستر هذا قد أعلن في إحدى مقابلاته مع جريدة يوديشه الغماينه، عندما تم التوصل في عام 2015 إلى اتفاق مع إيران بشأن سياستها النووية بعد مفاوضات دامت سنوات عدة، قائلاً: حكمت أنني لو كان بإمكانني المشاركة في هذه الفرحة بشأن هذه الصفقة مع إيران، إلا

أنني أنظر نظرة المتشكك تجاهها نظراً إلى السلوك الحالي لنظام آية الله. إن صفات كهذه تتطلب وجود ثقة متبادلة بين الطرفين، وهذا لا يمكن تحقيقه مع دولة ترفع شعار الموت لإسرائيل على أعلامها وتكرر الهولوكوست دائماً.¹¹ فضلاً عن ذلك، يدي شوستر قلقه أيضاً من رفع العقوبات عن إيران ويطالب بفرض رقابة دولية فعالة عليها. لكن، ربما لا يعرف السيد شوستر أن جالية يهودية كبيرة تعيش في إيران، ويشجع أفرادها بالحرية الكاملة، بل إنهم يخدمون في الجيش، وهو الأمر الذي يُحرم منه المسلمون في إسرائيل.

إنه لأمر عاظم بالنسبة إليّ، لماداً على طبيب أمراض باطنية وعامل في رابطة ما الاعتقاد بالتدخل في شؤون السياسة العالمية. ما أود معرفته هو من أين استمد هذه الوقاحة لاعتبار نفسه أكثر ذكاءً وحنكةً من سياسيين وشخصيات مرموقة ساعدوا في التوصل إلى هذا الاتفاق. أمثال مشكلة السياسة الخارجية للاتحاد الأوروبي ليدريكسا موغيريني، ووزير الخارجية الإيراني محمد جواد ظريف، ووزير الخارجية الأمريكي جون كيري، ووزير الخارجية الألماني فرانك فالتر شتاينماير، ووزير الخارجية الروسي سيرجي لافروف، ورئيس الوزراء البريطاني ديفيد كاميرون، ووزير الخارجية الفرنسي لوران فابيوس وكثير من الأطراف الأخرى. من الممكن أن يكون هذا الرجل أدكى وأكثر حنكة من شخص ما من هؤلاء، لكن أيعقل أن يكون أكثر ذكاء منهم كلهم مجتمعين؟

وبالطبع يبدو أن امتلاك إسرائيل مئات القنابل النووية¹² التي لا يُسمح بمراقبتها، لا يشكّل مصدر قلق للسيد شوستر. إلا أن إيران قامت من جهتها، على عكس إسرائيل، بتوقيع الاتفاق النووي مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

(11) يستند عدد تقديرات الرؤوس النووية عمومًا إلى حساب عدد المواد التي يمكن أن تُنتجها المفاعلات الذرية في إسرائيل سنويًا. وقد ذكر علماء إسرائيليون في عام 1982 أن العدد يصل إلى 250 رأسًا إصبعية إلى ذلك، اعتقد اتحاد العلماء الأمريكيين في عام 2007 أن إسرائيل تمتلك ما بين 100 رأس و200 رأس نووية لصواريخ متوسطة المدى. وقد نشر المصداق الكونغرس وزير عام 1991 أن صلاح الجو سلاح لحققت لحكومة إسرائيل (أمريكا) عدد الرؤوس الذرية النووية في عام 1997 بأكثر من 400. وفي مقبل ذلك، يحسن المعهد الدولي لدراسات الاستراتيجية أن عدد هذه الرؤوس النووية وصل في عام 2009 إلى 200 رأس.

ورغم ذلك، نجد السيد شوستر يتحدث عن "الثقة المتبادلة". ومع ذلك، لا يمكن تحقيق ذلك مع وجود دولة تسيطر على شعب آخر منذ خمسين عامًا تقريبًا.

في الحقيقة، إن لليهود في ألمانيا قيادة خاصة بهم تمثل مصالح إسرائيل في المقام الأول. لهذا السبب ترى أن نصف اليهود في ألمانيا، والبالغ عددهم قرابة 200.000 يهودي، هم أعضاء في حالات يهودية للمجلس المركزي. فمثلًا، لا يجوز له إغماض عينيه عن حقيقة أن كثيرًا من [فتة] الشباب الألمان اليهود قاموا بخدمتهم العسكرية في إسرائيل بمعرفه وموافقة المجلس المركزي لليهود في ألمانيا والسلطات الألمانية. ونحن تعلم أن من غير المسموح لمواطن ألماني تأدية الخدمة العسكرية لمصلحة جيش آخر. هنا نسأل: كيف ستعامل وسائل الإعلام والمحكمة والسلطات عندما يقوم أحد الشباب المسلمين أو ممن له أصول تركية ويحمل الجنسية الألمانية بالخدمة العسكرية في الجيش التركي؟

لكن كلا الجانبين نجده صامتًا حيال هذا الأمر. وطالما أن المجلس المركزي يعتبر نفسه سفارة غير رسمية، لإسرائيل فإن كثيرًا من اليهود سيأوون بأنفسهم عنه.

هكذا، فإن جوزف شوستر يفوّت فرصة كبيرة من شأنها أن تكون جيدة لليهود ألمانيا. وللعلم فإن إسرائيل تمتلك ربيع أقوى جيش في العالم وبالتالي ليس لديها قلق من الحروب. أما خوفها فإنه ينشأ أساسًا من حالة السلم. فإسرائيل تعيش منذ ما يقارب 70 عامًا وهي منهية دائمًا وبمحالة حرب، بيد أن الوقت حان للتفكير في استمرارية هذا. ألن تكون رسالة رائعة للممثلين الكبار لليهودية الألمانية القيام بدور الوسيط بين إسرائيل والعالم، خصوصًا العالم العربي؟

لقد كان بإمكان شوستر السير على خطى التراث الليبرالي والإنساني لليهودية الألمانية وشخصيات أمثال موسى مندلسون أو، لكني لا نذهب بعيدًا إلى الوراء، كان بإمكانه أن يحذو حذو شخصيات مثل ليو بيك، الحاحم

الأخير لليهودية الألمانية، أو شخصيات مثل صارة للشربة في هذا التراث أمثال ألبرت أينشتاين، ومارتن بوبر، وحنة أرندت، وبنيتوش كورتشاك. والحال أنه بدلاً من السير في تجميعات لا معنى لها ومحرجة لإسرائيل، كشفت عن عجز المجلس المركزي لليهود ومعه الطبقة السياسية في ألمانيا، فإن عليه اتخاذ خطوات أخرى، أي: الحرية والاستقلال والكرامة الإنسانية وأيضاً هوية يهودية مختلفة عن تلك التي فرضتها الصهيونية على اليهود.

يمكن تلخيص اليهودية، التي تشتهر بوجود 613 وصية وتحريمًا فيها، بحملة واحدة للمعاميل هيلل: "تحب أن تتصرف مع الآخر بفعل لا ترغب أنت في أن يفعله بك". لقد عاشت اليهودية الألمانية منذ القرن الثامن عشر، منذ أن اندمجت في المجتمع والثقافة الألمانيين، في إطار مساهمتها في عصر التنوير والتحرر، وصولاً إلى العصور الحديثة بما يتوافق مع مبدأ الضرورة لإيمانويل كانط الشهير⁽¹⁾. وإننا كيهود ألمان نمتلك إرثاً مجيداً يمكننا أن نفخر به، وبالتالي لنا بحاجة إلى الصهيونية ديناً بدلاً لنا. ويجب علينا أيضاً ألا نردد كالبقاوات ذلك الدعاء القديم: سيكون هاتمان الحقل في القدس. فمن يرغب في زيارة القدس يمكنه أن يسافر عبر شركات طيران اقتصادية تكلفتها أقل من 400 يورو، ولكن من يرغب في البقاء في ألمانيا فعليه التخلص من شعور أنه غريب في بلده. كما جاء في عنوان كتاب غريب في بلدك (*Fremd im eigenen Land*) الذي نشر في سبعينيات القرن العشرين⁽²⁾. لكننا في ألمانيا لسنا غرباء أو أجنبان حتى لو نظر إلينا الآخرون على أننا يهود.

في أحد اللقاءات في برلين مع أحد ممثلي البرلمان من حزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي أخبرني بحادثة اعتبرها ذات دلالة مهمة، فقال: "في أحد الاحتفالات بمناسبة افتتاح متشاة يهودية في برلين، بدأ أطفال وصلوا إلى هناك بالترويج بالأعلام الإسرائيلية. ثم سألت المضيفين، مسؤولي الجالية اليهودية

(1) يقصد المؤلف مقولة كط "تصرف بشكل يمكن أن يُعثر به مبدأ .. أنك الأفضل في كل وقت مبدأ للتفريق العام". (المترجم)

(2) Henryk M. Broder & Michel B. Lang (eds.) *Fremd im eigenen Land. Juden in der Bundesrepublik*, Frankfurt: Fischer Taschenbuch, 1979.

في برلين، أين هي إذاً الأعلام الألمانية؟ ثم إذا كانت هناك أعلام، فلماذا إذاً ليست أعلاماً يهودية، بل إسرائيلية؟". ووفقاً لوصفه، كان رد المضيفين بحريه التجاهل. وعلى ما يبدو لم يفهموا معنى السؤال، بل ربما ظنوا أنه معاذ للسلامة.

إنني أتساءل كيف يمكن أن يتوجه برود كهنه أحد حاخامات الجالية اليهودية في فرانكفورت عندما سأله إحدى مراسلات إذاعة هيس "لماذا تعلق الأعلام الإسرائيلية في صفوف المدرسة التابعة لمركز الجالية اليهودية؟"، فقال: "ذلك لأن إسرائيل أرضنا وهي ما بحمينا".

وهل يمكن أحداً ما أن يشرح لي سبب وجود ممثلين عن الجمعيات اليهودية يرافقون الوفود الألمانية في أثناء الزيارات الرسمية لإسرائيل؟ هل سنرى أيضاً مشاركة ممثلين عن المساجد أو أئمة يرافقون الوزراء الألمان في الزيارات الرسمية لدولة مثل تركيا أو المملكة العربية السعودية؟

نشير هنا إلى أننا نشهد مرة أخرى في ألمانيا، هذه البلاد التي أبادت شعبها اليهودي ذات يوم، نشوء جماعة يهودية، وهي في طريقها لتشكيل يهودية ألمانية جديدة. لقد حان الوقت كي يدرك المجلس المركزي لليهود في ألمانيا وجوب أن يندمج على نحو كامل في هذا البلد، قبل أن يطالب هو بذلك المهاجرين واللاجئين الجدد. للأسف، فإن هذا المطلب غير متحقق إلى الآن، فعلى سبيل المثال لا يراق اليهود الذين أتوا من الاتحاد السوفياتي ما بين عامي 1990 و2005، وعددهم أكثر من 200.000 مهاجر يهودي، يتحدثون في هذه التجمعات بالروسية، حتى إن كل اللقائات واللوحات في مراكز تجمع الجالية، كما الإشارة إلى المرحاض، نجدها بالروسية. وأظن أن هذا بالضغط يمثل فشلاً في الاندماج، ومن الواضح أن هذا ما يريده المجلس المركزي.

من هنا نجد رعاية للأصوات التي ترى نفسها ليست ألمانية؛ وبهذا يتم، ومن دون أن ندري، دعم أصوات اليمين في البلاد مثل حزب البديل لأجل ألمانيا أو غيره من التوجهات اليمينية. يعيش العرب هنا ويسأل نفسه ماذا تعني له هذه البلاد الألمانية، إلا أنه لا يرغب في الرحيل إلى إسرائيل تحت أي ظرف من الظروف، ولهذا يبقى وجود اليهود في ألمانيا وجوداً هشاً. وعلى ما يبدو

فإن الرغبة في إيجاد يهودية ألمانية جديدة غير موجودة، بل يجري الاكتفاء بقناعات فحسب: "يهود في ألمانيا". فُتعلّق الأعلام الإسرائيلية وصور الرؤساء الإسرائيليين في مراكز اجتماع المجاليات اليهودية ويؤكد في كل فرصة مناسبة أو غير مناسبة الولاء لإسرائيل؛ لا بل إن الأمر يتعدى هذا، فحتى الصلاة تنلى في المعابد اليهودية في سبيل خير الجيش الإسرائيلي.

لا شك في أن معظم اليهود الذين يسكنون ألمانيا ليسوا يهوداً "ألماناً" أو "ألماناً يهوداً"، لأن غالبيتهم تعود أصولها إلى الاتحاد السوفييتي، وليس من المؤكد حتى أن جميعهم يهود. لكن حينما يجري دمجهم ضمن الاتحاد يطلق على نفسه "يهود في ألمانيا"، فبالأكيد لن تكون أمامهم فرصة للاندماج في ألمانيا، وسيقون "يهوداً في ألمانيا".

لقد كتب ميشيل لانغ (Michel Lang) الذي نشر كتابه مع هنريك برودر غريب في بلده: اليهود في ألمانيا في عام 1979⁽⁴⁾ في إحدى الفقرات التي صوّنها "غريب في أرض غريبة"، والتي يتحدث فيها عن رئيس المجلس المركزي لليهود قائلاً: "إن مسألة أن يستمر هو وزملاؤه في الحديث باسم اليهود في ألمانيا لهم أحد أعراض التدهور والانحطاط الروحي والسياسي لليهودية في ألمانيا". ومع نهاية سبعينيات القرن الماضي عندما قدّم الرئيس السابق للمجلس المركزي لليهود فونر ناخمان لـ "المحامي المروع" هانز فيلنغر براءة ذمة يهودية، تعرّض هذا الرئيس لهجوم من الصحفيين اليهود مثل برودر باعتباره "يهودياً رجعيّاً محترقاً". وبالمناسبة، يفخر برودر اليوم بأنه "رجعي".

ما يعني إسرائيل هو الولاء المطلق لها والاعتراف المستمر بأن المراء يلف في صف إسرائيل "من دون أي تردد"، وهذا ما يوحي بالسطورية، إن لم نقل إنه يمثل جانباً خطراً. لقد أظهرت المسيرات الهائلة التي شهدتها برلين ضد تظاهرات الفلسطينيين والمسلمين في برلين والمحاولة للحرب في غزة

(4) Broder & Lang (eds.)

في خريف 2014، أن معظم اليهود وكثيرين من غير اليهود أيضًا ما عادوا يستحسنون ما يجري ولا يفهمونه. يعيش في برلين أكثر من 10,000 يهودي، من المسجلين أعضاء في مجمع الجالية اليهودية، ويقدر بوجود 30,000 إسرائيلي⁴⁵. وكانت المستشار الألمانية أنجيلا ميركل قد حضرت مسيرات نظمها المجلس المركزي لليهود في ألمانيا وكان عدد المشاركين فيها أقل من ألف. والحال أننا لا نعيش في أيام عام 1933. وهنا مذكر أنه لم يكن للحواشي التي شهدتها تظاهرة رسمية في الشوارع الألمانية (ضد الحرب على غزة)، كما للهجمات المتفرقة المفردة ضد اليهود، من علاقة بالمعاداة المصحجة للسامية التي كانت تحت حكم النازيين. إن المبالغة المفرطة التي يقوم بها رئيس المجلس المركزي لليهود السيد غراومان بسبب ذلك فهي أمر محرج ودليل على فقدان الذاكرة التاريخية، أم إن السيد غراومان يؤد من هذا الإفراط تهجير اليهود من ألمانيا؟

يدعو المجلس المركزي لليهود في ألمانيا إلى تنظيم تظاهرات ضد معاداة السامية، لكن لتعلم أن هدفها يتعلق بحماية إسرائيل فحسب والدفاع عنها من الانتقادات الموجهة إليها، بسبب سياستها المخالفة للقانون الدولي وغير الإنسانية. إنني أسأل هنا، لماذا يصمت هذا المجلس المركزي عندما يصرّح اثنان من أعزى رجال الأعمال اليهود في العالم، ملك الكازينو الأمريكي شلدون أدلسون (Sheldon Adelson) والمتنقذ في الإعلام اليهودي الإسرائيلي حاييم صبان، في مؤتمر صحفي أن: "ليس بالأمر السيئ أن تبقى إسرائيل دولة غير ديمقراطية، ففي النهاية لم يرد أمر كهذا في الكتاب المقدس". كما تحدثت شلدون بأنه يفكر مع صبان في شراء جريدة نيويورك تايمز لـ "تعديل" التغطية الصحافية لهذه الجريدة بشأن إسرائيل، ألهذا حظي كلامه بالتصفيق الحار من الجمهور اليهودي؟ وبهذا يتساءل المرء أين هو استقلال الصحافة؟

حتى اليوم، هناك كثير من الناس في جميع أنحاء العالم يعتقدون اعتقادًا خاطئًا أن اليهود يربدون حكم العالم ويأخذون هذه الكتلة الأسطورية من كتاب

(45) "Jews in Berlin: How viele und was zieht sie nach Berlin?" Süddeutsche Zeitung

بروتوكولات حكماء صهيون على أنها حقيقة. لكن لنعلم أن أشخاصًا أمثال حايم صيان وشلدون أدلسون يقدون تلك الأحكام المسبقة، خصوصًا أن كليهما من أغنياء العالم ويحتلان فيه وزنًا كبيرًا.

وللعلم كذلك، فإن شلدون أدلسون هو أحد الداعمين الشديدي الحماسة لرئيس الوزراء اليميني بنيامين نتنياهو، ويحول جريدة محتاية يومية في إسرائيل تنشر البروباغندا الصهيونية اليمينية وعطاب الكراهية. وتوزع يوميًا ملايين النسخ مجانًا من هذه الجريدة على الأسر الإسرائيلية. من هنا ندرك كيف يؤثر هذا "الفاشي المجنون" أدلسون، كما أطلق عليه أحد المدونين في صحيفة هآرتس اليومية الإسرائيلية الليبرالية، المقيم في أميركا، في الجمهور الإسرائيلي تأثيرًا هائلًا. أما صيان، القاعل في إمبراطوريته الإعلامية العالمية، فيوضح في المؤتمر الصحافي الذي أننا إلى ذكره أعلاه عن طموحات إيران النووية بالقول: "لو لمي أنصف أبناء الكلب هؤلاء وأحولهم إلى أشلاء".

وجاء مرة في جريدة نيويورك تايمز بنسختها الاقتصادية عن صيان أنه باعتباره "أحد أكثر العمالقة تأثيرًا في هوليوود" يستخدم نفوذه وأمواله في كل مكان في واشنطن للتأثير في قضايا إسرائيل. وقد صرح ذات مرة "إنني رجل له قضية، وقضيتي هي إسرائيل"، وبأنه يمضي ساعات متواصلة في الحديث بالهاتف مع أريئيل شارون، رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق.

ولكني يحقق أدلسون مبتغاه، فقد رشّح في أوائل نيسان/أبريل 2016 مرشحين محتملين من الجمهوريين للانتخابات الرئاسية في تشرين الأول/نوفمبر 2016 في لاس فيغاس إلى جانب جب بوش، وهو الأخير من سلالة بوش الكبيرة، كان هناك كذلك حاكم ولاية نيوجرسي كريست كريسبي، وحاكم من ولاية ويسكونسن سكوت ووكر، وحاكم أوهايو جون كاسيتش بحسب ما جاء في مجلة ذي أتلانتيك (The Atlantic). والمدعش في الأمر أن الجمهوريين في نهاية المطاف قاموا بترشيح الملياردير دونالد ترامب الذي لم يكن يعتمد على أموال أدلسون، لكنه مع ذلك كان ولا يزال يقدم نفسه صديقًا لإسرائيل ويفتخر بصلات جيدة بالحكومة اليمينية بقيادة بنيامين نتنياهو.

يريد كلٌّ من صان وأدلسون ممارسة السياسة من طريق أمواله، خصوصاً في ما يتعلق بالسياسة الإسرائيلية، وهذا فعلاً ما يفعلانه. أما بالنسبة إلى المجلس المركزي لليهود في ألمانيا فيإمكاناته كسب الصدقية إذا ما نأى بنفسه عن مثل تلك الشخصيات، وهذا قد يكون أفضل وسيلة في مواجهة معاداة السامية.

ومن اللائق للالتباه مدى الضلالة في ما يقدمه المجلس المركزي لليهود في ألمانيا، ومعه المتبحرون المنحازون دائماً إلى السياسة الإسرائيلية، حيال ظواهر مثل الجماعة الاشتراكية القومية؛ النازية الجديدة. وإذا ما أخذ أمر مماثل على سبيل السخرية، فيمكن تفسير مواقفهم تجاه هذه الظواهر النازية الجديدة بعوامل تعود إلى أنه لم يكن ثمة ضحايا يهود على أيدي هذه الجماعة، لهذا سجدهم لا يهتمون بهم. بيد أن ذلك أيضاً يدل على أن بعض اليهود والمدافعين عن إسرائيل في ألمانيا لا يمكنهم النظر إلى أكثر مما يتجاوز آفاقهم العقلية والعاطفية؛ ذلك أن ما يهمهم هو اليهود فحسب. من هنا يمكن رؤية عدم اهتمام المجلس المركزي سلسلة الجرائم التي راح ضحيتها عشرة أشخاص أعليتهم من أصول تركية، قتلوا فحسب لأنهم "ترك" في نظر قاتليهم، فهذا أمر لا يعني المركز بشيء. طالما أن الضحايا ليسوا يهوداً، لقد كان رئيس المجلس المركزي لليهود في ألمانيا السيد إيجناتس بوييس، الذي توفي في عام 1999، وجلاً من نمط آخر، ومن المؤكد أنه كان سيتصامن بقوة مع الأقلية التركية في ألمانيا كما هو حال السكرتير العام السابق للمجلس شتيفان كرامر. وعموماً، لا يزال كثيرون من الآخرين مصابين بمرض التوحد عندما يتعلق الأمر بمشاكل بقية العالم. من جهتي، لا أستطيع قبول هذه المعايير المزدوجة.

علينا الإقرار باحترامنا لشخص مثل هاينس غالينسكي الذي توفي في عام 1992، وشغل منصب رئيس المجلس المركزي لليهود في ألمانيا بين عامي 1954 و1963، ومرة أخرى بين عامي 1988 و1992، وقد مثل فعلياً مصالح اليهود في ألمانيا ولم يأتمر بما يعليه عليه أحد من القدس. أما رؤساء من أمثال جوزف شوستر فكان الخوف يؤرقهم من ذلك. فعاداً يمكن أن يقول "بيي" [أي تيناهاو؟] فالرجل، بيي تيناهاو، لا يستطيع الاستفادة من "الألمان اليهود"

وإنما هو بحاجة إلى "يهود في ألمانيا" وإلى "يهود في فرنسا"، أو قل إنه بحاجة إلى يهود موالين لإسرائيل في كل مكان، مستعدين دوماً مع حقائبهم الجاهزة للرحيل إلى إسرائيل.

ورغم أن شوستر سار بطريق معاكسة وهاجر مع أهله من إسرائيل باتجاه ألمانيا، فإنه على ما يبدو ما زال بعيداً من وصول حقيقي إلى ألمانيا، بل نراه مهتماً بشؤون اليهود فحسب، بأن الخوف يملكهم من العيش هنا ويقرعون من المشي في شوارع ألمانيا وهم يهتمرون الفلنسة اليهودية. لكن لتعلم، أن اليهود لن يعيشوا في أي أرض غير آمنة ومعرضين للخطر أكثر مما هو الحال في إسرائيل.

ورغم ذلك يدعي كاتب ألماني هو مكسيم ييلر كذاً أن من الواضح بالنسبة إلى كيهودي أن إسرائيل هي وطني. ومن الساذجة أن يعتقد يهودي ما أن أي بلد آخر ممكن أن يحميه أكثر من إسرائيل⁴⁶. من جهتي، أظن أن ييلر يعاني جنوناً العظيمة على نحو واضح وأتمنى له الشفاء العاجل. وربما أنا شخص ساذج، لأنني أعيش هنا وأؤمن بأن الدستور الألماني يكتفل الحماية لكل شخص، بل يكفلها حتى لمكسيم ييلر.

من الواضح أنني لست الوحيد الذي يحمل هذا الرأي. حيث رغم كل التهستيريا والبروباغندا الهائلة التي شاعت بعد الهجوم الإرهابي على سوبر ماركت يهودي في باريس. ورغم طلب سيامين نتنياهو التفاضح ضرورية أن يهاجر اليهود الفرنسيون إلى إسرائيل فقد كشفت وزارة الهجرة الإسرائيلية عند نشر إحصاءات الهجرة أن عدد اليهود الذين هاجروا من فرنسا إلى إسرائيل أقل بـ 40 في المئة مما كان عليه قبل سنة واحدة.

كما اعتبر المجلس المركزي لليهود خروج المظاهرات العارمة التي عمت أرجاء ألمانيا وأماكن أخرى في صيف 2014 للاحتجاج على حرب غزة، "تفحلاً مرعباً ومذهلاً يعبر عن معاداة للسامية"، ولم يعتبرها احتجاجاً ضد

(46) <https://bit.ly/10000dY>

سياسة إسرائيل، وهو هدف تلك التظاهرات في المقام الأول. إنهم يعضون أعينهم أمام المشاهد الرهيبة على التلفاز ويؤمنون أنهم يقفون يثبات إلى جانب أخواننا وأخواتنا في إسرائيل "فإسرائيل لديها الحق في الدفاع عن نفسها عندما تُقصف كثيراً بالصواريخ. وهنا نجد نجاحاً للتفوق العسكري لإسرائيل التي تقتل آلاف الفلسطينيين بواسطة القنابل العالية التقنية.

لا يمكن إنكار أن في حالات الغضب تلك تحدث حوادث معادية لليهود، وقد بُسِّمَ لمحمد يهودي ما بتطبيقه، وهو ما يجد تبريره. لكن لا ننسى أن هذا الغضب العام هو نتيجة ذلك الدعم الهائل وغير المشروط لإسرائيل من المجلس المركزي لليهود، الذي يقف إلى جانبها بصرف النظر عن الأعمال الوحشية التي ترتكبها دائماً ضد الشعب الفلسطيني. وللأسف يعتقد كثيرون أن المجلس المركزي يمثل رأي كل يهود ألمانيا.

بالطبع هذا غير صحيح. فمن بين أكثر من 200.000 يهودي روسي أُنشِئ على ذكركم وقدّموا إلى ألمانيا من الاتحاد السوفياتي، لا يوجد سوى قِراءة نصف ذلك العدد ممن سُجِّل رسمياً في تجمعات الجالية اليهودية. من هنا نجد أن هناك كثيراً من اليهود خارج تلك التجمعات، وبالتالي لا يمكن المجلس المركزي أن يتحدث باسمهم.

لقد وصف ديتير غراومان نفسه ذات مرة قائلاً بأنه يهودي "واع" "ويهودي واع بذاته"، ولا تمثل يهوديته عبئاً ثقیلاً عليه، بل يحملها "بشموخ لا يقهر". وبالفعل، فإن المتحدثين باسم اليهود في ألمانيا، سواء أكانوا يهوداً في ألمانيا أم يهوداً ألمانيين، فإنهم يقفون وراء إسرائيل بحزم وفقاً لشعار: "سواء أكان بلدي على صواب أم خطأ، فإنني أقف إلى جانبه". ودائماً ما يتردد على مسامعنا كلام من جانب هؤلاء الناس بأن إسرائيل هي "وطنهم الروحي"، وربما يظن المرء، والحق هذه، بأنهم تركوا أرواحهم هناك في إسرائيل وهم يعيشون هنا من دونها.

هكذا، اختفى الدور الإيجابي الذي قامت به اليهودية في ألمانيا، كما عبّر عن ذلك تيودور مومرن في عام 1880 في ما أطلق عليه اسم الجدل

البرليني بشأن معاداة السامية. لقد ولّى زمن الصاخر بالشتات اليهودي عندما طردت الرابطة المركزية للمواطنين الألمان ذوي المعتقدات اليهودية تيودور هرتزل والنصاوية في عام 1897 من البلاد. وكان عليهم الانتقال إلى سويسرا، إلى بازل، عندما أوفدوا تنظيم أول مؤتمر صهيوني في ميونيخ. هنا نذكر أن ممثلين عن أغلبية اليهود البرجوازيين المتدمجين في ألمانيا اجتمعوا في الرابطة المركزية التي تأسست في 5 آذار/مارس 1893 في برلين، وولفوا بين دينهم اليهودي وجنسيتهم الألمانية ودافعوا عن المواطنة الكاملة والمساواة الاجتماعية. ولم تستطع هذه الرابطة العمل مع تلك القومية اليهودية الصهيونية التي أرادت تأسيس دولة خاصة لليهود المشتتين في جميع أنحاء العالم. أما التجارب الكبير الذي حصلت عليه تلك الصهيونية ضد أي حقيقة من أوروبا الشرقية أكثر مما أتى من ألمانيا، والسبب يعود إلى الاصطهاد والتمييز والمذابح التي عاناها اليهود حينذاك والتي كانت أكثر قساوة مما تعرضوا له في أوروبا الغربية، حيث كانوا هنا يحرزون تقدماً في ما يتعلق بحقوق المساواة القانونية والتقدم الاجتماعي.

بالطبع أعادت هذه اليهودية بالنهاوي، وانتهى ذلك التقدم مع الوحشية في جرائم الإبادة التي ارتكبتها النازيون [القوميون الاشتراكيون]. أما مسألة إمكان إنقاذ هذه اليهودية، وهل كان هرتزل على صواب في أيديولوجيته التي طرحها، فهي أمرٌ عفى عليه الزمن. لقد كانت نشأة الصهيونية مبررة ومثلت إجابة ممكنة عن معاداة السامية المسعورة التي كانت منتشرة. ورغم ذلك، كتب الروائي اليهودي من غاليسيا جوزف روث، في نهاية مقالة له حملت عنوان "يهود على طريق الهجرة"،¹⁷ لم تكن الصهيونية سوى حل جزئي للمسألة اليهودية¹⁸. لقد هيكلت الهولوكوست منذ ذلك الحين الفكر اليهودي، خصوصاً في ألمانيا، ولدينا أمثلة رائدة على ذلك، ميشا برومليك، وميشيل فريدمان، وهنريك برودر، ودكتور ديتز غراومان، وشارلوت كويلوخ، وباستيانه مكسيم بيلر، فإن معظم

(17) Joseph Roth, *Romane und Erzählungen*, p. 1179.

العائلات اليهودية التي عادت إلى ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية كانت تعاني صدمات نفسية بسبب معتقل أوشفيتز؛ وهؤلاء بالفعل يهود بارزون قاموا بنقل هذه الصدمة إلى أطفالهم.

نعيش في داخل كثير من اليهود الألمان روحان، روح يهودية وأخرى ألمانية. إن حقيقة أن اليهود يتأرجحون ما بين ولائهم لهذه الأرض التي عاشوا فيها وولائهم لإسرائيل - أو حتى ولائهم للميتو الذي قدموا منه - تمثل ظاهرة غريبة تقدم اليهودية نفسها في ألمانيا. لقد كان موسى مندلسون، الذي أدمج اليهود في الثقافة الألمانية من خلال ترجمته للكتاب المقدس، يهوديًا ولم يكن سوى القليل من الألمان يعتبرونه ألمانيًا. كما أن اليهود لم يعترفوا بترجمة مارتن لوتر للكتاب المقدس حتى إنهم لم يقربوها؛ لذلك كان الأمر يمثل خطوة تحررية في تعليم اليهود اللغة الألمانية من خلال الكتاب المقدس. بالطبع هناك ترجمات أخرى مهمة للكتاب المقدس قام بها يهود منها ترجمة مارتين بوير وفرائنس روزنتسفايغ (Franz Rosenzweig) إلا أنها لم تلقَ الإقبال الجيد عند كثير من اليهود. أما الترجمة الأكثر انتشارًا والأكثر شعبية عند اليهود الألمان فكانت تلك التي أشرف عليها ليوبولد تسوتس (Leopold Zuntz) الذي ولد في مدينة دتمولد باسم يوم ثوب ليبمان تسوتس، وهو عالم يهودي ألماني من الرواد في مسألة تحرير اليهود في ألمانيا.

هنا نذكر بأن الفترة الزمنية التي عاش فيها اليهود والمسلمون العرب مع بعضهم في الأندلس قد أثمرت تعايشًا مثمرًا أثرى أوروبا كلها روحياً وفكرياً. حتى إن المؤرخين اليهود يطلقون عليها "العصر الذهبي". وقد كانت بداية ذلك مع الفترة الفاعلة للطبيب والدبلوماسي اليهودي الأندلسي حسداي بن شروط الذي خدم في بلاط الخليفة الأموي عبد الرحمن (912-929م) في قرطبة ومن الشخصيات التي كان لها تأثير في القرون التالية في إسبانيا والبرتغال كان هناك علماء ومثابون يهود أمثال موسى وإبراهيم أبي عزرا، ويهوذا اللاوي، وإسحاق أبراهاميل، وموسى بن ميمون، وكان الأخير، ابن ميمون، فيلسوفًا وفقيهاً وطبيباً يُعد من أهم العلماء في العصور الوسطى بل في كل العصور.

الحال نفسه يمكن قوله في ما يخص التعايش اليهودي - الألماني الذي خلق قضاء هائلاً من الشعراء والكتاب والفلاسفة والأطباء والعلماء والمثقفين والموسيقين، وكذلك من السياسيين. لقد بدأ هذا العصر الذهبي في القرن الثامن عشر مع موسى مندلسون الذي مهد الطريق لعصر التنوير اليهودي (أو هاسكالا) انطلاقاً من برلين. لقد بقي هابشرس حياته طوال حياته في أعين معاصريه يمثل شخصاً يهودياً حتى بعد اعتناقه المسيحية وإعلانه في كتابه الألماني (Aback der Lieder): "إنني شاعر ألماني، معروف في الأرض الألمانية، فإذا ما أردتم أفضل الأسماء، فسيكون أيضاً ذلك الاسم اسمي".

الأمر نفسه ينطبق على كثيرين أمثال: كارل ماركس، وراخيل فاونهاغن (Rahel Levin Varnhagen)، ولودفيغ بورني (Ludwig Börne)، وهermann كوهين (Hermann Cohen)، إلى هرديناند لاسال، وهانز راتناو (Hans Reuter)، وإلر لاسكو-شولر (Elie Lasker-Schüler)، وياكوب فاسرمان (Jakob Wassermann)، وأرنولد تسفايغ، وحة أرندت. لقد كانت بحق فترة تعايش مشرٍ أعنت كلاً من ألمانيا واليهود.

لقد ساد اعتقادٌ لزم من طویل بأن اليهودية الألمانية انحطت إلى الأدب ومن غير الممكن بعثها من جديد لكن اليوم لدينا يهودية جديدة ومن الصعب فهم كنهها. لقيادتها قيادة مرتبكة وحائرة وتعرض لصعط خصوصاً من إسرائيل. وبالطبع، سيفرر اليهود في ألمانيا في السنوات اللاحقة ماذا يريدون وما يرغبون في أن يكونوا عليه: يهود في ألمانيا أم يهود ألمان؟ وفي الواقع، هم أمام شئ غير متوقع لمعارضة بين (فتة) الشباب اليهودي الذي يأتي من إسرائيل إلى ألمانيا ولا يميل إلى الانخراط في السياسة المنبئة في إسرائيل.

لقد عرف العالم بأكمله قبل 70 عامًا حقيقة جرائم النظام النازي في ألمانيا، كما أدرك مع تحرير معسكرات الاعتقال. أكثر الانتهاكات الإنسانية فسوة وبشاعة في القرن الماضي. إنه لأمر مهمٌ وصروري ذلك الاستخلاص للدروس من تلك الحقبة الرمنية المظلمة من تاريخ ألمانيا وأوروبا. كما أن

الإقرار بالذنب وتحمل مسؤولية ما حدث من جرائم في تلك الحقبة كان أيضًا أمرًا مهمًا، وذلك لحماية الحياة اليهودية المتبقية في ألمانيا وأوروبا وضمن أن يشعر اليهود من جديد بأنهم، في ألمانيا وفي أوروبا، يعيشون في بلدانهم الأصلية.

لكن، بعد 70 عامًا، علينا إدراك أن ما يتلدى به لحياة طبيعة اليهود لا يزال بعيدًا، فعلى الرغم من أن الحياة اليهودية في ألمانيا في نظر كثيرين طبيعية ويتعاملون معها على هذا الأساس، إلا أن أجهزة الإعلام والسياسة فيها تصرُّ على معاملة الحياة اليهودية على أنها "مسألة خاصة". ولا شك في أن هذه "المعاملة الخاصة" تمثل عفة للتعامل بطبيعية مع هذه المسألة، فهي لا تمنع اندماج أقلية دينية في المجتمع فحسب، بعد أن صُنفت سابقًا "أقلية خاصة" وتم القضاء عليها تقريبًا؛ بل تمثل، علاوة على ذلك، دفقًا للأصوات الراديكالية والجهلة في هذه البلاد.

طبعًا، إنني لا أقصد بتعبير "المعاملة الخاصة" أن الدعم الحكومي ودعم البلديات للحياة اليهودية قد ازداد ازديادًا كبيرًا منذ تسعينيات القرن الماضي. بل على العكس، فما يجري أكثره مهمًا لإدماج المهاجرين اليهود من دول أوروبا الشرقية. ولا أقصد كذلك بهذا التعبير تلك التدابير الأمنية لحماية المنشآت اليهودية، طبعًا رغم اعتباري هذه السلوكيات الأمنية أمرًا مبالغًا فيه إلى درجة كبيرة، وذلك نظرًا إلى حقيقة أن المؤسسات الإسلامية والمساجد ودور اللاجئين قد تعرضت لهجمات أكثر بكثير في السنوات الأخيرة ولم تحمها السلطات الأمنية حماية كافية وواضحة. ما أعنيه تحديدًا بتعبير "المعاملة الخاصة" هو ما أصبح طبيعيًا في شأن العلاقة الخاصة لنخبة السياسة وتخب الدولة مع المجتمعات اليهودية التي تعمل "كممثلة" غير رسمية لدولة إسرائيل. إن هذه "العلاقة الخاصة" تمنح طرفي العلاقة - من عاملين في الحياة اليهودية وبعض السياسيين - حضورًا إعلاميًا وتسليطًا للضوء عليهم. ومع ذلك، فإن من غير الأخلاقي، وهو ما يجب شجبه، أن أغلبية اليهود في ألمانيا يدعمون السياسة الكولونبالية لإسرائيل على نحو أعمى وغير مشروط.

لقد حاز الوقت لبدرج الجمهور الألماني أنه ليس كل يهودي يدعم
السياسة الإسرائيلية أو يقف في صف المجلس المركزي. فإذا ما كان علينا
تعلم درس من الماضي المظلم لألمانيا، فيجب علينا ألا نعتزم وألا نتعامل
بحساسية مع الأقليات الدينية والأثنية، كبدل من وضعها في أدراج [إهمالها]
أو وضعها في عريضة دهائية. ولنعلم أن اليهود في ألمانيا ليسوا ملتحقين
للمطامحات المهيبة للسياسيين والمسؤولين من المهوروسين بجني المكاسب
والشهرة الإعلامية.

8

هل هناك معاداة السامية
مستوردة من صفوف اللاجئين؟

أحد الادعاءات الشبهة الذي انتشر في سياق الحدث عما يسمى أزمة اللاجئين، ولد من ضمن رئيس المجلس المركزي لليهود في ألمانيا الدكتور جوزف شوستر في خريف 2015. وقد ادعى: "إننا نستورد مع اللاجئين معاداة السامية أيضاً"¹¹. كما ادعت من سقته في رئاسة المجلس شارلوت كنبولوخ أن هؤلاء اللاجئين يتمون بالأصل إلى بلدان تُعتبر فيها معاداة السامية جزءاً لا يتجزأ من تنشئتهم الاجتماعية، ونددت بقرار استقبال هؤلاء اللاجئين على أنه "تسامح يساء فهمه".

في الأساس لا يمكن أن تُفهم لفظة التسامح على نحو خطأ. فالتسامح يعني أن تمنح الآخر الحرية بالتعبير عن رأيه. ولكن استمحيحكم هؤلاء من يتسامح مع عمل إرهابي؟ إن أحد أهم أسس مفهوم التسامح أن يلقى قبولاً في كل زمان ومكان. وهذا ذلك ستكون هناك فجوة في القوة بين المتسامحين والمتسامح معهم. لقد حظيت أنجيلا ميركل بإعجاب العالم أجمع، بسبب قرارها فتح الحدود أمام اللاجئين لدخول ألمانيا. ربما كان هذا القرار من الناحية السياسية غير دقيق، وقد رأت المحكمة الفدرالية العليا، في قرارها الصادر في تموز/ يوليو 2017، أن هذا القرار مخالف لاتفاقية دبلن، لكنه من حيث المبدأ غير ممنوع. وبالتأكيد لم يشكّل القرار قط "معاداة للسامية"، حتى لو استنكره المجلس المركزي لليهود أو حتى إذا أبدت الحكومة الإسرائيلية عدم تعهدها له ولا تنسى أن القسم الأكبر من الشعب الألماني كان مؤيداً لمشارته في اتخاذها هذه الخطوة، باستثناء الناحين من صف حزب البديل لأجل ألمانيا. والحال أن السيدة كنبولوخ قد بلغت بها المغالاة أن تدّعي في

(11) <https://bit.ly/M2CNews>

خريف 2019، بكل غصة، أن ألمانيا تستورد معاداة السامية. إنها بادعائها أن "معاداة السامية غدت مرة أخرى ثنائي رواجاً وقيولاً اجتماعياً، وهي تستخدم بين المسلمين الذين يعيشون هنا" تنشر الخوف والرعب بين اليهود في ألمانيا. لكن لتشد على أن من غير المقبول أن يوضع مجتمع ديني بأكمله في موضع الشك العام.

في الحقيقة لا تحتاج ألمانيا ولا أوروبا إلى استيراد معاداة السامية، فهما قامتتا، وعلى مدى طويل بتصديرها. ولنتذكر أن معاداة السامية في الحقيقة منتج أوروبي مسيحي ظهر في أوروبا وشُحِد وتمت تنميته وتغذيته هناك لقرون طويلة. أما في العالم العربي الإسلامي فلم يتعرض اليهود في أي وقت من الأوقات للاضطهاد أو الملاحقة قط كما هو الحال في أوروبا المسيحية، بل على العكس من ذلك احتضنت هذه البلاد، مثل شمال أفريقيا والإمبراطورية العثمانية ودول البلقان، اليهود الذين فروا من محاكم التفتيش الإسبانية الكاثوليكية أو طردوا بأمر منها، ولهذا تُعتبر هذه البلدان هي ما أُنقذ حياتهم.

ما يزعج على نحو خاص هو أن تروّج التهامات جوزف شوستر فجأة في كل برنامج حوارى ويُعامل معها كأنها حقيقة ثابتة. فهنا نرى تلك النقاشات بين المحاورين الذين لا يمتلكون الدراية بالتاريخ اليهودي، هذا الضيوف الذين غالباً ما تكون معرفتهم ناقصة، ويدخلون في تحالقات زائفة وكاذبة مع اليهود، الذين يصوّرون بشكل قُل أو كثر على أنهم معرضون لخطر الاضطهاد كما هو حال غيرهم.

ثمة ما يشكّل جزءاً من عقلية الغير اليهودي أن يسألوا أنفسهم في كل مناسبة: هل الأمر جيد أم سيء لليهود؟ إننا ندرك أن اللاجئين القادمين إلى ألمانيا عليهم بالتأكيد مواجهة مشاكل مختلفة تماماً من أن يحصرها تكفيرهم في اليهود الموجودين هنا. بيد أن شوستر يرى أن اللاجئين القادمين خاصة من سورية "معادون لإسرائيل واليهود" لأنهم تربوا على هذا في وطنهم.

وهذا بالفعل يمثل إحدى الأساطير الدعائية التي تروّجها إسرائيل وأصدقاؤها من المسلمين عموماً، والعرب المسلمين خصوصاً، ويصدقها كثير

من الناس. مرة أخرى، إن لليهود مكانتهم الثابتة في العالم الإسلامي. لا شك في أنه لم اردواهم لكونهم غير مسلمين، كما هو حال المسيحيين، إلا أنه يُنظر إليهم، في الوقت نفسه، على أنهم أهل كتاب، خلافاً لحالهم في البلاد المسيحية، وقد حظوا بحماية النبي على نحو خاص. والحقيقة التي لا يمكن نكرانها هي أنه لم تُرتكب في البلاد الإسلامية في أي وقت من الأوقات مذابح ضد اليهود، بل كانت البلاد الإسلامية، خاصة تركيا والمغرب ومصر والجزائر، هي ما احتضنهم بعد أن هُجرتهم وطردتهم محاكم التفتيش الإسبانية.

في نيسان/أبريل 2017 قدّمت لجنة الخبراء التابعة للحكومة الاتحادية تقريرها الذي تصف فيه بالتفصيل مدى تنامي "المواقف المعادية للسامية" بين الشرائح المختلفة للسكان من اليساريين إلى اليمينيين، وشكل خاص بين المسلمين. وكما هو الحال في كثير من الأحيان في استطلاعات مماثلة لما يسمى "الخبراء"، حيث تجري مقارنة التفاح بالمور، وفي معظم الحالات تقبّم الأحكام المسيقة التي لا تحمل ضرراً ونصف أنها معاداة لحظرة للسامية.

وقد تم الاتفاق في البرلمان الألماني بالإجماع على ضرورة تعيين عامل للحكومة الألمانية للوقوف في وجه معاداة السامية. وهنا يذكر، أنه بعكس ذلك، فإن أفضل وسيلة لمحاربة معاداة السامية هي عدم تعيين مثل هؤلاء العاملين مع لحابهم على الإطلاق. ليست معاداة السامية إلا شكلاً من أشكال العصرية، وإن أي تشديد أو تأكيد خاص عليها أو محاولة لإظهارها لهو في حد ذاته معاداة للسامية خالصة.

كما ينبغي عدم التعامل مع اليهود وكأنهم تُحجب بتوجب حمايتها أو كمحميات طبيعية يجب الحفاظ عليها، ولا ينبغي إيلاؤهم أي أهمية خاصة من جانب أي سلطة أو لجنة.

وقبل كل شيء يجب ألا يحاول المرء التخلص من شكوك معاداة السامية من طريق نقل أوزارها إلى المسلمين، خصوصاً اللاجئين. وكما ذكرنا، فإن معاداة السامية لم تظهر في فضاء عربي، وإنما صُنعت في فضاء مسيحي أوروبي في كنف الكنيسة الكاثوليكية ووعايتها.

لقد أعرب كلٌّ من جوزف شوستر من المجلس المركزي لليهود في ألمانيا وفولكر بيك، المتحدث باسم حزب الخضر في البرلمان الألماني سياسة الهجرة والدين، عن قلقهما من "تناهي معاداة اليهودية بين المسلمين".⁴² هذا على الرغم من كلام جميلة يوسف (Cemile Yusuf)، وهي متحدثة باسم كتلة الائتلاف الحاكم في البرلمان الألماني، حول سياسة الاندماج، ومن كلام الاتحاد المسيحي الديمقراطي على أن ظاهرة معاداة السامية المتزايدة ليس لها علاقة بسياسة اللاجئين. ووفقاً لها: "ببساطة لا توجد أرقام موثوقة يمكن أن يستقري المرء منها ارتباطات كهذه".⁴³

الحال أن شوستر وبيك لا تملكهما الرغبة في استيعاب ذلك، فضلاً عن كونهما لا يرغبان في أن يوسما بأنهما عنصريان، أو يُتد بهما، لذا نجدهما يحذران بنحي غير يقيني من شكوك عامة ضد المسلمين، لكنهما بهذا يوضحانها. حيث إن شوستر، في الوقت نفسه، يؤكد أنه ينبغي لليهود "عدم الكشف عن هوياتهم في بعض المناطق في المدن الكبرى" لما قد "يتعرضون له من تهديدات لفظية أو جسدية". حتى إن هنريك برودر قد حذر في خطبة التكريم لمارسيل رايش رابكي، وسط ذهول ودهشة الجمهور في كنيسة باول في فرانكفورت، في 8 حزيران/يونيو 2010، قائلاً إن محرقة جديدة (هولوكوست) على وشك الحدوث وإن هذه المحرقة "إن لم تحدث في ألمانيا فبالأكيد في أماكن أخرى مثل المصولة، وكفر سافا والمطلة" (هذه المناطق كلها في إسرائيل).

حتى إن فولكر بيك قال: "على المرء الأخذ على محمل الجد أن اليهود في ألمانيا لديهم الإدراك بشأن التعرض لتهديدات خاصة في مناطق معينة وأيضاً في المناطق ذات الكثافة السكانية المسلمة".⁴⁴ بالنسبة إلى هذا الكلام عنصري، فلنا كيهودي لا أعرف مناطق كهذه لا يمكنني الذهاب إليها، وما إذا كان لها من وجود، فهذا يشير إلى وجود مشكلة حقيقية مع الشرطة وليس مع اليهود.

(42) "Nahes Konflikt zwischen deutsche Schulhöfe" Der Post (24 Juli 2017).

(43) Ibid.

لا بل الأدهى هو مدى سرعة انتشار أساطير كهذه، بسبب تعرّض شخص أو اثنين من اليهود للضرب فحسب، ولكن هل توجد أرقام وإحصاءات عن الذين تعرّضوا للضرب من غير اليهود؟ وهنا ترى أن من يشارك في هذه الفاشات، من شوستر إلى برودر حتى يلك، يرون أنه طالما هناك نزاع في الشرق الأوسط فإنه سيصل إلى ساحات المدارس الألمانية⁽⁴⁴⁾. وبدلاً من رؤية هذا الموضوع ومعالجته بصرح "الرايخكالي الصهيوني" فولكر بيك عضو البرلمان مطالباً أن تبدأ التجمعات الإسلامية في النهاية في تحديد موقفها من إسرائيل وبالتالي من الدين اليهودي على نحو إيجابي⁽⁴⁵⁾. وهنا أقول ربما كان من الأفضل عدم إظهار هذا الحلط والمعرّج الشديد بين الدين والسياسة والنسب وذهاب الإسلام (الإسلاموفوبيا) في إناء واحد. لماذا؟ لأن من حراء هذا الحلط مستتج أمامنا راحة عنصرية متعففة.

يرى البروفسور ليو لاتاش (Leo Lataschi) أيضاً، عضو مجلس إدارة الجالية اليهودية في فرانكفورت لفترة طويلة وعضو مجلس الأخلاق الألماني: "إن معاداة السامية الحديثة" هي ألمانيا التي تتخللها ميول إلى العنف تهبث خصوصاً من المسلمين⁽⁴⁶⁾. بالها من تصريحات جريئة، طبعاً هذا على الرغم مما تصدره الشرطة ووزارة الداخلية من بيانات وتصريحات عن أن العنف العنصري والمعادى للسامية لا يزال يأتي أساساً من اليمين. لاتاش يغالي حتى أيضاً بقوله إن معاداة السامية، وهنا يسأل المرء أي نعط من هذه المعاداة، "لا تقف عند حدود انتشار الهتافات في شوارع فرانكفورت معبارات اليهود إلى غرف الغاز"⁽⁴⁷⁾. وطبعاً يتفق لاتاش مع برودر في الرأي أن اليهود على وشك مواجهة هولوكوست جديدة. لكن حقيقة عدم مفاداة كل الألمان اليهود للبلاد تُظهر أن شوستر وبرودر ولاتاش وكنوبلوخ، من بين آخرين، لا يأخذون اليهود على محمل الجد، حيث إنهم يريدون بث الرعب والخوف بينهم، لكي

(44) Ibid

(45) Ibid

(46) Ibid

(47) Ibid

بهاجروا إلى إسرائيل. إنني أسأل هنا: لماذا؟ هل يريدون البقاء رؤساء للمجلس المركزي وزعماء للتجمعات التي يتركها اليهود؟

لقد كتب الصحفي، الإسرائيلي الأصل، جيل باشراشي (Gil Hashtachi) في 8 آذار/مارس في جريدة دي تساييت⁽¹⁾ الألمانية مقالة هجومية وتشهيرية ضد الجالية المسلمة في ألمانيا، ولم يحتج ضد ذلك أحد، لا الصحافة الليبرالية المزعومة، التي تمثل هذه الجريدة دي تساييت متارة لها، ولا أي من المنظمات اليهودية "المحترمة"؛ وجاء فيه: "بالطبع يوجد معادون للسامية في ألمانيا، وهي (معاداة السامية) كذلك جزء من الثقافة الإسلامية". لكن من الواضح أن هذا الرجل ليست لديه أي معرفة بهذه الثقافة الإسلامية، وإلا لكان يجب أن يعرف أن المسلمين قد ألقوا اليهود عندما اضطهدهم المسيحيون المتعصبون. وحقق، حينما يكتب باشراشي ضد المسلمين في كل أنحاء العالم فستدرك الصحف والافتراء عنده، فهو يقول: "كيف ندرك حقيقة أن المسلمين يريدون هذا المستقبل المشترك أيضًا؟ ربما ستكون الفكرة المثالية لذلك هي تقديم العلاج النفسي لـ 1.9 مليار مسلم"⁽²⁾.

إنه يعتقد أن اليهود لديهم "التزام تجاه المستقبل"، بخلاف المسلمين. ولكن كيف سيكون الحال مع تقديم العلاج النفسي لـ 1.5 مليون يهودي؟ فعلى الرغم من أن هؤلاء اليهود يشكلون فقط 1 في المئة من المسلمين، إلا أنه ليس هناك القليل من اليهود ممن له التأثير الكبير. والحق أن من المخجل والإهانة أن يطلب هذا الصهيوني من جميع المسلمين في ألمانيا أن يتخلوا عن "معاداتهم" للسامية الفاسية والساخطة والمعتدة نفسها. فمن يحمل السخط والاعتداد بالنفس هو هذا اليهودي الذي يعتقد أن بإمكانه كتابة هذا الهراء، لأنه يهودي فحسب ولأن صحيفة عريضة مثل دي تساييت تسمح له بالكتابة فيها. والحال أن الصحف الرائدة في ألمانيا تتقاطع مع بعضها من فرانكفورت ألمانية تسايونغ، إلى فاخسهايمونغ إذ تنظر إلى الشجاعة والجرأة في قول الحقيقة.

(1) Die Zeit, no. 10 (3 March 2013).

(2) "Der Mär vom islamischen Islam," Die Welt (26 June 2013).

لقد نشرت صحيفة ذي قلت في عددها الصادر في 26 حزيران/يونيو 2017 إحدى المقالات للباحث في العلوم الإسلامية حامد عبد الصمد، الذي هجر الإسلام وتركه، وذلك تحت عنوان "أسطورة ليبرالية الإسلام". هنا أسأل، هل من الممكن أن تتجراً إحدى الصحف الألمانية على نشر مقالة لعالم النفس اليهودي والعضو السابق في المجلس المركزي لليهود البروفسور رولف موليتر عن أسطورة ليبرالية الصهيونية. والحال أن المرء لا يجرؤ حتى على قبول مساعدة تناول اليهودية الليبرالية الموجودة بالفعل. ففي السياسة، ليس صحيحاً إلا اليهودية القومية المتطرفة سياسياً فحسب، والتي يطلق عليها كثيرون، الصهيونية.

نبدأ مقالة عبد الصمد بالقول: "يجع الإسلام الراديكالي دانتاً وأنداً بإلهاهم [فئة] الشباب المسلم واجتذابهم وتعبثهم خدمة لأعدائه بالقتل". والسؤال المطروح هنا: لو استبدلنا كلمة "إسلام" بكلمة "اليهودية" وبدل تعبير "الشباب المسلم" (وضعنا) تعبير "الشباب اليهودي" فهل يستجراً إحدى الصحف على نشر هذا؟ هناك لا شك اختلاف طيفاً في تقييم كل من الإسلام واليهودية في ألمانيا، وعندما كتب البروفسور ميشال بودمان (Michael Bodemann) مرة "إن المسلمين اليوم هم يهود هذا الزمان"، هاجمه هنريك برودر منهماً إياه بأنه معاد للسامية وأن "عقله أصبح مسطحاً كقطعة بيتزا"¹⁴⁰.

ليس ثمة علاقة للعداء ضد اليهود في البلدان العربية المجاورة لإسرائيل، ولا سبباً سورية التي يقدم منها معظم اللاجئين الجدد إلى ألمانيا، بعنصرية دبية أو إثنية، بل هو نتيجة الصراع في الشرق الأوسط ووضعية الحرب مع إسرائيل فحسب. إنها لحقيقة لا يمكن أحداً نكرانها وهي عيش اليهود في سورية حتى بدأ انفكاك الدولة، وتم قبول المجتمع اليهودي واحترامه من قبل الدولة، أما في إيران فيُسمح لليهود حتى بالخدمة العسكرية.

أما عن يهود العراق، فقد كان المجتمع اليهودي هناك بالأهمية نفسها التي للمجتمع اليهودي في ألمانيا، حيث كان اليهود مندمجين في المجتمع

(140) <https://daily.3arabnews.com>

العراقي اندماجاً كاملاً... حتى اندلاع الصراع في الشرق الأوسط وتأسيس دولة إسرائيل، حيث أنك ثم تدمير كل شيء.

ليس الأمر على ذلك الشكل في ما يخص ما يقال عن اللاجئين. فاللاجئون يشكّلون تحدياً للمجتمع الألماني - كما شكّل اللاجئين اليهود القادمون من الاتحاد السوفياتي قبل أكثر من عشر سنوات تحدياً كبيراً حينما استقبلتهم ألمانيا. بيد أن مواطنين يهوداً، مثل جوزف شوستر، يرون في اللاجئين خطراً على اليهود وعلى إسرائيل خصوصاً ويشيرون جنون العظمة. لكن لنذكر أن صورة الفلق من "معاداة السامية المسلمة" تلائم كذلك مع صرف الانتباه عن الاحتلال الإسرائيلي غير القانوني.

للاسف تلاني تصريحات كهذه تشجيعاً كبيراً. وأيضاً نجد البروفسور في مجال السياسة، الألماني السوري بسام طيبي يصرح في تموز/ يوليو 2016 من دون أي دليل أن كثيراً من اللاجئين من بلد، سورية، هم معادون للسامية. الآن، ربما من الممكن أن تكون الكراهية لإسرائيل بين السوريين منتشرة بسبب تغذية النظام السوري لها هناك. ولكن هل يصح دعوة ذلك بأنه معاداة للسامية؟ ثم ماذا عن انتشار كراهية إسرائيل لسورية؟ ما يذكره طيبي في جريدة دي فلت هو عبارة عن مجرد اتهامات. ولم تنل مقابلاته الصحافية الاستحسان من هنريك بروذر فحسب، وإنما من السيدة بياتريكس فون شتورزش، من حزب البديل لأجل ألمانيا، التي غردت على تويتر قائلة: "مقابلة جيدة"، وأيضاً صرحت السياسية يوليا كلوكوتز من حزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي بخصوصها: "مقابلة عظيمة مع بسام طيبي في جريدة دي فلت (...) ويجب قراءتها"

بالطبع من غير المستغرب أن كثيرين من الشرق الأوسط لا يحترمون السياسة الإسرائيلية ولا إسرائيل طالما أن إسرائيل لا تحترم الحقوق الأساسية للفلسطينيين. كما أن مقابلة اللاجئين القادمين من الشرق الأوسط بقبول دولة إسرائيل والشروط لرشا ط حقهم في اللجوء هذا لهم أمرٌ شعبي و يدعو إلى السحرة. وهذا بالضبط ما طالبت به رئيسة اللجنة الأميركية اليهودية في برلين ديدري بيرغر (Dierdre Berger) في إحدى المقابلات الخاصة مع كتلة البرلمان

من حزبي الاتحاد المسيحي الديمقراطي، والاتحاد المسيحي الاجتماعي في بافاريا في تموز/ يوليو 2016، والتي تحدثت، إلى جانب نائب رئيس المجلس المركزي لليهود أبراهام ليرو، عن "الهيكلة البطورية المهيمنة على الأمر المسلمة" حيث تربى أبنائها على معاداة اليهود وكره إسرائيل، وفضلاً عن ذلك، طالبت به "ترحيل اللاجئين الذين لا يقرّون بقولهم إسرائيل" ولا ينصّ أن هذه المطالبة بالاعتراف بإسرائيل، والمرتبطة بالانتقام، فهي مهينة وعذلة، وفي كل الأحوال لا تصل سوى إلى درجة الاعترافات المنطقية من غير اقتناع داخلي بها. وعلاوة على ذلك، تتنافى مطالبات كهذه بالاعتراف الإجباري مع المادة (14) من القوانين الأساسية في ألمانيا، والتي تنص على أنه "لا يجوز انتهاك حرية الإيمان والضمير وحرية الرأي والدين". فأن نسمع مطالبات بهذا الاعتراف تأتي من اللجنة الأميركية اليهودية، فهذا في حد ذاته تفافق فريد ولا ننسى أن هذه المنظمة تقف بحدة ضد الاعتراف بدولة فلسطين في كل أنحاء العالم. إن من يسكر على الفلسطينيين حقهم في العيش في أمان في دولة مستقلة، ليس له أي حق في المطالبة بالاعتراف بإسرائيل.

لا شك في أن تعليقات تعميمية كذلك التي تتلفظ بها ديفوي برغر وأبراهام ليرو تلغي الخطابات العنصرية التي تناور حالياً ضد المسلمين، وفضلاً عن ذلك، فإنها عطايات لاذع حتى تجاه اليهود والإسرائيليين المقيمين في ألمانيا، لأن نصف الإسرائيليين اليهود، على أقل تقدير، أتوا من بلدان وثقافات ذات طابع إسلامي أو من عائلات يهودية أرثوذكسية يمكن العراء أيضاً وصفها بأنها تمثل "مع أطفالها الكثير هيكلياً بطورية مهيمنة".

بالطبع يوجد كذلك في ألمانيا النازيون والفاشيون والرجعيون الذين يعبرون عن سخطهم ضد اللاجئين والمخالفين لهم بالرأي من طريق أحزاب غامضة، ومدونات، ونظائرات، ولكن هذا لا يجعلني كيهودي أشعر بالحرف؛ ذلك أنه، أولاً، لا يوجد مكان في العالم أفضل من هنا، وثانياً، إن من المخيف فعلاً ما يحدث، ولكن هذا لا يجعلني أخاف كيهودي، وإنما كمواطن في هذه البلاد مثلما هو حال كثير من المواطنين المحترمين أيضاً هنا. أقول هذا

الكلام مع إرلاري أنني بهذا لا "أنكر" يهودتي ولا أنجبل بها. لهذا ما لا أقوم به أبدًا، ولكنني أيضًا لن أدرج نفسي ضمن الجبهة التي ينتمي إليها النازيون، والفاشيون، وحزب البديل لأحل ألمانيا، وحركة بيبدا.

الآن، كيف يمكن ممثل الجالية اليهودية اليوم التشهير باللاجئين وتصويرهم على أنهم إرهابيون محتملون؟ لقد كان اليهود، على مدى قرون، لاجئين، إنني أفكر هنا في اللاجئين اليهود الذين هربوا من ألمانيا النازية ولم ترغب أي دولة في استقبالهم. وأفكر أيضًا في تلك السفينة مونتورشف سانت لويس (MS St. Louis) التي كان على متنها ما يقارب ألف لاجئ يهودي ورفضتها الولايات المتحدة وكوبا في أيار/ مايو 1939، فلم يبقَ أمام هؤلاء اللاجئين اليهود سوى طريق وحيدة هي العودة إلى أوروبا وألمانيا، حيث قتل كثير منهم في أفران الغاز في معسكرات أوشفيتز ومعسكر تربلينكا (Treblinka). إنني أفكر في آلاف المواطنين الألمان الذين يقدمون مساعدات ويدافعون عن اللاجئين الذين يحتاجون إلى المساعدة. وهنا أذكر أن من واجب اليهود اليوم أن يتفكروا في الصفوف الأمامية في مسائل استقبال اللاجئين واندماجهم في المجتمع، بصرف النظر عما إذا كانوا مسلمين أم لا.

لكن للأسف، إننا نجدهم بدلًا من ذلك، يستيرون عدم الثقة تجاه المسلمين. لنقرأ مثلاً ما ورد في صحيفة شبيغل أون لاين في ربيع 2015: "ينصح المجلس المركزي لليهود بعدم اعتماد الفلسوة اليهودية"، فحينما يطالب حوزف شوستر اليهود بعدم اعتماد الفلسوة اليهودية في المناطق التي يغلب عليها السكان من عمليات مهاجرة، فهذا يساعد على تعزيز المخاوف. طبعًا، يعني الرجل بمصطلح "الخليقات المهاجرة" الأماكن التي يسكنها عرب وفلسطينيون ومسلمون. وتؤكد هنا أن الصراعات بين اليهود والعرب أو الفلسطينيين في برلين، في حال وُجدت، فإنها لا تتعلق بمعاداة السامية بقدر ما تتعلق بالصراع في الشرق الأوسط.

كما تتعامل وسائل الإعلام وكثير من السياسيين خفيفة أن مجموعات يهودية لا تزال موجودة في العالم الإسلامي، وأن اليهود في إيران التي ننتمي

إلى "محمود الشمر"، على سبيل المثال، يتمتعون بجميع الحقوق المدنية تقريباً بل حتى يخدمون في الجيش. وإنه فيما كان اليهود يلاحقون في أوروبا ويُحرقون، كانوا على النضرة الأخرى في الدول الإسلامية، مثل تركيا وسورية وإيران، يعيشون بسلام، ولم تحصل بحقهم مذابح أو اضطهادات أو ملاحقات ولم تدمر مجتمعاتهم. لقد تمتع اليهود في هذه البلدان بالاعتدال والاحترام والعيش بسلام. وأيضاً لا ننسى استقبال العالم الإسلامي لليهود حينما طردتهم إسبانيا المسيحية. وحينما ارتكب النازيون جرائمهم ضد اليهود، لجأ كثيرون منهم إلى تركيا. في الواقع يقع على عاتق المجلس المركزي لليهود في ألمانيا أن يذكر هذه الحوادث، بدلاً من أن يسكب الزيت على النار في ما يخص الرهاب [المفويا] من الإسلام.

أخيراً نشر سريعاً إلى أنه عندما استقبلت الدولة الألمانية مئات الآلاف من اليهود الروس، كان المجلس المركزي سيحتج بشدة إذا ما جرى التفرقة بموجب أن يكون هناك "حد أعلى" لاستقبالهم في ألمانيا. لقد كان بإمكان المجلس المركزي للمسلمين أن يدلي أيضاً بدلوه بأن المهاجرين اليهود القادمين من الاتحاد السوفياتي ينتمون إلى ثقافة تعتبر الكراهية ضد المسلمين وعدم التسامح معهم جزءاً لا يتجزأ منها، فهذا أيضاً ليس بالقول الخطأ.

لا أدري السبب الذي يجعلني أدهش وأسخط؛ أيسب المطالبة الوقحة بـ "حد أعلى" لقبول اللاجئين، أم بسبب التناحيج في خطاب الكراهية ضد المسلمين أو العرب عموماً، أم بسبب نفس الوعي التاريخي أو الانتقار إلى التعليم، وهي نتيج لنا رؤى كذلك التي لشومر تفسر الصراعات الكبرى في التاريخ من خلال عدسة الاختلافات العرقية أو الثقافية فحسب. إنه حقاً من الوقاحة الكبرى أن يُحذر الألمان، بصفتهم أحفاد النازيين من الثقافات التي تُعد فيها كراهية اليهود والتعصب جزءاً لا يتجزأ منها.

يُستخدم عادةً مصطلح "معاداة الصهيونية" ضمن دوائر محددة على أنه اصطلاح يرمز إلى "معاداة السامية" أو أنه يتقف على قدم المساواة مع "معاداة السامية". ولكنني بالطبع أعترف عن نفسي وبكل ثقة بأنني يهودي معادٍ للصهيونية. وليس من الضروري أن يكون المرء معادياً للسامية حتى يرفض الصهيونية، فهي عبارة عن أيديولوجيا دينية وإمبريالية، لذا يمكن أن يرفضها المرء أو يؤيدها كما هو حال أي أيديولوجيا أخرى. إلا أن موقفي منها هو موقف لزدراء وعدم احترام، لأنني اعتبرها أيديولوجيا غير إنسانية. وهذا ليس له علاقة بموقفي من اليهودية أو من اليهود كبشر، ولا حتى بموقفي من إسرائيل.

لا نسين أن ثمة وجوداً كبيراً للمعادين للصهيونية بين اليهود المعتدلين - مثلاً مئات الآلاف من أتباع مختلف المدارس الحسيدية [حسديم] مثل حسيدية ساتمار⁽¹⁾ - وهؤلاء يرفضون دولة إسرائيل رفضاً واضحاً، لأنهم يعتقدون أن المسيح الذي أرسله الرب هو وحده من له الحق في إقامة دولة يهودية. حتى إن كثيرين من اليهود في ألمانيا بنسبة 95 في المئة قبل صعود النازية لم يُدوا سوى تعاطف قليل مع الصهيونية؛ وإحدى الحوادث المشهورة الدالة على ذلك هي رفض المجمع اليهودي في ميونيخ استضافة أول مؤتمر للصهيونية، وكان هرتزل يرغب في تعليمه هناك، فاضطر لنقله إلى بازل.

لقد اعتبر المواطنون العلمانيون الألمان من اليهود أن الصهيونية

(1) حسيدية ساتمار حركة دينية أسسها الحاخام بوليف تيندور في عام 1840 سميت، كالعامة في المدارس الحسيدية، خلقاً لمنطقة شولها في مدينة ساتو هنري (ساتمار الألمانية)، التي كانت في ذلك الوقت ملكاً لمملكة المجر. وتقع اليوم في أقصى شمال غرب رومانيا وأعيد تأسيس المنظمة أو الحركة بعد الهولوكوست في الحرب العالمية الثانية في نيويورك (المتحدة)

أيديولوجيا قومية انفصالية إلى حد كبير تقف في طريق اندماجهم واستيعابهم في ألمانيا. فلو لم تقضي النازية على اليهودية الأوروبية، لم تكن لتقطع السبل بالتاجين منهم على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ولو لم تقف القوى الغربية في صفهم، لم يكن ربما لدولة إسرائيل اليوم من وجود. ثم لتعلم أن الأوروبيين لم يقدموا المساعدة لليهود من مدأ حبهم لليهودية، بل بسبب تعذيب الضمير الذي عاشوه بسماحهم بقتل ستة ملايين يهودي. والحال أنه كان على الفلسطينيين أن يدفعوا ثمن هذه القاتورة التي نسبت بها أوروبا.

كنت أظن لو فت طويل أنني اليهودي الوحيد الذي يحمل هذه العواقب، إلى أن قرأت ما نشره برومليك في التسميات في كتاب سيرة ذاتية له غير ممكن كالعالم يهودي (Kann Man als Deutscher und Jude) ووجدت أن الرجل هذا قد تغير أيضا تحول من صهيوني شديد إلى معادٍ شديد للصهيونية على نحو منحصص²² كما كتب هو نفسه²³. وكتب في مذكراته بعد إقامته لستين في تجشع في إسرائيل "لقد وجدتني أعود إلى ألمانيا في عام 1968 عندما كنت شابًا يساريًا يهوديًا معاديًا للصهيونية".

لم يكن برومليك الوحيد في ذلك حينذاك. فقد كان هناك، في فرانكفورت، فرقة 50 شخصية من المثقفين اليهود اليساريين الذين أسسوا مجموعة فرانكفورت اليهودية، وقاموا بحملات مناهضة لإسرائيل ومعادية للصهيونية. كما شاركوا في المظاهرات مع جماعات يسارية في فرانكفورت أو تظاهروا أمام السفارة الإسرائيلية في مدينة بون ضد السياسة الإسرائيلية. لقد تجادلوا، كما يكتب برومليك، "مرارًا وتكرارًا مع دولة إسرائيل وسياساتها مع الفلسطينيين، التي كنا نعارضها بشدة". هكذا، كانوا في تضاد مع سياسات الجاليات اليهودية، التي لا تتسامح، إلى اليوم، مع أي انتقاد للسياسة الإسرائيلية. والحال: إذا لم يتوجه الوعي الذاتي المنحرج للتاجين من الهولوكوست إلى إسرائيل، فإلى ما نراه سيكون موجهاً؟

(22) Micha Brumlik, *Kann Man als deutscher und Jude. Eine Bundesrepublikslische Erfahrung* (Berlin & Bonn, 2000).

لقد استمرت المجموعة اليهودية في فرانكفورت لمدة خمس سنوات فقط، ما بين عامي 1980 و1985، وكانت تقف في معارضة تامة للجالية اليهودية في المدينة. وعندما تظاهر أكثر من 4000 فلسطيني في مدينة بون في نيسان/أبريل 1982 ضد الحملة الإسرائيلية على لبنان، نشرت صحيفة فرانكفورتر رونششاو ندا⁽¹⁾ من المجموعة اليهودية ووقعه 16 شخصا لا يود كثيرون اليوم معرفتهم.

لقد أدين أعضاء المجموعة ووصفوا بأنهم "خوة"، و"عملاء"، و"يهود كارهين لأنفسهم"، وأُهدوا من الجالية اليهودية. كما توبل نداؤهم في سبيل "أخلاق يهودية رقيقة" بالسحرة والتجاهل. لقد كان هناك، كما هو الحال اليوم، خشية من أن تفسيرات كهذه في ألمانيا لن تؤدي إلا إلى إنعاش معاداة السامية التي لا تزال قائمة إلى حد ما. وكان معظم أعضاء مجمع الجالية اليهودية في فرانكفورت بشاطرون رئيس إسرائيل السابق مناحيم بيغن وحزب الليكود الداعم له الرأي أن منظمة التحرير الفلسطينية هي عبارة عن منظمة إرهابية" وترغب في إتمام الإبادة الجماعية التي لم تكتمل على أيدي النازية. أما المجموعة اليهودية في فرانكفورت فبدأت بالتهادي تدريجاً، ومنذ ذلك الحين كُرس مثقفون أنفسهم لمسيرتهم المهنية أمثال دان دينر، وسوزان هينن، وغرترود كوخ، وسيلي كوخلمان، ومارتن لوف بير.

بالطبع ما أدهشني، هو اعتراف برومليك، لأنني التقيت في السنوات الأخيرة وهو واحد من اليهود المصطفين بشدة إلى جانب الصهيونية. بالكاد مضى عشرون عامًا حتى غدا برومليك يجادل بالشكل نفسه الذي كان يجادل به حصومه في الثمانينيات. وعندما نشر 70 شخصاً من اليهود في عام 2007 بياناً، أطلق عليه عنوان "شالوم 5767"، دعوا فيه إلى سلام عادل في الشرق الأوسط، اتهم برومليك الموقعين بأن سخطهم وغضبهم من السياسة الإسرائيلية يقودهم أحياناً إلى التقليل من شأن معاداة السامية، "لا بل تربيتها بمكانة استحيان". لكن لا نسي أن هذا البيان كان مشابهاً لتلك الدعوة التي وقعها

(1) نص النداء منشور في ملحق هذا الكتاب.

برومليك نفسه في عام 1982. ومما جاء في كتاب برومليك نقد الصهيونية في عام 2007، أن الأمر "ليس بالخطأ الجوهري" حينما يصف يهودي أحد اليهود بأنه "معادٍ للسامية" بسبب نقده لإسرائيل. لكن عندما كان المجمع اليهودي في فرانكفورت يصعبه بأنه "معادٍ للسامية"، ربما كان يفكر بطريقة مختلفة.

للتذكير مرة أخرى: إن لفظة معاداة السامية تعني كراهية اليهود لأنهم يهود، أي كراهية مجموعة من البشر لأنهم يهود محض. وأمرٌ كهذا يُعتبر رفضه من المسلمات. ولكن على النقيض منها فإن معاداة الصهيونية ليس لها علاقة بكراهية البشر. حيث إنها أيديولوجيا شوفية وعنصرية وكولونيالية، ويمكن، بل يتوجب، رفضها محض ما يرى كثيرون من ماضي الصهيونية. بإمكان الإنسان أن يكون معادياً للصهيونية، وفي الوقت نفسه محباً لإسرائيل، حتى لو كان يرفض سياستها. طبعاً هذا هو موقفنا بالصبط.

في الواقع، إن معاداة الصهيونية تمثل مفارقة تاريخية، وكان هدفها تمكين اليهود من إنشاء دولة خاصة بهم. والآن: لقد مضى سبعون عاماً على وجود هذه الدولة. إنها، والحال تلك، تُعد من مخلفات عصر الكولونيالية التي ودّعها العالم منذ وقت طويل. ومع ذلك، لا تزال دولة إسرائيل تُشرع أبوابها لكل يهود العالم الراغبين في الإقامة في "الأرض المقدسة". واليهودي الذي يصل إلى هناك يحصل تلقائياً ومن دون أي مشاكل على الجنسية الإسرائيلية بصفته يهودياً، أما الشخص غير اليهودي فلا يمكنه ذلك، إلا إذا اعتنق اليهودية.

إن صهيونية اليوم لها ارتباط وثيق أيضاً بالتوسع الإمبريالي، وفتح شعب آخر، والاحتلال الدائم لمساحات كبرى كاملة من الأراضي، وطرد السكان الأصليين بقصد إسكان اليهود على الأرض المسهوبة. وهذا الأمر لا يمكن أن أوافق عليه.

لا شك في أنه لا تزال هناك معاداة للسامية في ألمانيا ومعادون للسامية، وينبغي علينا بالطبع مواجهتهم. ولكن فعلياً يتم يومياً إنتاج نمط جديد معترض من معاداة السامية في فضاءات أخرى متميزة. حيث يُشتم منتقدو السياسة الإسرائيلية الذين ليس لهم تأثير خطير ويهانون بوصفهم معادين للسامية، وفي

الوقت ذاته يُترك معادو السامية الحقيقيون من قِوى التعرض لهم، لا بل يُشار إليهم أنهم سيكونون بسلام طالما أنهم لا ينتقدون إسرائيل ويتركونها في مأمن. وإضافة إلى ذلك، فإننا نشهد اعتمادًا من المجلس المركزي لليهود في ألمانيا والجمعيات المماثلة في الدول الأوروبية الأخرى والولايات المتحدة بصراع الشرق الأوسط وانتقاد السياسة الإسرائيلية القاسية، بيد أنهم لا يدركون الخطر الحقيقي.

إن محاولة وضع معاداة الصهيونية مع معاداة السامية على قدم المساواة تمثل حزنًا وابتذالًا، بل إنها أيضًا محاولة تدوس على حرية التعبير التي يقدّرها ويؤمنها العالم الغربي كثيرًا في كل مكان. يمكن أن يكون الشخص اليهودي صهيونيًا، لكن يمكنه أيضًا أن يكون معاديًا للصهيونية. ونعلم أن رفض أيّ أيديولوجيا هو أمر طبيعي في السياسة.

كانت المعوضية الأوروبية قد قررت في تشرين الثاني/نوفمبر 2015 تمييز المنتجات التي تُستورد إلى الاتحاد الأوروبي من المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية والقدس الشرقية ومرتفعات الجولان وعدم رسم بلد منشأها على أنه "إسرائيل". وحينما استبعد المتجر العربي "Kadish" في برلين من تشكيلته ثمانية أنواع من النبيذ مصدرها مرتفعات الجولان، أخذ رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو بذُكر بالماضي الازلي لهذا المتجر الذي كان في السابق ملك ملأك يهود. أما برودر فدعا قراءه في مدونته "محور الخير" قائلاً: "ينبغي علينا مقاطعة من يقاطعون إسرائيل". وحينما تراجع هذا المتجر عن قراره بسحب المنتجات، صاح برودر بسخرية: "حسنًا، تابعوا أرجوكم". وفعلاً، احتُفي بهذا النصر.

هذا هو الحال بالنسبة إلى الشركات التي تستخدم القانون الأوروبي عندما ينقلب هذا الحق ضد إسرائيل. لهم يتعاملون مع اللوبي الإسرائيلي ومع مؤسسة النشر شبرنغر وصحف مثل بيلد ودي فلت، ومن الضروري أن يملكها الخوف من حرمان الأضرار الاقتصادية التي قد تصيبها ولا يمكن التنبؤ بها.

يزعم المسؤولون الإسرائيليون أن مطالبات الاتحاد الأوروبي تُذكر بالدعاية

النازية التي تدعو "لا تشترعوا من عند اليهود"، ثم نجد كثيرين من الدعاة الإعلانيين يكررون هذا من دون كلل، من صحيفة ييلد إلى تلك المدونات الغامضة المنتشرة على الإنترنت. وهذا يتم كذلك عمداً تشبيه حركة "المقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات" (BOYCOTT) بالنازية، طعناً بغية تشويه سمعتها. ومحسب وأي كثيرين، حتى بحسب رأي العلماء الإسرائيليين والمؤرخين والناشرين والسياسيين، فإن هذه الحركة ليست لها علاقة بمعاداة السامية ولا بالأيدولوجيا النازية. يُحتمل أن يكون بعض من أنصارها غير مؤيدين للأطعمة الحلال (بالعبرية: كوشر). لكن، نظراً إلى أن هذه تمثل جماعة صغيرة، فليس هناك مثال عالي المستوى يتناقض مع رؤية غير مؤهلة أو غير مقبولة. بيد أن هذا هو السبب في عدم إمكان تشويه الحركة بأكملها وتشهير بها، وهي تتكون من مئات الألاف، إن لم يقل الملايين، من الناس، بمن في ذلك كثير من اليهود الإسرائيليين. لا بل حتى المعثلة العليا للاتحاد الأوروبي لشؤون السياسة الخارجية والامية، فيديريكا موليغريتي، أدانت الاعتمادات على المدافعين عن حقوق الإنسان وأعادت تأكيد حق المواطنين الأوروبيين في حرية التعبير والتجمع. وإضافة إلى ذلك، فإن المشاركة في هذه الحركة [أي] المقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات، التي تقاد فلسطينياً، ستكون محمية أيضاً بحقوق كهذه.

لتذكر ما قاله مرة الجنرال الإسرائيلي شلومو غازيت منذ 35 عامًا للمصحافي البريطاني آلن هارت (Alan Hart) "الحقيقة هي أننا أصحنا كإسرائيليين ضحايا دعائنا الإعلامية".¹⁴ ولعللاً، ما يؤسف له أن هناك اليوم عددًا كبيراً من اليهود في العالم يقفون على محور أعمى في صف إسرائيل وسياساتها، وهم أيضاً غداً ضحايا هذه البروباغندا الإعلامية.

ثمة حادثة تُظهر لنا مدى حسامية الجمهور اليهودي، خاصة الإسرائيلي، من مواضيع معاداة السامية، وهي حادثة إدراج اليونسكو في تموز/ يوليو 2017 قبر الجدد الأكبر لليهود، أبراهام [إبراهيم]، على لائحة التراث العالمي. فبدلاً من الاحتفاء بهذا القرار التلويح تسونامي من السخط والغضب وامتد صداه من

[14] Alan Hart, *Zionismus gegen Judenrum* (London Verlag, 2015).

القدس إلى واشنطن. حتى إن الرئيس الأميركي دونالد ترامب شعر بضرورة أن يفرد على تويتر ساعطاً من هذا القرار. ومجدداً ألهمت منظمة اليونسكو بأنها معادية لإسرائيل، وبالتالي بالتلاعب التاريخي المعادي للسامية، لماذا؟⁹ لأنها حددت مكان قبر الجد الأكبر لليهود في فلسطين، وهو نماداً أمر صحيح تاريخياً.

وقدر بنيامين نتنياهو على نحو مقصود أو عن جهل، قرار اليونسكو، بأنه يعني أن القبر تراث ثقافي فلسطيني لأنه يقع في فلسطين. وسيطرت على كل الإسرائيليين موجة غاضبة، في الأقل بين اليهود. إذ توحدوا جميعاً احتجاجاً ضد الأمم المتحدة.

لكن لو قرأ نتنياهو وجميع الإسرائيليين، والأساتذة الجامعيون في الجامعات العربية، وصحافيو كل الصحف الإسرائيلية ودونالد ترامب، بشكل صحيح وغرؤوا لاكتشفوا أن اليونسكو صنفت القبر "إرثاً ثقافياً عالمياً"، وهذا يعني أنه ليس ملك الفلسطينيين ولا ملك الإسرائيليين بل هو ملك العالم أجمع، ملك لنا كلها. كما أن الموقع الجغرافي يقع في منطقة حبرون [الخليل] التي تمثل جزءاً من منطقة الحكم الذاتي الفلسطيني. بيد أنها تقع تحت سلطة الاحتلال الإسرائيلي.

هذا هو مدى ذلك القرار وما أثاره من ردات فعل. المسألة هنا هي أن هذا القبر في الحقيقة يخص الملايين من المسلمين لأنه مقدس، فهم يرون أيضاً في إبراهيم أنه سلفهم بحكم أنه والد إسماعيل¹⁰، والحال هذه ينطبق على اليهود فهو مقدس بالنسبة إليهم؛ لكن إذا كان اليهود يحصرونه في أنفسهم فحسب، فذلك، مرة أخرى، لأنهم يفسرون الكتاب المقدس من جانب واحد لمصلحتهم. ومع ذلك، إذا عرض المرء أن إبراهيم هو سلف أو أبو اليهود، وإسماعيل هو سلف العرب، فينبغي القراء في سفر التكوين (الأصحاح 25: 9) "وَدَفَنَهُ إِسْحَاقُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنَاهُ فِي مَغَارَةِ الْمَكْبِيلَةِ فِي خَلْفِ عَفْرُونَ بْنِ

(9) سفر التكوين، الأصحاح 12: 12-18.

صُوِّعَ الْحَقُّ الَّذِي أُنَامَ سَتْرُهُ. وهذا يعني أنه وفق الكتاب المقدس اليهودي، [أي] التوراة، للعرب الحق في هذا القصر كما هو الحال تمامًا بالنسبة إلى اليهود، وبالمناصفة أيضًا بالنسبة إلى المسيحيين.

كما قال لوري أغيري: "لقد اعتبر وليام شكسبير مرة إشكاليًا كهذا أنه يحمل الكثير من اللفظ حول لا شيء". ولكن للأسف لهذا الموضوع جوانب خطيرة جدًا. فهو يظهر مدى سهولة شحن اليهود من دون استثناء في إسرائيل: السياسيون والمعلقون، ومن المعسكرات اليمينية واليسارية، وحتى من أوساط المجتمع، اليهود الأشكناز الغربيون والسفارديم العرب، الدنيون والعلمانيون؟ فكل هؤلاء اتحدوا مع بعضهم في كتلة عاتية.

أما الجانب الآخر والأشد خطورة فهو أن اليهود كانوا طوال قرون عديدة مضطهدين وملاحقين في أوروبا وشرقها وأوتكت المجازر بحقهم، وهذا كان جزءًا من وجودهم وقد تعلّموا التعايش معه. لذا فإن معاداة السامية بكل أشكالها، حتى الأكثر إجرامية، مثلت جزءًا من واقعهم. وهنا فقد التقت سادية غير اليهود مع مازوشية اليهود.

لكن لاحقًا بعد الحرب العالمية الثانية والهولوكوست، اختفت معاداة السامية هذه القاتلة، وبما نحت الأرض [لحدث ميته] فحسب، بيد أن اليهود لم يتمكنوا من معايشة هذا الواقع. ذلك أنهم لا يزالون يخشون إمكان صعود "معادين للسامية" من أيّ حمرة، وفي أيّ لحظة ضدهم. ويشعرون أن مخاوفهم هي محلها إذا ما حدث هذا أو كما يعتقدون هم أنفسهم أن ذلك سيحدث.

الأمر في إسرائيل أكثر تعقيدًا. لقد كان أحد أهداف الصهيونية تحريرنا نحن اليهود من عقدة النقص في الشتات وجعلنا شعبًا طبيعيًا "مثل كل الشعوب". بيد أن فشل هذا الهدف في تحقيق مثواه واضح الآن، أو أنه في نكوصي في زمن بنيامين نتنياهو.

هكذا فإن قضية كهذه تجعل كثيرًا من اليهود راضين ويقولون "لقد كنا على حق. الكل معاد للسامية".

10

يهوديتي

إنني لا أعتبر اليهود شعباً بالمعنى المتعارف عليه. ويعتقد حاخامات اليهود الأرثوذكسيون وحتى الإصلاحيون اليهود أن شعب إسرائيل شعب مميز لأنه لا يستمد هويته من الأرض ولا من لغة مشتركة، بل من الإيمان المشترك. وبالعقل أنذكر أنني خلال الفترة الدراسية قد تبثت في بحث أطروحة القدر المشترك للمجتمع اليهودي. لقد اتحد اليهود وتكاتفوا لقرون طويلة بسبب امتلاكهم عقيدة مشتركة ومصيراً مشتركاً أكثر من امتلاك أصل إثني غير موجود أساساً. وقد قال مرة بشياهو ليفيتش: "ما يميز الشعب اليهودي هو وجوده في الشتات المئات السنين من دون وحدة إقليمية ووحدة دولة له".

لقد كتب المؤرخ شلومو ساند كتاباً مستفيضاً يستحق القراءة عن مسألة اختراع الشعب اليهودي⁽¹¹⁾. إن اليهودية بحسب رأيه - وهو ما أعشره مقتناً - هي دين ديناميكي انتشر في العصور القديمة بسرعة. وبالتالي فإن الأصل البيولوجي لليهود متنوع وواسع جداً مثله مثل بقية الأديان. فإذا لم تكن الأرض المقدسة، التي تسمى أرض كنعان، التي سماها الرومان لاحقاً فلسطين واليهود أطلقوا عليها اسم صهيون، تمثل مهداً لليهودية، فإن الصهيونية برمتها أيديولوجيا قائمة على أسس تاريخية زائفة. ومع ذلك تقايل إسرائيل بكل عناد وبكل الوسائل الممكنة لكي يُنظر إليها على أنها استمرار لصهيون.

لعلنا أن اليهودية كانت، وما زالت، ديناً قبيلاً⁽¹²⁾. وهناك أجزاء شعبية

(11) Shlomo Sand, *The Invention of the Jewish People*, Israeli Genealogical Authority and the Prof. Ben Zvi Institute, Berlin: Propyläen Verlag, 2008.

(12) الديانات القبلية هي الديانات التي تطورت من خلال التراث. وعادة ما تكون هذه الديانات عبارة عن مجتمعات دينية صغيرة، محددة بمنطقة إقليمية ما، وتمتد خمس طوائف منطقة سكنية معينة. وكان الأمر في "الألبان والدين" هي الديانات القبلية يرتبطان ببعضها ارتباطاً وثيقاً. واليوم يوجد قرابة 100 مليون شخص في جميع أنحاء العالم ينتمون إلى ديانات قبلية.

من اليهودية، خاصة اليهودية في إسرائيل، لا تشغل إلا نفسها ولا تهتم إلا بمصالح شعبها وتلك المنطقة الصغيرة من الأرض على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، أما سكان الأرض الآخرون ومشاكلهم فلا يدخلون في حساب هؤلاء اليهود. بيد أن هذا يتناقض مع الكتاب المقدس، مصدر اليهودية، الذي يُعَدُّ ميثاقًا للحقوق العالمية والعدالة والحقوق الاجتماعية والدفاع عن الفقراء في المجتمع والسعي لتحقيق السلام العالمي وكثير من المعايير الأخرى التي لا تسمح للحكام بالتعامل بتعسف مع البشر. لقد قُدمت اليهودية للعالم ديانة التوحيد والوصايا العشر، التي من دونها لم يوجد مجتمع مدني متحضر. لقد كان موسى أوّل محرر للعبيد، وحتى كارل ماركس وورث عن اليهودية شيئًا عليا يهودية التشرت في العالم أجمع. إنها بالفعل أفكار موسى الثورية التي تنتمي أيضًا إلى جلور الاشتراكية.

يحقد يهود الشتات، الذين تعرضوا مرارًا وتكرارًا للاضطهاد في أوروبا، ابتداء من القرن الحادي عشر، أن الجميع في العالم يرغبون في إبادتهم والتخلص منهم. ورغم أن الإسرائيليين اليوم لا يعيشون في الشتات، فإن فكرة الشتات تعيش في داخلهم وفي داخل رؤوسهم. لهذا السبب تراهم لا يتوقعون عن الادعاء أن العالم كله يرغب في نوع الشرعية عنهم، وهذا لا يعني إلا شيئًا واحدًا بالنسبة إليهم هو: الرغبة في إبادتهم.

المفارقة هنا هي أن الحضارة الغربية، بالنهاية بكليتها، هي حضارة يهودية، بنيت على أسس العهد القديم لليهود والعهد الجديد للمسيحيين، حتى لو تجاهلت الشعوب الغربية هذا ولم ترغب في معرفته، بل وُصم اليهود بأنهم أعداء الحضارة، كما قام بذلك النازيون على الأخص. كما أن الاعتقاد أن كل شخص ولد على صورة الرب فهو جزء من صلب العقيدة اليهودية، حتى إننا نقول إنه لولا وجود هذا المبدأ، لما قامت أصلًا الحضارة الغربية.

وفقًا للديانة اليهودية فإن جميع البشر متساوون، ولكن للأسف لا يلتزم كثير من اليهود هذا. إنهم يعتبرون أنفسهم متفوقين ويقولون، كما هو الحال مع هنريك برودر، إن 14 مليون يهودي هم الأكثر قيمة وأهمية من مليارات

المسلمين، من حيث إن اليهود قد استطاعوا تقديم وإنتاج العشرات من الأشخاص الذين فازوا بجوائز نوبل، يعكس العالم العربي الذي لم يقدم أمثلة على هذا. هذا صحيح من ناحية، ولكن من ناحية أخرى لم يسبب العالم العربي بإثارة وحادث حرب عالمية منذ ظهور جائزة نوبل، وليس مسؤولاً عن تجاوزات الاستهلاك وتغير المناخ، ولا عن السياحة المدمرة تمامًا، ولم يبتلع الديناميت المدمر الذي لا يفيد سوى القليل في المآجيم، بل يستفاد منه دائماً في الحروب، وتُمول جائزة نوبل من أرباحه.

تحتل مسألة الأصل بالنسبة إلى اليهودية مكانة أهم من الاعتقاد الديني. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فهي أكثر الديانات التي عرفتها البشرية عنصرية؟ ذلك أن معظم الأديان الأخرى تقبل أي شخص لديه استعداد لقبول ديانة أخرى، بل يُعتبر هذا الشخص مثله مثل أتباع هذه الديانة. أما في اليهودية فالأمر مختلف، حيث على المرء إثبات انتماءه من أم يهودية، وإلا لا يُعدُّ يهودياً "صحيحاً". طبعاً بإمكان المرء اعتناق اليهودية، إلا أنها طريقة شاقة تبدأ بإجبار الرجال على الاعتقاد، كما هو الحال في الإسلام؛ ثم لا تقبل التيارات اليهودية كلها المتحولين إليها.

كتب جوزيف شومر رئيس المجلس المركزي لليهود في ألمانيا على صفحة المركز على الإنترنت بمناسبة عيد حاتوكا⁽¹⁾: "بالنسبة إلّي نخوي الأسطورة رسالة مهمة. لا يحلّس المكابيون ويتنظرون حدوث معجزة ما تقوم كل شيء بطريقة ما، لا، فهم يتميزون بالفعل والعمل". لكن نعلم أن المكابيين كانوا أصوليين ومتعصبين دينياً. لقد قادوا شعبهم إلى حرب ضد اليونانيين الذين كانوا حينذاك قوة عظمى، وفي النهاية كانت الكارثة مهلاكهم. لقد كان المكابيون في نظر اليونانيين عبارة عن "إرهابيين" تماماً كما هو أمر الفلسطينين

(1) حاتوكا لم يحتفل به عيد الأور اليهودي، يحصل به اليهود لمدة 8 أيام ابتداء من 25 شهر كيسليف حسب التقويم العبري إلى الأسبوع الأخير من شهر نسيان الثاني / نوفمبر والأسبوع الأخير من شهر كانون الأول / ديسمبر، وهو من الأعياد اليهودية الصعبة، وليس عطلة، يتميز بالامتناع عن الأكل والشعر عن الحرق، وتقديم بعض الطقوس الدينية الخاصة (المترجم)

اليوم في عيون الأسرائيليين. وكذلك الفلسطينيون ما عادت تتملكهم الرغبة بعد الآن في انتصار معجزة. إنهم يقاتلون من أجل حريتهم واستقلالهم فحسب، كما فعل المكابيون سابقاً.

ربما يمثل عيد حانوكا الذي يستمر ثمانية أيام سنوياً، الاحتفال بإعادة افتتاح المعبد الثاني في القدس في عام 164 ق.م.، الوقت المناسب لاسترخاء الانتباه إلى حقيقة أن حانوكا يرمز إلى التجديد الأساسي الذي مرت به اليهودية بعد الانتفاضة الطائفة للمكابين وتدمير المعبد. وأنساءل هنا: لماذا لا يعرف السيد شومر ذلك؟

لقد ولدت اليهودية بشكلها الحالي قبل 500 عام من التاريخ الميلادي في أثناء السبي البابلي لليهود. كما عاشت أغلبية اليهود سابقاً في مناطق خارج أرض إسرائيل (Eretz Israel)⁽⁴⁾، بحسب المصطلح التوراتي لدولة اليهود أو الميرانيين. لقد قطنوا بابل، والإسكندرية، وعلى طول الساحل الأفريقي للبحر الأبيض المتوسط، والبرص وروما. كما عارض الحاخامات تمجيد وعبادة البطولة، وذلك بعد الكارثة التي حدثت في عام 70 م. والكارثة الكبرى التي اندلعت بعد سبعين عامًا الناجمة عن تمرد الرجل المعاصر والمتعصب شمعون بار كوخبا⁽⁵⁾. لقد تجاهل هؤلاء الحروب والانتصارات التي حققها المكابيون وحولوا احتفال حانوكا إلى احتفال ديني لا يركز على البطولة بل على معجزة الرب. وهنا شكّلت المعجزة أهمية أكبر من الانتصارات العسكرية؛ ثم إنه لم يُدرج كتاب المكابين، الذي يصف الحروب والنصر، في الكتاب المقدس العبري. ولم يتغير هذا إلا بعد 1800 عام على يد كتّاب صهيانية، إذ وضعوا فيه الأبطال القدماء، ويهوذا البطل، والمكابين، وبار كوخبا - روبن هود اليهودي - تحت دائرة الضوء مرة أخرى. وقد أصبح هذا جزءاً لا يتجزأ من الميتولوجيا اليهودية، حيث يتم اليوم الاحتفاء في

(4) وهذا هو التعبير التوراتي في الوصف الديني لأرض إسرائيل.

(5) كان شمعون بار كوخبا يهودياً زعيماً للمسيح. لقد عرف ثورة بار كوخبا ضد الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور هادريان من عام 132 إلى عام 135 م.

إسرائيل بـ "الاتحاد الجماعي" لأولئك المتعصبين اليهود والمذاهب عن قلعة مسادا [مسعدة]" باعتباره عملاً بطولياً. من هنا لا تستغرب أن تُقسم أجيال من الشبان الإسرائيليين الذين يجندون على تلك الصخرة المقدسة على نحو منظم ما يسمى "عهد مسادا" وذلك بالولاء لإسرائيل واليهودية. وبحسب هذا العهد: "مسادا، لن نسقط أبداً مرة أخرى".

لقد كان احتراع الصهيونية أكبر ثورة في التاريخ اليهودي الحديث. لقد صممت من تجميع ديني-إثني، أمة جديدة حديثة وفقاً للمنطق الأوروبي، ولتحقيق هذا الهدف، توجبت عليهم إعادة كتابة التاريخ اليهودي. هكذا، ومنذ ذلك الوقت، أصبحوا يمجّدون أبطال الثورات التي قامت ضد اليونان وروما، وأما الكوارث التي حملها هؤلاء الأبطال لليهود فيجري تجاهلها وإحفاؤها⁽⁶⁷⁾.

ليس كل اليهود صهيانية، فاليهودية ديانة متنوعة وعالمية. كما أن الصهيونية تؤيد تفسيرات اليهودية الراديكالية الأحادية الجانب. وليست اليهودية محل اعتماد بالنسبة إلى بعض منهم إلا بقدر ما تمنحهم هذه الديانة شرعية دينية بشأن أرض إسرائيل. وفضلاً عن ذلك، إننا نجد الصهيانية المتشدّية يأخذون من العهد القديم تلك الحقيقة المطلقة التي يرونها [أي] إله الرب منحهم، هم فحسب، هذه الأرض، ويعتبرون الكتاب المقدس كما لو أنه شهادة منحهم الرب إلهاء في حين أن الكتاب المقدس هو أكثر من ذلك بكثير. فالعهد القديم هو، من ناحية، رواية مثيرة عن الشعب اليهودي، وخروجه من مصر، وغزو أرض كنعان (فلسطين)، وحروب وعزومات لا حصر لها، بيد أنه أيضاً كتاب معتلن بالقولان الاجتماعية والأخلاقية والإنسانية. فمثلاً يعظم الكتاب المقدس قبول الأشخاص الغربيين ومنحهم جميع الحقوق التي تخص اليهود أيضاً.

(67) قلعة مسعدة اليهودية في إسرائيل في الحلب الجنوبي الغربي من البحر الميت وهناك في هذه القلعة التي بناها هيرودس، وقعت المعركة الأخيرة ضد الحوشر الرومانية اليوس الذي أصبح في ما بعد إسماعيل. وبعد أن أرك الملاحون اليهود أنهم لا يستطيعون هزيمة الرومان الذين سيحتلون القلعة عاجلاً أم آجلاً، قتلوا أنفسهم جميعاً.

(67) Josephus Flavius, *Geschichte des Jüdischen Kriegs*.

إن الكتاب المقدس لا يوثق ملكية أرض ما، بل يسعى لتنظيم أمور التعايش السلمي بين الجميع. أما بالنسبة إلى الصهابة، فإن الكتاب المقدس هو كتاب سجل عقاري ينهي الأعداء به حرفياً. ولا يهتفُ لاعتنامهم على الأخلاق والعدالة والحقوق وإنما على حدود ملكية الأراضي. وكما قال أحد العلماء اليهود ذات مرة: "إما أن يؤخذ الكتاب المقدس حرفيته أو يُتخذ مجدية".

يروي لنا سفر إستير أن اليهود تحولوا من شعب مُضطهد إلى شعب مُضطهد. نظراً لما جاء في الكتاب: "وفي الشهر الثاني عشر، أي شهر آذار، في اليوم الثالث عشر منه، حين قُرب ظلام الليل وأتت من الإغزاة، في اليوم الذي انتظر فيه أعداء اليهود أن يَسْلُطُوا عَلَيْهِمْ، فَتَحَوَّلَ ذَلِكَ، حَتَّى إِنَّ الْيَهُودَ تَسْلُطُوا عَلَى مُبْغِضِيهِمْ. اجْتَمَعَ الْيَهُودُ فِي مَدِينِهِمْ فِي كُلِّ بَلَدٍ الْبَلَدِ أَخْشَرُ رُوحٍ لِيَتَدَاوُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى حَالِي أُنْفُسِهِمْ، فَلَمْ يَقِفْ أَحَدٌ قُدَّامَهُمْ لِأَنَّهُمْ سَقَطَ عَلَى جَمِيعِ الشُّعُوبِ... فَضَرَبَ الْيَهُودُ جَمِيعَ أَعْدَائِهِمْ ضَرْبَةً شَدِيدٍ وَقَتْلَ وَهْلَاكًا، وَغَبِلُوا بِشَتَّى بَشِيرِهِمْ مَا أَزَافُوا" [سفر إستير، الأصحاح 9: 1-5].

كم يبدو عصرنا اليوم مشابهاً لذلك الزمان، كما لو أن يهود ذلك الزمان قاموا مرة أخرى وهم يفعلون بخصومهم المزعومين كما يشاءون. ففي وقت خطط فيه هاملان^(١) بالفعل لتدمير يهود الإمبراطورية، وقام بوضع حبل مشقة للمردخاي. وفقاً لسفر إستير، فعلى هو عليه في النهاية، فإن التهم الموجهة ضد معادي السامية المزعومين اليوم لهم عتبة ثمانية وعية. إننا نجد اليوم كيف يجري التعرض لأناسي وشعر بهم، كما لو أنهم مجرمون مطلوبون، لماذا؟ لأنهم يحملون رأياً مختلفاً فحسب عن الصراع في الشرق الأوسط، رأياً يختلف عن رأي نتنياهو أو ليرمان أو هنريك برودر.

لقد حان الوقت لكي يتعلم الإسرائيليون وكثيرون من يهود العالم قبول مأساة الآخرين وعدم تجاهلها إلى الأبد. لقد حان الوقت ليتعلموا ويبتهموا أن اليهودية ليست تمثل المرحلة الأكثر مأساوية في تاريخهم والتي لن يُسمع

(١) لشكر أن هاملان وسردخاي هما الشخصيتان الرئيسيتان في سفر إستير في العهد القديم

بتكرارها أبداً. لكن مرحلة "الحسب". نتعلم أن تاريخ اليهود لم يتوقف مع الهولوكوست، ولم تبدأ الهوية اليهودية مع أوشفيتز. يجب علينا كأفراد وكمجتمع التطلع إلى الأمام والكف عن التحديق إلى الوراء. وكما يعلمنا الكتاب المقدس، فمن يوجّه نظره إلى الخلف يمكن أن يتصلب بشكل عمود ملح (سفر التكوين، الأصحاح 19 : 26).

إن القصة التوراتية عن هروب لوط من سدوم هي قصة مجازية. وقد أراد علماءنا الحكماء، الذين كتبوا الكتاب المقدس، تحذيرنا من النظر إلى الوراء، بل علينا النظر إلى المستقبل بحسب. وهذا هو بالضبط الذي هيكل البراغمية اليهودية وصاغها لقرون طويلة، ومنحى اليهود من البقاء في قيد الحياة. إلا أنهم، وفي أرضهم، فقدوا هذه الخاصية، فتجدهم يتطلعون دائماً إلى الوراء، إلى الهولوكوست، وإلى الملك داود. لكن سأقول إن الملك داود شبح مواتاً وبات لا يفيدنا اليوم بشيء، هذا إن صح القول بوجوده أساساً. لقد نجا اليهود واليهودية من معتقل أوشفيتز واستطاعوا أن يكونوا أقوى شجاروز، كما كان الحال مع الكوارث الأخرى التي أصابتهم وتجاوزوها.

يجب إخبار الإنسان، أو تربيته، على فعل الخير؛ والأديان نفسها سعت منذ آلاف السنين لتربية الإنسان على الخير. لكن الإنسان حيوان مفترس أناني؛ فنحنه متسامحاً ويعطى بالإنسانية حينما يكون محروكاً من السلطة والقوة بحسب. لكن في اللحظة التي يكسب فيها السلطة، فإنه يستخدمها أيضاً. لكن ليس دائماً لصالح الإنسانية.

بعدَ هنريك برودر طاهرةً في عالم الصحافة الألمانية. لقد قيل إنه، بعد تخرجه في المدرسة الثانوية، في عام 1966، درس القانون والإحصاء والوسيطولوجيا والاقتصاد والتربية وعلم النفس الاجتماعي، إلا أنه لم يقطع في دراسة كل هذه المجالات إلى نهايتها، فكان يقطع دراسته بها قبل أن يكتملها. فأَيُّ حقاوة كان سيلانها هذا الرجل فيما لو توَّصل إلى هدف من بين أهدافه هذه! كمُتوسط، إذا ما حسب المرء العطل الدراسي، فسيكون الرجل قد أمضى في دراسة كل قسم من هذه الأقسام أربعة أشهر. لكن يتضح في النهاية أنه لا يستطيع القيام بأي شيء سوى الكتابة. ومن دون حسد يجب أن نعرف له أنه يجدد الكتابة. وفي واقع الأمر لا يمكن أحدًا الكتابة عن موضوعة معاداة السامية بجدية في ألمانيا، من دون التطرق إلى أشخاص يحاولون إقناعنا منذ سنوات، من هم معادو السامية ومن هم ليسوا كذلك. كما لا يمكن التطرق في هذا البلد إلى معاداة السامية من غير التعامل كذلك مع أولئك الدبلوماسيين والمحرضين والمتلاعبين، الذين يستعيدون أساسًا من تهمة معاداة السامية في تفويض أيِّ نقد ضد سياسة إسرائيل، وبالتأكيد لتحقيق مكاسب في التميز.

لا مجال أمام المرء في هذا السياق الألماني من التوقف عند هذا الرجل: هنريك برودر، أحد أبرز اليهود شهرةً في ألمانيا. وقد صنف الرجل بحسب صحيفة يوديشه ألمانيت، في عام 2012، في المرتبة الخامسة بعد كل من قائد الأوركسترا الموسيقية دانييل بارشيم، والمؤلفة شتيفاني تسفاغن، والمخرج داني ليمي، والمفكر الأدي الراسل مارسيل رايش-وايتكي.

لقد تعرّف الجمهور الألماني إلى أوّل حصة كبيرة لبرودر منذ 27 شباط/ فبراير 1981، حينما فُخر حينذاك قبلته من خلال مقالة أفردت لها جريدة

دي تسابت⁽¹⁾ صفحة كاملة يعلن فيها ابتعاده عن "أصدقائه اليساريين". إلا أن "رسالة الوداع" هذه لم تحتل سوى شهادة تدل على حالة اليأس والإحباط التي كانت تملكه. ولا يمكن المرء التكهن بما إذا كانت هذه القطيعة منه بسبب أصدقائه "اليساريين المعادين للسامية"، أم إنها هربت من والدته اليهودية التي كانت تحوم فوقه مثل سحابة مظلمة تحرس حياته وترقبها.

يحاول بروذر بكثير من الوقاحة والتفاني وعدم المبالاة، ومنذ ما يقرب من ربع قرن، تشويه ونسج أي انتقاد بطاول إسرائيل أو سياساتها المدمرة وتصوير ذلك على أنه غير مقبول اجتماعيًا. أما أسهل الطرق في ذلك فهي اعتبار النقد "معاداة للسامية" والذي يتخذ شخصًا "معاديًا للسامية"، وهو الأمر الذي يؤدي في هذه الحال إلى عدم حاجة المرء إلى معرفة محتوى النقد أو نقاشه. وبروذر نفسه لا يعتمد تلك النقاشات الجديدة، حيث يكفي أحيانًا التحدث عن إسرائيل فحسب؛ لكن إذا كان هذا الحديث لا يروقه، فمباشرة يُصنف خطابًا معاديًا للسامية.

من هنا هجومه على النقاد والصحف التي تقوم بطباعة ونشر الانتقادات التي تطاول إسرائيل، ليرميها بأبشع الألفاظ، وكله يقين بأن شيئًا ما من هذا سيؤتي ثماره. إنه ينفذ الحملات ضد الجميع، لا يل بطالهم بمقاصده إذا ما حطّ من شأنهم أو أهانهم. فهو يتصرف كجرو عظيم، ويتخط في ذاته، وغالبًا بنحو غير متعظم. أما عن الأضرار التي يسببها للمجتمع اليهودي ولديمقراطيتنا، فبالكاد يمكن إدراك حجمها.

لقد نعت مروذر الناشر ياكوب أوغشتاين بأنه شخص معادٍ للسامية وبأن له "سلاطة لسان معادية للسامية"⁽²⁾، بل أيضًا بكونه "شخصًا يعمل على إقناع الآخرين، ولم تنح له الفرصة للعمل في مكتب الأمن الرئيسي التابع للرايخ

(1) Henrik M. Bender "Die Macht der Kinder Israel: Eltern "und" Warum ich gehe." Die Zeit 627 February 1981.)

(2) <https://bit.ly/3qjgM3I>

سوى عضل ولادته المتأخرة". ووصفه غاضباً بأنه "شترابخر الصغير"⁴³، وكتب كذلك مطالباً "أحث أوغشتاين على مقاضاتي"⁴⁴ لكن بحق ماذا يجب على أوغشتاين مقاضاة برودر؟ لقد استطاع أوغشتاين تحمّل هذه الإهانات وأراد ألا يسدي له خدمة تُحسب لمصلحته.

يمتلك برودر أيضاً صوتاً عالياً في ألمانيا يجول في خطابات وهاب الإسلام التي تهاجم الإسلام والمسلمين بحدّة، هكذا بحدّة يحدّر: "إن الخوف من الإسلام فهو خوفٌ مبرر كما هو خوفنا من الكوارث الطبيعية"⁴⁵. وهل هنا يحق مقارنة دين عالمي مثل الإسلام بالكوارث الطبيعية؟ وفي أيّ حال، لا نفاعاً لو كان هذا الكلام يصدر عن أحد نزلاء مأوى المجانين.

ها يربط برودر على نحو مباشر بين القاعدة في العراق والانتفاضة في فلسطين والشبان الذين يُطلق عليهم اسم الشبان ذوي "الخطميات المهاجرة في نيوكولن وموايت" في الأحياء البرليّة. ووفقاً للمختصة بالعلوم الإسلامية نجلاء كيلك، فإن برودر يرى في كل اللاجئين أشخاصاً مشبوهين وينظر إليهم على أنهم مشروع إسلاميين محتملين"⁴⁶. أما مسألة أن الاستياء المعادي للمسلمين قد أثبت قدرته على ترسيخ نفسه ضمن المجتمع الألماني في السنوات الأخيرة، فهو أمر لا يرجع إلى حداوة برودر.

يكتب برودر في كتابه يا سلام، إننا نستسلم (*Alles wir kapitulieren*) الذي دخل قائمة الكتب الأكثر مبيعاً: "كما عززت سياسة التهاون تجاه هتلر موقفَ النازيين التوسعي، فإن الأوروبيين اليوم أيضاً وباتجاههم سياسة التهاون نفسها بمشون في مسار خطر في تسريع تحويل أوروبا إلى قارة إسلامية". والحال أن من يكتب هذا الشكل فإنه لا يدافع عن الثقافة الغربية ولا عن المجتمع

[43] https://doi.org/10.1007/978-3-7089-1000-0_10

[المقصود شترابخر مؤسس صحيفة نور شتورمر الدارّة بوليس شترابخر (المترجمة)]

[44] https://doi.org/10.1007/978-3-7089-1000-0_10

[45] https://doi.org/10.1007/978-3-7089-1000-0_10

[46] https://doi.org/10.1007/978-3-7089-1000-0_10

المدني، هذا فضلاً عن أن أنماطاً مماثلة من الكتابة تعزز الفصائد المعادية للإسلام، تلك الفصائد الأخفة في الانتشار على نطاق واسع، ليس في ألمانيا فحسب بل في جميع المجتمعات الأوروبية تقريباً.

بالطبع، يستلخ برودر أن يستشهد به العنصريون الأوروبيون الآخرون والمتطرفون اليمينيون، بل حتى الإرهابيون. خذ مثلاً القاتل الترويجي ليدرس بهرنغ بريفيك (Anders B. Breivik) الذي استهل بيانه - المكون من 1500 صفحة - بوضع تاريخ 2083، بعد 400 عام على حصار الأتراك لقيس، وفي هذا البيان تقرأ الجملة التالية: "بعد هزائم برانييه (732) وفيينا (1683)، سيُهزم الأوروبيون الآن بسلاح الديموغرافيا" إلا أن هذه الجملة لم يكتبها بريفيك⁴⁷⁷.

يحاول برودر صرف الانتباه عن العنصرية الإسرائيلية من خلال رسم صورة لتهديد إسلامي مرعوم يجب على اليهود وغير اليهود الخشية منه. وبطريقته اللاإنسانية نفسها في الحديث عن المسلمين، يتحدث برودر أيضاً عن متفدي السياسة الإسرائيلية وعن الفلسطينيين. فهو يقول في ما يخص الفلسطينيين: "ليست مشكلة الفلسطينيين أنهم طردوا وهجّروا من أوطانهم، بل إن طردهم لم يتم على نحو كافٍ"⁴⁷⁸.

هنا يتساءل المرء هل تصرّف برودر نابغ من دوافع وضيفة أم من غيرة وطنية أم إنه يتلفى أموالاً لقاء هذه التصريحات. وهذا بالطبع ليس بالأمر الغريب في ما يخص برودر. ويخبرنا الكاتب الكندي اليهودي فيكتور أوستروفسكي (Victor Ostrowski) العميل السابق للموساد الإسرائيلي، في كتابه الصادر بالألمانية في عام 1996 الملقبات السرية للموساد: الأعمال القذرة للاستخبارات السرية الإسرائيلية⁴⁷⁹ أن هناك الملايين من الناس "المساعدين"

⁴⁷⁷ <https://bit.ly/3T1abva>

هذه، جرى الاستشهاد بهذا الكاتب الألماني برودر في "اليوم" الإسرائيلي الجسدي المعروف لأحد من طرّيع بريفيك

⁴⁷⁸ <https://bit.ly/3T1b1xI>

⁴⁷⁹ Victor Ostrowski, *Unterhohes Mosad: Die geheimen Geschichte des israelischen Geheimdienstes* (München: Goldmann Verlag, 1996)

[بالعبرية: سعانيم] من الذين دعموا إسرائيل في عمليات سرية. وقد تشكل هؤلاء المساعدون من اليهود وغير اليهود أيضاً ممن عملوا، لأسباب وطنية أو لأسباب أخرى، عملاً متطوعاً مع الموساد أو مع المنظمات الصهيونية الأخرى. وقد تبثلت مساعدتهم بأن يصعروا خبرتهم واتصالاتهم بل حتى منازلهم، في الحالات الدقيقة، في خدمة الموساد. وفي خريف 1990 حاولت الحكومة الإسرائيلية في الولايات المتحدة الأميركية بأمر مؤقت حظر نشر كتاب آخر لأوستروفسكي من طريق الخداع: صناعة ضابط موساد (The Making of a Mossad Officer). بيد أن هذا الطلب قوبل بالرفض من المحكمة العليا في أميركا.

مناسبة هذا الكلام أن برودر يذكرني هؤلاء السعانيم، الذين يشكلون "جداراً صحافياً" حول إسرائيل ويدافعون عن سياساتها ويعمون عن انتهاكات حقوق الإنسان.

من الممكن للمرء مقارنة السعانيم بالموظفين غير الرسميين الذين كانوا يمدون وزارة أمن الدولة في دولة ألمانيا الشرقية المعروفة [سابقاً] بالمعلومات أو كان لهم تأثير ونفوذ في أحداث أو في أشخاص، طبعاً من دون أن تكون لهم صيغة عمل رسمية لدى تلك السلطات. وأصبح تعداد المتسجين إلى هذا التنظيم ما يقارب 189,000 شخص. ويات هؤلاء الموظفون غير الرسميين يغطون كل قطاعات الحياة الاجتماعية لدولة ألمانيا الشرقية. وبهذا تشكلت إحدى أهم أدوات القمع الدكتاتورية لحزب الوحدة الاشتراكي في ألمانيا (SED). ولا يُستبعد أن يكون عدد السعانيم أصحافاً عما تقدمه هذه الأرقام في جميع أنحاء العالم.

لا تخفي إهانات برودر وسخريته خلفها سوى النية لإسكات منتقدي إسرائيل، ومن جانب آخر عدم التعامل مع هذا الانتقاد بأي شكل من الأشكال. طبعاً لا نسي أن برودر يلجأ دائماً إلى أسلوبه نفسه: السخريّة من القاد والتكرار لهم، والضخمة عليهم، والتهديد بالمحامين، وإرسال التحذيرات، وإنهاء المعارضين بعصية حتى يستسلموا في النهاية.

وعموماً، ومما يكون مروجاً مؤمناً بالهراء الذي يشوه. لكن على الرغم من أنه يكتب على نحو جيد، فإن البروباغندا الشريرة التي يقدمها لنا لا تستحق المكافأة بجائزة تحمل اسم أحد أكثر الصحفيين صدقاً وأكثرهم نفقلاً. بين من كتب بالألمانية: القصد الكاتب والديمقراطي التنويري لودفيغ بورني الذي عاش بين عامي 1786 و1873، وهو في الأصل يهودي إلى أن تحول إلى البروتستانتية، واسمه أساتماً لوف باروخ (Low Baruch).

في هذا السياق اعتبر الناشر الألماني الفرنسي الكبير ألفرد غروسمر قرار منح جائزة لودفيغ بورني في عام 2007 لبرودر "مبهلة وإهانة للإنسانية". وللتوضيح فإن مهم برودر لمعنى الحق والعدالة والإنسانية يقارب مهم كثير من الإسرائيليين الذين يعتبرون اصطلاحاً مثل "الإنسانية" دليلاً على الإهانة والضعف. وبرودر نفسه بعد التسامح علامةً ضعيفاً، كما يذكر في كثير من الكتب.

النقطة التي أود تأكيدها هنا أن برودر لا يعني في حد ذاته، بل ما يعني هو ما يرتبط بنا ومحرشنا. ليست المشكلة إهانات برودر أو سخريته بل حقيقة أن بعض الصحفيين، على ما يبدو، يتجنبون الكتابة والقيام بأمر سبب الخوف منه ومن ارتداده عليهم. وبالفعل، هذا ما قاله لي أحد الأكاديميين اليهود المرموقين عند سؤالي له عن عدم مواجهته تحريض برودر علانية، فكان رده بأنه يحاول هامة الابتعاد عن برودر خوفاً منه. برودر، والحال هذه، يمارس الإرهاب الصحفي ويرهب الصحفيين والكاتب السياسيين. وقد عبر ذلك الأكاديمي عن هذا بقوله: "أحاول الابتعاد عن برودر، لأنه إذا بهق، فإنه يهق السم". حتى إن القضاة وأعضاء النيابة العامة يتجنبونه، لا بل نجدهم على استعداد لتحمل الإهانات بدلاً من مساءلته. ومن المحتمل أن يفهم هو هذه السطور بمنزلة إطراء له.

في الواقع لا أدري، في هذا السياق، عدد المرات التي شُهر بي فيها برودر باعتياري معادياً للنسامية أو من اليهود الكارهين أنفسهم. لقد قارني مرة بهتفر، والشئ نفسه قام به مع مؤلف نحا من الهولوكوست، هو هايمر ماير، مؤلف

كتاب نهاية اليهودية: سقوط المجتمع الإسرائيلي (Das Ende des Judentums) حيث كتب في أثناء وجودنا، أنا وهايو ماير، في مدينة لايبزغ الألمانية التابعة لمقاطعة سكسونيا "إن أبراهام وهايو يميلان على صناعة هتلر جديد للناس في لايبزغ"^{١١٠} لكنني سأقول إن مقولات كهذه لو لم تكن غيبة، لبعثت غالبًا على الضحك، علمًا أنه ليس هناك أغنى من ذلك، بيد أن انصاره يُطْرَبون ويصفقون لسماع هذا الكلام.

لا شك في أن تصريحات مدونته المضحكة، التي اختار لها شعارًا "لعاقة الموضوعية، حينما تشير الأمور على نحو شخصي!" تنضح بالسخرية، إن لم نقل أيضًا بازدرائه للبشر الفائق التصور. وإحدى مقولاته الشهيرة: أن يكون المرء جانيًا، لهو أمر يبعث "على المتعة" أكثر من أن يكون ضحية، وهي مقولة لا تخرج بالفعل إلا من عيادة الاشتراكيين القوميين النازيين المثة.

حقًا، لقد ارتكبنا أنا وهايو ماير خطأ حينما قمنا بمقاضاة برودر. وكلم كنت أتمنى لو امتلكت الهدوء الذي يحمله بورغس ثودنهوفر وبياكوب أوجشتاين، اللذان لم يقعا في فخ برودر وتركنا اتهاماته تتبدد وحدهما ولم يحذرا إلى مستواه. وقد كان رد أوجشتاين العشن هو: "يجب أن يتمتع برودر بالحرية للوم نفسه، كما يرغب هو".

نشير هنا أن في عالم برودر تتم صناعة معادي السامية كما تمت سابقًا صناعة الهراطقة والزنادقة من جانب محاكم التفتيش و[صناعة] السحرة من جانب مطارديهم. على النوال ذاته، يحدد برودر أيضًا من يعتبره ساحرًا أو من هو المعادي للسامية. لكن بسبب عدم استطاعته حرق كل معادي السامية المرعومين في محرقة، كما كانت تفعل ذلك محاكم التفتيش سابقًا مع الكفرة المرعومين، فإنه يحاول التخلص منهم بطريقة الخاصة. إنه يتعامل مع اصطلاح معاداة السامية بأسراف وتبذير شديد إلى درجة لجذوه حملة رحيصة، بالكاد له تأثيره العلائق.

مع كل ذلك يحب برودر أن يقدم نفسه على أنه مثال أخلاقي. لقد كتب في آب/أغسطس 2016 في جريدة دي فلت أن القصف الذي تعرض له مدينة حلب لهو بالنسبة إليه "أسوأ من أوشفيتز".^[11] يا لها من صرخة! لكن لو أن شخصاً آخر من معاصريه قد نطق بذلك لانهالت عليه الاتهامات ونال نصيبه لذلك من برودر. ونجده يحذر السياسيين وممثلي الكنيسة: "لا يمكن أن يقول أحد إن هذه المجزرة قد حدثت بعيداً من أعين الناس"، وهو بذلك يثبت أيضاً أن الحكم الجيد أكثر أهمية من اكتساب المعرفة أو التحليل الدقيق. لكن لا ننسى أن هذا الكلام ينطبق أيضاً على المجازر الإسرائيلية التي حدثت في شتاء 2008-2009 وصيف 2012. لكن من يقر بالعدالة للسوريين، ومعهم أيضاً للفلسطينيين، لهو شخص "معادٍ خالص للسامية".

من بين من تعرضوا لهذه التهمة الأخيرة من طرف برودر عضو البرلمان الألماني، اليسارية إينغه هوفر، التي وُصفت أيضاً بأنها "معادية حالصة للسامية"، وأيضاً الفنانة الألمانية الثانية (ZDF) بأنها "قناة معادية للسامية"، وتحول الأطفال إلى معادين للسامية، لماذا؟ لأنها تكتب تقارير عن المظاهرات المعادية لإسرائيل بحسب الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل حاول أيضاً أشخاصاً كثرًا بأنهم بلهاء، من الناشطين في مجال حقوق الإنسان، والمخرجين، والموسيقين، والراقصين، والفنانين، والمترجمين، والأكاديميين، ومعني الراب، ومنسقي الموسيقى من المجموعة التي تتكون من أكثر من 400 فنان وقّعوا رسالة مفتوحة ضد الحرب في غزة، في عام 2014.

حتى الممثل الكوميدي ديتير هالربرودر وُصِف بأنه "فنان قبي معادٍ للسامية"، وُوصف بورغ تودنهوفر بأنه "لمدي في عدائه للسامية"^[12]، وجريدة تاغسباتونغ بأنها جريدة "شرومر الصغيرة"^[13] (الجريدة النازية)، وجريدة زودونيشه بأنها جريدة "تعمل على رعاية معاداة السامية". وبرودر يعتبر ذلك أمراً عرضياً: "ولأن هؤلاء لم يحضوا في إكمال الحل النهائي [هي القضاء على

[11] <https://t.me/3d2VpDn>

[12] <https://t.me/3d2VpDn>

اليهودية، فإن الألمان مصابون بالصدمة. ومثال آخر على أساليبه هذه ما حدث مع رئيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني زيمار غابرييل حينما نجراً وانتقد إسرائيل، لما كان من برودر إلا أن وصفه بـ "الخنزير الذكي"^[13]. ومن ثم يتوجه إلى قرائه معلناً إياهم أن "إحياء ذكرى جرائم البارية يخدم حاليًا التحضير على نحو دعائي لمسألة الحل النهائي التالي للقضية اليهودية في الشرق الأوسط"^[14]. وفي هذا المسار لا نجد ما يجعله يفعل شيئاً.

إنني أؤكد أن علينا التحلي بالقدرة على النقاش مع بعض من دون إلقاء اتهامات بمعاداة السامية مباشرة؛ ذلك أن الإدانة تنهمة معاداة السامية يمكن، لا بل من المؤكد، أن تعرّض حياة الناس للخطر وتزعجهم اجتماعياً. وهذا ما يمكن قراءته في محاولات طاولت أناشاً مرموقين مثل غونتر غراس (Günter Grass)، ومارتن هالزر، ويورغن ثودنهوفر، والفرد غروسر، ولكن أيضاً أناشاً عاديين كثيراً لا يجيدون الدفاع عن أنفسهم حيناً في مقابل الاتهامات ضدهم.

لقد صرح برودر مرة أن "معاداة السامية هي جزء من الحمض النووي الصبغي (DNA) للألمان، كما هو حينهم للبيرو"^[15]. بالطبع إن تصريحاً كهذا يمثل انتفاخاً مشبهاً هائلاً، وأقول انتفاخاً ليس بسبب عمن يصدر، بل بسبب قبوله بصحته. ولا سيما من الجانب اليهودي. ربما لا يعطي المرء هنا هذه التصريحات الطائشة اهتماماً، بل يتجاهلها لكيلا يمنحها قيمة أكبر عند الحديث بها. إلا أنها تبقى أقوالاً شائعة. ولا نسي أن أفكار برودر تعتمد على ما يخدم مصلحته بحسب اللحظة. وفي آب/أغسطس 2016 كتب الرجل في جريدة دي فلت: "لن ولا يمكن تكرار ما حدث في معسكر أوشفيتز". وقبلها بوقت قصير، في شباط/فبراير 2015، كتب في الجريدة نفسها: "إن ما نعيشه ونشده راحاً لا يعبر عن نهضة للحياة اليهودية في أوروبا وفي ألمانيا، بل يعبر

[13] <https://t.me/3H/VgB8s>

[14] <https://t.me/3H/4b8b>

[15] <https://t.me/3H/4b8b>

عن نهايتها. إنها حقاً انتهت". وربما يتساءل البعض هنا عما تعنيه مقردة "النهاية"؛ لكنها على ما يبدو تعني "تلك أوقات المحرمات"⁽¹⁴⁾ (Schonzeit).

يمثل أحد تحريضاته كذلك بأن ما سلاقه سيكون أسوأ مما هو عليه الآن، فما تشهده ليس سوى مقدمة لما سيأتي لاحقاً. فقد تحدثت في أثناء كلمة تكريم في جائزة هاريسيل رايش-رايكي عن "الحل النهائي الثاني" مقبلاً ما كتبه هاينرش هاينه "لا يمثل هذا سوى مقدمة؛ فحينما يتم حرق الكتب، يتم في النهاية حرق البشر". ليس غريباً هنا مطالبة صديقه أديولوجياً ميشا برومليك بالقضاء على كتب ما، حل مثلاً مطالبة دار النشر زوركامب (Suhrkamp) بعدم توزيع كتاب تيد هوندريش (Ted Honderich) ما بعد الإرهاب (Nach dem Terror). وهنا ماذا كان على دار النشر هذه أساساً فعله غير ذلك أي سحب الكتاب من التداول؟ أمّا برودر، فقد رأى صحة هذا الإجراء.

لقد طاول لسانه في السخرية حتى اليهود الذين يتصرفون وكأن شيئاً لم يحدث لهم ويستمرّون في حياتهم و"عملهم كالمعتاد" فيتهمهم بالخوف من "خيار الذهاب إلى إسرائيل"؛ لكن طبعاً هو ذاته لن يذهب إلى إسرائيل لأنه على دراية كاملة بما ينتظره هناك، حيث سيكون شخصاً نكرة.

طبعاً لا تنكر وجود أشخاص يبدّلون مواقفهم دائماً. لقد خرجت منذ ما يقرب حياً فحسب إلى الشوارع مع هنريك برودر ضد العنصرية في جنوب أفريقيا ونظاهرت معه من أجل إطلاق سراح تلسون مانديلا. بيد أنني أرى اليوم أن برودر سيبت حتى مانديلا بأنه شخص معادٍ للسامية لأنه تَجَرَّأ فحسب واتخذ موقفاً مؤيداً لحرية الفلسطينيين.

ها نجد كيف يسري الشعار الذي يشاء الصهاينة المحترفون أمثال برودر. إنه هو من يحدد من هو الشخص المعادي للسامية. حيث تمثل وظيفة هؤلاء بالعمل على نوع الشرعية عن أي بلد لإسرائيل وتقويضه وجعله بلداً غير قابلٍ

(14) 11-18 2000 schopen.com: Der Aufbruch der Bücher: Volker Rohde und das Ende der Schonzeit

(أي الأوقات التي نحس فيها الحيوانات ونضع اصطفاها... إلخ)

للتصديق. وهذا ما يقومون به من خلال الشتم ونشويه سمعة هؤلاء المتقدين. لكن لتعلم أن معادي السامية الحقيقيين لا يهمهم هؤلاء. ولا نسي أن برودر نفسه قد طالب بوجود السماح للمره بأن ينكر الجرائم النازية في معسكر أوشفيتز. أما أن يتوجه الأمر إلى نقد إسرائيل، فهو ما لا يرضيه.

إضافة إلى ذلك، نجد الإشارة إلى حقيقة أن معادي السامية المرهوين في مدونته التي يطلق عليها "محور الخير"، يُصنفون تصنيفًا مختلفًا تمامًا عن المعنصرين العاديين؛ كما لو أن كراهية اليهود أسوأ من أي شكل آخر من أشكال المعنصرية.

نشير سريعًا كذلك إلى أنه عندما حصلت الفيلسوفة اليهودية البارزة جوديث بتلر، التي دعمت "المقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات" ضد إسرائيل، على جائزة أدورنو (Adorno-Preis) في عام 2012 في مدينة فرانكفورت، تار غضب كبير في صفوف المستمين إلى معسكر الصحابة المتطرفين والمتعنصرين لإسرائيل. وقد اشتكى بعضهم من منح بتلر جائزة تحمل اسم أهم شخصية نافذة لمعاداة السامية. بالطبع، لهذه الأسباب، حصلت هي على هذه الجائزة. فقد كانت هذه المرأة معارضة دائمة لكل شكل من أشكال الكراهية البشرية، وهو الأمر الذي لا ينطبق على كثيرين.

وهناك صحفي يدمى بنيامين وايتال من صحيفة جيروداليم بوست يقف بحزم في صف إسرائيل ويتهم كل الأشخاص المحتملين بمعاداة السامية ما إن يتفوهوا بكلام ضد إسرائيل على نحو موضوعي وصحيح بسبب جرائم الحرب التي ترتكبوها. والأُن نجد هذا الصحفي يتفوق حاليًا على برودر في الحقد والسخرية والبداية. ومن خلال عمله كصحافي يمارس صفوفًا يمكن اعتبارها ابتزازًا، حيث يجبر مدناً وجمعيات وشخصيات بتهدداته السافرة على إلغاء فعاليات أو احتفالات أو توزيع جوائز تُعتبر بالنسبة إليه غير مقبولة.

كما يعبر برودر بين العشرات من الأنواع المختلفة لمعاداة السامية، حتى يمكن القول إنه أوجد علمًا خاصًا بهذا، أي علم معاداة السامية، أو بالأحرى صنع من ذلك دينًا ومذهب نفسه كاهنًا أعلى له. لنقرأ مثالًا من هذه الأنواع

بحسب تعريفاته، ثمة أشخاص مؤثرون معادون للسامية وهناك أشخاص معادون للسامية بحكم العادة، كما يوجد أشخاص معادون للسامية لديهم حياة وآخرون معادون للسامية بلا حياة، كما نجد بفرق بين الأشخاص الذين يحورون بمعاداتهم للسامية بعد ترك عملهم وأحرين يفسرونها سراً، وهناك أيضاً الأكاديميون المعادون للسامية، وهؤلاء الأكاديميون يقومون بتطبيق ما يُبحث فيه... إلى ما هنالك. والسؤال الآن: أليست كل معاداة للسامية هنا مشابهة للآخرى بالنسبة إليه؟ أما عاد يؤمن بالهرء الذي كان يبحث فيه ذات مرة؟ بالطبع يبدو هذا الأمر مضحكاً ومبتكراً، إلا أننا يجب أن نأخذ على محمل الجد، ذلك أنه لا يرتبط إلا بتدمير وحرقنا وقمع خطاب شرعي وضروري سياسي في هذا البلد.

إن أعلى مرتبة لمعادي السامية بالنسبة إلى برودر هي تلك التي أننا عليها سابقاً "معادو السامية الخُلص"، أي يمكن المعنى الذي يعنيه بذلك. لكن ربما نجد يعتقد أن هذا ينطبق على معادي السامية الذين يعتبرون معاداة السامية اختراعاً يهودياً محضاً، فإنه في الواقع يطبق هذا "اللقب الشرقي" (معادو السامية الخُلص) تقريباً على من يجرؤ على نقد إسرائيل؛ ولتلاحظ هنا، نقد إسرائيل، وليس اليهود. وهذا فرق مهم. مثلاً انهم برودر، قبل سنوات عدة، أحد الصحفيين بمعاداة السامية حينما كتب عن ظاهرة ازدياد الانتحاريين في إسرائيل. وعموماً، ليس برودر في النهاية شخصاً مبدعاً ومرعفاً في اختراع هذه الإهانات.

وعلى الرغم من أنه نفسه كان من أوائل الذين كتبوا في ألمانيا عن صحافة الهولوكوست^(Shoah-Business) وصاغوا مصطلح "تجارة الهولوكوست"، فإنه يهاجم كل من يتجرأ على التفرد بأن إسرائيل تسيء إلى الهولوكوست وتستغلها لأهدافها.

هنا يشير إلى ما نشرته جريدة زودويتشه تسايتونغ في أيلول/سبتمبر 2014 عن مشاركة مهمة للمؤلف اليهودي الألماني دافيد رانان (David Ranan) في

”صمت الشتات“ (Das Schweigen der Diaspora)⁽¹¹⁷⁾. وكان راثان نفسه قد كتب في كتابه ظلال الماضي المستمرة (Schatten der Vergangenheit sind noch lang) بعد سؤال [تفة] الشباب اليهودي عن حياتهم في ألمانيا: ”هل بات أمر الدقاع عن السياسة الإسرائيلية وأفعالها وحملاتها العسكرية من مهمات المجلس المركزي لليهود في ألمانيا؟ أم إن المجلس غير ملزم بتوضيح أن تمثيل اليهود الألمان لا يمكن أن يكون جهة مسؤولة في المسائل المرتبطة بإسرائيل؟“.

حتى ملاحظة بسيطة كهذه، بالكاد نشي بالتفقه بدت لبرودر كما لو أنها متراس. وفعلاً إنه لأمر يدعو إلى التعجب ما يدفع برودر إلى إثارة شخص لا يعرفه عموماً، بسبب رأي مخالف يتناه فحسب. فالرجل لا يتلذذ في التعليق. ”من أين تأتي جريدة زوفويشيه دائماً بالأشخاص الحقوقيين المفيدين؟“، حقاً إن تعليقات ساخرة وعجيبة كهذه هي ما يميز برودر، بل إنها كيد يرتد عليه، فهو الأحقق المفيد للدعاية الإسرائيلية في نهاية الأمر. ولحسن الجيد أن الصحف الألمانية الرائدة والمجلات المعروفة ما عادت تعير بالأل لهذا الشخص الرجعي الساخر الكارء للإسلام، وما عادت تمتحه منصفاً يث منها سخرته ونهيكه

من يعرف هنريك برودر اليوم لا يكاد يصدق أن هذا الشخص هو نفسه الذي كتب في مجلة فراي يوديشه شيميه (Freie Jüdische Stimme) [الصوت اليهودي الحر] في أيلول/سبتمبر 1979 رسالة مفتوحة وجهها إلى رئيس وزراء إسرائيل حينذاك ”ساحيم بيغن المحترم“ وانتقد فيها سياسته بأنها ”سياسة خاطئة وعظيمة“. هكذا نجده قد كتب في الرسالة: ”من حق يهود الشتات أن يوجهوا ترفعاتهم، وربما مطالبهم إلى إسرائيل بالمقدار نفسه الذي نعمل به إسرائيل على تضامس اليهود في الشتات معها“. والرجل يكمل. ”لقد أضافت إسرائيل فرصة كبيرة لإظهار المسألة للعالم، خصوصاً للدول العربية التي يجري فيها اضطهاد وقمع الأقليات، بشأن إمكان وجود دولة يهودية يتم فيها تجنب الأخطاء التي يعانيها هي نفسها يهود الشتات“. بالطبع يمكن المرء تعبير رأيه هناك حتى لو كان هذا نحو الأسوأ.

(117) <https://tiny.cc/3H10kdwg>

ليس بإمكانني الكتابة أفضل من ذلك؛ وللأسف لا يمكنني الاقتباس من هذه الرسالة أكثر من ذلك، وإلا سيقوم برودر بمقاضاتي لانتهاك حقوق النشر الخاصة به. لكن من يهجه هذا الأمر يمكنه الاطلاع على العدد الثالث الصادر في شهر أيلول/سبتمبر 1979 من إصدار فراني يوديشيه ووندشاو (Frane Jodishe Wundschau) أو العدد الرابع من مجلة سيميت لعام 1989. وهنا سيجد المرء أيضاً رسالة مفتوحة أخرى من برودر موجهة إلى صديقه ليا فلايشمان (Lisa Flaischman) التي تركت ألمانيا على نحو صاخب مع كتابها هذه البلاد ليست وطني (Dies ist nicht mein Land). وهنا نجده يطالب "بمزيد من حسن السلوك، لأن يشرح للشخص الذي يشير إلى القذارة أنه المسبب للقذارة، وأن يعثر وصفه للقذارة الشر الحقيقي بدلاً من التركيز على القذارة نفسها".

كل هذا كان قبل رحلته إلى إسرائيل. أما اليوم فهو لا يملك للأسف حسن السلوك هذا لكي يترك بسلام أولئك الناس الذين يشيرون إلى ظلم إسرائيل، وبدلاً من ذلك يقوم بالتشهير بهم من خلال القذارة. لقد غدا الرجل، بعد عودته من إسرائيل بعد عشر سنوات، قوياً متشدداً، لا يرغب حتى في معرفة ما كان يحمله سابقاً من تلك الآراء التي انتقلت بعد ذلك. سأسأل هنا: ما الذي حدث؟ أين وكيف حدث ذلك التحول معه؟ ثم هل كان يؤمن بما كان يكتبه سابقاً؟ وهل يؤمن بما يكتبه الآن؟ أيا يكن الأمر: فإن الأمر الأساسي هو أن الآخرين يؤمنون بذلك.

يؤدي برودر منذ سنوات دور المهرج اليهودي، وطبعاً لا اعتقاده بأنه من خلال هذا الدور يمكنه تمرير الإهانات والهراء. وبالفعل، فقد تشبّع المهرجون في العصور السابقة بحرية التهريج في داخل أروقة بلاط الملوك والأمراء المسيحيين الغربيين، وكان يُسمح لهم بالجلوس إلى موائدهم والأكل من بقايا طعامهم، لا بل حتى بالقبول إلى جانب العظماء والكبار. وبرودر اليوم يصنع من نفسه استقاً في مجال هذه الأنماط من التهريج بين الصحافيين والأقرباء، حيث يتم استخدامه وعرضه دائماً حينما تكون هناك رغبة في تقديم أحد "الأغبياء المقيدين".

شتيفان أوست (Stefan Aust) هو أحد أصدقاء وزملاء برودر منذ أيام مجلة *ذا نيكيت باولي ناخرشستن* (Die Neue Nachricht) في ستينيات القرن الماضي، وأصبح في ما بعد بين عامي 1994 و2008 رئيس تحرير المجلة الإخبارية دير شبيغل، ومنذ عام 2014 أصبح ناشرًا مساعدًا في صحيفة دي فلت. أما برودر فقد عمل بين عامي 1995 و2010 لدى دير شبيغل، ومنذ عام 2011 يعمل في صحيفة دي فلت. وعندما ترك منصبه وحامه العمل في دير شبيغل، لم يمتد وقت طويل حتى ترك برودر أيضًا وظيفته فيها. وبعد وقت قصير نوى شتيفان أوست الإشراف في دي فلت. إنني أشير إلى هذه المعلومات كي أُنبه إلى تلك الروابط بين هاتين الشخصيتين، لكن من يقول بارتباطات مماثلة، سيكون بالطبع شخصًا سيئًا.

عمومًا، إن قائمة الصحفيين والكتاب والسياسيين والمعتقلين الذين يهينهم برودر طويلٌ جدًا. وليس من الغريب أن يجد المرء فيها أسماء الكل تقريبًا من الصحفيين النازيين في ألمانيا، فضلًا عن مؤسسات إعلامية تلفزيونية مثل الهيئة العامة للثبث الإذاعي والتلفزيوني (ARD)، والقناة الألمانية الثانية، أو صحف ومجلات مثل *زودويتشه دي تاغس*، لا بل حتى المجلس المركزي لليهود. طبعًا برودر لا يحسب مفاهيمه مشكلًا، لأن هذا الأمر إدا حديث، وأحيانًا يحدث، فلهذه ما يكفي من الزبانية الرخاء الذين يتولون قضايا الأجور القصصائية وأجور المحامين. وهو نفسه أقر بهذا حينما سُئل ذات مرة [قال]: "عدد من الداعمين يساعدوني في تسوية التكاليف القانونية، وذلك لإعجابهم بما أقوم به"⁽¹⁸⁾. وهنا نشاهد هل "وزارة الشؤون الاستراتيجية والدعاية" الإسرائيلية مشمولة ضمن هؤلاء الداعمين، ذلك أن هذه الوزارة، وهذا مما لا شك فيه، متحسب ما يفعله برودر.

لقد تعرّض برودر في السنوات الأخيرة لعدد من المحاكمات بسبب الإهانات، في بعضها كان مُدعى عليه وفي الأخرى كان هو المدعي. وإضافة

(18) ما عاد الرابط لهذا الحديث من برودر متوافرًا على الإنترنت، لكن يمكن شتيه من بعض الصلحات الأخرى، مثلاً: <https://doi.org/10.1007/978-3-7089-1401-1>

إلى ذلك، تلقى، وأحيانًا أرسل، كثيرًا من التحذيرات، فضلًا عن خسارته كثيرًا من المحاكمات، وهو الأمر الذي لا يُخطئه في أيّ حال. وفي إحدى المحاكمات في فرانكفورت بحث برودر القاضي بأنه من "ورثة شركة فرايرلر" (Freierler)، وسخر بأن هؤلاء "الورثة" هم الآن يفررون في معاداة السامية.

لكن أنشبر هنا إلى ناحية: فالقضاء يتسامح هنا في ألمانيا في ما يخص قضايا حرية التعبير وفقًا للمادة الخامسة من الدستور، لكنني أجد هذا التسامح مفرطًا أحيانًا. خذ مثلاً رفض المدعي العام في برلين فتح دعوى جنائية ضد نانان غليارت، وهو محامي ومدير مطبعة كيرين هايسود (Kerim Hayasud) الصهيونية [الصندوق التأسيسي] في برلين، رغم أن هذا الرجل قد تجاوز كل مستوى محتمل من الجدل حينما ادعى في جريدة يوديشه ألعماتيه في نيسان/ أبريل 2015 في ما يخص "المؤتمر الفلسطيني في أوروبا"، أنه: "تقام في وسط برلين منصة لمعادي السامية والقتلة".

وفي رسالة مؤرخة في 21 كانون الثاني/ يناير 2018، كتبها إلى مكتب المدعي العام في برلين: "يجب أن تُفهم التصريحات بأنها تمثل على نحو واضح أحكامًا قيمة، وببني ألا تُفهم حرفيًا على أنها إهانة أو سوء معاملة، فهي تخدم النقاش في هذه المسألة ولا تهدف في المقام الأول إلى التشهير. لا بل إن النقد الجدلي والمبالغ فيه ضد الفعالية كان يهدف أساسًا إلى نقاش واقعي لقضية سياسية". هكذا إنًا، هل يُسمح بوصف فعالية شارك فيها أكثر من 10.000 فلسطيني، بمن في ذلك عائلات مع أطفال، بأنها منصة لـ "معاداة السامية والقتلة"، ثم يقول لي مكتب المدعي العام في برلين إن هذا "نقاش واقعي"؟ هل الأمر حقًا يعكس بعضًا من جنون المحاكم وبعض القضاء في ألمانيا لأسباب تتعلق بضميرهم التاريخي السيئ [تجاه ما أحدثته النازية الألمانية] أم لأسباب مهنية بحيث يظهرون لنا تحفظًا وثقتًا خاطئًا؟

في إحدى المحاكمات، التي كنت شاهداً فيها، سخر برودر من المدعي العام بإعباره أنه زار مرة محتفل أوشفيتز وقال له: "لقد كنت مؤخرًا في أوشفيتز أيضًا، وأفضل مكان أعجيتني هناك هو الكافتيريا".

لا أفرى عدد المحاكمات التي أقيمت لبرودر. إلا أن الأضرار جراء ذلك لم تجعل منه شخصاً أكثر ذكاء، بل على العكس، ففي آب/أغسطس 2014 نشر كتيباً يهاجم فيه ديتير هالر فورون جاء فيه: "يودي، أيها الممثل البار، إنك تمثّل نموذجاً لمعادي السامية في ظاهرة ما بعد النازية. لكن تعال وقاضني، لا بل إتني أستطيع نصحك بأحد المحامين المختصين بالدفاع عن معادي السامية. هيا أطربني بالسعادة أيها الأحسن"⁽¹⁸⁾. إلا أن هالر فورون أثبت هنا أنه أكثر ذكاء منه.

لكن ما يُدبش هو عدد الأشخاص المرموقين الذين أهانهم برودر والقلة منهم الذين ساقوه أمام المحاكم، طبعاً رغم قدرتهم على تحمّل تكاليف المحامين. لكن من الواضح أن ثمة منهم لا يرغب في الانحدار إلى مستوى.

أذكر أن تودنهوفر اقتبس مرة من ألفرد غرومر مقولة "من يريد التخلص من هتلر، يجب عليه الدفاع عن الفلسطينيين"، وأوضح لنا أن هذه المقولة صدرت عن يهودي. لكن لا نستغرب أنها مقولة قُطعت مضجع برودر، حيث لا يستطيع النوم وهو يفكر لأسابيع طويلة كيف يمكنه جعل تودنهوفر يدفع ثمن هذا الكلام. وفي نهاية الأمر جعل محاميه ناتان غلبارت يكتب ردّاً قاسياً⁽¹⁹⁾ لمحامي تودنهوفر: "إن كان الأمر يساعدك فإتني أنصحك بإجراء اختبار أساسي يتم التعرف من خلاله إلى الشخص المعادي للسامية. فالشخص المعادي للسامية لديه 'أصدقاء يهود' يفضل دائماً الاستشهاد بهم، لأنه من خلال هذا يثبت أنه ليس معادياً للسامية، وبالأخص أكثر حينما يود التخلص من هتلر" بقية تحرير نفسه من تأنيب الضمير وعبه التاريخ. وكتم هو مؤسف هذا الكلام.

طبعاً تهجمات برودر مؤذية، وأحياناً نجده يتشبت بضحاياها كما لو أنه جرو مسموم. كما حصل مع لودفيغ هانزال، الموظف في الوكالة الاتحادية للتعليم

(18) "Die Arbeit des Ganzen" (2.8.2014)

(19) "Die Arbeit des Ganzen" (18.12.2017)

السياسي، والذي لحدا هدفًا لبرودر لملاحقته شهرًا وسنوات. فقد استمر برودر يرسل رسائل إلى رئيسه في العمل توماس كروغر وإلى وزير الداخلية يطالب فيها بإقالة فانزال من عمله. صحيح أن برودر لم ينجح في مساعيه تلك، إلا أن فانزال باعتباره عالمًا سياسيًا لاقى مع سمعته كثيرًا من المعاملة جزاء برودر.

أيضًا فيلبيسيا لانغر، المديرية السابقة لرابطة حقوق الإنسان الإسرائيلية، كانت قد تلقت في تموز/ يوليو 2009 وسام الاستحقاق الفدرالي الألماني من الدرجة الأولى تقديرًا لمسيرة عملها. ولم يختلف الأمر، فقد قبلت الجائزة هذه بانتقادات حادة من المجلس المركزي لليهود في ألمانيا واللجنة الأميركية اليهودية والجمعية الألمانية الإسرائيلية. هكذا نجد النائب السابق لرئيس المجلس المركزي لليهود يتهم لانغر بأنها تعمل على نحو "مهنى ومزمن ومهووس على شيطنة إسرائيل". لا بل حتى هناك صحافيون يهود ألمان أمثال رالف جوردانو، وأرنو لوستيغر، وأرنو هامبرغر، تعهدوا بإرجاع وسام الاستحقاق الألماني إذا لم يتم التراجع عن تكريم لانغر. وفي نهاية الأمر لم يلتزم هذا التعهد سوى أرنو هامبرغر.

البروفسور فولفغانغ بننس، المدير السابق لمركز بحوث معاداة السامية في برلين، تعرض أيضًا للمضايقات والشتم من برودر طوال شهور وسنوات بسبب تجربته على مقارعة رهاب الإسلام اليوم بمعاداة السامية بالأمس. من هنا ليس من الغريب أن يجبر برودر متقدي السياسة الإسرائيلية المحتملين على أن يكونوا حذرين جدًا في صياحاتهم وأن يدققوا في كل كلمة خوفًا من التهديد والعقاب، حيث يخشى فعلاً أن تصلهم منه التحذيرات، طبقًا بينما يشعر هو بالحرية المطلقة في اختيار إهاناته.

كما أنه لا يجعل من إساءة المعاملة. فقد كتب في عام 2014 في مدونته عن شخص يدعى بودو راميلو بأنه ليس من الواضح ما إذا كان هذا الرجل "معاديًا للسامية أم ببساطة أعمق يلهث لأقل الأسباب". ويعلق (المحلل النفسي)

هورست إمرهارد-ريشر. "تحليل نفسي على مستوى تنظيم القاعدة"⁽²¹⁾. أما نوبل تشومسكي، بالنسبة إلى برودر، فإنه يحمل "ذاتًا إطلاقة"⁽²²⁾. وحتى رجل الدين اللاهوتي البروتستانتي، القس والصحافي يورغ تسبك، أحد أفضل المتحدثين الرسميين عن حركة السلام والبيئة، لم يسلم من لسانه، فقد قال عنه مرة: "شخص نازي قديم بلباس لاهوتي"⁽²³⁾. ذلك أن تسبك أعرب عن تفهمه وتعاطفه مع دوافع الانتحاريين الفلسطينيين.

طبقًا للقائمة هذه تطول. ويمكن إضافة أسماء كثيرة أيضًا إلى جانب خبراء في الشرق الأوسط. مثلًا، بيتر شول-لاتور، وميشائيل لودوز، وأودو شتاينباخ، وفولكر بيرتس، وأولريش كينسله، وسوزانا كثال، وغونتر ماير، وكارين لوكفيلد، ويورغ أرمروستر. هؤلاء بالنسبة إليه ينتمون "إلى العصاة نفسها"، لأنهم يتحارون على يد إسرائيل من دون إذن. ولا ننسى مرة أخرى مثوله أيضًا أمام المحكمة، مثلًا بسبب الإهانة الشخصية لكل من شيفان هاشرث، ولوتس هوخمايستر. وقد وصف أيضًا روفن موسكوفيتش حقًا بأنه "الأحمق المفيد لحزب اليسار"، وغونتر غراس بأنه "لا يتمتع تمامًا بالفهم، بيد أنه شاعر".

لم تسلم منه أيضًا شخصيات يهودية مثلي أنا وكذلك ميشائيل فولفزون، ونوماس روتشيلد⁽²⁴⁾، ورافائيل سيليمان، وهايو ماير. لا بل حتى لم يتفجع لكل من فولفزون وسيليمان أنهما صهيونيان قويان، كما هو برودر، طبقًا ليس هناك ما يمنع أن تطوع كلتا هاتين الشخصيتين للدفاع عن الدولة الصهيونية إذا كانت لا تزال صالحة للدفاع عنها. برودر يأخذ على سيليمان أنه يستخدم دائمًا كلمة "صهيون" بدلًا من إسرائيل ويفضّل لفظة "العرايين" على كلمة اليهود.

لقد شتم برودر مرة مؤلفي هايو ماير، الذي نجا من معسكر أوشفيتز، بأنه

(21) <https://taddy.3107W.org>

(22) <https://taddy.3111adPd>

(23) <https://taddy.3apQK2J>

(24) توماس روتشيلد (Thomas Rothschilde)، بحث لبي بريطاني يسوي، محاضر جمعي بجامعة تشوتلارت، فضلًا عن أنه مؤلف وصحافي.

"التاجي المحترف". ولد توفي الرجل في منزله بالقرب من أمستردام في أيلول/سبتمبر 2014 عن عمر يناهز التسعين. وكانت حريمة ماير أنه ألف كتاب نهاية اليهودية: سقوط المجتمع الإسرائيلي الذي نبئ فيه رأياً بأن إسرائيل نخون أخلاق اليهودية من خلال سياستها الوحشية والمسلحة

بالنسبة إلى برودر لا يوجد أي فروق دقيقة، إما الأبيض وإما الأسود، وليس هناك شيء بينهما. إنه يقيس معاداة اليهودية تبعاً لموقف الشخص من إسرائيل، وكان من دون إسرائيل لا يوجد معاداة للسامية.

يتعلق الموضوع عندي وعند كل من أعرفهم بالحق والعدالة، وهذا ينطبق أيضاً على الفلسطينيين، لأنه بذلك فحسب يتم ضمان أمن إسرائيل أيضاً. إن الأشخاص الهانسين الذين ليس لديهم ما يخسرونه، وإذا كانوا طوال حياتهم محاصرين وتابعين، فهم يحاولون دائماً اختراق الأسوار والحواجز والجدران، بغض النظر عن ارتفاعها. والتاريخ يقدم لنا أمثلة كثيرة عن ذلك. لكن أقول عندما يتعلق الأمر بـ "حق الوجود" لإسرائيل، فينبغي أيضاً أن يتعلق الأمر بحق الفلسطينيين في الوجود.

لقد قاد تحريض برودر إلى كثير من النتائج الملموسة والخطرة التي مست عدداً لا بأس به. أخذوا مثلاً ما حدث مع الناشط من مدينة كولونيا فالتر هرمان الذي توفي في عام 2016. لقد أنشأ هرمان مع بعض أصدقائه "حائط مبيك من أجل السلام" أمام كاتدرائية كولونيا بمناسبة حرب الخليج الثانية في عام 1991. وأخذ يتظاهر يومياً، في جميع الظروف الجوية، أمام الكاتدرائية مباشرة، ضد التعامل الإسرائيلي مع الفلسطينيين. لكن لاحقاً ومنذ عام 2005 أصبح "حائط المكيك" هذا عرضة للانتقاد من بعضهم. لأنه بصور على نحو مشوّع الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي وعلى نحو أحادي الجانب. ثم وصلت موجة الانتقادات إلى فروتها في كانون الثاني/يناير 2010 حينما وضعت عند الحائط صورة كاريكاتورية ليهودي بألوان العلم الأمريكي وهو ينقطع ويأكل طفلاً فلسطينياً في صحن بسكين وشوكة. وفي الواقع، لم ير هذا الرسم سوى على صور من الاحتجاجات المناهضة لإسرائيل في الهند ضد الحرب في غزة

حينما ولعتها إحدى المتظاهرات. وكان قد التقط الصورة من أحد التقارير الصحافية وأظهرها مع شرح توضيحي مصاحب كوثيقة تاريخية.

لم يكن برودر هو الشخص الأخير الذي اتهم هذا الرجل بمعاداة السامية؛ فادعى أن الهجوم يسمح "بكل شيء"، كما قال كورت توخولسكي ذات مرة. إلا أن هذا لا يتطابق على هرمان وكاريكاتوره. فليس كل كاريكاتور يُعتبر سباحاً؛ وإنما على ثقة أن توخولسكي يعني بمفولته أيضاً الرسوم الكاريكاتورية. لكن برودر نفسه يعتقد بأن الكاريكاتور يسمح له بكل شيء. وهذا أشير إلى أن برودر عندما دافع عن نشر الرسوم الكاريكاتورية المعادية للمسلمين، والتي تصوّر النبي محمداً، دافعاً أياً أيضاً عن تلك الرسوم الكاريكاتورية التي عرضها أحد المتفاعدين علانية على لوحة الكاندرالية في كولونيا. ويمكن المرء النقاش هنا إن كانت هذه الرسوم مثيرة أم لا. بيد أنه ينبغي عدم منعها، أو التهديد بإزالتها كلياً ضد مالكيها أو من ينشرونها أو نشرها (كما يطالب برودر)، وبرودر نفسه هدد في أحد الأعمدة الصحافية بإزالتها بواسطة جرار رغب في استجوابه من شركة أفيس أو شركة هرتز. طبعاً يمكن اعتبار هذا الكلام بمثابة دعوة إلى العنف، وهي لغة تعودتناها من هذا الرجل. والأمر الذي يدعو إلى التعجب هنا هو عدم مطالبة برودر الجيش الإسرائيلي بدبابه ميركافا في حملاته هذه.

عموماً، في النهاية، هوجم فالتز هرمان في 19 أيلول/مايو 2012 بسكين ضد حائط المسكن في كولونيا وأصيب حينذاك بجروح خطيرة في راحة يده اليسرى. بالطبع، لم يستطع برودر فعل أي شيء. حياك هذا الهجوم. فهو لا يعير بالآ أن كلماته تُترجم حرفياً [إلى استخدام العنف] من بعض الناس. فهو يحتل وظيفة "الجاني الذي يكتب".

فضلاً عن ذلك، إنه بغلي من خلال نفذه الإسلام إلى حد بعيد حركة يمينية [اليمينية] التي ستكون من جهتها شاكراً له على ذلك. وأشير هنا مثلاً إلى أن الصحافي المتوفى الآن أودو أولفكوت، عندما كتب خيراً يبعث على القلق بأنه تمت "أسلمة المقابر" في ألمانيا، ختم الرجل تقريره بـ "شكراً حزيناً هنريك برودر"، وحينذاك صُفِّق الجمهور له بشدة.

إن شخصاً مثل برودر يخدم بالفعل الفصائد وردات الفعل العنصرية. فهو يحمل يهوديته وكأنها وعاء قربان مقدس لأنه يعلم مدى الحماية الذي تقدمه اليهودية له.

إنه يحرض ضد المسلمين وضد أنجيلا ميركل وضد "وسائل الإعلام"، رغم علمه أنه ذاته رجل إعلام، أو بتعبير أفضل ذكوري الإعلام. إنه يعد بحسب سرديّة "الصحافة الكاذبة" التي تناثر على نشرها حركة بعيدا وحزب البديل لأجل ألمانيا وشركائهما. ولهذا السبب بنى الموقع الإلكتروني المشهور الراديكالي اليميني والمعادي للإسلام بي أي نيوز (PI NEWS) مساهمات برودر بالنظام، ويشاركها زعيم الشبويين اليمينيين النمساويين هايتس كريستيان شتراخه على صفحته على الفيسبوك. ولا شك في أن برودر سيعد بالمعجبين الجدد. ورغم ذلك، فهو نفسه يقلل من شأن الهولوكوست، عندما كتب في جريدة دي فلت: "بالنسبة إليّ ما يحدث في حلب لهو أسوأ من أوشفيتز، لقد أصبح أوشفيتز عبارة عن ماضي".

وكتب ديتير بارنيسكو (Dieter Bartschko) مرة عن برودر في قسم المقالات في فرانكفورتو الألمانية نسايتونج، وحامت كتابته بعد ظهور هذا الأخير في برنامج تلفزيوني لفرانك بلاسبرغ وهو يحاول اجتذاب الاهتمام إليه (أقال): "نظراً إلى أن السيد برودر يحب تلقيب الشخصيات الكبيرة علناً إلى جانبه بـ "الصادق" التي تثرثر بعد الوقفاً أو "المجانين المعترفين" أو "المشتردين الدكائرة"، فقد قيل له بعد هذه الأسمية: لقد غابنا رجلاً مسناً يتمتع بالعبث، متعجرفاً يهين الآخرين على نحو سيئ، لأن لديهم ما يعتقرو هو إليه: احترام كرامة الإنسان".

أسأل دائماً لماذا يفعل برودر هذا؟، أو لماذا هي مشكلة برودر؟، أو هل من الممكن أن يكون مؤمناً بما يقوله؟. والكوني أعرف هذا الشخص منذ مدة طويلة، فهناك بالفعل من ينظر مني أجوبة منطقية عن هذه التساؤلات. إلا أنني سأقول ليست لدي تفسيرات تجيب عن ذلك، فكل ما أمكنه هو التكهن، مثلي مثل الآخرين.

لماذا يفعل ذلك؟ ولماذا يصف شخص كل من يقارن غزة بالقبتو في وارسو بأنه شخص معادٍ للسامية، ثم يقارن هو نفسه غزة بغيثو وارسو وحلب بأوشفيتز. فحين ألقى خطبة تكريمًا لمارسيل رايش-رايكي في ٥ آب/ أغسطس 2010، لم يستطع السيطرة على نفسه وتحدث أمام جمهور متعصب كامل الوقت في سياق ذكرى صادمة عن غزة، والتجأ إلى رايش-رايكي كشاهد في عصره على غيتو وارسو طالبًا منه القيام للتحديث عن غيتو وارسو بأنه كان عبارة عن جحيم، وأن غزة مقارنةً بهذا الجحيم ليست سوى مادي المتوسط (Club Mediternané) [للتزنية]. لكن لتعلم، أن رايش-رايكي لم يزر قط غزة، وحتى برودر نفسه لم يكن قط في غزة ولا في وارسو. إلا أنه يعرف تمامًا كيف جرت الأمور هناك وكيف تجري الآن.

بالعودة إلى السؤال عما حدث له، فهل من الممكن أن يكون مؤمنًا بما يقوله؟ إنني مفتع بأنه غير مؤمن بما يقوله، ذلك لأنه يعرف أن دفاعه عن السياسة الصهيونية غير صحيح من الناحية السياسية، وبالتالي يتم الرضى به، بل ويُدعى إلى برامج حوارية ويُسمح له بالعمل لدى مؤسسة النشر شيرنغر، حتى لو قال هو عكس ذلك.

مع ذلك، فقد تحدث الرجل منذ مدة طويلة أن من الممكن أن يكون مفتنًا بما يقوله. لكن من ناحية أخرى، فإن برودر شخصية ساخرة وعقيدة للغاية لأن يقوم بهذا حتى لو لم يكن مفتنًا به، وأحدهم كان قد قال مرة إن لدى برودر القدرة على إلحاق الأذى بحدثه من أجل نكتة.

ربما يكون لهذا الشخص عقدة نقص من الطفولة والشباب ولم يتمكن إلى الآن من التخلص منها. وفضلاً عن ذلك، فهو لم يكمل دراسته في أي فرع من الفروع التي بدأ الدراسة بها ولم يتمكن قط من الحصول على وظيفة مهمة ومسؤولة في أي من الصحف. وطوال حياته كان "صديقه" شتيهان أوست هو رئيسه، ويسفه دائماً بخطوتين: أولاً في المجلة الإخبارية *ذاكت باولي ناخرشتن*، تلك المجلة التي تعزج مزخاً سطحيًا بين الجنس والسياسة، حيث التقيا وكان أوست رئيسه، ثم في مجلة *دير شيفل* حيث لحق برودر بأوست إلى

هناك، واليوم نأدي صحيفة في قمت حيث آوست هو الناشر وبرودر المرسل.
ولا نستبعد أن تمثل هذه المسائل عقد نقص، خصوصاً القيرة.

حتى عندما هاجر إلى إسرائيل في عام 1981 سبب الإحباط والغضب
وعنية الأمل لعدم سريان الأمور على نحو جيد معه، فإنه لم يتمكن من
الحصول على موطن قدم في القدس. وقد ذكر كسب لرحيله من ألمانيا،
بالرجوع إلى عام 1993، من بين أمور أخرى، مقالة صحافية لأنغريد ستروبل
(Ingrid Strobl) في مجلة إيمنا (Emma) رُفِضَ فيها حق الوجود لإسرائيل.

اضيف أيضًا أن برودر لم يستطع في ما يقارب عشر سنوات وهو في
القدس تعلم العبرية، ولم يتواصل إلا ضمن الصحافة الأجنبية التي تحدث
معه بالألمانية. أو بالإنكليزية إذا لزم الأمر. مع ذلك، طلب ناشرون ألمان
تقديم تقارير عن المنشورات العبرية الجديدة هناك. ولأنه لم يكن قادرًا على
قراءة ما يصدر بهذه اللغة، كان يرسل إليّ هذه المنشورات لأقرأها ويطلب مني
أن أعلمه بمواضيعها. وسأه على ما أكتبه أنا، كان يكتب ملخصًا للناسر الألماني
ثم يستلم المكافآت المالية لقاء هذا ويقوم بتحويل نصف المبلغ إليّ

لقد زرتُه مرات عدة في القدس وكنت مضطرًا إلى الاستماع إليه وهو
يتحدث عن مدى سوء هناك وعدم جدوى أي شيء إلا الطعام العربي الجيد
في المدينة القديمة العربية، التي زرتها معه وأكلت الغلافل. وكان يصاحبه دائمًا
كلية العربي الصحراوي، وبدأ لي أنه الشيء العربي الوحيد الذي تغبّله وشاير
معه. وكان هو أحيانًا يصنع الكيك وتأكله سويًا مع القهوة التركية ذات الطعم
القوي والكثير من السكر.

وبالفعل، فقد شعر بحية أمل وألم في إسرائيل لأن أحدًا لم يعرف به ولم
يحتاج إليه. إلا أنه كان أيضًا شخصًا متكبرًا ومتعمرًا ومنهزًا ومشتًا ورجسيًا
معتدًا بنفسه، بل متصنعًا أكثر من ميشائيل فولفزون. في أيّ حال، لم استطع
العمل في الصحف الإسرائيلية لأنه لم يتحدث العبرية، وبدأ اتصاله بالصحف
الألمانية يزداد هشاشة. لهذا السبب قرر العودة إلى ألمانيا، ولحظة غدونا نراه
هنا مرة أخرى.

الأمر الثلاث أنه عاد يحمل موقفاً سياسياً مختلفاً تماماً. فقد تحول من النقد الكبير إلى صهيوني متطرف. وفجأة بات كل شخص يحمل موقفاً نقدياً من إسرائيل لا يُعتبر صحافياً ناقداً بل معادياً للسامية حتى لو تعلّق الأمر بأصدقائه اليهود مثلي ومثل توماس روتشيلد. مثل مدة قصيرة كان قد أدّى المرأة اليهودية ليا فلايشمان⁽²⁴⁾ لأنها صورت إسرائيل بصورة وردية وأن كل شيء رائع هناك. وهو الأمر الذي شككتنا فيه جداً ليل فترة زمنية. وفجأة تجاوزها باتجاه اليمين، وحتى تجاوزها في مبالغتها. بالطبع يحق للمرأة تغيير وجهات نظرها، ولكن عندما يغيّر رأيه وفقاً لما تسير به الرياح، فهذا يسمى الانتهازية بعينها.

في إحدى المقابلات، التي يمكن مشاهدتها على يوتيوب، يدافع برودر عن سارانسكي⁽²⁵⁾ ونظرياته البيولوجية الوراثية، التي تكاد تكون عنصرية، فيقول: "لكل شخص الحق في التعبير عن رأيه". في هذه المسألة لا يمكنني إلا أن أثنى معه، ولكن عندما يتعلق الأمر بحرية الرأي لمتقدي السياسة الإسرائيلية، فإنهم يُعتبرون معادين للسامية. ليس كل شخص يشبه الآخر.

بالنسبة إلى برودر، فإن مصطلح "السامية" عفاً عليه الزمن، لأنه نفسه لا يريد السامية، فذلك يتمتع بحقوق قانونية في الدستور الألماني. "من يسامع معي، يمكنه القضاء عليّ، إذا كان يرغب في ذلك". لكن مسألة أنه نفسه لا يستطيع ذلك، فهي مسألة يؤذيها أيضاً الدستور.

برودر مقتنع تماماً بأن ثقافته اليهودية الغربية متفوقة على الثقافة الإسلامية، لكن أؤكد أنه لا توجد ثقافة متفوقة على أخرى. لكن قد تكون هناك اختلافات بين الثقافات، وبرودر شخص لا يفهم ربما كثيراً في الإسلام أو حتى ربما لا يعرف أي شيء عنه. وإذا كان الحال هكذا، فإن المرء الذي يستمد من ذلك "أهلوية" ثقافة على أخرى، فإنه كمن يدّعي أن الألمان متفوقون على الفرنسيين، وهو الأمر الذي يقود إلى الزعم "ألمانيا، ثم ألمانيا فوق الجميع"، بل يقود في

(23) Lea Hirschmann: Dies ist nicht mein Land (Hoffmann und Campe Verlag 1998).

(24) سارانسكي Saranski أحمد أحد الكتاب الألمان يحية في عدته للإسلام ووجود اللاجئين في أوروبا. (المترجمة)

التهابة إلى محاولات "القضاء"، إذا استخدمنا كلمة تابع برودر، سارترسين، على الثقافات التي يُرغم أنها ثقافات دنيا. ولنذكر أنه منذ وقت ليس بالبعيد، ربما لألفية، كانت الطاقة الإسلامية تفوق إلى حد بعيد الطاقة الأوروبية التي كانت تفوق في وحل العصور الوسطى.

لكن دعوني أؤكد أن المشكلة مع برودر هي أنه يطرح كل أمر بالطريقة التي تناسبه، ويفسر كل أمر بالشكل الذي يخدمه. فعلى سبيل المثال يجد أن الرسوم الكاريكاتورية الاستغزازية ضد الإسلام غير مؤذية ويقول إنه يجب السماح بمسائل إهانة الأديان والسخرية منها. لكن حذار لو سخر أحدهم من اليهود. حتى كلمة "يهودي" تعتبر بالنسبة إليه عن معاداة للسامية حقيقية قائمة.

أما قمة ثقافته الصحافية فكانت بالضبط في نهاية تموز/ يوليو 2017، قبل طباعة هذا الكتاب بوقت قصير. حيث كان له رأي في القناة التلفزيونية فلت (Rolf N24) بشأن الصفحة المرتبطة بالمؤرخ المنوي وولف بيتر زيفرله (Rolf Peter Sieferle)، الذي أثار كتيبه نهاية للعالميا (Finn Germania)، الذي نشر بعد وفاته، الكثير من الغضب واستعد من قائمة مجلة دير شبيغل للكتب الأفضل مبيعاً، لأن المحلة عُدّت "معاداة للسامية بوضوح". وفي هذه المسألة بالذات، لم نر من بين الذين ثلّوا حزب الديل لأجل ألمانيا البميني المتطرف، أو الحزب الوطني الديمقراطي (NPD)، أو هورست مالر (Horst Mahler) [الثائرة الجديدة]، بل بالتحديد كان هتريك برودر، الذي كتب في 26 تموز/ يوليو 2017 "معادي السامية هو من تبيّنه دير شبيغل"، فالذي يعتبره برودر فضيحة أو صجة، هو بالنسبة إلى الآخرين الذين يعرفونه عبارة عن أفضوحة. وعن المناقشات أن برودر الذي شؤّه لسوء سمعته سمعة مواطنين محترمين باتهامهم بأنهم أعداء السامية، من في ذلك كثير من اليهود، نحده ينتقد دير شبيغل. وربما هذا يعود إلى أن هذا الامتياز محصور فيه بحسب.

تحدث برودر في جلسة علنية من جلسات البرلمان الألماني في 16 حزيران/ يونيو 2008: "سمحوا لي بكل تواضع أن أقدم نصيحة: اتركوا أمر الانشغال بمعاداة السامية القديمة الجيدة (ما الذي كان جيداً في معاداة السامية

التقدمة؟)، ليهووست ماثر، لعلماء الأناثز والمؤرخين. أولوا اهتمامكم لمعاداة السامية الحديثة التي تنقح بضاع معاداة الصهيونية، وممثلوها موجودون بين ظهرانيكم.

إضافة إلى ذلك، فإن التواضع والانضاع ليسا من شيم برودر. إنه من الأشخاص الذين يستمتعون بجذب الاهتمام إليهم. يتصرف مثل رجب طيب أردوغان الذي يهين الحكومة الاتحادية الألمانية، ثم يتوقع الشكر منها. لقد تفاعل البرلمان الألماني معه بالطريقة نفسها مثل الحكومة القدرالية مع أردوغان. أي التصفيق. فلم تقابل إهانة برودر للبرلمان الألماني بطرده على نحو مهين، بل سُمح له بالاستمتاع برضاه.

هكذا نجد برودر الشخص نفسه يستعلي بنفسه على نحو أشد وأعلى، حتى أكثر مما كان عليه قبل عشر سنوات تقريبًا، لكنه دائمًا ذلك الشخص المعجب بنفسه والمعتد بها، الساخر والغدار، ثم إنه يعتقد بقدرته على السحرة من مجلة دير شبيغل التي يزعم أنه غادرها طواعية وانتقل إلى العمل لدى دي فلت. وبإلها من مصادلة أن هذا الأمر قد حصل بعد فترة وجيزة من ترك معلمه شتيغان أوست، رئيس تحريره، منصب رئيس التحرير في شبيغل.

يقول برودر: "من الآن فصاعدًا فإن رئيس تحرير دير شبيغل له الكلمة الفاصلة في تحديد من هو الشخص المعادي للسامية ومن هو ليس كذلك". إنه لأمر مؤلم بالنسبة إلى برودر الذي يخضب بسبب هذا ويكتب بأخر قطرة من حبره، لأن هذا المنصب من حقه تقريبًا بالولادة، واستفاد منه بكثرة في السنوات الأخيرة. كم مرة زعم أنني معادٍ للسامية؟ لكن سأقول إن من المسموح له ذلك، لا لأنه يهودي بل لأن أحدًا من الصحافة الألمانية لم يقف صده. هكذا تجده يكتب على نحو منافق وحاطن أسنانًا: "حتى صحيفة وطنية مثل رودويشه تسايتونغ تنشر أحيانًا كاريكاتورًا معاديًا للسامية من دون أن تعي ذلك. وحتى قصيدة غونتر غراس الإسرائيلية "ما يجب قوله" (Was gesagt werden muss)، التي كتبها "بآخر قطرة من حبره"، تُنشر بطرائق مختلفة". والحال أن الأمر بالنسبة إلى برودر ينتم بالوضوح منذ البداية بكونه كان يتعامل مع معاداةخالصة

للسامية. "بعضى يقول رأيا وبعضى آخر يقول رأيا مختلفًا". أما برودر فهو يقول دائمًا الكلام نفسه. أما الآن، فلنأنا نرى كيف ترغب شبيل في سلب برودر هذا الحق وهذه الفرحة منه.

بالطبع، لا يزال أمامه مركز سيمون فيزنثال في لوس أنجلوس؛ فهناك بإمكانه أن يقترح عليهم سنويًا أسماء شخصيات ألمانية معادية للسامية لتوضع على قائمة العشرة الأوائل كنشطة معادين للسامية.

والآن: ماذا عن أنجيلا ميركل؟ خصوصًا حينما رفضت استقبال بنيامين نتنياهو وحكومته المروعة في ربيع 2017 في برلين. هل يُعدّ ذلك معاداة للسامية؟!

12

عدائي مع مېشا پرومليک

نسعى نحن، أنا (مواليد 1945) وهنريك برودر (مواليد 1946) وميشا برومليك (مواليد 1947) إلى جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية. ونعرف بعضها بعضًا منذ محبتي إلى ألمانيا وأنا طفل صغير. فضلًا عن ذلك، فإننا نحمل الخلفية الاجتماعية والثقافية والإثنية نفسها إلى حد ما، وكنا قد تعرفنا إلى بعضنا في المجمع اليهودي في كولونيا (أنا وبرودر) وفي تجمع الشباب الصهيوني في ألمانيا (أنا وبرومليك). أما انفصالنا عن بعضها فقد تجلّى عندما ازدادت مع الوقت المناقشات والجدل في شأن إسرائيل وسياساتها حدةً. فبينما وقف كل من برومليك وبرودر مثبات وحزم وإخلاص إلى جانب إسرائيل وسياساتها القومية، كنت أنا معني بعلاقتي تلك السياسة؛ ومع ذلك فقد كنت "الإسرائيلي" الوحيد بين هؤلاء الثلاثة.

بدأت شيئًا فشيئًا بالنأي عن إسرائيل، وعن الصهيونية خصوصًا. وقعت بتأسيس مجلتي الخاصة دير سيميت - الصوت اليهودي الآخر - (DER SEMIT) (*die andere jüdische Stimme*)، فالتقدت فيها بحدة سياسة إسرائيل ومن يدعمها.

أما برومليك، في المقابل، فقد عاد إلى الحضر الصهيوني في اثنتائه، طبعًا بعد ما يقرب من عشرين عامًا كان فيها معاديًا للصهيونية. ومع مرور الوقت عاد برودر أكثر راديكالية. هكذا وضع برودر وبرومليك نفسيهما في خدمة إسرائيل بلا أدنى موقف نقدي وعلى نحو أعمى تقريبًا (وبرودر في هذا كان يفوق برومليك). وهذا بالفعل ما عبّرًا عنه مع مرور الزمن في كثير من النصوص التي نشرها.

لقد تجسدت إعادة برومليك في تمييز نفسه من مناهضي الصهيونية مثل إريش فريد، حيث كتب في عام 1996: "يبدو لي أن معاداتي الصهيونية قد

نبعت من الداخل، سواء بنحى الفضل أم أسوأ، أما معاداة الصهيونية اليهودي مثل إيريش فريد فقد قامت عن وعي مطلق بأخلاق عليها تتجاوز دائمًا ومن دور أدنى شك ما يحرك معظم اليهود داخليًا". من هنا نجد برومليك يحتم كتابه الذي أصدره في عام 1996 عبارة: "إن دولة إسرائيل، التي كنت قد تجسستها لعقود ولم أزرها حتى في إجازة، غدت اليوم هدفي المفضل مرة أخرى". قد يظن بعضهم أن هذا عبارة عن علامات التفجع عند الشخص، لكنني سأقول إنني نادرًا ما قرأت إضافة واضحة إلى الانتهازية كذلك التي وردت هنا في اعتراف ميشا برومليك.

في عام 2005 كانت دار النشر زوركاب قد نشرت كتاب الفيلسوف الكندي الأصل تيد هوندريش ما بعد الإرهاب. وقد شمل الكتاب 300 صفحة، وتناول فيه في ثلاث صفحات الصراع في الشرق الأوسط، لقد جادل البروفيسور هوندريش أن الفلسطينيين، ومن وجهة نظر أخلاقية، على حق في استخدام القوة للدفاع عن أنفسهم ضد سياسة الاحتلال الإسرائيلي. حيث يكتب: "في ربيع عام 2002، وكتيجة لاستفزازات رئيس الوزراء شارون وما تلى ذلك من تكرار للتفجيرات الانتحارية من جانب الفلسطينيين، ومع إرهاب 11 أيلول/سبتمبر، كسب أو ذريعة إضافية، أعادت إسرائيل جيشها وفورتها الجوية. فحاصرت دباباتها القرى، وأعين الرئيس الفلسطيني، كما دمرت المصواريخ والجرافات المدمرة المنازل، وحتى سيارات الإسعاف التابعة للصليب الأحمر التي كانت تحاول الوصول إلى الجرحى أوقفت، بل تم القضاء على حشث المضحايا من طرف أولئك الذين قتلوهم. لقد هزت هذه الأفعال العالم أجمع، طبقًا باستثناء كثير من المواطنين الأميركيين الذين لم يجر إعلامهم بواسطة وسائل إعلامهم".

يضيف هوندريش: "يبدو أن بعض اليهود، كضحايا للعنصرية في التاريخ، قد تعلموا اليوم من جلاذيتهم. وكما تطرح الصهيونية نفسها اليوم، لقد أدانتها الأمم المتحدة بحق باعتبارها عنصرية. وبالمثل، فإن فلسطين تطرح أمامنا أسئلة عن الحق والظلم عمومًا، أسئلة ترتبط بمسؤوليتنا عن الأخطاء التي تحدث".

هذا الأمر دفع عالما الترموي ميثا برومليك إلى الطلب من دار نشر زوركامب سحب الكتاب من التداول بطريقة أنه معاذٍ للمسامية. لقد جذب الانتباه بالفعل هذا الطلب للرعاية المثين والسخيف، بيد أن الغريب أنه لم يثر أي موجة من الاحتجاج. وبعد 24 ساعة كانت دار النشر قد عرضت لهذا، فأوقفت تسليم الكتاب وأتلقت النسخ المتبقية لديها. لقد حدث كل ذلك في عام 2003، أي بعد عام واحد من وفاة زيفريد أونسلد الناشر القذ لدار النشر هذه، وما لرجحه أن أونسلد ما كان ليوافق على إلغاء الكتاب وما ارتبط بذلك من إهانة لمؤله. ولم يكن لأرملته ووارثته في الدار أولاً أونسلد-بركوفيتش (The Leuzold-Berkowicz) القوة والسلطة اللازمتين لدفع ذلك، والأرجح أن الضغط مورس عليها لاتخاذ هذا القرار. بيد أن قرارها جاء سريعاً وخاطئاً ولا يمكن القول إنه قرار يمثل صفحة جديدة في تاريخ دار نشر زوركامب طبعاً لا ننسى أن نسخ الكتاب قد وصلت إلى الصحافة ولنا أن نتصور أي هستيريا أظهرتها هذه الحادثة حينذاك في مسألة معاداة السامية في ألمانيا. ميثا برومليك، وهو اليهودي اليساري الليبرالي ومدير معهد فريش باور (Frisch-Bauer-Institut)، كان أيضاً من بين هؤلاء الذين غاصوا في وحل هذه الهستيريا.

أما المؤلف هوندريش فوله يدرس الفلسفة في جامعات عديدة في لندن وريال ونيويورك. وكتابه يحاول تناول مسألة حياة جيدة في إطار 11 أبول/سبتمبر، وحتى في أميركا، التي دارت فيها نقاشات في شأن مقاطع من الكتاب ادّعي أنها معادية للسامية، لم يُقدم أحدهم هناك على طلب سحب الكتاب من التداول. إنني على يقين أن برومليك لم يقرأ الكتاب، بل تابع تلك الجدالات تحسب. وهذه متاعبة كانت كافية بالفعل بالسعة إليه حتى يدهي صد دار النشر ويوجه اتهامات خطيرة إليها، بل وأن يطالبها في رسالة مفتوحة "مباشرة ومن دون تأخير" أن تسحب الكتاب من السوق. وكانت الرسالة التي كتبها إلى إدارة دار النشر قد نشرها في جريدة فرانكفورتر روندشلاو، حتى قبل أن تصل إلى إدارة الدار.

إنه لأمر مدهش حقاً ولا يمكن تصديقه أن يقوم ثمانية أحد المثقلين اليهود

بالطلب من دار نشر ما إتلاف مئات الكتب. وفي النهاية: لقد اختفى الكتاب من السوق، بل مُنع كذلك أي نقاش وجدال في أطروحات الفيلسوف هوندريش.

وعندما قررتُ أنا نشر الكتاب من جديد رغم الرقابة على دار النشر زوركامب، رأيت ضرورة ترجمة الكتاب من جديد، ذلك أن الدار الناشرة هذه لم تمنحني [بالحقوق] للترجمة الخاصة بها، ولا حقاً انتصح أن رفض دار النشر هذا كان بعمه لنا، لأننا اكتشفنا أن ترجمة زوركامب كانت تنسم بالقوضى والإهمال. ومن الواضح أن محرر دار النشر هذه كان نائمًا في أثناء عمله، وألا لما ورد خطأ في الصفحة 51 من الكتاب. حيث لم يكن في الحقيقة عدد الأشخاص اليهود الموهبات بين عامي 1989 و1991 الذين استوطنوا الأرض العربية يراوح بين 250,000 و400,000 كما اشتكى برومليك بحق. وهذا الخطأ في الرقم تم تجاوزه في نسختنا لدار نشر ملنسر. عموماً، ربما كان هذا خطأ مطبعياً، لأن العدد كان في هاتين النسختين يراوح بين 25,000 و40,000. وللمناسبة تعود هذه الأرقام إلى المعهد الإسرائيلي للإحصاء السكاني لعام 1992.

مع ذلك، تجدر الإشارة إلى أنه بين عامي 1983 و2004، ووفقاً للبيانات الرسمية للحكومة الإسرائيلية، استوطن أكثر من 317,129 مستوطناً في الأراضي المحتلة. بالطبع، كان هوندريش على وعي بهذا الرقم، خصوصاً أنه لهذا السب أطلق عليه أنه معادٍ للسامية. أما الآن فهناك أكثر من 500,000 مستوطن.

ما أغضب برومليك تحديداً أنه وجب عليه فعلاً أن يقرأ من كتاب هوندريش، فهو يكتب: "ليس لدي من جهني أي شكوك جدية في أن الفلسطينيين مارسوا في إرهابهم ضد الإسرائيليين حقاً أخلاقياً". طبعاً برومليك ينعت هذه الشهادة بـ "الزاهة"، بيد أنها تعبير عن سخط. إن نقال الفلسطينيين من أجل حريتهم لهم أمرٌ معترف به في أنحاء العالم كافة، طبعاً باستثناء إسرائيل وأميركا، وهو مشمول باتفاقيات الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، حتى إن وزير الدفاع الإسرائيلي السابق إيهود باراك نفسه قد قال في التلفاز، في عام 1988،

إنه كان سببهم إلى منظمة إرهابية لو كان فلسطينياً. ولقد أوضح لنا هوندريش أن نضال الفلسطينيين يُعدّ شرعياً تماماً كما هو نضال الشعب الأسود في جنوب أفريقيا ضد مضطهدهم البيض وحسد نظام دولة الفصل العنصري/الأبارتهايد. فهؤلاء الفلسطينيون الذين لجأوا إلى وسائل الإرهاب بغية تحرير شعبهم لم يفعلوا أي أمر سوى ما فعله القائدان الإسرائيليان فيسهما، مناحيم بيغن ويشحاق شامير، في معاركهما من أجل استقلال بلادهما. لتذكر أن بيغن كان المسؤول عن مذبحه دير ياسين، التي حصلت في نيسان/أبريل 1948، وشامير المسؤول عن تدبير صدق الملك داود، في 22 تموز/يوليو 1948، والذي كان يضم في أحد أجنحته المقر الرئيسي البريطاني. لقد قتل حينذاك في هذه الحادثة 86 إنكليزياً وجرح المئات منهم. لكن من الواضح أن هذا يعتمد دائماً على الرواية التي تقرأ من خلالها الأمور.

بعد ثلاث سنوات فحسب من هذه الفضيحة أو الضجة كتب برومليك كتابه نقد الصهيونية الذي انتقد فيه سياسة الاحتلال الإسرائيلي التي تنتهك حقوق الإنسان، لا بل وصل إلى الخلاصة نفسها التي تتطابق مع خلاصة هوندريش، أن أحوال الفلسطينيين في إسرائيل من جهات عدة فهي أسوأ مما كان عليه حال أغلبية السود في جنوب أفريقيا في ظل نظام الفصل العنصري/الأبارتهايد. لكن السؤال هنا: لماذا لم يقدم برومليك إلى اليوم، مع خلاصته هذه، اعتذاراً إلى نيد هوندريش؟ ثم لماذا يعبر رأيه كل بضع سنوات؟

محامي برودر واللوبي الإسرائيلي

قد يكون محامي برودر ننان غلارت محامياً جيداً يفعل كل ما هو جيد لموكليه. إلا أنه في وقت فراغه يكتب منشورات رهيبة وينشرها على مدونة برودر "محور الخير"، كما يشغل منصب رئيس مجلس إدارة منظمة كبيرين هابود في ألمانيا، والتي تهتم بجميع الشروعات لأجل إسرائيل. وهو لا يخفي عنا توجيه ولائه حينما يكتب "نحن إسرائيل لقد كان ولا يزال بالنسبة إلينا، نحن اليهود، أمراً مُرضياً الدخول في حياة مواطن ألماني يحمل معتقدات يهودية يتمتع عن تحمّل المسؤولية المشتركة لسياسة إسرائيل. لكن: إننا نتعاطف عند قتل كل

مدني إسرائيلي وفي جنازة كل جندي إسرائيلي يموت وفي أي هجوم إرهابي في إسرائيل. أجسادنا تفسح ونحن نسمع على مدار الساعة أخبارًا عن فوز تل أبيب بالكأس الأوروبية لكرة السلة. مفخر بكل اختراع إسرائيلي وكأنا نحن أهل هذا الاختراع. دعونا لا نحدع أنفسنا: في الحقيقة لقد قلنا أداء الدور الذي اضطررنا إلى القيام به. لقد حان الوقت لمواجهة هذه الحقائق؛ ذلك أنه، وفي غالب الأحيان، على عكس أصدقاء إسرائيل المؤقتين، فإننا نحن أبناء إسرائيل نشكل مع إسرائيل مجتمعًا تاريخيًا ودينيًا ذا قدر مشترك. إنني أقول ذلك سواء شئت أم أبيت، سواء كنا أرثوذكسين أم محافظين أم ليبرالين أم منحولين دينيًا لم علمائين... كل هذه القضايا ليس لها أي دور. هذه هي الحقيقة التي لا ينبغي زحزحتها فتح إسرائيل. قد يكون هذا بالفعل ما يسعد، إلا أنني على يقين لو أن أحد المحامين الألمان وقف أمامه وقال "إنني ألماني" لكان غليارت نظر إليه ليس نظرة غباء فحسب، بل لوصفه على الفور بمعاداة السامية، حتى قبل أن ينسب هذا الشخص بكلمة واحدة.

وكما هو حال كثير من الأتراك من الجيلين الثاني والثالث الذين ولدوا ويعشون في ألمانيا ولم يحققوا من الاندماج سوى خطوات صغيرة، ويحسون تركيا ويمجدون رئيسها أردوغان، فكذلك الأمر مع أشخاص مثل ناتان غليارت وكثير من اليهود في ألمانيا. وهذا بالضبط يرجع إلى حد كبير إلى سياسات الاندماج الفاشلة. طبقًا إن النص الذي قرأناه الآن من غليارت لهو أعمق وصياني ويشير السخرية إلى حد كبير، ويرفضه ويضحك عليه كثير من اليهود في ألمانيا وفي جميع أنحاء العالم. غليارت للأسف يمثل يهودًا آخرين في ألمانيا وفي العالم من الذين يدعمون على نحو أعمى دولة إسرائيل، والذين يُعتبر بالنسبة إليهم موت جندي إسرائيلي أكثر أهمية وأشد مدعاة للأسف من آلاف القتلى الفلسطينيين.

لا شك في أن هذا الاعتراف غير المشروط لإسرائيل، الذي يدعي فيه "لقد قبلنا أداء الدور الذي اضطررنا إلى القيام به" يمثل للأسف حالة نموذجية للعديد من يهود ألمانيا. "إنهم إسرائيل" رغم أنهم لا يعرفون ماذا وما هي

إسرائيل. فهم يؤمنون بكل الهراء الذي يتفوه به موظفون أمتال غلילות ويأنهم كآباء لإسرائيل يشكّلون مجتمعًا تاريخيًا ودينيًا ذا قدر مشترك. لكن لنعلم أن كثيرًا من هؤلاء اليهود لم يكونوا يومًا في إسرائيل ويرفصون حتى الهجرة إليها، إلا أنهم يفكرهم وعقلهم يحسسون وحفائهم مهياة للسفر إلى هناك لاعتمادهم أن معرفة ثانية على وشك الحدوث. لكنني أعتقد أنه إذا ما وجب عليهم الفرار بالهجرة فيكون قرار وجهتهم إلى ألمانيا أو أمريكا، لكن ليس صوب إسرائيل. أما في ما يخص اليهود الذين لا يقولون "نحن إسرائيل" ولا يرغبون في ذلك، فهم بالنسبة إلى الدعائيين الدوعمانيين والمواليين أمتال ناتان عليارت خونة أو يهود كارهين لأنفسهم، أو في الأقل من أولئك الذين يلوثون بيسهم (Nestbeschmutzer)، ولحسن الحظ ليس كل اليهود في ألمانيا واقعين تحت هذا التأثير القومي والثويفي لهؤلاء الأشخاص أمتال برودر وغلילות أو كروبوخ أو يرضون عما يصدر عنهم. وهذا ينطبق أيضًا على تلك الأصوات اليهودية من منظمة "الصوت اليهودي من أجل السلام العادل في الشرق الأوسط". وهنا نشير سريعًا إلى هذه المنظمة لما لها من أهمية في سياقنا: لقد تأسست منظمة الصوت اليهودي في 21 أكتوبر/تشرين الأول 2002 كرابطة. وفي برلين، في 9 تشرين الثاني/نوفمبر 2003 تم تأسيس، وتحت هذا الاسم، "الصوت اليهودي"، فرع "اتحاد يهود أوروبا من أجل سلام عادل" (Europäische Juden für einen gerechten Frieden) وذلك في تيمم الديمقراطية وحقوق الإنسان.

أما عمل المنظمة فهو قائم على أساس الإعلان التأسيسي الذي اعتمد في أمستردام في أيلول/سبتمبر 2002 من جانب 18 منظمة يهودية من 9 دول أوروبية. وبصفتها عضوًا مشاركًا في هذا الاتحاد فإنها تهتم بضرورة وإمكان وجود سلام عادل بين الفلسطينيين وإسرائيل، وترى أن مهمتها الأساسية العمل باتجاه أن تستخدم الحكومة الاتحادية الألمانية على نحو فاعل وصريح سياستها الخارجية ووزنها الاقتصادي في الاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة وليس آخرًا في الشرق الأوسط في مصلحة إقامة دولة فلسطينية قابلة للحياة وذات سيادة على أرض متكاملة ضمن حدود أمنة والمساهمة بنشاط في تحقيق سلام دائم وقابل للحياة لكلا الشعبين.

الأهم أن أصوات هذه المنظمة، الصوت اليهودي، يصرخون في وجه كل من يتظاهر للشحدث باسم كل اليهود في العالم: ليس باسمنا [لا يمثلونا]!

هنا يمكنني أن أتفهم أننا لهم تحفظاتهم تجاه إسرائيل، طبعاً حينما ندرك كيف يتصرف الساسة الإسرائيليون أنفسهم بغطرسة وتعجرف وكيف يتجاهلون بكل عصبية جرائمهم التي يرتكبوها. وعندما أرى وأسمع كيف أن يهوداً المانيين لا يكتلون وهم يمدحون إسرائيل ولا ينطرقون البتة إلى مصير الفلسطينيين الذين يتعرضون يومياً للإهانة والاضطهاد، أستطيع فهم شعور أشخاص يشعرون باليأس من جراء تلك الغطرسة.

لقد حان الوقت لننتق على نحو موضوعي ماذا تعني معادلة السامية اليوم. لا شك في أن من يحمل تحفظات تجاه جماعة معينة يُعدّ فعله من التحيزات المسبقة. ومع ذلك، فلا ينبغي مساواة تقاضات كهذه بالكرامية الحقيقية لليهود. فإذا كان لدى أي أحد، مثلاً، تحيزٌ ما بأن جميع اليهود أغنياء، فمن الأفضل تجاهله. والحال أن حقيقة وجود أشخاص في العالم لديهم تحيزات مماثلة أو غيرها، فهو أمر لا يشكّل أي خطر على اليهود أو حتى على وجود الدولة اليهودية نفسها. وبالتفعل نقول هنا إن مصطلح "معادلة السامية" يُستخدم اليوم على نحو تضخيمي مبالغ فيه وغير مسؤول. علينا أن ندرك أن أكبر تهديد لوجود الدولة اليهودية هو سياستها نفسها المتعاضة لحقوق الإنسان، والتي حولت اليهود الآن إلى "شعب جانبي" كما كتب مرة هنريك برودر نفسه.

هناك في ألمانيا إلى حد ما لوبي يهودي يتمتع بالدعم الكبير من مصادر غير يهودية. وهذا له تاريخ تقليدي في ألمانيا. فالصهيونية قد حظيت بالدعم منذ البداية من غير اليهود، وهذا يعود إلى أسباب متنوعة تاريخية وأيديولوجية وسياسية ودينية؛ طبعاً أخف إلى ذلك سبب الجهل. ولنتذكر أن الصهيونة المسيحية كانوا أيضاً موجودين في إنكلترا قبل نصف قرن من الصهيونية اليهودية؛ وكانوا أعضاء في الحكومة والبرلمان وطلقات السلام، بما في ذلك الأحزاب اليمينية واليسارية، والتيارات الأصولية المسيحية، تماماً كما هو الحال مع التيارات المعادية للسامية أو المناصرة لها. أما في الآونة الأخيرة فأخذت

قوبيا الإسلام تؤدي الدور الكبير وتجري تغذيتها من خلال ديمافوجين أمثال برودر. هنا نلاحظ في الوقت نفسه كيف بُسّكت عن إحدى المسؤوليات التاريخية الخاصة بألمانيا وهي الاعتراف أخيراً بالملطنيين على أنهم مصحاباء ذلك أنهم هم آخر من يتحمل تكاليف الهولوكوست. وللأسف ما زال الفلسطينيون إلى اليوم ينتظرون هذا الاعتراف من دون جدوى.

طبقاً برودر سيكون آخر من يدافع عن ذلك. لقد كتب هذا الرجل منذ ما يقرب الأربعين عاماً أنه يمكن أن يتوقع المرء من إسرائيل "أن لا تتصرف كأنها "الشريف" [الشرطي] في الشرق المتوسط وأن نحافظ على التراث الذي مير اليهودية الأوروبية إلى حين زيادة اليهود، خاصة التعددية في داخلها والتسامح مع الآخرين. وأن تعتبر نفسها جزءاً من منطقة الشرق الأوسط وليس موقعاً متقدماً لأوروبا في آسيا". لكن موقعاً كهذا قد ودّعه حطيفة منذ زمن طويل؛ فاليوم نراه يكتب: "لا يمكن إنقاذ القيم الغربية إلا بعدم التسامح".

إن شخصيات مثل فريدمان وبرودر وكوبلوك وشوستر لهي شخصيات معروفة؛ إنها شخصيات تمثل صفارات إنذار الأمة؛ وما يدعش هو ذلك التشابه بينها. والحال أن ثمة ألقاً من إنسان يهودي حينما يرى في ألمانيا كيف يجري نقد اليهود الذين يتفقدون إسرائيل، بسبب تقديمهم لحسب. اليهودي هنا ليس مذنباً في مسألة معاداة السامية بل يدعمها ثماناً من خلال محاربته [المعاداة] ولا ننسى أنه يوجد بين ظهرانيا أيضاً كثير من غير اليهود ممن يمثلون أبواقاً دعائية في هذه المسائل، مثلاً ماتياس دوفنر من مؤسسة النشر أكسل شيرنغر، وهولكر بيك من حزب الخضر، وبترا باو من حزب اليسار، وهلمر بيتر أول (Hans-Peter Uhl) من الحزب المسيحي الاجتماعي وغيرهم كثير.

هؤلاء كلهم ينشرون أساطير عن إسرائيل المسكينة والصغيرة التي تقوم بـ "الدفاع" عن نفسها فحسب ضد "هجمات جيرانها الإسلاميين"، كما كتب مرة أحد موظفي مؤسسة أكسل شيرنغر للنشر، ليور إنغلندر (Leor Englander)

[1] Freie Jüdische Stimme, no. 3 (Köln, September 1979).

في يوديشه ألقابته. وهكذا أصبحت الدول المجاورة لإسرائيل تكتلنها إسلاميين فحسب، في حين ما عادت إسرائيل تقاتل جيوشها منذ عقود، باستثناء لبنان، وبشكل أساسي مقاتلي المقاومة الفلسطينية، الذين يطلق عليهم الإسرائيليون اسم "إرهابيين".

كان كريستيان غاير-هيندميت (Christian Geyer-Hindemith) قد كتب في 29 تموز/يوليو 2014 في جريدة فرانكفورتر ألتشايفتس تسايتونغ أون لاين (Frankfurter Allgemeine Zeitung) "لقد وصل العار في كراهية اليهود الحالية إلى مستوى جديد تمامًا". وتابع: "كما هو ملاحظ فإن معاداة السامية هذه تتبع أساتنا وقتل كل شيء من رؤوس المهاجرين القادمين من تركيا ومن دول عربية إسلامية المنشأ، ولا يمكن إخفاء هذا النمط من معاداة السامية في التحالف غير المقدس لكراهية اليهود؛ ولن يقدروا وضعه أفضل فحسب من خلال تأكيدات تلعب إلى القول إن هذا النمط من معاداة السامية يسيطر عليه طلاميون من بلاد بعيدة. الأصح أن نقول إن عداوة تقليديًا للسامية منيت ويقعل فعله في كثير من هذه البدايات المعادية لليهود في بلاد الوطن، وهو عداوة لا يمكن رؤيته بمعزل عن خلفياته الدينية".

يشير المؤلف كذلك إلى التظاهرات التي كانت موجهة ضد الحرب الإسرائيلية على السكان المدنيين في غزة. وحتى لو تحلل هذه التظاهرات بعض من الشعارات المتفرقة المعادية لليهود، فإن التظاهرات في حد ذاتها لم تكن لها دوافع معادية للسامية، بل كان لها دافع سياسي محدد إلا أن المؤلف يتجاهل هذا الأمر ببساطة. وكما هو أمر لانتاريخي نقاشه الذي يشكر له معاداة السامية التقليدية في أوروبا ويصور إنتاجها بدلًا من ذلك على أنه من العالم العربي⁹ فهي وقت حُجِّرت إسبانيا المسيحية اليهود وبانت أوروبا المسيحية لا ترغب في وجودهم على أراضيها - باستثناء هولندا - كانت الإمبراطورية العثمانية المسلمة هي ما أعطى اليهود الإنسان وطنًا جديدًا. لتذكر أيضًا عيش اليهود من دون إزعاج إلى حد كبير في كل من البلقان التي كان يحكمها العثمانيون وفي اليونان وبلغاريا إلى أن قدم جيل من أهل كريستيان غاير-

هبتعت فتم ترحيلهم من هناك إلى معسكر أوشفيتز. ولقد نجا اليهود في تركيا، بلا شك. أكتفي بهذا في ما يخص "المعاداة للسامية في بلاد الوطن"!

يمكننا في الأساس الشعور بالأسف لمثل هؤلاء الناس. فهم يعيشون في وسط غير محبوب، غرباء في بلدهم، قلوبهم مغلقة بالقدس كما عبرت عن ذلك شارلوت كتوبلوخ ذات مرة على نحو مشير للشفقة. كيف يمكن أن يعيش المرء من دون قلب؟ لا يمكن أن يرد ذكر الفلسطينيين في نصوص برودر وأمثاله أو أن نعثر على تعاطف معهم ومع مصيرهم في هذه النصوص. لكن لنشد على وجود قلة التعاطف بالعموم مع أي شخص لا يكون عربياً أو مسيحياً أو يهودياً. أما عند برودر فلا يوجد عرب أو فلسطينيون، هناك فحسب في عالمه: إسلاميون أو إرهابيون أو جهاديون، والمسلم الوحيد الذي يصفه بالصادق هو المشرع.

إن الحياة من دون قلب ليست حياة. أما الفلسطينيون لهم محفرون، ولا يفيد مصيرهم سوى الإحصاءات. لنشاهد كيف يهكي المرء عندما يُقتل جندي إسرائيلي أو طفل يهودي، إلا أنه بالكاد يُعترف بقتل عشرات الأطفال الفلسطينيين، ثم نجد كيف يبرّر ذلك: دفاعاً عن النفس. هكذا وصلنا فحسب إلى حلقة مفرغة، يتوجب علينا في النهاية كسرها. لقد تحولت إسرائيل إلى وحشٍ شجع بطلب دائماً المزيد من الضحايا، وكأنها غدت تشبه "كروموس"⁽²⁾ الذي يفترس أطفاله. ولننذكر ما قاله الحاجاجام هولديرع من لندن مرة: "إننا نحن اليهود نلحق ضرراً بأنفسنا، حينما ننادي دائماً بمعاداة السامية".

يمكن قراءة هذه العدالة التي يمسها المرء إلى نفسه في هذا الانقراض دي السمعة السيئة الذي يعزى إلى غولدا مائير. "إننا نغفر لكم قتل أطفالنا، ولكن أن تجبرونا على قتل أطفالكم فهذا أمر لا نغفركم".

لكن أود من جانب آخر أن أؤكد أن الناس الطبيعيين لا يجدون متعة في

(2) كروموس من عدا بلهة الأرض ضد الجواميس. نحوه من أي يودي أولاده كما أنى هو والده أروموس، كان يتلهم وهو رضيع، حتى أعطته روحه حيزاً منبط دنتله، وهذا معاً الأسر الأصغر يوس، الذي حرو إسمونه من بطر أبيه بعدما كبر "الشد هود" (المترجمة)

أن يكونوا جناة. وإنه لأمر معروف لنا أن كثيرين من الإسرائيليين يفقدون على نحو متزايد هذه المنعة ولهذا السبب يعادى كثير منهم هذه الأرض. وكثير منهم يأتون إلى برلين التي يعيش فيها حاليًا قرابة 30.000 إسرائيلي. كما نعلم أيضًا أن كثيرًا من الجناة النازيين انتحروا بعد الحرب، ذلك أنه ما عاد سفدورهم الاستمئاع بكونهم مرتكبي جرائم. وكان هايو ماير، الذي نجا من معسكر أوشفيتز، قد أجاب عن سؤال هل يشعر الشخص بمنعة "أن يكون جانيًا": "يعتمد هذا الأمر على الشخص إذا كان لديه ضمير أم لا". لكن على ما يبدو فإن شخصًا مثل برودر لهر رجل بلا ضمير.

يقطع سؤال أسامتا: هل برودر مهرج بلاط أم محقق؟ والحال أنه يصعب تصنيف الفضلكات التي تصدر عن هؤلاء ما إذا كانت جدية في ما تصرّح به أم هي مجرد تهريج. أيضًا من الصعب تصديق أن شخصًا يُعتبر ذكيًا يرى في شخص يعادى الصهيونية أنه بأتى عن اليهودية. نعلم أن هناك مئات الآلاف من الحبيدين [حبيديم] واليهود الأرثوذكسين المتطرفين الذين يرفضون الصهيونية لعدم توافقها مع اليهودية. لكن بالنسبة إلى برودر فإن هؤلاء من الواضح ليسوا يهودًا، بل إنه يخرجهم من الفئة [يعتبرهم خارجين عن اليهودية]. فالرجل يعتقد، وهو ما صرح به لمجلة تاغليس (Tagess) السويسرية اليهودية، أن كل يهودي معادٍ للصهيونية "لديه ميل إلى أن يكون معاديًا للسامية". وبهذا فالرجل يضع أبديولوجيته، أي الصهيونية، فوق وصايا الدين اليهودي ويرفض اعتبار الآخرين كلهم، بمن فيهم اليهود المتدينون، أنهم يهود حقيقيون. ربما يبدو لنا هذا الكلام مجرد هراء بشر السخرية، إلا أن الرجل للأسف جدي تمامًا في ما يقوله.

إن أحاكم برودر بسبب أسلوبه. ولن ألقى باللوم عليه، بل على الصحافة الألمانية التي صنعت على هذا النحو. فهو يُسمح له بالتفوه بالإهانات الساخرة وشتم الآخرين، لماذا؟ لأنه يهودي. بالنسبة إليّ، أعتبر معاصرة السامية هذه [أي الفيلوسامية] هي بذاتها المعاداة الحقيقية للسامية، حيث إنني غالبًا ما أتساءل في ما إذا كان السبب وراء صمت الزملاء عن برودر يمثل خبثًا ورعًا بالسمحوا لبرودر بأن يقدم لنا نفسه على أنه الشخص اليهودي الذي لا يمكن المرء

سوى احتقاره وكرهه. إن فرودر بالنسبة إليّ يمثل الاستعزاز بعينه ويستمتع باشمزازه، طعناً وفقاً لشعاره نفسه: "لماذا الموضوعية، حينما تدير الأمور بشكل شخصي". إنه يسخر من الناس الذين لا يتفقون معه ولا يدركون بذلك ما يصنعه، أي معاداة السامية.

لقد غدا الأمر حقاً كما لو كان مع مشتركين في معسكرات تجميعية في الغابات: فالشيء الأساس هنا هو شهرة الشخص، وثمة الكثير من المال، بل يُقِلُّ بالإهانة والضحك على الآخرين. فرودر يستفز الآخرين ويعمل على إحداث استفطاب في المجتمع، ويكفيه أن يكون محط إعجاب من طرف جماعة "ضد الألمان" [مُتَذَكِّر لاحقاً]، سيما نجد آخرين يتجاهلونهم تماماً ولا يعيرونه بالآ. وإذا لم يكتسب المرء الشهرة بلباقة فهذا يعني كسبها بالكرهية؛ والأمر نفسه هو ما يسير به شاربيون الجدد. أخيراً أحتم هذه الجملة: كما أفلدت الصهيونية من معاداة السامية، والعكس صحيح، فإننا نجد أيضاً فرودر يدعم الميول المعادية للسامية في المجتمع من خلال ما يظن أنه يحاربها؛ بيد أننا نجد أن هذه الميول نفسها تدعمه.

في 10 نيسان/ أبريل 2012 نشرت جريدة زودويتشه قصيدةً للآديب الحائز جائزة نوبل غوتتر غراس، فأحدثت القصيدة قبلة بين الجمهور الألماني. لا يحظى أنها احتوت أيضًا ذكر القبلة، القبلة النووية، وبالتحديد أكثر الكاتب من الحديث عن القبلة النووية الإسرائيلية وخوفه من إمكان استخدامها ضد إيران.

على الفور بدأت عاصفة من السخط عليه. أمان هريك برودر حامل جائزة نوبل بتعته بأنه "معادٍ أبدي للسامية"، كما اتهم المؤرخ ميشائيل فولفزون الشاعر بأن قصيدته تحتوي "تقريبًا كل الصور النمطية المعادية للسامية"، مدعيًا، أي فولفزون، أن غراس حوّل في قصيدته "الضحايا" إلى "جناة". مع العلم أن غراس لم يذكر قط في قصيدته أن الإسرائيليين هم "جناة"، بل أراد التحذير من أن يصبحوا هكذا. ومن لا يريد رؤية هذا الفرق، فهو لا يريد رؤيته.

ووصف المجلس المركزي لليهود القصيدة بأنها عبارة عن "كتيب تحريضي وعدواني"، أما بالنسبة إلى الكاتب رالف جوردانو الذي توفي في عام 2014، فالقصيدة ليست أقل من "محرم على وجود إسرائيل". وعمومًا فقد اتفقت إسرائيل. والحال أن في إسرائيل نفسها نجد تصنيفًا لوزير الخارجية ووصف فيه هذه القصيدة بأنها "سافية"، وهو الأمر الذي كان سببًا لانتقاد خفيف تقريبًا وغير مؤثر وذلك مقارنةً بردات الفعل الألمانية. لقد عرضت إسرائيل على حامل جائزة نوبل للآديب أمرًا يمنع دخوله البلاد، رغم أن هذا الرجل بالأصل لم تكن لديه نية السفر إلى إسرائيل.

أما في أميركا فقد سأل الناشر وحامل جائزة نوبل للسلام إيلي فيزل (Elie Wiesel مذكورًا: "هل عاد الألمان القدماء ضحاةً ورفضوا رؤسهم؟"، كما أن جزءًا كبيرًا من النحبة الألمانية ولقب مؤلف القصد من غراس. أما الناشر فرانك

شيرماخر من جريدة فرانكفورتر ألغماتيه تسابتونف ليتبعنا بأن الأمر يتعلق هنا بـ "صناعة الضمائر"، في حين تحدث مانياس دويغتر، عالم المسرح ورئيس دار نشر أكسل شيرمر، عن "معادلة سامية دقيقة سياسياً"، وأدعى، في إشارة إلى رواية غراس *تظهير البصل* (*Revelation der Zwiebel*) أن نواة البصل لها بُنية [قاسدة]. كما قال ميشائيل نومان، الناشر ووزير الثقافة السابق وعضو الحزب الاشتراكي الديمقراطي: "إن قصيدته عبارة عن فضيحة أخلاقية وسياسية".

لقد كان هذا غيضاً من فيض مما تداولته الانتقادات الغاضبة ردّاً على هذه القصيدة غير المؤيدة. ومن الأشخاص القلائل الذين دافعوا عن غراس رئيس أكاديمية الفنون كلاوس شتيك (Klaus Steink) الذي قال: "يجب السماح للحرء بالتحدث بوضوح من دون إدانة كعدو لإسرائيل". ورغم أن المؤرخ الإسرائيلي نوم ميخيف وجد أن قصيدة غونتر غراس "فعالية" و"أنيقة"، فإنه لم يصفها بمعادية للسامية مدكّراً في الوقت نفسه بالنقاشات التي تجري في إسرائيل منذ زمن بشأن الهجوم الإسرائيلي على إيران. كما صرّح أيضاً ناشر كتب غونتر غراس، الإسرائيلي الأصل، سيف ليفيز (Siv Lefter) -لم يترجم الإسرائيليون من القصيدة كما تترجم الألمان-، ولم يكن قوله هذا عبارة عن رأي بل كان بياناً.

صرح السفير الإسرائيلي السابق في ألمانيا أيضاً إيمانويل نحتون أن عليه التدخل في هذا النقاش كما هو حال كثير من أسلافه وخلفائه. ويُن أن هذا ينتمي إلى التراث الأوروبي في اتهام اليهود بشأن طقوس القتل في عيد الفصح، وهنا نجدد بقول: "كان الزعم في الماضي أن اليهود يستعملون دم الأطفال المسيحيين من أجل صنع خبز الفصح، أما اليوم فهناك الشعب الإسرائيلي الذي يُزعم أن إسرائيل ستقضي عليه". ثم يصف الرجل غراس في تلك السلسلة القديمة نفسها التي تحوي أحكاماً تحيزية مسبقة معادية للسامية، لكن من يذم بكل جدية أن غراس مع قصيدته يضع نفسه في ذلك التراث عن أساطير طقوس القتل، التي تُسرت سابقاً عن اليهود وساعتت في اصطهادهم، ليهو شخص لا يتسم خطايه بالجديده.

وهنا نسأل: بماذا أنهم غراس بالصبط؟ القول إن الرجل قد كتب أن إسرائيل وضعت خطة لمهاجمة إيران من خلال ضربة استباقية بغية منعها من صنع قنبلة نووية، لهو قول لا يشي البتة بمعاداة السامية، بل هو أمر معروف لنا منذ سنوات. مثابير هنا مثلاً إلى مقالة شاملة نشرها الناشر يوزيف بوليه، من جريدة دي تسايت، في عام 2010 في المجلة الأسبوعية هامبورغر فوخن تسايتونغ (Hamburger Wochenzeitung) بعنوان "هل إسرائيل بمفردها ضد إيران؟"، والمقالة تتناول بالضبط هذا الموضوع⁽¹⁾. يمكننا أن نقرأ كذلك ما جاء في جريدة هاندلسبلات (Handelsblatt) في عددها المنشور في تشرين الثاني/نوفمبر 2011، بأن إسرائيل تهدد بتوجيه ضربة عسكرية إلى إيران. وفي جريدة دي فلت نشر المؤرخ الإسرائيلي المشهور بيني موريس في تموز/يوليو 2008 مقالة تطرق فيها إلى مسألة هل إسرائيل وإيران على وشك حرب نووية، فكتب موريس: "ستجرأ إسرائيل على الهجوم، وذلك لاعتقادها أن وجودها الفعلي في خطر". وتتوقع وكالات الاستخبارات الغربية أن إيران ستتمكن من البدء في إنتاج القنبلة النووية في غضون سنة إلى أربع سنوات⁽²⁾.

ولنتذكر أيضاً تهديد رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتانياهو سابقاً، في عام 2008، لإيران بضربة مدعرة إذا أرادت مواصلة تطوير برنامجها النووي وبناء قنبلة نووية. وما عاد منذ سنوات الأمر سراً أن إسرائيل نفسها لديها أكثر من مئة قنبلة نووية وأنها نشأت صواريخ نووية على طائراتها المقاتلة في حرب أكتوبر 1973 ضد مصر. لقد مضى على تلك التصريحات تسع سنوات، ولمحسن حقناً لم تصنع إيران قنبلة نووية ولا إسرائيل هاجمتها، إلا أن الإعلام قد جال وفاض بين عامي 2008 و2014 في تناؤل هذا الموضوع. ووجدنا دهر شيبغل قدّمت تقارير عدة تقيد بأن إسرائيل تخطط لشن هجوم نووي؛ ليس أقله بمساعدة الفواصات التي تسلمها من ألمانيا، إنه لأمر مدهش، بل وصل إلى حد التفاق والمخبرة، بأن يتهم قوتلر غراس بـ "معاداة السامية"، لأنه تجرأ فحسب على تناؤل خطر الحرب النووية هي قضية تقليدية.

(1) <http://www.zeitung.de>

(2) <http://www.zeitung.de>

وصل الأمر حتى إلى نقاش غوتتر يابوح (Günter Jauch) هذه القضية في برنامج الحوارات السياسية مساء الأحد في ألمانيا. لقد تخلت عن غراس أيضاً السياسية هايدي سيمويس من الحزب الاشتراكي الديمقراطي في مقاطعة شلزيغ هولشايم، وكان غوتتر غراس قد دعمها في حملاتها الانتخابية. صرحت سيمويس أنها "لا تستطيع الموافقة على قضية غراس المزعومة". وقالت غاضبة إنه "مثل في الدخول في العمل الدبلوماسي"، كما لو كانت تلك خطأ نيته. أما ماروسيل رايش-رانيكي فقد رأى أن غراس ليس معادياً للسامية ولكنه "معاد لإسرائيل"، وربما كان على حق في ذلك، رغم أنه لا يمكن اعتبار الشخص "معادياً لإسرائيل" لمجرد اعتقاده سياساتها. فأننا ننتقد إسرائيل ولا أرغب في أن يتم وصفي بأنني معاد لإسرائيل. وقد صرّح الممثل ميشائيل ديقن أن غراس لديه مشاكل منذ زمن طويل مع اليهود وإسرائيل، طبعاً من دون أن يخبرنا كيف توصل إلى هذا الاستنتاج. تشير هنا كذلك إلى رأي الخبير بالشرق الأوسط ميشائيل لودرز الذي يرى أن إيران قد لا تكون في موقع يمكنها من تعريض إسرائيل للخطر على نحو جدي، وهو الأمر الذي جلب إليه السخيرة من ميشائيل فولفزون، ووزير التنمية السابق ديرك بيل الذي يعمل الآن في لوبيات العمل والتجارة بالسلاح، وهو من الحزب الديمقراطي الحر.

كان ماله ليمغ (Malte Lehming) قد سرق الأضواء حينما قام في جريدة تاغسبيغل (Tagesspiegel) الرأبعية بمقارنة عنوان قضية غراس - "ما ينبغي قوله" - بالتهام النازي "اليهود هم حفنة السحق"، وهو الأمر الذي كان كاتباً بالنسبة إليه لوجود دليل على "معاداة المؤلف (غراس) للسامية". طبعاً ليمغ لم يكن غيياً حينما يكتب وهو يسيء تقدير الأعمال الأدبية لغراس: "من يكتب الشعر فجأة في الصحف الوطنية من دون أن يلاحظ ذلك، فربما يفعلها دائماً من دون أن ينتبه له الآخرون". يمكن أن يسأل المرء هنا على نحو معاكس: أيكتب ربما ليمغ نفسه في الصحف الوطنية من دون ملاحظة ذلك؟ ثم ألم تنتبه له لجنة جائزة نوبل أيضاً؟

أما ميشيل فريدمان فإنه لم ينسَ تذكيرنا بأن غوتتر غراس نفسه، ويعبر

السابعة عشرة، استدعي إلى "الفرقة العاشرة مدفوعات"، التابعة للجناح العسكري للحزب النازي، و"طوال خمسين عامًا" بقي صامتا حيال ذلك. هنا في هذا السياق يأتي دور برودر ليشيف في مجلة فوكس (Fox) "كان غراس في السابق أحد رجال القوات النازية الخاصة، واليوم يكتب وكأنه واحد منهم". صحيح أن غراس كان قد تسجّل في القوات البحرية طوعاً إلا أن دعوته مع قوات النخبة النازية الخاصة (SS) لم يكن كذلك. لكن نقول هنا إن من بدأ قضيائهم كهذه ليسوا إلا أناساً متعجّرين أمثال برودر وفريدمان وفولفزون. ويبدو هؤلاء، بالطبع تصوير أنفسهم بأن أعمالهم دائماً بلا عيوب أخلاقية وصحيحة من الناحية السياسية.

لقد ولدت في عام 1945 ولا أستطيع الحديث والكتابة من تعجّري الخاصة عما سبق ذلك. لكن بحكم الحس السليم والتجربة والمعرفة التاريخية يمكن القول: إن شخصاً بعمر السابعة عشرة في عام 1944 سيكون بعيداً كل البعد من أن تكون له رؤية سياسية وسيكون أيضاً من السخف مقارنته شبان بالعين اليوم أعمارهم سبعة عشر عاماً، طبعاً إذا خفضنا النظر كذلك عن أن غونتر غراس قد شأ أصلاً في ظل دكتاتورية مارست بشدة غسل دماغ الشعب.

بالطبع إن صيادي معادي السامية يحتاجون إلى معادي السامية المرغومين حاجة التنفس إلى الهواء. وإلا كيف يمكن تبرير انفعالاتهم؟ بالنسبة إلى برودر، إن معادي السامية هم "القطور" كما وصف ذلك عالم السياسة يارك فليخاوف (Mark Fliedrauf) حيث إن معاداة السامية، بالنسبة إلى برودر وشركائه، منتشرة في كل مكان. "غراس؟ بالتأكيد هو معادٍ للسامية. الفئة الألمانية الثانية؟ أيضاً هي فئة معادية للسامية. وكلاوديا روت؟ أيضاً هي الأخرى معادية للسامية. الألمان؟ أيضاً هم معادون للسامية. حتى يارك أوياما الذي حوّل إسرائيل من غربة أولى ضد إيران: أيضاً هو معادٍ للسامية"¹². والحق فإذا ما كانت معاداة السامية تمثل رهاناً [فريباً]، فإن هذا الرجل برودر يحملها. وإذا ما وثقنا بأبحاث معاداة السامية في ما تذهب إليه في توضيح هذا الاصطلاح،

(12) <https://bit.ly/3KTD017>

فإن ثمة معيارًا، وفق هذه الأبحاث، بشأن الرؤية المعادية للسامية: أي النظر إلى اليهود وإسرائيل على أنهم مسائل خاصة والتعامل معهم بمعايير مزدوجة؟ وإلا، أجيوتي من فضلكم، ماذا يعني المعيار في تحديد معاداة السامية أكثر من هذا المعيار حينما يتم استخدام اتهامات معاداة السامية على نحو وسواسي مهووس؟

الحال، أن من الأفضل لهؤلاء الناس، بدلًا من البحث عن آثار معاداة السامية المزعومة في ألمانيا، أن يتشغلوا بالعنصرية التي تحكم على نحو واضح في إسرائيل. وثمة اقتناع تام عند المستوطنين اليهود المتطرفين في الأراضي المحتلة من إسرائيل، بشكل عام، أن قيمة الدم العربي أقل من قيمة الدم اليهودي، ويدعمهم في ذلك الحاخامات المستوطنون الراديكاليون الذين يسعون لتبرير أبديولوجيتهم لاهوتيًا ومثل هذا سوء الذي تقابله عد هؤلاء الراديكاليين موجود كذلك في المجتمع نفسه الذي يتيح لهم الاستمرار في نظرهم أو لا يفعل شيئًا ضد ذلك.

لقد أسس مرة الحاخام المستوطن موشيه ليفنغر (1935-2015) حركة المستوطنين الدينية القومية "عوش إيمويم" (أي جماعة المؤمنين) التي هدفت بعد حرب أكتوبر 1973 إلى الاستيطان على جميع أراضي إسرائيل بما في ذلك مناطق في الضفة الغربية وفي قطاع غزة. لقد كان ليفنغر نفسه مشاركًا في تأسيس مستوطنات في مدينة الخليل وكريات أربع القريبة منها، ونقّذم إلى المحاكمة مرات عديدة ودين في مناسبات أخرى، بما في ذلك في إداتين لإطلاق النار على فلسطينيين في مناسبتين منفصلتين. كما رُحب صراحة بمدينة الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل الفلسطينية، في عام 1994، والتي قام بها الطبيب اليهودي والمستوطن الراديكالي ياروخ غولدشتاين. تلك المذبحة التي ارتكبتها بحق 29 فلسطينيًا كانوا يصلّون في المسجد الإبراهيمي في الخليل، وكان شعاره أن "الأرض أكثر أهمية من الحياة".

يُعَدُّ الحاخام يتسحاق شايرا الذي ولد في عام 1946 أحد أتباعه الروحيين، وهو يدير مدرسة دينية في الضفة الغربية في مستوطنة يتسهار. ونشر

في عام 2008 بالتعاون مع الحاخام הראييكالي أيضًا يوسف إيتسور كتاب *توراة الملك* (The Torah des Kings) الذي شرع فيه من الناحية الدينية العنف ضد الفلسطينيين ورأى أن يُسمح لليهود بقتل غير اليهود إذا كانوا يشكلون تهديدًا لإسرائيل. وهذا ينطبق أيضًا على الأطفال الذين من الممكن أن تكون لهم نشأة كأعداء للشعب اليهودي. ولا نسي أن زميله يوسي بيل كان قد دافع في السابق عن فكرة طرد أو قتل جميع الذكور الفلسطينيين الذين يتجاوزون الثالثة عشرة، ونلقى تأييدًا من متشعقي شايرا. ورغم أنه تم السير بإجراءات ضد هاتين الشخصيتين بسبب تعريضهما، إلا أنها إجراءات ذهبت أذراج الرياح ولم يأت منها شيء.

إضافة إلى ذلك، يجادل حاخامات رايبكاويون مثل هذه الشخصية شايرا بشأن تأييد استقلال استخدام الفلسطينيين في الحرب دواعيًا بشرية لحماية الحياة اليهودية. وكان شريكه يوسي بيل رُحِبَ بتلك الهجمات الانتقامية، ومن ضمنها كتابات مسينة على الجدران، والتي يقوم بها المستوطنون المتطرفون ضد الفلسطينيين أو ضد ممتلكاتهم أو مساجدهم، حيث يمارسون "الانتقام" بسبب أعمال العنف الفلسطينية بحسب رأيهم.¹⁴

إذا ما أخذنا في الحسبان هذه الظواهر، فيبدو أمامنا من المعلوم ما رواه مؤسس منظمة "كسر الصمت" لحقوق الإنسان، يهودا شاول، أن المستوطنين المتطرفين قد قاموا بتسميم بئر يستخدمه الفلسطينيون في الصفاة العربية بحث الدجاج، لذلك أُجلي السكان لسنوات عدة ولم يتمكنوا من العودة إلى هناك إلا لاحقًا. لقد كان هدفُ تسميم الماء إخراج الفلسطينيين من مدنهم وقراهم بغية تمكين المستوطنين من السيطرة على الأرض الفلسطينية. طبقًا هذا الأمر ليست له علاقة بالأسطورة القديمة عن تسميم الأبار التي درجت في العصور الوسطى للتعرّض ضد اليهود. وللعلم، ليس هناك أي دليل حتى على القيام بأعمال سخرية كهذه في العصور الوسطى، لأن اليهود أنفسهم قد شربوا من الماء نفسه.

¹⁴ <https://bit.ly/1vPMUGX>

ولم ذلك، فقد كُتبت الاتهامات في المدونات الموالية لإسرائيل والراديكالية لهذا الناشط في حقوق الإنسان يهودا شاول، وهو نفسه بالمناسبة يهودي أرثوذكسي، بأنه يدعم هذه التحيزات المسبقة، لأنه تحدث بذلك المحقق فحسب^(١٥).

طاول الأمر حتى محمود عباس، رئيس السلطة الفلسطينية، الذي أشار إلى ذلك في خطاب له أمام البرلمان الأوروبي، فتحت مفارنته بكاره اليهود يوليوس شترايخر،

يمثل النزاع بشأن المياه أحد أهم التراعات الأساسية في المنطقة، لأن الإسرائيليين والفلسطينيين يستخدمون حزامًا مشتركًا من المياه الجوفية. ووفقًا للدراسات الاستقصائية التي أجراها البنك الدولي في عام 2009، فإن الإسرائيليين يحصلون على أكثر من 86 في المئة من المياه، في حين أن الفلسطينيين لا يصلهم سوى 14 في المئة من حصتهم. والسلطات الإسرائيلية نفسها تقر بأن الإسرائيليين يصلهم من المياه أكثر بكثير من الفلسطينيين^(١٦). إضافة إلى ذلك يجري باستمرار، في الوقت نفسه، توسيع إمدادات المياه للمستوطنين اليهود في الضفة الغربية. أضف إلى ذلك الانتشار الواسع لبحمامات السباحة الكبيرة في المستوطنات اليهودية، في حين تندر المياه في المناطق العربية، وليس أدلّ على ذلك من تلك الطواير من السكان الذين يقفون أمام صهاريج المياه، حيث يتكفون مبالغ باهظة، من أجل أن يحصلوا على ماء فحسب.

لقد أصبح من المعتاد أن يهاجم المستوطنون الإسرائيليون الشباب الفلسطينيين، ويلطحوا المساحد بشعارات معادية للإسلام، ويُلغوا بساتين الزيتون. أما الجيش فنجدّه لا يتدخل لإيقافهم سوى محدّد قليل. ووفقًا لمكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية (OCHA) فإن أكثر من 90 في المئة من

(١٥) <https://bit.ly/3KJHTPW>

(١٦) <https://bit.ly/3u26dQG>

البلاغات التي قُدمت إلى الشرطة ضد عطف المستوطنين، لم يكن لها أي تأثير ضد الحناة. أما بعض الاحتجاجات المقروية من حركة الاستيطان فيبدون أمامنا تفهمًا لهذا العطف ضد الفلسطينيين.

في صيف 2016 اشكت وزارة الخارجية الفلسطينية في رام الله على ما تزعمه الفلسطينيون من سرقة الإسرائيليين لمبايعهم ثم بيعها لهم بسعر باعظ؛ بل قامت السلطات الإسرائيلية أيضًا في أيام رمضان الحارة بقطع إمدادات المياه عن شمال الضفة الغربية وفرضت شروطًا صارمة على الفلسطينيين الذين يريدون حفر آبار مياه.

بالعودة إلى غراس، حيث لم يكن هذا الرجل أول شخص تملكته الرغبة في كسر الصمت عن هذه التطورات؛ فقد سبقه بسنوات عديدة الناشط في حقوق الإنسان روبرت نويدك فنشر كتابًا بعنوان: لم أعد أطيع الصمت: حول الحق والعدالة في فلسطين⁽¹⁾. وكان الشاعر اليهودي كذلك إريش فريد قد نشر أيضًا في عام 1974 ديوان شعر بعنوان اسمعي يا إسرائيل انتقد فيه بحدة إسرائيل والصهيونية⁽²⁾. وعمود قصيدة "أشعار ضد الظلم" وتوجه فيها ضد العنصرية والفاشية، والتمنع وطرد الأبرياء من الناس في كل مكان في العالم، وحتى ضد الظلم الذي يقاتل الفلسطينيون. وتبدأ القصيدة بالسطور التالية: "الذين صرخوا (بالألمني) "اليهود مذنبون"، هم (اليوم) مذنبون، بأن الصهيانة قد يكونون مذنبين". وحقًا فقد توقع هذا الشاعر في قصيدته "التسميات" الكثير مما سيكتبه غراس بعد أربعين عامًا. لقد واجه فريد سابقًا صعوبات في نشر ديوانه، لكن حقيقة أنه كان يهوديًا، قد مثلت حماية له من شروخهم كما حدث مع غورتر غراس.

نشير كذلك إلى نقطة أخرى: لقد حصلت حنة أريدمت في عام 1959 على

(1) Rupert Nojdyk, Ich will nicht mehr schweigen über Rechte und Gerechtigkeiten in Palästina (Mülten Verlag Neu-Ulmberg, 2005).

(2) Erich Fried, Höre Israel (Neu-Ulmberg: Mülten Verlag, 2005).

جائزة لينغ من مدينة هامبورغ. وكانت كلمة الشكر لها "حول الإنسانية في الأوقات المظلمة" من أكثر الخطابات حكمة على الإطلاق بشأن علاقة الروح والقوة. تقول أرندت: "لم يصنع لينغ سلامه مع العالم الذي عاش فيه. لقد كانت سعاده في الوقوف ضد التحيزات المسبقة وإخيار الحقيقة لأولئك المغفاه البلاء. أما ما هو مقدار الأيمان التي نكلّفها لقاء هذه السعاده، فهنا بالضبط كانت تكمن سعاده". وأنا أيضًا أتعاطف مع ذلك، خاصة حينما يتعلق الأمر بأولئك المغفاه البلاء.

نعلم أن الإسرائيليين هم أيضًا جنائ، إلا أنهم يشعرون بكونهم هم الضحايا فحسب، ويرفضون النظر في المرأة إلى ذلك الوجه القبيح الذي يتحلفون العالم به من خلال سياساتهم. بهم يتعاملون تحذيرات أفضل أصدقائهم ويشكون من أنهم يفتقون وحدهم. شيئًا فشيئًا تتحول إسرائيل كما رأى الفيلسوف الديني الأرثوذكسي التقدير يشعاهو ليوفيتش قبل خمسين عامًا إلى بلد يسوده مجتمع قاضي قومي ديني، حيث رغم اعتباره الفلسطينيين عدوه الرئيس، فإنه يستهدف أيضًا الآن بالفعل حتى فئات من الشعب اليهودي: النساء، والمثليين، واليساريين، ولا حقا كل من يخالفه الرأي.

وهذا هو في الحقيقة ما توقعه الشاعر هاينرش هاينه قبل 200 سنة في قصيدته الشهيرة إلى أدوم (An Adam) في هذه الأسطر التالية:

ألف سنة طويلة تمر،

لنكن متسامحين،

تسامح معي بأن أنتفس،

وحينما تغضب أنت فإني أتسامح.

وأحيانًا في الأوقات المظلمة فحسب

تصبح غريبًا،

وتلك الوداعة المرتسمة على حواف القفط الصغيرة^(٩٩)

ترسمها وتلونها بلدي!

الآن أصبحت صداقتنا أقوى،

وتزداد كل يوم،

حيث بدأت أنهيًا بنفسِي،

وسأغدو شبيهاً بك.

لقد توقع هابنه أن يصحح اليهود في يوم من الأيام كأولئك الذين لطخوا حوافهم
الناعمة الوديعه بالدم اليهودي. وكما هو حال أدوم أصبحت حال اليهود منذ
وقت طويل. وكما هي الحال عند هابنه، أيضًا هي حال غوتتر غراس الذي كان
يرغب في تحذير اليهود، ولا سيما الإسرائيليين، من أن يهيجوا كحال أعدائهم

(٩٩) يستخدم هابنه لفظ Tactive ليمرر عن الوداعة، وهي تعبير لكلمة Tact، واللفظة تعني بالأساس
مخال، صغار الحيوانات قبل ظهورها، خصوصاً القفط، والتي تكون غير مؤذية وباعثة «المتحسنة»

لا مجال أمامنا ونحن ناقش موضوعة معاداة السامية في ألمانيا إلا أن نأتي إلى دور بعض المنظمات مثل أونسلي كونسرد (Honorable Concerned) [معبئة بصدق]. المنظمة تعمل وفق أساليب كذلك التي طُفِّحها السياسي الأمريكي من الحزب الجمهوري جورج وليموند مكارثي، الذي يطلق عليه اسم "جورج"، والذي اشتهر في أوائل خمسينيات القرن الماضي في أميركا بحملته ضد الشيوعيين، فاتهمهم باختراق الأجهزة الحكومية للولايات المتحدة. إنه هو هذا الرجل الذي سيطر اسمه على مرحلة زمنية كانت فيها نظريات المؤامرة المعادية للشيوعية والإذاعات هي ما يُحدد المناخ السياسي في الولايات المتحدة. هكذا لا نستغرب أن الحديث يجري إلى اليوم عن "حقبة مكارثي".

هذه هي الاستراتيجية نفسها التي تتبعها منظمة أونسلي كونسرد في إدارة كل من ينتقد السياسة الإسرائيلية بأنه معادٍ للسامية، وإيلاء الإعلام والسياسة الاهتمام، بل أحياناً التوجه حتى إلى رؤساء المؤسسات المعنية أو مصلحيها بغية سلطتها الأسس القائمة عليها. فحينما تهدد هذه المنظمة إحدى الفعاليات غير المرغوب فيها أو محاضرة لكتاب ناقد أو احتفالية أيضاً غير مجتذبة، تقوم، بين أعضائها والمتعاطفين معها، بتوزيع أرقام الهواتف أو عناوين البريد الإلكتروني الخاصة بالمسؤولين، مثل رؤساء البلديات والمسؤولين التقنيين والمديرين المعنيين في الإذاعات، ويطلبون منهم إرسال خطابات احتجاج حاضرة ومطبوعة إلى عناوينهم. إنهم يقومون بثلاثة الدعوات أو حتى التهديدات أحياناً بغية تخويف الآخرين. وهذه فعلاً أساليب مكارثي ذاتها.

هذا بالضبط ما حدث في عام 2015 حينما طالت منظمة أونسلي كونسرد من أعضائها هي قائمة بريدية الاحتجاج على معرض للنكبة

[الفلسطينية] كان مخططاً له في مدينة بريمن الألمانية، وكان ينوي إحياء ذكرى طرد الفلسطينيين عند تأسيس إسرائيل في عام 1948. لقد بدأ من المهم بالنسبة إلى المنظمة، كما جاء في النشرة الإخبارية، تقديم شكوى إلى جميع الهيئات ذات الصلة والأشخاص والمنظمات المعنية. بدءاً من المكتبة العامة للمدينة وصولاً إلى رئيس البلدية وأعضاء البرلمان الألماني وبرلمان بريمن ومجلس الشيوخ ومكتب الاستشارات هناك. وبالفعل، فقد لبى هذا النداء كثير من.

يغف خلف هذه المنظمة وكيل العقارات الألماني اليهودي ساشا ستافسكي من فرانكفورت. وستافسكي هذا هو المبادر إلى إقامة فعالية أيام إسرائيل السنوية، التي يجري فيها التظليل والترويج للحكومة الإسرائيلية، كما شارك في تأسيس المؤتمر الإسرائيلي - الألماني الذي يُعقد بانتظام منذ سنوات عدة في فرانكفورت. وفي عام 2016 مثل هذا المؤتمر الإسرائيلي ملتقى لكل المشبه بهم تقريباً مثل السفير الإسرائيلي في ألمانيا ياكوف هداس - هاندلسمان، وهنريك برودر، ورئيس المجلس المركزي لليهود جورج شوستر، والسياسي في حزب الحظر فولكر بيك، وأمين صندوق مدينة فرانكفورت السياسي في حزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي أوفه بيكر، ورئيسة التحرير في إذاعة هيسن إستر شابير. ولا ننسى كذلك أن من بين الشخصيات البارزة من إسرائيل مثلاً وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق شازول موفاز، في ظل حكومة أريئيل شارون، وهو اللواء الشهير السابق في إسرائيل الذي شجع جنوده على قتل أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين.

نضيف أيضاً أن ستافسكي هو أحد مؤسسي مجلس التنسيق الألماني لمنظمات المجتمع المدني (NGOs) التي تزعم أنها تعمل ضد معاداة السامية. وتشارك في عدد من الشبكات من أجل تمكينة معاداة السامية ونزع الشرعية عن دولة إسرائيل "كما يطلق على الأمر؛ وفضلاً عن ذلك فقد نشر كتاباً مع المؤرخ يوليوس شويس [من منطقة بونسلدام]،¹ يتناول، وفقاً لما يقوله، معاداة

(1) Klaus Füber, Julius H. Schoeps & Sacha Stawski (eds.): *Verstärker Antisemitismus: Antisemitismus und Antisemitismus in der Antisemitismus und Antisemitismus in der Antisemitismus* (Berlin: Verlag für Berlin-Brandenburg, 2006).

السامية في دوائر الثقافة الغربية المسيحية والإسلامية. ويزعم هذا المؤلفان أنه مع هجرة المسلمين إلى أوروبا قد حدث ارتباط بين كلا هذين التوجهين من معاداة السامية (الإسلامية والمسيحية) في علاقة كارثية. ويلعب ادعاؤهما أيضًا إلى أن هتلر، بالتحالف مع أعضاء كبرى من الحركة القومية العربية آنذاك، قد ساهم مساهمة كبيرة في نشر فهمه المعادي للسامية في العالم. والدليل على هذا الزعم هو ادعاء علاقة هتلر، الحقيقية طبقاً، بمعنى القدس محمد أمين الحسيني حينذاك، والذي لم يكن قط "جزءاً أساسياً" من الحركة القومية العربية. وبالكاد تجاوز عدد المسلمين المتطوعين الـ 12.000 - ومعظمهم من منطقة البلقان - من الذين جعلهم يشتركون في القتال إلى جانب الألمان. وللمقارنة، فقد كان عدد المسلمين الذين قاتلوا في صف الحلفاء ضد هتلر 250.000 جندي مسلم؛ ومعظم هؤلاء كانوا من الجزائر والمغرب.

لقد شارك في ذلك الكتاب الذي أشرنا إليه قراءة 31 كاتباً، منهم إبراهيم فوكسمان من رابطة مكافحة التشهير (Anti-Defamation League)،⁽²⁷⁾ وديتر غراومان من المجلس المركزي لليهود، والناشر ماتياس كونتسل وأولريش سام وإستر شايرا وساشا ستافسكي. طبقاً كل هؤلاء ليسوا مؤرخين، ومعارفهم ضحلة للغاية وأحادية وغير كافية، والأرجح أنها تنبع من الرواية الخداعية الإسرائيلية. ومن بين المؤلفين أيضاً في هذا الكتاب عبر الرزوين والأحادي النظرة هناك شبه مسلمين (أو مسلمون بالأسم فحسب) أمثال السياسي في حزب الخضر جم أوزدمير والناشر السين السمعة سام طيبي.

كما أن السيد ستافسكي علاقات طيبة بالمجلس المركزي لليهود والمقارة الإسرائيلية؛ حتى إن السفير الإسرائيلي اصطفيه بسيارة السفارة الإسرائيلية إلى أحد النقاشات الحولوية في الإذاعة الألمانية الشمالية (NDR). ورغم ذلك، فعندما سأل الصحافيون الحاضرون هذا السفير عن علاقته بمظنة أوستلي كونسرند، ادعى أنه لا يعرف شيئاً عنها، ونسي طبقاً أنه اصطحب

(27) مظنة على لها تمس بالدفاع عن الحقوق المدنية وديمقراطية إسرائيل وتعمل على مكافحة معاداة السامية في كل أنحاء العالم. (المترجمة)

بفرضه منذ قليل ساشا ستاوفسكي بالسيارة الخاصة للمسفارة الإسرائيلية وترجلا منها سوية أمام أعين الجميع.

في الحقيقة ليست لدي معرفة بسوء العلاقات تلك التي تربط السفارة الإسرائيلية بساشا ستاوفسكي. بيد أن الأمر الذي لا شك فيه أن هذه المنظمة لديها الوسائل الجيدة التي تستخدمها. ويكفي مثلاً ملاحظة ذلك فحسب من خلال تسيير الفعاليات السخية التي تكلف الكثير، مثل فعالية "أيام إسرائيل" أو مناسبات مثل "أحب إسرائيل"، والتي، بالتأكيد، لا يعود الفضل في إقامتها إلى التبرعات التي تقدمها مدينة فرانكفورت.

لقد تأسست منظمة أونستلي كونسرند في عام 2002 لبناء "خريطة حقيقية" في الإخبار عن إسرائيل ومحاربة معاداة السامية، كما تعلن المنظمة نفسها عن ذلك. أما السبب وراء هذا التأسيس فهو تصريحات رئيس كتلة الحزب الديمقراطي الحر يورغن مولمان في ولاية نوردرين فستفاليا (شمال الراين - ويستفاليا) في ألمانيا وكان هذا الرجل قد وقف إلى جانب السياسي جمال فارصلي⁽¹⁾ الذي اتهم إسرائيل تعاملها مع الفلسطينيين باستخدام "أساليب النازية". من هنا كان تصريح ساشا ستاوفسكي العضو المؤسس للمنظمة أونستلي كونسرند: "لقد وصل الآن الأكم إلى ذروته على أبعاد تقدير". هكذا، لا نستغرين قيام مجموعة وقّعت بلاغاً نشرته جريدة فرانكفورتر ألبتايمه أهرت فيه عن صدمتها بأن مولمان "يراهن ضمن مستنقع من الواحل".

لقد كان صدق هذا البلاغ أكثر مما هو متوقع. وهنا بالضبط ظهرت فكرة التوسع في ساء "المبادأة الحقوقية للمواطنين القلقين". وهذا حقيقة ما يفيد عنوان هذه المنظمة التي يعثر بها القلق *discomfort*. فالأسم، أونستلي كونسرند، يجب أن يعبر عما تفعله المجموعة فيها، وفقاً لستاوفسكي، كما أنها لا تريد أن تُحسب على أي توجه سياسي محدد. لكن ما هو مطلوب هو "التضامن مع

(1) جمال فارصلي سياسي ومتروك شمالي من أصل سوري. ألهم سبب تصريحاته بأنه معادو للسامية". (الترجمة)

الشعب في إسرائيل" والتشديد على عدم وجود دولة "فلسطين"، كما يشار إلى ذلك أحياناً في تقارير وسائل الإعلام. ويعتبر صاحب المصادرة ستاوفسكي أن رسائل القراء "وسيلة مهمة جداً لإحداث تغيير في وسائل الإعلام". وهذا هو سبب الاهتمام بأن يتلقى رؤساء التحرير العدد الكبير من رسائل الاحتجاج، بما فيها رسائل البريد الإلكتروني، عند طباعة أو إرسال رسالة نقدية.

ومن خلال قائمة بريدية يتلقى أكثر من 1200 مستقبل حالياً تليخيصات صحافية شاملة راحة، مرآة صحافية لما ينشر، وكذلك مراسلات خاصة وتعليقات بشأن مواضيع الشرق الأوسط واليهودية ومعاداة السامية.

على سبيل المثال، تثار الاحتجاجات من الأعضاء النشطين في القائمة البريدية عندما لا يجري تهوين أمر الجدار، الذي يته إسرائيل على طول الحدود مع الضفة الغربية لحماية السكان من الإرهاب وحسم المساحات الكبيرة من الأراضي، باعتباره مجرد "سياج". بل حتى في "مسابقة إسرائيل" التي أقيمت في حريدة زوفونشيه بمناسبة الذكرى الخمسين للعلاقات الألمانية - الإسرائيلية نجد ساشا ستاوفسكي يحتل مساحة مهمة، وتحديداً حينما يحدد اختيار الأسئلة متحازاً، حتى لا يتطرق ضد ذلك انهيار حقيقي للاحتجاج.

يمكن هنا أن نقرأ كذلك لدى هذه المنظمة في 19 تموز/ يوليو 2019، بمناسبة الاتفاق على استخدام الطاقة النووية مع إيران، السطور التالية:

"لقد أعلن وزير الاقتصاد الألماني غابرييل، قبل توقيع الاتفاق النووي، أنه سيسافر إلى إيران مع وفد أعمال للقاء ممثلين رفيعي المستوى من السياسة والأعمال. فطالما تستمر طهران في تهديد شركاء ألمانيا وزعزعة الاستقرار في المنطقة وتشجيع الإرهاب، فإنه ينبغي الإجماع عن العلاقات الاقتصادية معها". وهذا بالفعل ما كتبه فيدري برغر، مديرة اللجنة الأميركية اليهودية في برلين.

أما عن استمرارية منظمة أونستلي كوسرند في عملها فإنه يعود إلى المساهمات الهائلة التطوعية التي يقدمها السعابيم [المساعدون] وكثير منهم

أعضاء في المجموعات اليهودية. إنهم يقومون بمراقبة الإعلام في أوقات فراغهم، "ويمارسون نفوذهم" ويتخطفون في "نقطة حقيقة حول إسرائيل" بحسب ما كتبه ساشا ستافسكي، الذي يهتم شخصياً بالقائمة الريدية. ويمكن القراءة على موقع المنظمة ما يلي: "إننا نبلغ عن الحقائق استافيا ونشر الأخبار التي تزوم الحقيقة. تساعد في نشر الحقائق المهمة لتكون معلومة. وستصرف معالجة عدد من يسهم في نشر خبر غير عادل ومزور. سندعو إلى إجراءات في مسائل رسائل القراء وتشجيع حملات التوقيع، وتنظيم الفعاليات، ودعم الأشكال المناسبة كافة للمعلومات والأفعال وردات الفعل".

أخيرا نشير إلى أن من يقف خلف منظمة أوستلي كونسرد هم عبارة عن مجموعة من المتحمسين الأيديولوجيين الميدين والمقتنعين بأنهم يقفون أخلاقيا على ضفة الحق، وهذا ما يحولهم الضغط على مستندي السياسة الإسرائيلية ومضايقتهم. لكن نعلم أن ما يهم هذه المنظمة في النهاية هو منع كل نقد يتصدى لإسرائيل. وهذا بالضغط ما يقف ضد الديمقراطية التي تعني طرح النقد والسماح به، سواء أكان النقد مشروعا أم لا.

مركز سيمون فيزنتال، كلود لانتسمان أو،
تهمة معاداة السامية باعتبارها أضحوكة

يقوم مركز سيمون فيزنثال (SVC) سنويًا بنشر قائمة العشرة الأوائل (top ten) التي تضم أخطر عشرة أشخاص معادين للسامية وفقًا لرأي المركز. والقائمة هذه حقيقية وليست نكتة، بل يجد أصحابها جادين تمامًا فيها. لكن هذا لا يمنع من القول إن تهمة معاداة السامية قد دخلت أخيرًا قطاع الترفيه. حيث إلى جانب قوائم أفضل عشر أفلام في مجال الموسيقى، وأفضل عشرة أفلام، وأفضل عشرة حلقاتين أو مصغري شعر، لدينا أيضًا، وهذا ما يذهب إلى العشرة، قائمة العشرة الأوائل من معادي السامية.

هكذا، فإن هذه القائمة التي يصدرها مركز سيمون فيزنثال في لوس أنجلوس مخزية، ذلك أنها تضع في الأحرى معاداة السامية، في عِلَظ شديد، على قدم المساواة مع نقد إسرائيل. وقد احتل طبيب من بلجيكا المركز الأول، في عام 2014، في هذه القائمة لأسوأ عشرة أشخاص معادين للسامية وفي حوادث معادية لإسرائيل. لكن ما السبب لاحتلال الطبيب هذه المرتبة؟ يقال إنه أحجم عن مساعدة امرأة يهودية تبلغ من العمر 90 عامًا لديها كسر في الضلع. وبمجرد ما برؤي: عندما اتصل ابن السيدة المحزوز هذه من طريق الخط الساحن الطبي وشرح حالة السيدة، قال له الطبيب: "أرسلها إلى غزة لبضع ساعات، وهناك ستخلص من آلامها". نكتة. لكننا ربما نكتة سيئة للغاية. لكن أود القول هنا: إذا كان هذا يعبر عن أسوأ ما تطوّر في شأن معاداة السامية، فأحب أن أطمئن أن لا داعي للقلق كثيرًا بشأن هذه المعاداة.

المركز الثاني في قائمة معاداة السامية احتله عضوان برلمانيان أوردنيان كانوا قد وثقا دقيقة صمت لأجل اثنين من الجناة الفلسطينيين. وكان هذان الفلسطينيان قد اتحما في تشرين الثاني/نوفمبر 2014 كنسًا يهوديًا يهود

أرثوذكسين في منطقة هاز نوف في القدس الغربية وهما مسلحان بالعزوس والسكاكين والمسدسات، قتلوا عند صلاة العجر أربعة رجال وأصيب أشخاص عدة أيضاً، قيل أن يُقتل بعد ذلك. ويتخصص رأي البرلمانيين الأردنيين، في هذا العمل الفلسطيني، أنه كان بمثابة مقاومة فلسطينية ضد احتلال ظالم ومتهاك لحقوق الإنسان؛ طبقاً ليس من الضروري مشاركة هذا الرأي لكن ثمة سؤالاً لا يمكن هنا تفصيله والإجابة عنه، ويتعلق بمدى اعتبار أشخاص، بالنسبة إلى البريطانيين الذين حكموا فلسطين في ظل عصبة الأمم بين عامي 1917 و1948، أنهم ليسوا أكثر من "إرهابيين"، كرؤساء وزراء إسرائيليين احتل بهم على أنهم أبطال الحرب الثورية، مثل مناحيم بيغن وينسحاق شامير.

المركز الثالث في قائمة "توب تن" معاداة السامية كان من نصيب مجرمين ملتزمين في فرنسا، اقتحموا في كانون الأول/ ديسمبر 2014 شقة في إحدى صواحي باريس فكيّلوا شاباً هناك، ثم اغتصبوا صديقته. لقد كان المجني عليهما من اليهود، في حين أن الحناة كان تصرفهم على الأرجح بدوافع معادية للسامية. لكن لنذكر أنه لو لم تكن الضحيتان يهوديتين، لما رأينا المفتشين يحتلون مكاناً على هذه القائمة؛ ولو لم تكونا من اليهود هل سيكون الأمر بالنسبة إليهم أقل إبلافاً وتهديفاً؟ أضيف إلى ذلك: كم من الجرائم البشعة من هذا النوع تحدث سنوياً في العالم بحق أناس كثير، طبقاً من دون أن يصف هؤلاء في التقارير الإخبارية بمكانات خاصة بسبب دينهم من عدمه، سواء أكان دينهم الإسلام أم المسيحية أم الهندوسية؟ نُشير إلى نقطة مرة أخرى: لا يكفي الكهنة الكبار في تحديد معاداة السامية الكامنة أن يتوافقوا مع عقيدتهم الخاصة. فمعادي السامية هو في الحقيقة من يظر إلى اليهود بمعايير مزدوجة. فعندما يكون الضحية مسيحياً، يقال لنا هذا أمرٌ سيئٌ لكن إذا كان المعني يهودياً حينذاك سيُقال لنا: هذا معاداة للسامية!

بالمجمل، فإن ثمة سبباً من أصل عشر حالات في أوروبا، وفقاً للمركز فيرناتل، تُعتبر من أسوأ الحوادث المعادية للسامية التي حدثت في عام 2014، واحدة منها في تركيا، والثتان في الولايات المتحدة الأميركية. المركز يزعم أن

"عام 2014 شهد انفجارات غير مسبوقة في حوادث الكراهية المعادية للسامية وإسرائيل". وبالمعنى، يُبلغ المركز سنوياً تقريباً عن مستويات جديدة من "الكراهية غير المسبوقة لليهود"، ويكفي لنا أن نذكر السخافة التي تتحفا بها هذه القائمة، والتي تضمّ فيها أمور تافهة لتغدو وكأنها شؤون الدولة، فقط من خلال قراءة ما حدث لشخصية في ألمانيا كانت قد أدرجت في هذه القائمة في عام 2011: والمعني بها هو السياسي المحلي من دويسبرغ (Duisburg)، هيرمان ديركس، الرئيس السابق للكتلة النازية في دويسبرغ من حزب اليسار، والذي دعا إلى حملة مقاطعة لإسرائيل. القائمة تضم أيضاً المحرغ الدنماركي لارس فان تيرير، الذي تسبّب بمصيبة كبيرة حينما ألقي خطبةً مضطربة في مهرجان "كان" السينمائي في إسرائيل وعثر؛ وأيضاً مصمم الأزياء جون غاليلانو الذي أُلحِق كثيراً من الضيوف وهو في حالة سكر شديدة في إحدى الحفلات الباريسية بألقاظ معادية للسامية. لقد حسر مصمم الأزياء في إثر ذلك وظيفته في دار الأزياء ديور (Dior) ويكونه كبير المصممين لماركة الأزياء التي سميت باسمه جون غاليلانو، اضطر إلى المشول أمام المحكمة والإجادة عن الأسئلة التي تتعلق بهجومه ذلك. والأمر تجاوز الحدّ مع هذا الرجل حتى إنه جرّد من وسام جوفه الشرف الفرنسي الذي منح له قبل عامين، وأصدر هذا القرار الرئيس فرانسوا هولاند. هكذا، ولحسن الحظ، يمكن أن نلحظ الأقلية في هذه الأمور، وهي أقلية لا يبدو أن معارضتها أكثر من سياسي محلي في دويسبرغ لا يرغب في شراء بضائع من إسرائيل، أو مخرج أفلام ألقي خطبة مضطربة، أو مصمم أزياء في حالة سكر وفقد السيطرة على نفسه.

في عام 2012 أُنشِئت قائمة مركز سيمون فيرتال نقاشات في ألمانيا بسبب وضع ياكوب أوجشتاين على القائمة المثيرة للجدل، وهو صحفي وناشر الصحيفة الأسبوعية ذات التوجهات الليبرالية اليسارية دير فريتاغ. أما سبب ذلك، من بين أسباب أخرى، فما كتبه أوجشتاين في عمود صحفي في جريدة شبيغل أون لاين "في حال الشك، اتجه يساراً" <http://www.welt.de>. وأريد أن أورد هنا مثلاً عما كتبه أوجشتاين فأدّى إلى تنقده. "تمثّل عزة مكان نهاية الزمان للإنسانية. هناك حيث يعيش 1.7 مليون شخص، نجدهم محشورين في مساحة

قدرها 360 كيلومترًا مربعًا. إن غرة هذا تمثل سجنًا. أما إسرائيل فلأنها تقف أمامها هناك.

من هنا لا نستغرب اهتمام مركز سيمون فيزنثال مجددًا بأوغشتاين في عام 2015 فأدرجه الآن ضمن فئة خاصة يطلق عليها "الإشارات أو الحالات الشائعة". وكان السبب هذه المرة هو العمود الصحافي لأوغشتاين في 7 كانون الأول/ديسمبر 2015، الذي أظهر فيه أوغشتاين أوجه التشابه بين حكومة إسرائيل بقيادة بنيامين نتانياهو وحزب الجبهة الوطنية (الفرنسي اليميني) وحزب البديل لأجل ألمانيا (أيضًا اليميني الشعبي). لقد كتب أوغشتاين: "إن حكومة بنيامين نتانياهو هي تمامًا شعبية يمينية كما هو حال الشعبويين اليمينيين الألمان". إنه لأمر غني عن الذكر، أن كل ما في الأمر هنا يتعلق بسياسة إسرائيل وليس باليهود، وأنه لأمر غني عن الذكر أيضًا: أن أوغشتاين كان على حق في ما قاله.

لقد كان لليهودية في ما مضى أعداء أشداء قتلوا الآلاف من اليهود. في ما مضى كان من يُعتبر المعادي للسامية هو من يقوم مثلاً بنشر كتاب بروغوكولات حكماء صهيون أو من يطالب بقتل كل اليهود أو على الأقل بطردهم. ليس من الملائم بالتأكيد تطبيق مصطلح معاداة السامية على أشخاص أمثال بوليس شترايخر أو جوزف غوبلز [يوزف غوبلز] فحسب، نلطخت أيديهم بدعاء يهودية. إننا نواجه اليوم سياقًا يكفي فيه أن يقوم شخص ما بمجرد انتقاد السياسة الإسرائيلية، أو أن لا يشغل شخصًا يهوديًا أو أن يخرج من دور ما حتى يُدرج هذا الشخص في قائمة العشرة "المزعومين الأكثر خطورة من معادي السامية في العالم". إنه لأمر يثير السخرية حقًا.

أما من احتل رأس هذه القائمة في عام 2011 فهو الرئيس الفلسطيني محمود عباس. لماذا؟ لأنه نسي خلال كلمة له أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة أن يذكر العلاقة التي تربط الشعب اليهودي بالأرض المقدسة. الاتهام هذا يمثل، حقيقتًا، بكلمات أخرى: أن عباس ليس صهيونيًا. كيف سيطلب عباس إذا ببلده لنفسه وشعبه؟ ألا تكفيه مساحة الأرض الأممية القائمة في

ممتلكات وزير الخارجية الإسرائيلي أليفدور ليرمان؟ فمتدما بتملكه السعي والتهلف لأرضي فلسطينية، يمكنه دائماً العمل على قطعة الأرض هذه. إني أسأل هنا: هل الأمر يتعلق حقاً، في دعم الأميركيين لإسرائيل على نحو أعمى ومهووس، بأن ذلك يذكرهم باستعمارهم لأميركا الشمالية، كما يذهب بعضهم إلى القول؟ علقاً في هذه الحالة المذكورة، أن السكان الأصليين السابقين هنا هم الفلسطينيون؛ عندها سيكون الفلسطينيون بالفعل كشعوب السو والأباتشي، وسيكون عباس هو زعيم هذه الشعوب: سيتينغ بول⁽¹⁾، وسيكون رئيس الوزراء السابق أرئيل شارون مثل الكولونيل جيمس وليام فورسميث الذي ارتكب مذبحه "ووندد ناي" (Wounded Knee) وقتل فيها آلاف الهنود.

في كانون الثاني/يناير 2005 نشر المركز الأوروبي لرصد المنصرية وكرامية الأجانب (FIVAC) تعريفاً عملياً لمعنى معاداة السامية، ينبغي أن يكون بمنزلة الركيزة في تحديد المعايير المعادية للسامية في الدول الأعضاء الأوروبية الخمس والعشرين. وقد تمثل هدف الاتحاد الأوروبي بالتوصل إلى معايير موحدة في الكشف عن جرائم معاداة السامية وملاحقتها ومعاقبتها، واقتُرحت التعاريف التالية:

- "رفض حق اليهود واليهوديات في تقرير مصيرهم، مثلاً من خلال تأكيد أن دولة إسرائيل هي مشروع عنصري.
- تطبيق معايير مزدوجة من خلال فرض مطالب على إسرائيل لا يمكن توقعها أو أن تطالب بها أي دولة ديمقراطية أخرى.
- استخدام رموز أو صور كلاسيكية معادية للسامية في توصيف إسرائيل أو الإسرائيليين (مثلاً اتهام اليهود بأنهم قتل يسوع أو المراجع بتقديم قرابين بشرية).

(1) سيتينغ بول (Sitting Bull) زعيم ومحارب من الهنود الحمر ومعنى اسمه الثور الجالس يُذكر أنه لم يرفع أي معارضة مع الأميركيين أو شعوب السو والأباتشي ضد من ذكروا الهنود الحمر الأصليين (المتراجعة)

- مقارنة سياسة إسرائيل الحالية بالنازية.

- الادعاء بشأن المسؤولية الجماعية لليهود في ما يخص سياسة دولة إسرائيل.

ومع هذا، فقد ذكر أيضًا:

"ورغم ذلك، فإنه لا يمكن تصنيف انتقاد إسرائيل بأنه معادٍ للسامية، حينما يُوجّه بالطريقة نفسها إلى دولٍ أخرى".

وفي إطار تطبيق "تعزيز مكافحة معاداة السامية ودعم الحياة اليهودية في ألمانيا"، قرر البرلمان الألماني في دورته السادسة عشرة في 4 تشرين الثاني/نوفمبر 2008 "التوصية بالعمل بالتعريف العملي، للمركز الأوروبي لرصد العنصرية وتكره الأجانب، في إطار مؤسسات الدولة"، وقد صوّت على ذلك التحالف من أصوات الحزب الاشتراكي الديمقراطي، والحزب الديمقراطي الحر، وحزب الخضر. ومع ذلك، ففي كانون الأول/ديسمبر 2013 أزيل مرة أخرى هذا التعريف العملي من موقع وكالة الاتحاد الأوروبي للمفوق الأساسية. وصرّح قسم القضاء في المفوضية الأوروبية أن "ليس لدى المفوضية ولا الاتحاد الأوروبي تعريف ثابت لاصطلاح معاداة السامية وليس ثمة مساعٍ لإيجاد تعريف له". بيد أن هذا الامتناع عن إيجاد التعريف فوبل بالانتقاد من المؤتمر اليهودي الأمريكي ومن المنظمة غير الحكومية، لكن المفوضية من الحكومة الإسرائيلية، أونست ريبورتنج (Honest Reporting).

الحال، أنه بينما كان اسم سيمون فيرنال يترصد في السابق أعداء السامية ومحرمين نازيين مثل أدولف آيخمان، نجد اليوم أنه يكتفي بترصد سياسيين محليين، بوصفهم أعداء للسامية، من دويسبرغ (أي هرمان ديركس). طبعًا، السبب أنه ما عاد هناك حاليًا من أعداء للسامية مثل تلك الصيغ السابقة. وبالمعل، فقد كتبت صحيفة يوتفي فلت (Augsburger Post) (عالم شاب) تعليقًا على هذا الحال: "من السخرية أنه بالكاد يمكن (العثور على الصيغ السابقة لمعاداة السامية)". السخرية هذه تمثّل حقًا جانبًا واحدًا من المسألة، أما الجانب الآخر فهو ما يتخلل ذلك من الحقد والحظوظة. وهنا أتساءل كيف سيستمر ذلك:

هل ستواجه مثلاً قائمة للعشرة الأوائل من اليهود الكارهين أنفسهم مع أسماء أكثر الشفاد اليهود شهرة في العالم ممن ينتقدون السياسة الإسرائيلية والذين لا يكونون وهم ينادون: "ليس باسمنا [لا يمثلوننا]؟" أو هل ستحفظونا بقائمة "توب نين" لمن "يلوث يمتته" [من اليهود]؟ الذين ربما يتزعمهم هاموس شوكن، ناشر الصحيفة اليومية الليبرالية هآرتس، الذي وصف إسرائيل مؤخرًا بأنها دولة الأبارتهايد؟ ما ينقصنا الآن محاسب هو أن ننحفضا مركز ميمون هيرتال بنشر ملصق مكتوب عليه "مطلوب" وُترفق بـصور الجناة، ومكافأة مالية قيمة لمن يساعد في القبض عليهم.

يكفينا محاسب أن نشكك في تلك القوائم الحربية إذا ما قرأنا كيف أُدرج فيها أبو مازن، الرئيس الفلسطيني، على أنه معادٍ للسامية (واحتل فيها المرتبة الأولى)، لأنه قال في خطبته أمام الأمم المتحدة ما معناه: "لقد جئت من الأرض المقدسة، مهد كثير من الأفكار الدينية"، ولأنه قدّم مثلاً على هذا التعدد الإسلام والمسيحية فقط. طبعاً، فعباس لم يقل عمداً أن الأرض هي لأرض إبراهيم وإسحاق ويعقوب فحسب وليس لأيّ شعب آخر (لم يقل إنها الأرض الموعودة).

لا نبالغ إذا قلنا إن تهمة معاداة السامية تحولت في الدوائر اليمنية في إسرائيل حالاً إلى رياضة شعبية. من هنا، فليس من الغريب ما وصفت به وزيرة الثقافة والرياضة اليمنية ميري ربيعيف الوفد اللبناني في أولمبياد ريو بأنه "معادٍ للسامية"، وذلك لرفضه السفر على متن الحافلة نفسها التي كان يستقلها الفريق الإسرائيلي. طبعاً الوزيرة لم تنطرق حتى إلى أن هذا يمكن أن يكون له علاقة بطبيعة الصراع العربي - الإسرائيلي وحالة الحرب بين إسرائيل ولسان، وهي نفسها قاطعت حفل افتتاح الألعاب الأولمبية هذه، الذي صادف مواعده يوم السبت، يوم عطلة اليهود. لهذا لن ألقأ إذا ما حضرت الوزيرة ربيعيف حتى اللجنة الأولمبية بأنها معادية للسامية.

وإذا كان الشخص سائلاً بوصف بمعاداة السامية لأنه لا يُعجب باليهود، فإننا نجد اليوم العكس؛ كل من لا يُعجب جماعات يهودية محددة يصف أنه

معاد للسامية. وهنا في الواقع التكتة بعينها التي تصف التحول الدلالي لهذا المصطلح سابقاً كان اليهود يخافون من معاداة السامية، أما اليوم فإننا نجد أن غير اليهود هم الذين يخافون من اتهامهم بمعاداة السامية.

والحق: يُعتبر اليوم الشخص معادياً للسامية عندما تتم مثلاً في الجامعة معالجة بحثية لموضوع التكية. اليوم يُعدّ الشخص معادياً للسامية عندما يتطرق إلى حقائق تاريخية لا تناسب بعضهم؛ مثلاً، حينما يتحدث عن جرائم الحرب التي يرتكبها الجيش الإسرائيلي أو يتقد المجازر الإسرائيلية في غزة أو حتى يتظاهر ضدها. اليوم يُعتبر الشخص معادياً للسامية عندما يُرتدى العلم الفلسطيني في تظاهرة أو يُحجج على قتل الأطفال. وإذا لم يقم فندق ما بإدراج كل رموز الهاتف في دليل الهاتف لكل دول العالم، ولم يدرج بالنتي رمز إسرائيل فيه، فإن هذا الفندق اليوم سيُصنّف معادياً للسامية. وهذا بالفعل يمكن أن يحدث أحياناً؛ خذوا مثلاً حالة زائر فندق ممتلئ "مشاعر نذكر بالأوقات العصية في التاريخ الألماني"، بل يثرثر بهذا الكلام في مقالة لصحيفة يومية وطنية لها ورنها، ثم تقوم هذه الصحيفة بنشر هذا الجنون! في الحقيقة هذا بالفعل ما نُشر في 11 آب/أغسطس 2016 في صحيفة فرانكفورتور ألتزمانه وبالتأكيد لو كانت هذه المقالة منشورة في مجلة داخلية لمستشفى المجانين، لما تمجبت. هكذا يتحدث كلود لانتسمان (Claude Lantzman)، المخرج اليهودي المصنّف طبقاً بجنون العظمة؛ بأن يكتب: "في عاصمة ألمانيا الجديدة تُستبعد إسرائيل وتُستطب وتُحمى"، لماذا؟ لأن هذا الرجل لم يجد الرمز الدولي لإسرائيل في دليل هاتف الفندق، وقُدّم نفسه للاستقبال هناك في الفندق وهو مملوء بالسلط والخوف بقية التعبير عن حدمته لعدم ورود رمز إسرائيل على دفتر الهاتف.

كما يقول المثل من البداية صنعوا بيلاً، لقد أصبحت قضية هذا المخرج قضية كبرى دخلت على خطها أيضاً جريدة بيلد ومجلة دير شبيغل. فكتبت الثانية "إنه لاتهامٌ خطير"، ذلك الذي صرّح به مخرج الأفلام الفرنسي اليهودي، الرجل السبعيني، كلود لانتسمان لجريدة فرانكفورتور ألتزمانه. لكن الحق يقال

إنه اتهامٌ غيبي، ومضحك وسخيف. إنها هذه السخرية التي أعنيها والتي يصعبها هؤلاء الناس من خلال تهمة معاداة السامية.

ربما ستكون مؤسسة شيرنغر للنشر آخر من يشر ذلك لو أن هراءاً مماثلاً كتبه صحافي غير يهودي. حيث إن هناك، وهذا أمر جلي، قوانين خاصة للمشاهير والصحافيين اليهود. أحياناً أفكر أن مؤسسات مثل شيرنغر، وأيضاً صحفياً ومراسلين، يُلذّمون، بنية مقصودة، لأولئك اليهود مثيلاً لإظهارهم علامة هم وجميع اليهود الآخرين وإثارة الاستياء ضد اليهود. طعناً هذا الرأي مني ليهو مجرد شك، ولن أستطيع مه نظرية مؤامرة، بيد أنني لا أستطيع التخلص منه. لقد غدا ذلك معاداة للسامية، خصوصاً منذ أن استولت عليه منظمات يهودية متنوعة مثل لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (AIPAC)، ومنظمة أوستني كونسرنند ومركز سيمون فيزنثال في أميركا، والعدد الهائل من "السعائيم" أمثال هنريك بروذر وحتى ميشائيل فولفغرون.

ولكني لا يساء فهم الأمر: إن معاداة السامية لهي مسألة سيئة. إلا أن الاتهام الرخيص بمعاداة السامية، والذي دائماً ما نراه جاهزاً مائلاً أمامنا، فهو أمرٌ أسوأ. ذلك أنه يضع الكراهية الحقيقية لليهود بالمستوى نفسه مع تلك الأمور النافذة، من الممكن أن يؤخذ اصطلاح "معاداة السامية" على حرفيته تقريباً، حيث إنه في الحقيقة أصبح اليوم اصطلاحاً يذمّج البشر بسببه. لقد غدا المصطلح بالفعل عصاً أو هراوة كما وصف مارتن فالزر ذات مرة. ولنعلم هنا أنه حينما تُستفد السياسة الاستعمارية الإسرائيلية، ثم يُفترض أن شبهات معاداة السامية تكمن وراء هذا النقد، فإننا بذلك نُفقد المصطلح نفسه أهميته التاريخية.

إنني على وعي أن كلماتي هذه قد يستخدمها التازيون الجدد والشعويون من اليمين وغيرهم من المتعصبين وسيئون استخدامها. ربما بخاطر العراء أحياناً في مسار يأتي فيه الاستحسان والتصفيق من اليمين. ومع ذلك، يعلم الشعبويون اليمينيون والرايكتاليون أنني لست صديقهم. ولهذا يحظى هؤلاء اليهود، مثل الراحل دافيد جوردانو أو هنريك بروذر، والذين يودون لو أنهم يتمتعون بصوصي، بالاستحسان والتصفيق الذي يأتيهم من جهات يمينية مثل

أنتاع حركة يقيدا الألمانية ومتديات اليمين المتطرف، خاصة مع تحولهم منذ مدة طويلة نحو اليمين.

أقول هذا، لقد حان الوقت نمانا ليتلام بعض اليهود في ألمانيا مع القرن الحادي والعشرين. ما أعبه ها أنه يجب مثلاً، أولاً، أن يستمعوا أيضاً إلى انتقادات قاسية ضد سياسة دولة إسرائيل من دون أن يواجهونا على الفور بهراوة معاداة السامية التي من الواضح أنهم يحملونها معهم في أمتعتهم؟ وثانياً أنه يجب عليهم في النهاية إبعاد أنفسهم عن الخطاب المحرجة والمخزية لممثليهم، خاصة الخطابات المخزية والمتعجرفة القومية للسياسيين الإسرائيليين، مصروف النظر عن المكان الذي تُلقى فيه هذه الخطب، سواء في البرلمان الإسرائيلي في القدس أو في البرلمان الألماني. لقد كان من واجب ممثل يهود ألمانيا، رئيس المجلس المركزي لليهود، مفادرة البرلمان الألماني كما فعل بعض ممثلي حزب اليسار في البرلمان، وذلك احتجاجاً على ما قاله شمعون بيريز عند زيارته الرسمية للبرلمان الألماني في عام 2010: إن إسرائيل دولة يهودية وديمقراطية، يعيش فيها قرابة 1.5 مليون مواطن عربي يتمتعون بحقوق متساوية. ولن نسمع لأيّ شخص بالتمييز بسبب جنسيته أو دينه. والسؤال المطروح هنا: إلى أي مدى يجب أن يتمتع الإنسان بالتمامي والكذب حتى يستطيع نشر هذه الأكاذيب. لكن سأقول بكل ساطة: إن العرب الذين يعيشون في إسرائيل "غير متساوين" في الحقوق حتى على الورق، ولا نسي هنا التمييز الشديد في جولات السفر الإسرائيلية بين اليهود والعرب والدروز. من كان يظن ذلك؟ هل بدأ نظام الفصل العنصري. الأبارتهايد من هنا؟ ولا نسي أيضاً كيف يتعرض غير اليهود في الواقع الاجتماعي والسياسي للتمييز المتجهي منذ قيام دولة إسرائيل. وهذا بالضغط ما يتوجب على ممثلي اليهود في ألمانيا حالاً إدراكه، لكنهم يتجاهلونه، بل ليس لديهم استعداد لمعرفة هذه الحقائق.

سفیر اسرائیل ناشرًا البرویا غندا

ولد ياكوف هداس-هاندلسمان (Yakov Hadas-Handelman) في عام 1957 في تل أبيب، ويشغل منذ عام 2012 منصب السفير الإسرائيلي في ألمانيا. وسأبدأ بالإشارة إلى إحدى مساهماته في مجلة ذي يوروبيان (The European) التي صدمتني بمقدار ما أمتعتني¹. لم يخطر بباله قط أن تقوم السفارة الإسرائيلية بنشر نص مبتذل وسخيف كهذا ألا يوجد في السفارة شخص يتبه لأن يحتفظ السفير بكرامته ولا يفتوه بالهرء وينزل إلى مستوى لو أنني كنت فيه معلماً ولقدّم في أحد التلاميذ مقالة كهذه، لحصل على أدنى العلامات عليها؟ لكن حسناً، إن السفير الإسرائيلي يُسمح له بالقيام بأمور لا يقوم بها أي سفير آخر: إنه يتدخل في الشؤون الداخلية لألمانيا، بل ويُستحسن ذلك.

لقد كتب هداس-هاندلسمان مساهمة في إحدى المجلات الإلكترونية التي حملت عنواناً يُفصح عن لبّ ما يريد قوله: "كل شخص يمكن أن يكون معادياً للسامية". وما يعنيه بهذا أن كل شخص ينتقد بلده فهو في نظره شخص معادٍ للسامية.

طبعاً كان بإمكانه كتابة أن من يحزّض أو يناقش على سحري عنصري أو يمدح العنف، فإنه يتجاوز بالنسبة إليه الخطوط المحرّمة. لكن لا شك في أن النقد مشروع في كل وقت، يفتقر النظر عما إذا كان صحيحاً أم لا، أو إذا كان نقداً ملحقاً أم فاسياً، عميقاً أم سطحيّاً. هذه هي أسس الديمقراطية. وفي حال كان النقد غير مناسب، فعلى الشخص مراجعة ردات فعله وموقفه.

إلا أن هداس-هاندلسمان وضع نفسه ضمن طائفة دائماً تشتبّم والحة

(1) <https://by.foiaat.org>

معاداة السامية في كل أرجاء ألمانيا، بل طُوِّرَ لأجل هذا حاسة شَمَّ خاصة جدًا. هكذا نجد مثلاً هذا السفير الإسرائيلي والمجلس المركزي لليهود وغيرهما يتحدثون عن موجة جديدة من معاداة السامية في البلاد، بسبب بعض من المتطهرين المضايين بالصدمة الذين ردّوا شعارات معادية لليهودية خلال الاحتجاجات ضد حرب غزة. "موجة جديدة من معاداة السامية". بالفعل: ليس لجنون العظمة والهوس من حدود.

يكتب هُداس-هاندلسمان: "كل من يقول إن إسرائيل يجب ألا تُستفد بخفي وراءه تحيزاته المعادية للسامية". لكن أسأل من يدعي أن انتقاد إسرائيل غير مسموح؟ بالطبع إنه أمر مسموح، حتى لو حاول هُداس-هاندلسمان وأصدقاؤه بكل سرور منع ذلك. والثمن لذلك كبير. والحال أن إهانتنا نحن الذين ينتقدون إسرائيل كثيراً ما تحصل من جانب أصدقائنا، بأننا "معادون للسامية" أو "اليهود الكارهون أنفسهم". ولماذا؟ لأننا نقول فحسب: يجب انتقاد إسرائيل. هذا بالفعل هو الحنون بعينه: إنه يخبرنا أن كل من يرى أن إسرائيل يجب ألا تُستفد بخفي وراءه معاداته الكامنة للسامية. طبعاً هذا في وقتٍ إذا تم فيه انتقاد إسرائيل على نحو موضوعي وعلموسي، فيستقلب هذا الحال ويفقد معاداة للسامية. لكن من الواضح أن هؤلاء السادة ليس لديهم وعي بحراف هذه المجادلات. بل أيضاً أنه: مقدار ما يجب المرء إسرائيل أكثر، يستفاد ما يجب عليه انتقادها على نحو كبير، تماماً كما هو الحال في الحياة الحفيلية.

طبعاً، من غير المعتاد أن يتدخل ممثل دولة أجنبية تدخلاً مباشراً في الجدالات الداخلية للبلد المضيف. وإذا ما حدث ذلك يتعين بالفعل إبعاد هذا السفير والإعلان أنه شخص غير مرغوب فيه. لتحليل مثلاً الحال في إسرائيل. فإذا ما تجرأ مثلاً السفير الألماني هناك وأملى على الإسرائيليين التصرف بهذا الشكل أو ذلك، فحينئذٍ ستعلن إسرائيل بسرعة إلى حدٍّ ما أن السفير الألماني شخص غير مرغوب فيه (Persona non grata). أما السفير هُداس-هاندلسمان فيعتقد أن تصرفه سرور. وذلك لاعتقاده أنه يمثل كذلك أولئك الذين ماتوا في معسكر أوشفيتز وألمانيا هي ما يتحمل المسؤولية عن ذلك.

أعتبر أن هذا الأمر فيه تطاول وعجرفة. لا شك في أنه لا يمكن لوم الألمان اليوم على ماضي لا ذنب لهم فيه. فمعظم الألمان اليوم كانوا أطفالاً خلال الحقبة النازية، أو ولدوا خلالها أو بعد ذلك. ومع ذلك، يتحمل جميع الألمان مسؤولية ماضي شعبهم. فلا يمكنهم فحسب أن يرتكزوا على أفضل ما عندهم ويقولوا إن الألمان يمثلون بلد الشعراء والمفكرين. فلا ننسى أنهم أيضاً في الوقت نفسه يمثلون شعب الفضاة والحلادين. ولا يمكن اعتبار الكيان القانوني لـ "جمهورية ألمانيا الاتحادية" مسؤولاً من الناحية الأخلاقية عن فظائع النظام النازي، خاصة أن إسرائيل أصدرت صك براءة ذمة (Pseudepistola) للحكومة الألمانية.

إلا أن إسرائيل نفسها مزقت هذه الوثيقة. لقد كان بإمكان المؤتمر العالمي اليهودي أن يحظى بحق تمثيل اليهود في كل العالم، أكثر من أن تحتل إسرائيل هذا المنصب، وهي لا يمكنها إلا أن تمثل مواطنيها. صوماء، فإن المؤتمر اليهودي العالمي ضعيف وخاضع للحكومة الإسرائيلية.

يشككي هداس-هاندلسمان في تعليقه أن "إرهابي حماس أطلقوا 4562 صاروخاً بين 8 تموز/يوليو و26 آب/أغسطس 2014 من قطاع غزة على إسرائيل". إنه يتظاهر بهذا وكأن المذهب الوحيد في هذه الانتشاكات هو حركة حماس التي تدبر قطاع غزة. لكننا نعلم أن قطاع غزة يخضع لسيطرة إسرائيل منذ خمسين عامًا تقريباً كما أنه محاصر منها. ثم لنعلم كذلك أنه، مقارنةً بخوف سكان غزة من الموت، والذين لم يستطيعوا الفرار إلى أي مكان عندما قام الجيش الإسرائيلي للمرة الثانية في صيف 2014 بقصف وتدمير كامل أحياء المدينة وكامل البنية التحتية تقريباً، يقول إنه مقارنةً بما أصاب الفلسطينيين هناك فإن ما لحق بالإسرائيليين من أضرار لهو أدنى بكثير. لقد انتهت حرب غزة في صيف 2014 شخلفة أكثر من 2000 قتيل من الجانب الفلسطيني، من بينهم أكثر من 500 طفل وما يصل إلى 10,000 من الناجين الذين جرحوا وأصيبوا بصدمات نفسية يعانونها إلى اليوم. إن هذه الأرقام تحدث بالفعل عن نفسها. لهذا سيخدو الأمر سخيلاً أن يشككي هداس-هاندلسمان من أن "مخطط حماس المجرم يمثل يقتل أكبر عدد ممكن من المدنيين الإسرائيليين".

من الجدير ذكره أيضا أن هُداس-هاندلسمان لم يذكر الفلسطينيين ولا بكلمة واحدة في تعليقه، ولا حتى مصالحهم من أجل الاستقلال والتحرر من الاحتلال الإسرائيلي؛ الاحتلال الذي لا نجد له كذلك ذكرا عند هاندلسمان. فبدلاً من ذلك، نرى هذا السفير يشوه المتظاهرين الذين احتج معظمهم ليس ضد اليهود بل ضد دولة إسرائيل، طبقاً وهم محقون في هذا. لقد عاشت أنا بنفسى هذه التظاهرات في فرانكفورت ورأيت المسيرات في برلين على شاشات التلفزة، ولم لاحظ أي كراهية لليهود، أو في أحسن الأحوال كانت هامشية، ذلك أن الذي طغى على هذه التظاهرات هو نقد إسرائيل.

إلا أن هُداس-هاندلسمان يصرف بكل ما تحمله الكلمة إلى خلق مساحة حائية والاثراء فيها لصرف النظر عن الموضوع الأصلي. إنه يأسف أن "صناع القرار" فحسب في السياسة الألمانية قد أذاتوا الهجمات المتفرقة المعادية للسامية في التظاهرات وليس "المجتمع نفسه" الذي يجب، في رأيه، أن يدافع عن "القيم الديمقراطية". طبقاً استياء الرجل يعود إلى مسألة أنه لم يشارك سوى عدد قليل، في المسيرات المسافقة والكأدية للمجلس المركزي لليهود أمام بوابة براندنبورغ [في برلين]. لقد كان واضحاً وجلياً، ببساطة، أن المجلس المركزي لليهود لم يتظاهر من أجل معاداة السامية بل لإظهار الولاء لإسرائيل والتضامن معها. ذلك أننا، من دون شك، لم نجد الرحالات الكبار في الدولة الألمانية يصرفون من جهودهم وهم يشاركون في هذا العرض الكبير بسبب حفة من معادي السامية في هذا البلد. فالأمر أكبر من ذلك، كلنا يعلم أن هذه المسيرات تمثل تضامناً مع إسرائيل، بل ولحمايتها من الانتفاذ الذي يأتي من المجتمع، وأكثر من ذلك، إنها تهدف إلى صرف الانتباه عن جرائم الحرب والأعمال المخالفة للقوانين الدولية التي يقوم بها الجيش الإسرائيلي.

وعندما يتم التفكير، والأعدى في الحساب ما يمكن أن تكون عليه العواقب الوخيمة لانتفاذ إسرائيل الشديد في ألمانيا، فإن من الساذج، بل المعيب، أن يكتب السفير أن انتفاذ إسرائيل أمرٌ مسموح وبداهي كـ تناول المشاجات في الصحف. لكن بالمقابل، نظراً إلى ما لدينا من التهججمات الهائلة ضد أشخاص

مثل رولف فريغر الذي طُرد من عمله في مجلس إدارة المجلس المركزي لليهود بسبب نفقه إسرائيل، وأيضاً تلك التهمعات ضد روبرت نويدك وغيره من منتقدي السياسة الإسرائيلية، لا يمكن المرء بالفعل إلا أن يهز رأسه مستغرباً أمام هذا السفير الإسرائيلي عندما يكتب أن النقد الذي يظاولنا من الخارج ليهو أمرٌ متاحٌ ومنفتحون عليه، لأن النقاشات والأسئلة التي تجري في إسرائيل ليس لها نظير في أوروبا. خذوا مثلاً: لقد هوجم أوري أفنيري مرات عديدة وتعرض للضرب، أما صحيفة هآرتس فقد اضطرت إلى أن توظف حارساً شخصياً خاصاً لكاتب عمودها الصحافي جدهون ليفي بسبب التهديدات بقتله. فاشخاص مثل جدهون ليفي، وأوري أفنيري، وعميره هاس، وإيفا إيوز، وديفيد غروسمان، وهاموس غور وغيرهم من النقاد لا يتم السماح معهم من جانب الحكومة الإسرائيلية سوى على نحرٍ وهمي وواهن، أو بأشكال أخرى يُتجاملون. من هنا لا يستغرب أن يكون العرض من السماح معهم خداع العالم بوجود "ديمقراطية نقية" في إسرائيل. لكن تاريخياً سيبقى هؤلاء النقاد في الذاكرة باعتبارهم متراً أخلاقية لإسرائيل في الأوقات المظلمة جداً.

أما في ما يتعلق بالنقد القادم من الخارج، فإن إسرائيل أيضاً غير متسامحة معه كثيراً. لا بل إن نقاداً يهوداً، مثلاً العالم اللغوي نوام تشومسكي أو العالم السياسي نورمان فينكلشتاين، لا يُسمح لهم بالسفر إلى إسرائيل. ولا نسي المنع من دخول البلاد، الذي حدث في صيف 2012 للعثات من منتقدي السياسة الإسرائيلية، الذين رغبوا في زيارة المناطق الواقعة تحت حكم السلطة الفلسطينية. إضافةً إلى ذلك، لقد قررت الحكومة الإسرائيلية في بداية عام 2017 عدم السماح بدخول البلاد للأجانب الذين طالبوا بمقاطعة إسرائيل أو حتى بمقاطعة المستوطنات في الضفة الغربية.

ثم إن هدامس-هابيلسمان نفسه يدعي أيضاً أن نقد إسرائيل سيكون "معاداة صافية للسامية" عندما يتم "إنكار حق الشعب اليهودي في دولة خاصة به". لا شك، يجب على الرجل، كسفير لإسرائيل، قول شيء كهذا. إلا أن ما من علاقة بنوية بين عداة السامية وإسرائيل. وعندما ينكر متظاهرون فلسطينيون

حق اليهود في إقامة دولة خاصة بهم، فهذا يعود إلى سبب وحيد هو أنهم هم أنفسهم خرموا من هذا الحق، كما أن الأرض التي عاش فيها أهلهم وأجدادهم وأسلافهم لقرون غدت متنازعة عليها وشُليت منهم.

وفقًا لياكوف هدام-هاندلسمان، تتمثل إحدى العلامات المزعومة لمعاداة السامية "بمقارنة الإسرائيليين بالنازية". كان يحجب عليه قول هذا في إسرائيل. ولا ينسى أنه انتشرت ذات مرة بعد اتفاقية أوسلو للسلام في التسعينيات من القرن الماضي رسوم كاريكاتورية وصور مرئية لمتشاقق راين بالزي الرسمي للقوات النازية الخاصة، أما من كان مسؤولاً عن هذا فهم الأصدقاء الروحيون لارينيل شارون وبنيامين نتنياهو. وما زالت أتذكر صور التظاهرات الشبهية التي "بُذلت" فيها راين، وكان كلٌّ من نتياهو وشارون قد شاهد هذا المشهد باستحسان. وبعد ذلك بفترة وجيزة اقتيل راين بيد متعصب، ومن دون توضيح رفضت أرملة ليا راين مصافحة نتياهو عندما أراد تعزيتها. هل يُعشر إذاً بنيامين نتياهو وفقًا لمعايير السفير الإسرائيلي أيضًا معادًا للسامية؟

علاوة على ذلك، ووفقًا لهذا السفير "كل من يصع معايير إسرائيل مختلفة عن الدول الأخرى" هو شخص معاد للسامية. لكن معظم بقاد إسرائيل ومنهم أما لا ينتظرون من إسرائيل سوى ما ينتظرونه من كل دولة لائقة وديمقراطية وأخلاقية. إن إسرائيل تصدر نفسها بكل سرور على أنها "الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط". ولكن حينما يتعلق الأمر بتحصين نفسها ضد النقد، فإنها نفسها تتوقع على قدم المساواة مع الدول العارقة والدكتاتوريات الشريرة إلى جانب سورية، والصومال، والسعودية، وربما أيضًا الدولة الإسلامية (داعش) التي تقطع رؤوس الصحفيين. لربما تكون إسرائيل دولة ديمقراطية إذا ما قارناها بسورية مثلاً، بيد أنني أسأل، كيف ستكون إسرائيل إذا ما قارناها بالديمقراطيات الأوروبية؟

لا بل من العثير أكثر عندما يصرح هدام-هاندلسمان بأن "ليس كل من يعتقد إسرائيل هو بريء، تلقائيًا من معاداة السامية". والحال أن السفير كان سيكتب هذه الجملة على نحو مختلف فيما لو كان من المدافعين عن رأي

قانوني ووعائي قديم كان يرى أن الشخص بالأصل مريء ما لم تثبت إدانته. فلو كان فعلاً من المدافعين عن هذا المبدأ القانوني كان عليه كتابة: ليس كل من يتخذ إسرائيل هو تلقائياً معاداً للسامية. أما بالنسبة إلى السعير فالأمر يسري بحسب في الموضوع في حالة الشك ضد المدعى عليهم وعلى المرء الإثبات من البداية نياته الطيبة. وطبعاً لن يرسم هذا التعاطف والثراء الذاتي - كلهم ضدنا - إيشامة على وجوه البشر.

إن وجود إسرائيل غير مهدد بالخطر، ولا حتى حقها في الوجود وعموماً، بحسب ما أعلم، ليست هناك دولة تنكر رسمياً حق إسرائيل في الوجود. وإذا قال لنا أحدهم إن حماس، مثلاً، تنكر وجود إسرائيل فيمكن الرد بأن إسرائيل نفسها تنكر أيضاً حق حماس في الوجود. وإذا اعترفت إسرائيل بحركة حماس كحزب، فسوف تتحرك حماس من جهتها تجاه إسرائيل أيضاً ولا نسي أن قائد حركة حماس خالد مشعل صرح في مرات عديدة لقناة الجزيرة بأنه يعترف بدولة فلسطين بحدود عام 1967.

إسرائيل موجودة ويجب أن تستمر في وجودها - لكن أوجوكم صعن الحدود المتفق عليها قانونياً ومع المساواة الكاملة لسكانها من غير اليهود. وإن توصلت إسرائيل إلى هذا الوجود القانوني يوماً ما مع المساواة الكاملة فلها أن تعود "منبوذة من المجتمع الدولي" أكثر مما تراه نفسها؛ ذلك أن إسرائيل نفسها هي التي تميز بمسار تثبت فيه عدم استعدادها لوضع حدود نهائية لها.

ويوضح هداي - هاندلسمان ذاته أن التحمة تُظهر لنا أن تصعيد الأمور في الشرق الأوسط قد ساهم في زيادة عدد الحوادث المعادية للسامية في أوروبا والعالم. لكن لسأل، إذا كان هذا الرابط واضحاً جداً بين تصعيد الأزمات في الشرق الأوسطية ومعاداة السامية، فلماذا لا نستخلص العواقب الصحيحة منه ونغير في السياسة؟ فما نشهده بدلاً من ذلك هو قبول العالم ببساطة انتهاكات إسرائيل للقانون الدولي وسيرها في جرائم الحرب.

نقرأ ما يقوله ممثلو اليهود في ألمانيا أمثال ديتير غراومان: "إننا نحن اليهود نقف إلى جانب إسرائيل. ويتوجب علينا، بما يقتضيه هذا الموقف من

قلوبنا، عدم الاعتذار عن ذلك". لقد احتلت إسرائيل الهوية اليهودية نجاح، ومن هنا نجد اعتقاد كثير من الناس فعليًا بذلك الارتباط الذي لا يمكن خرقه بين الصهيونية وإسرائيل واليهودية. هكذا يذهب مثلاً نتنياهو أن له الحق في التحدث باسم جميع اليهود في جميع أنحاء العالم، حتى لو كانوا يعيشون في نيوزيلندا أو أيسلندا. ومن هنا فإنه، ومع المؤسسة اليهودية، لا يولي اهتمامًا لأولئك الشجعان (من اليهود) الذين ينادون "ليس باسمنا"، كما ينادي أعضاء "الصوت اليهودي من أجل السلام العادل في الشرق الأوسط" وغيرهم من الجماعات اليهودية الأخرى في العالم.

ما لا أستطيع فهمه هو وفوف يهود على نحو أعمى خلف إسرائيل وعدم امتلاكهم القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ. وبالفعل يمكن نفهم موقف كثير من المواطنين الألمان، ولا سيما المسلمين والفلسطينيين، بعضهم لهذه المواقف واتقاعهم لها، حتى وإن عتروا عن هذا النقد أحيانًا على نحو عالٍ وعاطفي. يمكن الرد على احتجاجاتهم بأساليب مختلفة بلا شك، لكن لا أن يشهر بها على أنها بمحملها معادية للسامية. ولا تصور أنه يمكن إقناع الفلسطينيين من غرة بذلك، من الذين فقدوا أقرانهم يقابل إسرائيلية فإذا كانوا يكرهون إسرائيل فعلاً، فلهم أسياهم. ولا نستغربين كذلك أنهم لا ينفون الاستماع إلى ديتير غراومان بأن عليهم التأيي بأنفسهم عن حماس. طالما أن المجلس المركزي لليهود في ألمانيا لا ينأى بنفسه عن جرائم الحرب التي يرتكبها الإسرائيليون والمؤتقة في تقرير الأمم المتحدة للمحامي ريتشارد غولدستون، من جنوب أفريقيا والمدعي العام للأمم المتحدة. حتى هذا الشخص نفسه، رغم أنه يهودي، قد تعرض لضغوط هائلة من الجانب الإسرائيلي، وبذلت محاولات للتيل من سمعته.

يشكي هانس-هاندلسمان "يمكن كل شخص اليوم أن يكون معاديًا للسامية!" إلا أنه يحلظ نقد إسرائيل والصهيونية بمعاداة السامية. وبالفعل، يسير الرجل على خطى أريئيل شارون الذي رغب هو ذاته بمعاداة السامية في أوروبا، وذلك لدفع اليهود هناك إلى الهجرة نحو إسرائيل، خاصة حينما كتب:

"يعرف كل يهودي في العالم اليوم أنه يستطيع المجيء إلى إسرائيل في أي وقت في حالة وجود خطر، طبعًا كما لو أن المخاطر غير موجودة في إسرائيل أكثر من أي بقعة أخرى في العالم، يكفي أن تشير كبتال فحسب إلى مخاطر الانجرار إلى الحروب غير الضرورية هناك.

ثم إن هناك تساؤلًا يرتبط بما إذا هاجر اليهود إلى إسرائيل، هل سيكون لديهم الوعي أنهم قد يقومون بترحيل الفلسطينيين عن أرضهم أو أنهم يعرضون حياتهم للخطر.

أختم هذا الفصل بهذه الإشارة الأخيرة، لقد زار مرة الرئيس الإسرائيلي السابق هايم هرتسوغ ألمانيا، وفي أثناء ذلك طلب من كل اليهود في ألمانيا هجرها والتوجه إلى إسرائيل. ماذا كان رد المجلس المركزي لليهود في ألمانيا والحكومة الألمانية؟ ردهم كان الصمت. والحال أنه يُسمح للضيف من إسرائيل بفعل وقول ما لا يقوم به شخص آخر. ولا يخفى أن الرؤساء والسفراء الإسرائيليين يتمتعون عندنا بحرية الحماقة.

حركة معادي الألمان
والموقف التقاربي من اليمين الجديد

تمثل حركة ما يسمى "معادي الألمان" (Antideutschen) ظاهرة خاصة جدًا بالألمان ولهذا توجد في ألمانيا فحسسه، وهي عبارة عن حركة سياسية انبثقت من بعض فروع ما يسمى اليسار الراديكالي، وتعارض على نحو خاص القومية الألمانية التي تعتقد أنها قد تعززت، خاصة في أعقاب إعادة توحيد ألمانيا. أما ما هو معروف عن مواقف هذه الحركة، فهو النظام غير المشروط مع إسرائيل، ومعارضة من يعارض الصهيونية، ومعارضة من يعارض الإمبريالية، ومعارضة أشكال معيثة تعادي الرأسمالية، وهي الأشكال التي تساويها على نحو شامل لمعاداة الأميركانية (Antiamerikanismus) والعداء للسامية.

ليس بمستغرب، أن ظهور معادي الألمان قد أدى إلى جدالات حادة في داخل المشهد اليساري. والسبب هو أن المعادين للألمان يذهبون في تضامهم مع إسرائيل، ذلك التضامن النابع أساسًا من المسؤولية التاريخية الألمانية [إنجاه ما قاموا به ضد اليهود في الهولوكوست]، إلى درجة تمجيدهم إسرائيل والولايات المتحدة كحاملتين للحضارة الغربية. من هنا، فإن تضامهم هذا مع إسرائيل ليس نتيجة النقاشات في ما يتعلق بالصراع الحقيقي في الشرق الأوسط، بل نتيجة الإقراط الشديد بالتماعي الشديد "مع اليهود" والمواقف والأمزجة الحساسة المزعومة لليسار الألماني إنجاه إسرائيل. أما ما يسمى اليسار المستقل فإنه ينهم هؤلاء المعادين للألمانية بأنهم يمثلون أيديولوجيا "شعبوية" لأن هؤلاء يمثلونهم للسامية، أي الفيلسومية، المحرجة طبقًا، والتضامهم الشديد بها، يرفعون الشعب اليهودي على نحو مثالي ويتعاملون معه كما لو أنه كتلة متجانسة هي ما بينها، لكن لتعلم أن الفيلسومية تستند تمامًا إلى الصور النمطية نفسها لمعاداة السامية، ولا يكمن الاختلاف بينهما سوى في نقطة وهي أن الفيلسومية تقدم لنا صورًا إيجابية عن السامية. وعندما نجد معادي السامية

يكرهون اليهود سبب الزعم أنهم أدكياه جدًا وكونيون أو عالميون سياسيًا وأنهم يدمرون الدولة القومية، قلن نستغرب أن يدي معادي الألمان المناصريون للسامية الإعجاب بذلك. ثم ألم يقل لنا هنريك برودر مرة، إن مناصري السامية [الفيلوساميون] أنفسهم معادون للسامية، ولكن يحبون اليهود؟ واليوم طبقاً يحد برودر واحدًا من الأبطال الصحافيين المعادين للألمان.

في الحقيفة يكشف كثير من مؤيدي معادي الألمان نقاط التفاه مع مجموعات اليمينيين الجدد، خاصة الذين يقومون على ضجة وهاج الإسلام ومن بين الأصوات والوسائل المركزية لحركة معادي الألمان لدينا مثلاً الصحيفة الأسبوعية جانتغل وورلد *Unigle World* وسجلة باهاماس *(Bahamas)* والمجلة الشهرية كونكريت *(Konkret)*. هكذا لا يستغربن حرص بعض المؤلفين في حركة المعادين للألمان أن يكونوا قريبين من الناشئين في الموقع الإلكتروني للشبكة الشعبية البعيدة "محور الخير" التي يديرها هنريك برودر، كما أنهم يكتنون للمدونات الإلكترونية على الإنترنت المؤيدة لإسرائيل أو لصحيفة يوديشه روندشاو [اليهودية] اليمينية المتطرفة التي تنشر الأيديولوجيات المنصرية والقومية.

هنا نشير كذلك إلى البلد الذي تتلقاه هذه الحركة المعادية للألمان، فمثلاً يشير بعض النقاد اليساريين إلى أن هذه الحركة ما هي إلا "جماعة تتسم بالحقوق الشاذ وتحمّل عقدة الذنب الألمانية"¹¹ ويتهمونهم بأنهم يمارسون يروباغتة ويحتفون بد "شكل من أشكال الحماسة الإسرائيلية يتطابق مع المواقف المتطرفة لليمين الإسرائيلي". ويمكن أن نقرأ في المجلة التابعة لمؤسسة روزا لوكسمبورغ أن المشكلة عند مناصري السامية من تيار معادي الألمان هي أنهم يعتبرون اليهود كتلة متجانسة وذلك على نحر مشابه في ظنهم لما يسود عند معادي السامية، فهم يتقاطعون بعضهم مع بعض، ولقط نجد أن الدلائل بين الطرفين يعكس بعضها بعضًا.

(11) <https://doi.org/10.1017/9781009040400.004>

يقول المؤرخ اليساري الإسرائيلي موشيه تسوكرمان، إن "عقيدة التضامن مع إسرائيل" تتجاهل التناقضات وعدم التجانس في المجتمع الإسرائيلي، وهكذا يشيد أنصار التضامن اليساري مع إسرائيل بالصهيونية التي "تأسطر" أو قل "تُترع عنها صفة التاريخية". ففي الماضي مثلت الصهيونية ما يشبه إجراء دفاعياً ضد معاداة السامية. وبناءً على هذا، فإن الانحياز إلى إسرائيل في الفهم الذاتي للأيديولوجيا المعادية للألمانية ما هو إلا نتيجة إجبارية لرفضها الصارم لمعاداة السامية، طبقاً باعتبار هذه الأخيرة تجسّد أعظم شرور العالم. هكذا أصبح من الملائم في بعض مسارات مشاهد الحراك المستقل لـ "ألبا"⁽²⁾ التعرّف بالتضامن مع إسرائيل، والذي بالكاد يمكن تربيته نظرياً.

من المفارقات أن نقد "معادي الألمان" قد أثير أساساً على الحلفية الروحية المتطفلة المخدعة للمزاخنة الألمانية - اليهودية مع "مناصرتها" القوية للسامية" الحقيقية. وهنا لا ننسى نقد المؤلف ألكه غابسل (Erke Gensel) (1945-1997) الذي انتقد في وقت مبكر بشدة ذلك "الخليط" الذي لا يطاق من مسيحيين معينين، وسائحين متحمسين يمشون سياحتهم في إسرائيل، وأيضاً أولئك اليهود المحترفين الأشداء، فضلاً عن ألمان ملتزمين (بهذه الأيديولوجيات) وهارون غيورين منكمين على الدراسات اليهودية". هنا بالضغط نجد اليوم تموقع معادي الألمانية أنفسهم في هذه الروحية الصهيونية المبتذلة.

لكن كيف حدث هذا؟ لتذكر أن وصف "المعادي للألمان" كان لا يزال قبل عام 1989 عبارة عن وصف غامض لم يكن معادو الألمانية أنفسهم قد استخدموه في الإشارة إلى أنفسهم، حيث استخدم للإشارة إلى مواقف معادية للقومية في أجزاء كثيرة من اليسار الألماني. أما متى نُحت هذا المصطلح وأخذ شكله الحالي الذي نعلمه اليوم، فلم يأت سوى في وقت متأخر، طبقاً حينها بدأ

(2) ينشر حراك ألبا (Alba)، منذ عام 1988، إلى حملات ونظمات يسارية مستقلة كانت تحارب الداريا المضطربة ومعاداة السامية والعصبة والقومية، وسواءً وهم يقومون بذلك في صفاء الحراك المعادي للسامية نفسه، الذي قام في عشرينيات القرن العشرين من هذا اسم هذا الحراك ألبا الذي هو اختصار لمنطقة ألبا (Amdachische Albani). (المترجمة)

تيار نظري محدد مرة أخرى، من داخل اليسار، يطلقه هو على نفسه وتحدثاً بعد سقوط جدار برلين، في عام 1989.

والحال أن الجمهور الألماني التوسع قد لاحظ بالكاد، وإلى اليوم، ذلك الانقسام لتيار "معاداة الألمانية" عن بقية اليسار في ما يسمى، في ألمانيا، فترة التحول [فترة التوحيد وسقوط الجدار]. ومما حدث أنه في وقت تظاهر عشرات الآلاف من الناس في مدينة لايبزيغ الألمانية من أجل نهاية قريبة لجمهورية ألمانيا الديمقراطية [الشرقية، DDR] وإعادة توحيد ألمانيا، نجد على الطرف المقابل ذلك اللقاء في فرانكفورت بين 20.000 شخص من أنصار الجماعات الشيوعية المختلفة مع حرب الخطر، وذلك للفت الانتباه إلى مخاطر إعادة توحيد ألمانيا. وبالمثل، فقد رأى كثير من الألمان أن معاداة السامية منقرضة في ثقافة الألمان ولا يمكن استئصالها، ولهذا السبب فإن كل دولة ألمانية لا تقوم أو تتوحد] ستفقد لا محالة إلى حدوث هولوكوست جديدة. لا نستغرب، والحال هذه، ما كتب بكل وضوح على إحدى اللافتات في إحدى التظاهرات التابعة لتيار معاداة الألمانية في هامبورغ في كانون الثاني/يناير 2004: "التفكير في ألمانيا يعني التفكير في معسكر أوشفيتز [النازي]"! أما مواقف من يعارض تيار عداة الألمانية، فيُشهر بها بأنها "معادية للسامية"، وهذا بالفعل ما وصفه الكاتب الساخر فيعلاف دروست في إحدى كتاباته "الشخص الأول الذي يقول أوشفيتز، بريح".

نشير أيضاً إلى أن الموقف "اليساري المعادي للألمانية" يتوافق مع موقف بقية اليسار الذي أوضحه مرة الرئيس السابق للمجلس المركزي لليهود في ألمانيا ديتير غراومان في جريدة زودويتشه، حيث كتب: "لا يزال الروح القديم المعادي للصهيونية في جمهورية ألمانيا الديمقراطية يهيم من اليساريين"، رغم أن ذلك في الوقت نفسه، وقبل كل شيء، يمثل اليسار الغربي الذي "يعيش حياته بكل شعف على كره إسرائيل العرضي الأعمى والشديد".

طبعاً إن هذه الظاهرة الفريدة من نوعها لـ "عداء الألمانية" هي ظاهرة، كما قلنا، موجودة في ألمانيا فحسب. لكن لا ننسى بالطبع وجود أحزاب يسارية

متعلقة مع إسرائيل في فرنسا وإيطاليا. أما لحافا بالتحديد يطلق أعضاء تيار "عداء الألمانية" على أنفسهم هكذا، فهو بالضبط بسبب تاريخهم الألماني الماضي النازي [لهذا هم "عداء الألمان"]، وجهم بالطبع لأميركا وخصوصاً لإسرائيل. إنهم يحثرون أنفسهم حماة لليهود ولا يرون في الإسرائيليين أنهم إسرائيليون، بل إنهم يمثلون غيرهم يهوديًا يجب حمايته. طبقاً لا يمكنني هنا القول سوى "ليحمني الرب من هؤلاء الأصدقاء، وأنا أحمي نفسي من أعدائي".

إنهم يكرهون ألمانيا، ويقفون في صف إسرائيل بثبات ويرفضون أي نقد موجه إلى أميركا. كما أنهم مجموعة صغيرة جداً ضمن حركة اليسار. لقد أرادوا في الأصل منع "الربيع الرابع" - وقد ضاعوا في مناهات ذلك ضباباً رهيباً. وربما يؤمنون بهذا بكليتهم. وعلى الأرجح بإمكانهم القيام بعمل مهم على نحو مذهل في هذا التخطيط بين اتصالات القضاة السياسية اليسارية في ما يخص هذه القضية. وللاحظ أن التيارات الشبابية، خاصة المعادية للألمانية، تجد في هذا التعبير لها من بنية أطيافها (اليسارية) أمراً عظيماً. لكن في نهاية الأمر كل هذا مرتبط بالطروف الخاصة الحساسة التي يسمعون فيها. ولا نتوقع هنا أن نجد أي نوع يمكن أن نطلق عليه نظرية سياسية أو تحليلًا سياسيًا. ياله من أمر رائع أن يكون لدينا في كل حركة منشدون ماء أو قف مثلاً أصحاب رضى عميقة.

بعد بدء الانتفاضة الثانية في أيلول/سبتمبر 2000 في إسرائيل وفلسطين والهجوم الإرهابي في 11 أيلول/سبتمبر 2001 في الولايات المتحدة، بدأت تظهر استقطابات حادة بين اليسار التقليدي جداً من جهة وتيار معاداة الألمانية المستقل والجلي من جهة أخرى. لقد فسروا الهجوم على مركز التجارة العالمي في 11 أيلول/سبتمبر 2001 والهجمات العديدة على المعابد اليهودية واليهود في العالم بأنها علامة ناقوس الخطر التي تُعبر عن إرادة قوية لم تعبر، معادية للسامية في جميع أنحاء العالم. ومنذ ذلك الحين أصبح التضامن غير المشروط مع دولة إسرائيل والمعارضة الحادة للمواقف المعادية للصهيونية يحتلان مكانة محورية في وعي هذا التيار المعادي للألمانية. حيث يرى التيار،

والحال هذه، أن اليهود في كل العالم، خصوصًا في دولة إسرائيل، مهقون بالخطر من جوارب مختلفة؛ سواء من خلال استمرار أيديولوجيا المجتمع المدني في الدول الغربية ولا سيَّما في ألمانيا ("ما بعد الفاشية") أو من خلال جهل الحكومات الأوروبية معاداة السامية الموجودة في الاتحاد الأوروبي وفي مناطق دول الاتحاد السوفييتي سابقًا. وحُف إلى ذلك طبقًا رؤية هذا التيار، المفتتح بها، لمعاداة السامية في كثير من الدول الإسلامية، حيث يجد أنه لا يمكن التقليل من خطرها على حق إسرائيل في الوجود، وأنها تمثل جزءًا أساسيًا من "معاداة السامية العالمية".

أما الساعة الحقيقية لولادة حركة معاداة الألمان فيمكن اعتبارها في عام 1995. حين غادرت الكتلة، التي كانت تعتبر نفسها حرًا من الحركة اليسارية، التحرير في مجلة باهاماس. ومن هنا أراد المحررون الباقون أن يحملوا المسؤولية "وحدتهم" خارج نطاق حركة اليسار. كما نطمح في هذا السياق، المعادون للألمان أنفسهم كدائرة (شبه مثقفة)، وكانت باهاماس من الآن فصاعدًا وسيلتهم المركزية. اعتمدت أساسًا على النظرية النقدية والتحليل النفسي (هكذا!). لكن مع هذا فإن مستواهم الفكري بسيط جدًا، وقد لجأوا باستمرار إلى القوة بضميمة إسكات المجموعات الأخرى. وبدلاً من ممارسة التحليل الموضوعي قاموا بالتظير لموقعهم الخاص.

وفي مدينة لايزرغ حاولوا التشويش على محاضرة الفيلسوف الكندي البريطاني تيد هوندريش من خلال رفعهم علمًا ضخماً لإسرائيل على المنصة وحجبوا هوندريش، فتمنوه من إلقاء محاضراته. وفي النهاية كان لا بد من الاتصال بالشرطة. طفق، بالأسلوب نفسه حاول التيار أيضًا منع إلقاء محاضرة لهايو ماير الذي نجا من أوشفيتز. وعندما نهبهم ماير إلى أن هذا الفعل يذكّر بالاستمراريات القديمة لكتيبة العاصفة [اللقوات النازية] قبل استيلائهم على السلطة حينما كانوا يشوشون على كثير من الفعاليات التابعة للشبيوعيين والديمقراطيين الاجتماعيين، وبالطبع اليهود أيضًا، أخذ مشيرو الشعب هؤلاء، هذا الأمر بالضحك، ومعظمهم من الشباب. وعلى نحو مشابه للتأريين نجد

هؤلاء كذلك مفتنعين دأئهم وعظمتهم. ويمكن أن يضيف ماير فحسب أن الشرطة في ذلك الوقت، أيام النازية، كانت تقف في صف الظلم، على عكس اليوم.

إضافة إلى ذلك، فإن لمعادى الألمانية شهرة وسمعة سيئة بسبب ترويعهم حرباً لا هوادة فيها ضد الإسلام السياسي. لا بل إنهم يشككون أيضاً في المسلمين العاديين. ويعتقدون بأن هذا الصراع صدهم يجب أن يُقاد عسكرياً بشكل خاص، كما بأن ليس هناك أي أمل على المدى المنظور في التطورات، مثل الثورات العربية [في الربيع العربي]. لتحسين مسارات الصراع في الشرق الأوسط وتغييرها، ويقدمون لهذا ميروات فلسفية معقدة ومجردة. لكن أن يعالج معادو الألمان الأوضاع المتردية للواقع الاجتماعي والحالة الخاصة لشاريع الشرق الأوسط أو أن يتعاملوا معها، فهذا ما لا نجده إلا على مضض منهم، لا بل لا يُتعبون أنفسهم بذلك على الإطلاق. لماذا؟ لأنهم مشغولون بوجهة نظرهم الخاصة فحسب.

بناء على هذا التحليل يطالب تيار معاداة الألمان بالتضامن غير المشروط مع إسرائيل التي تمثل، باعتبارها دولة أولئك اليهود الذين نجوا من الهولوكوست، المعقل والملاذ الضروري لليهود المضطهدين في كل بلدان العالم. طبعاً يعني التضامن النبوي مع إسرائيل مالمسة إلى كثيرين من تيار معاداة الألمانية الدعم الكامل للتدابير السياسية والعسكرية الملموسة للحكومات الإسرائيلية المعنية. هكذا يمكن أن نفراً بحسب ما جاء في أحد النصوص النموذجية لتيار معاداة الألمان أن إسرائيل "باعتبارها ضحية للعدوان المستمر من المنظمات الفلسطينية، لها الحق في اتخاذ تدابير التحكم والسيطرة وبناء الحواجز في الضفة الغربية وقطاع غزة، وأيضاً حينما يتم اللجوء إلى القتل المستهدف والمقصود". من هنا سيكون انتقاد إسرائيل بمنزلة الموافقة على تدميرها؟ لماذا؟ لأنها، والرائي لهذا التيار، داننا ما نجد نفسها في حالة تهديد، ولتدافع بالتالي عن نفسها وتلجأ إلى هجوم وفائي في حال الضرورة. إن التضامن الذي يكون مجرد كلام، لا يمكن أن يكون إلا مطلقاً من دون قيد أو شرط.

لقد حاول بعض العقول الموجهة لتيار اليسار المعادي للألمانية تبرير هذا التصامن مع إسرائيل فلسفياً. هكذا نجد مثلاً الخير السياسي شيفان غريعات قد طوّر "الحتمية الصهيونية القطعية" كمعيار للتصامن فاعل من شأنه المساعدة في دعم إسرائيل هي "إمكانات الدفاع عن النفس سواء وقائياً أو تلك التي ترد بها (على هجمات ضدها)".

لا شك نحن أمام فكر يعتمد على معاجلة عنصرية، طبعاً من دون أن يعلنها صراحة هذا التفكير المعادي للألمانية: أن يكون الشخص ألمانياً يعني أن يكون دائماً نازياً، أما من يعارض، أو يشك في، أن ألمانيا قد تقوم بتأسيس الرايخ مرة أخرى ولديها نية قتل اليهود، فهو شخص يعارض سياسة "الاسترضاء" بنظرهم فما فعله ألمانيا، بالنسبة إلى أغلبية اليساريين الذين يشعرون بارتباطهم بتيار معاداة الألمانية، يمثل مأساً يسير بدافع واحد، ألا كانت الوسيلة التي تستخدمها. الأمر دائماً يرتبط بالشئ نفسه بالنسبة إلى ألمانيا: أي إحياء الهتلرية وحروب الغزو الألمانية، طبعاً وقتل كل شيء، إبادة اليهود.

هكذا، فإن هذا الانحياز الأحادي إلى إسرائيل، الدولة التي تمثل الخير المطلق والمشروعة لليهود، يقف تماماً في مقابل وفض الشر الألماني بسبب معسكر أوشفيتز. من هنا، لا يُنظر إلى دولة إسرائيل على ما هي عليه، بل كتحقيقة لأيديولوجيتها التأسيسية التاريخية. وهذا بالصط ما يخلص إليه المعادون للألمان ويتلامسون معه بشأن ما تعنيه هذه المؤسسة المباركة والخيرة للدولة القومية الإسرائيلية. لقد كتب مرة وليس تحرير مجلة كونكريت، التي أشرنا إليها، هرمان غريمليسا (Hermann Grömlitz): "إن إسرائيل هي دولة تهدف تماماً إلى حماية الحياة اليهودية، وإذا ما فقد اليهود هذه الدولة، فسوف يكونون عرضة لأجواء معاداة السامية"¹¹. طبعاً واضح أن غريمليسا لم يكتب هذا بتعطيل مهمة حماية "مواطنيه"، بل بناء على الفكرة الصهيونية الراديكالية أن إسرائيل تحمي جميع اليهود في العالم. لكن لنعلم أن إسرائيل لا تمثل لليهود

(11) Jostov 502

العالم "وطنًا آمنًا"، وأيضًا بالعكس فإن اليهود لا يتوقعون حدوث مجزرة بحقهم. والحال أن اليهود الذين يعيشون في إسرائيل معرضون لأشد الأخطار، والذين يعيشون خارج إسرائيل، وهذا ما ينطبق على معظم اليهود، تستعمل الدولة ماديًا، وقبل كل شيء أخلاقيًا، طبقًا إلى مدى يجري فيه التشهير بالنقاد اليهود على أنهم "معادون للسامية" ويهود كارهون لأنفسهم.

هنا نشير إلى أن هذه الأيديولوجيا السخيفة والغريبة التي يحملها ما يسمى تيار معاداة الألمان لا تدعو أنها واضحة تمامًا لمعظم التيار اليساري. والحال أن تيار معادي الألمان يصر على الواجب المزعوم لليسار السياسي بالانحياز إلى مصلحة إسرائيل. أما اليسار الإسرائيلي الذي لا علاقة له بالسياسة في بلده، ولهذا السبب يفر أفراده بالألاف إلى برلين، فإنهم يتعرضون للإهانة والشتيم من هؤلاء المعادين للألمان باعتبارهم خونة للوطن (هكذا!). وإذا ما كان ليساري ما فعل أو رأي، بشأن ألمانيا أو حتى إسرائيل، يختلف عما يحمله هؤلاء الذين في التيار، فإن بإمكانه التعبير عما يريد، [لكن]: يُنظر إليه على أنه دليل على "العداء اليساري للسامية"، أما المحاربة الأخلاقية ضد هذا اليسار، فهذا بالطبع ما يُنظر إليه المعادون للألمان على أنه مقصدهم الوجودي.

لقد أعجب هذا التيار اليساري المتطرف والمناهض لألمانيا بما أعلنته مرة المستشار الألمانية أنجيلا ميركل بأن أمن إسرائيل هو "مصلحة وطنية ألمانية"، لكن بمقدار ما كان هذا الإعجاب كبيرًا، بمقدار ما نجد هذا التيار يقف أيضًا ضد النظام الحاكم. إنهم مفتنون بأن من يفرق ولو بشكل بسيط بين مشروع إسرائيل الكبير لحكومة حزب الليكود، وفعليًا كل الحكومات السابقة أيضًا، وحق اليهود في العالم بحياة ليس فيها عدااء عنصري، فإنه شخص يحمل نيات إحياء معسكر أوشفيتز، والحال نفسه ينطبق على من يتظاهر في شوارع برلين احتجاجًا على الهجوم الإسرائيلي على غزة، فهذا أيضًا يريد إحياء الهولوكوست.

نوضح هنا نقطة أخرى يعتقد بها هذا التيار الذي يهتم حصريًا بالسياسيين الإسرائيلية والأميركية. لدولة إسرائيل، من أجل ضحايا أوشفيتز اليهود، تضامن

لا يحده حد، وهذا التضامن لا يحق لأي من الضحايا الآخرين. لكن دعوني هنا أسأل من يدعي أن صحابا أوشفيتز يريدون هذا أصلاً؟ وربما يمكن الإشارة هنا إلى ابنة الرئيس السابق للمجلس المركزي لليهود في ألمانيا، إيلين هشت-غالينسكي (Ingeborg Hoch-Galinski)، حيث لم نكل هذه السيدة وهي توضح أن والدتها هايتس غالينسكي لم ينج من معسكر أوشفيتز لكي يصمت عن الظلم الجديد، بيد أن الرجل هذا نفسه قد صمت إزاء الظلم في إسرائيل.

والحال هنا، أن حقيقة أنه يمنع الحق لإسرائيل، في ما يمكن إدراكه بأنه ظلم شديد، يمشي به تماماً "المعادي الحقيقي للألمان". وهذا بالضغط ما يسير به أيضاً مثقفون مشبهون كموقف لهم يقدمون من خلاله تعصبا ضيق الألق بالتحيز إلى إسرائيل الوطن. وبالفعل، فإن التزامهم في الحكم والتفكير، أن يكون الشخص ألمانياً جيداً، كإسرائيلي مثالي نموذجي ضيق الألق، سيؤدي بالتالي إلى تأكيد صريح شديد لعنف الدولة؛ ذلك العنف الذي يتطلب عادة في هذه الصلابة المتمتعة وجود قاضي إسرائيلي.

ما يجب التشديد عليه أن هؤلاء المعادين للألمان لديهم انطباع بأنهم مذنبون باستمرار الحياة الأخلاقية، لأنهم يعتقدون أنهم لم يصلوا إلى الالتزام الكامل المطلق بإسرائيل أكثر من أي وطني إسرائيلي وصين آخر. ويعتقدون أن "من غير الممكن في ألمانيا النظر ضد إسرائيل أو ضد سياسة محددة لأي حكومة إسرائيلية". كما أن "الدولة، التي تم فيها إنقاذ اليهود الذين نَحَرُوا من القنلة الألمان، كانت في خطر قاتل، ولم يكن يوجد في هذا الموقف أي مبدأ سمح لأعضاء السية الجمعية لـ "الألمان" بفعل أمر آخر سوى التمسك بحزب إسرائيل".

لكن أعضاء هذا التيار يتجاهلون حقيقة أن الدولة التي أنقذت اليهود الهاربين إليها من أوروبا لم يكن لها وجود سابقاً، بل كانت منطقة مأهولة بالسكان تنتمي إلى الفلسطينيين.

حتى تقرير هيئة حماية الدستور الألماني أشار أول مرة في عام 2006 إلى تيار "معادي الألمان". وبعد عامين أعلنت الهيئة: "لقد لحذا تأثير تيار

معادي الألمان في اليسار التقليدي المتطرف حاليًا هائلًا جدًا. وبالكاد هناك اعتماد به⁴⁴ لكن في السنة التالية انخفض ذكر التيار من هذا التقرير لهيئة حماية الدستور.

أما عن عدد هذا التيار المعادي للألمان الذي سجله في أجواء منشورات باهافاسي والمنشورات الصغيرة المماثلة مثل برودومو (Prodromo) وبنوجور تريستيس (Reiziger Treister) فليس بالعدد الكبير، ولا يتجاوز المئات. لكن مع ذلك، لديهم قاعدة من المعجبين الياقطين والمعتابرين، خصوصًا ضمن أجواء "التيفا"، ويصفهم بعض المراقبين بـ "متعة الشباب الموجهة إلى الحدث"، وفي مناطق الجامعات. وتنتشر أفكارهم كذلك، أو بالأحرى الرغبة في التمييز، ضمن أوساط بعض التيارات اليسارية. وحاليًا يوجد فرع منهم على الأقل مزيد لإسرائيل ضمن العشرات من الجماعات اليسارية؛ من مجموعة يوسوس⁴⁵ إلى مجموعة "النفابية اللاسلطوية" (Anarcho-syndicalismus)، كما تواجه الأنشطة المعادية لإسرائيل، مثل "المقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات" نقدًا شديدًا منهم. وقد يكون لدى تيار معادي الألمانية ميلًا إلى الطائفية، كما يرى ذلك بعض أصحاب الرأي الرقيق. لكن لنعلم أنه لن يكون لهم وجود من غير تأثير سياسي؛ فمثلًا يتجلى تأثير "التيار المعادي لألمانيا" من بين أمور أخرى في حقيقة منع الكتلة البرلمانية لحزب اليسار، من سنوات، أعضاؤها من دعم حل مبدأ الدولة الواحدة [في فلسطين] ومن المشاركة في أسطول آخر لمساعدة غزة ودعوات مقاطعة البضائع الإسرائيلية.

وفي هذا السياق، انتقدت منظمة "الصوت اليهودي من أجل السلام العادل في الشرق الأوسط" ومجموعة أخرى من أكثر من 100 ناشط يساري إسرائيلي حزب اليسار بسبب هذا القرار. فكانت الإشارة: بعض المواقف المحرجة مشروعة.

(44) يوسوس (Jussus) مجموعة شبابية منظموا في الحرب الانتزاعية (ديسمبر 1980) في ألمانيا. (المترجمة)

هنا أشير كذلك إلى أنني لا يمكنني الحكم على إمكان وجود علاقة سببية بين العدوانية المتطرفة للنظرية اليسارية وتعزيز الشعور البيئية. لكن ما أستطيع تأكيده هو إن اليسار الذي لا يعتقد أن هناك أراء وحقائق مختلفة، وكافيز وحقائق، وحقاً لفتحاً وحقاً على الأرض، ولا يستطيع الاعتقاد أن هناك، أو ربما يجب أن يكون هناك، خطأ وصرح، أقول إن مثل هذا اليسار ليس لديه سوى القليل في مواجهة الكافيز اليمينيين والجاهدين والمجرمين. هنا يتجلى اليسار فحسب، ولكن عند الفحص الدقيق يتضح في الواقع وجود جبهة توافقية دوماً ما يجري اللجوء إليها، وما عادت هناك من فورق صعن المواقف البيئية؛ أما اليسار هنا فليس له شيء.

لقد بدأت إسرائيل تفقد أصدقاءها تدريجاً في العالم. وبات الأمر لا يقتصر على الاشتراكيين الديمقراطيين واليساريين في اتخاذ مسافة من السياسة الإسرائيلية، بل تعداه حتى إلى حزب العمال البريطاني الذي بنأى بنفسه عن بنيامين نتياهو، فضلاً عن الأحزاب اليسارية الأخرى في جميع أنحاء أوروبا، من إيطاليا إلى إسبانيا، ومن فرنسا إلى هولندا والسويد، التي تنتقد سياسات إسرائيل القومية.

أما أصدقاء إسرائيل التي تكسبهم في المقابل إلى حاجتها، فبالطبع سيتمون إلى اليمين. فهي تتمتع بقيادة بنيامين نتياهو بعلاقات جيدة مع هاييتس كريستيان شتراخه، رئيس حزب الحرية (FPO)، الشعبوي اليميني في النمسا، الذي استقبله مرة أعضاء الحكومة الائتلافية بأندرع مفتوحة في إسرائيل. وعلم أن حرب شتراخه قد تأسس في الأصل بفصل موائد التنازين النمساويين، وقد عثر حتى يورغ هابدر، رئيس الحزب السابق، عن تعاطفه مع سياسات أدولف هتلر. ولا نستغرب اليوم مواقف الحزب في سياساته التي تهدف في المقام الأول إلى معاداة المسلمين ومناهضة الهجرة، وهو ما يشكل بالتالي حجة التقاء وتقاطع مع المعادين للألمان.

أما الصديق الآخر لإسرائيل فهو الشعبوي اليميني غيرت فيلدورز من هولندا، الذي نجدد، من ناحية، يكن عداء وكرهاً شديدين للأجانب، لكنه،

من ناحية أخرى، يكن غلبة الود لإسرائيل. وقد غدا هذا الرجل في عريف 2016 مشهوراً بزياراته لإسرائيل ولقاءاته المتكررة مع المسؤولين الإسرائيليين هناك، حتى إن جهاز الاستخبارات الهولندي قد حقق في "صلاته بإسرائيل وتأثيرها المحتمل في ولائه لهولندا"¹⁵. أما لماذا يقف عدد ليس بالقليل من اليهود مثل هريك بروودر خلف فيلدور، فهذا يعزى أيضًا إلى كرهه للمسلمين. والأمر نفسه يمكن قوله في ما يخص السياسة الفرنسية اليمينية الشعبوية مارين لومان المصانة بالإسلاموفوبيا [رهاب الإسلام] ونسعى كذلك للقرب من إسرائيل وفقًا لشعار: عدو عدوي هو صديقي. ولا ننسى إضافةً إلى ذلك احتفاظ إسرائيل بعلاقات وثيقة بالمسيحيين الإنجليكان الأصوليين في الولايات المتحدة الأميركية، رغم علم الجميع أن هؤلاء معادون للمسيحية. والحال أنه مع انتخاب دونالد ترامب رئيسًا للولايات المتحدة، غدا هذا النوع من التعاون جزءًا مركزيًا من السياسة الأميركية. وهذا هو السبب في قيام ترامب كذلك بإرسال سفير صهيوني إلى إسرائيل وإرادته في نقل السفارة الأميركية إلى القدس وتقديم المزيد من الدعم لبناء المستوطنات على نحو مخالف للقانون. وهذا ما يتماشى مع السياسة الأميركية التي تسير بمسارها نحو صهيوني أكثر مما تقوم به الصهيونية نفسها.

لن نسى أخيرًا قيام السياسة بياتريكس فون شتوروش وغيرها من الأعضاء اليمينيين المتطرفين في البرلمان الأوروبي بالتضامن في هذا البرلمان مع اللومبي الذي أنشئ حديثًا لمصلحة المستوطنات غير القانونية في الأراضي الفلسطينية المحتلة. لقد غدونا بالفعل وبوضوح أمام هذه الصورة: صهابة يمينيون من إسرائيل وقوميون يمينيون من أوروبا، وأصيف إليهم أيضًا ونماذجًا في جبهة التلاقي، المعادون للألمان.

(15) <https://bit.ly/19k8wKX>

هل تتم الرقابة لأجل إسرائيل؟

يقوم إعلان القاهرة حول حقوق الإنسان في الإسلام، الذي أقرته، في عام 1990، الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي، على مبادئ الشريعة الإسلامية أو الفقه الإسلامي، التي تُعتبر بمنزلة "المرجع الوحيد لتفسير أو توضيح أي مادة من مواد هذه الوثيقة"، كما أشار المؤلفون إلى ذلك. ويُنظر إلى هذا الإعلان الإسلامي على أنه المقابل الأرتوذكسي أو الإجابة الأرتوذكسية الإسلامية على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وهو يضيف إليه ويبيده. مثلاً لا يؤخذ مبدأ حرية التعبير ولا يطبق إلا على نحو لا يتعارض مع المبادئ الشرعية، كما أن الكفر أو التجديف يُعدان إثماً. ويُحرم كذلك بحسب الإعلان "التعرض للمقدسات وكرامة الأنبياء فيه [في الإعلام]، وممارسة كل ما من شأنه الإخلال بالقيم الأخلاقية أو إصابتها المجتمع بالفكك أو الاتحلال أو الضرر أو زعزعة الاعتقاد". وهذا هو السبب في وجود قوانين هي كثير من الدول الإسلامية تحمي الإسلام من أن يكون موضع تشكيك.

يعتقد الصهاينة باعتقاد مشابه لذلك في ما يتعلق بإسرائيل والصهيونية. وأيضاً هناك لا يؤخذ بحق التعبير عن الرأي إلا بمقدار ما لا ينتهك مبادئ الصهيونية والبروباغندا الإسرائيلية. حيث يُعتبر من المحرمات كذلك انتهاك قدسية وكرامة إسرائيل والصهيونية، والتشكيك في أداب الصهيونية وقيمها الأخلاقية وإضعاف الإيمان بها. وهذا هو السبب أيضاً في أنهم يفترون ضد أي شخص يُضعف الصهيونية ويشكك فيها.

يمكن أن نجد في كل مكان أصدقاء يشكّلون مصدر قلق نجاه أي من اليهود الشرقاء: في الكنائس والنفابات والأحزاب. خلدوا مثلاً البنوك الألمانية والسياسيين الألمان الذين يخفون حماية إسرائيل من اليهود الذين يرفضون

سياسة إسرائيل وبطالون، ويدعمون، حملات المقاطعة لثغائرها ومؤسساتها، جنباً إلى جنب مع الفلسطينيين والمجموعات المتضامنة معهم ويحملون الرأي نفسه. فكما كان الحال مرةً حينما طالبت جماعات السود والبيض من جنوب أفريقيا، ومعهم المجموعات المتضامنة معهم عالمياً، بمقاطعة دولة جنوب أفريقيا ورُخِّبوا بمقاطعتها وذلك بعبء مكافحة سياسة الفصل العنصري هناك، فكذلك الأمر ينطبق على كثير من المنظمات اليهودية، مثل "الصوت اليهودي من أجل السلام العادل في الشرق الأوسط" التي ترتبط عالمياً بمنظمة "الصوت اليهودي من أجل السلام"، لهذه المنظمات تدعو أيضاً، وتطالب حالاً بمقاطعة إسرائيل أو على أقل تقدير بمقاطعة المنتحات المقبلة من الأراضي المحتلة.

في 9 تموز/يوليو 2005 نشرت 171 منظمة مدنية فلسطينية البيان التأسيسي لحملة مقاطعة إسرائيل. "المقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات" [المختصر BDS]. وينظر ممثلو هذه المقاطعة إلى أن هذا النداء يمثل تعاملاً استراتيجياً لثروات حملة المقاطعة التي حدثت في الماضي ضد "الاحتلال البريطاني" و"الاستعمار الصهيوني" منذ عام 1920، والتي تكررت مرات عديدة منذ عام 1948. وقد دعم هذا النداء معظم الأحزاب والفعاليات الفلسطينية وممثلو اللاجئين الفلسطينيين وسكان الأراضي المحتلة، فضلاً عن مواطنين يهود في إسرائيل. والحال أن حملة المقاطعة BDS هذه هي حركة عالمية سلمية تضغط على إسرائيل للامتثال لالتزاماتها بموجب القانون الإنساني الدولي وحقوق الإنسان، على النحو المنصوص عليه في كثير من قرارات الأمم المتحدة، وإنهاء احتلال المناطق الفلسطينية والسورية، وإنهاء حالة التمييز الممنهج ضد الفلسطينيين في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وفي إسرائيل نفسها، والسماح بعودة اللاجئين الفلسطينيين من الخارج.

وعلى غرار حركة مناهضة الفصل العنصري، الأبارتهيد، التي حشدت المجتمع المدني العالمي ضد نظام الأبارتهيد في جنوب أفريقيا، أصبحت حركة المقاطعة BDS بمنزلة حركة عالمية قوية وفعالة تدعو إلى اتخاذ تدابير لإجبار إسرائيل على احترام القانون الدولي وإقناع الدول الأخرى والشركات

بالامتناع عن دعم إسرائيل بسبب انتهاكها القانون الدولي. والحال أن الحكومات الأجنبية لم تعرقل الحملات التي قامت ضد الأمارتهيد في جنوب أفريقيا أو من أجل حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة الأميركية، بيد أن تأثير وفاعلية حركة المقاطعة BDS لم تدعم إسرائيل بحسب، بل حتى دولاً أخرى إلى اتخاذ تدابير مضادة لتقمع هذه الحركة.

وقد سنت البرلمانات في فرنسا وبريطانيا وكندا وبعض الولايات الأميركية قوانين، أو اتخذت تدابير تنفيذية لتقمع حركة المقاطعة أو تجريمها أو حتى حظرها. وهدفت هذه التدابير إلى معاقبة الأفراد والشركات والمؤسسات الخاصة والعامة الذين يتخذون على نحو قانوني وأخلاقي قرارات مسؤولة متعلقة بالأعمال التجارية والاستثمارية.

هناك دولٌ أخرى، ولا سيّما السويد وهولندا وإيرلندا، اعتبرت أن حركة المقاطعة BDS تندرج في إطار حرية التعبير، أي الحرية ذات القيمة العالية التي تنص عليها قوانين الدول، وكذلك الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان. وراث أيضاً منظمات حقوق الإنسان المعروفة كذلك، مثل منظمة العفو الدولية، أمستري، والاتحاد الدولي لحقوق الإنسان ومنظمة هيومن رايتس ووتش، أنه يحق للأفراد والجمعيات والمؤسسات الخاصة والعامة والحكومات المحلية والشركات أن تدعم حملة المقاطعة وتتسامح معها وذلك ضمن إطار حرية التعبير. طبعاً لا يتعلق الأمر هنا بما إذا كنا نتوافق مع أهداف حركة المقاطعة هذه وأساليبها. فكل ما في الأمر هو إذا كان من المسموح، في ما يتعلق بحرية التعبير، أن يكون هناك استثناء بغية حماية إسرائيل.

أما من يرغب في هذا الاستثناء لإسرائيل فممثلو الاتحاد المسيحي الديمقراطي في فرانكفورت. وفي ميونيخ أيضاً كتلة مجلس المدينة من الحزب الاشتراكي الديمقراطي والاتحاد المسيحي الاجتماعي. هكذا نجد مثلاً كتلة فرانكفورت للاتحاد المسيحي الديمقراطي قد قدمت في مؤتمر عقده في مدينة إيسن في كانون الأول/ديسمبر 2016 طلباً اتخذت فيه موقفاً واضحاً ضد حركة المقاطعة، ووافق عليه أغلبية المندوبين. وكما عيّر الاتحاد المسيحي

الديمقراطي: "كل من يدعو إلى مقاطعة البضائع والخدمات الإسرائيلية تحت لافتة حركة المقاطعة BDS، فإنه يتحدث باللغة نفسها (سابقًا) التي طالبت الناس بعدم الشراء من اليهود". لا بل يصرح أوه بيكر (Olwe Becker) رئيس دائرة مراكفورت للاتحاد المسيحي الديمقراطي: "إن معاداة السامية عند حركة المقاطعة BDS تمثل يكونها معاداة الصهيونية. لذا يجب توجيه كل الجهود الضرورية لمجابهة هذا الشكل من عداة السامية بحزم ومجاهة العداة العدواني تجاه إسرائيل". لكن دعومي أقل إن مقارنة حملة المقاطعة هذه بحملة المقاطعة التي قامت بها النازية ضد اليهود والشركات اليهودية لهي مقارنة سخيفة ومخادعة وغير تاريخية؛ ذلك أن النازية قاطعت شرا فحسب لأنهم يهود. ثم، بغض النظر عن ذلك، لم تكن الحملة النازية بالمعنى الحقيقي حملة مقاطعة بل استراتيجية توهيبية، حتى وصلت إلى حد أن ينفذ ما يسمى رجال العاصفة (المارين) أمام المحال التجارية لمراقبة الشراء، فمن كان يشتري من أحد اليهود، يغدو في عيون المجتمع الوطني "مذنبًا ويوصم بالعار، والأمر نفسه انطبق على الألمان الذين تزوجوا لاحقًا يهودًا. أما حملة المقاطعة BDS فإنها لا تقاطع شراء بل موجهة ضد سياسة الأذى المتحرقة المتمثلة بمصادرة الأراضي، وهي سياسة، بالمناسبة، لا تحظرها اتفاقيات جنيف والقانون الدولي فحسب، بل حتى أعلى المحاكم الإسرائيلية تعتبرها غير قانونية. لكن الحكومات الإسرائيلية لا تلتزم ذلك لقد كان اليهود حقًا في عصر النازية في ألمانيا عاجزين تمامًا أمام تعسف النازية. أما الإسرائيليون اليوم فيمكن أن يكونوا أي شيء إلا أن يكونوا عاجزين، والحال أن لديهم الخيار: حيث بإمكانهم بالفعل تفويض حركة المقاطعة مباشرة وإلى الأبد، وذلك بالانسحاب من الأراضي التي احتلها في عام 1967 ثم منحها لمالكها الأصليين.

بينما كان هدف النازية يمثل في إيادة اليهودية الألمانية والأوروبية، فإن هدف حملة المقاطعة BDS هو تحرير فلسطين وليس تدمير إسرائيل. ويمكن إضافة هدف آخر إلى الحملة ألا وهو تطبيق القانون الدولي وأن يكون قاعلاً. وهذا الأمر يجب أن يكون بداهياً طعناً. لهذا فإن الأمر مرتبط بالاسرائيليين أنفسهم كي يجعلوا حملة المقاطعة هذه من الماضي. ولم يكن لليهود الألمان في زمن الرايخ الثالث أي مجال لمواجهة مقاطعة النازية. وهنا أشير إلى أنه

بحزنتي، لا بل من السخف، الإشارة إلى هذه العروقات الواضحة (بين ما فعله النازيون ضد اليهود وما تقوم به حملة المقاطعة اليوم).

لقد أوضح الحزب [الاتحاد] المسيحي الديمقراطي في ألمانيا في قراره أنه يرفض ويعارض أي نشاطات لحركة المقاطعة BDS، بل أدانها بوصفها "معادية للسامية". لكن لنُشر إلى أن حملة BDS تأتي من الأسفل من داخل المجتمع، حيث يجري دعمها بأصوات حركة شعبية تظهر لمن هم في الأعلى ما يحدث في الأسفل. والحقيقة التي يجب أن نعلمها هي أن حملة المقاطعة قد نشأت بالأصل في إسرائيل. وحفظت نجاحًا باهرًا حتى إن إسرائيل أجبرت على الدفاع عن نفسها ضدها من خلال وسائل غير عادلة، حتى لو كان من أعضاء الحملة يهود وإسرائيليين.

لقد جاء في البيان الصادر عن مؤتمر الحرب الذي انعقد في مدينة إيسن: "يعارض حزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي الألماني بكل حرم أي أعمال معادية لإسرائيل. إن الحرب في ألمانيا ملتزمٌ بعلاقات صداقة عميقة مع إسرائيل ويواصل العمل من أجل حلٍّ سلمي للصراع بين إسرائيل والفلسطينيين". سأقول في هذا السياق، أن تلك الأكاذيب والسخرية أمر لا يطاق بالتفعل. أم إن هذا يمثل بساطة الغباء بعينه؟ أحب أن أؤكد أيضًا، أننا نحن اليهود، يمكننا الاستعانة عن مثل هؤلاء الأصدقاء الذين يفعلون ما يوسعهم لإطالة أمد الصراع بين الفلسطينيين وإسرائيل.

الأرجح، أن حتى منسقة السياسة الخارجية للاتحاد الأوروبي هيدريكا مويجبرني خُصبت مع "معادي السامية"، بسبب اعتبارها في تشرين الأول/أكتوبر 2016 أن أنشطة وإجراءات حملة المقاطعة BDS تتدرج ضمن حرية التعبير عن الرأي وحرية التجمع وفقًا لما تقول به الحقوق الأساسية للأمم المتحدة.

إنهاء بنك الاقتصاد الاجتماعي الحساب المصرفي لإحدى المنظمات

إنه لأمر شائن أن يتهم رئيس مجلس "بنك الاقتصاد الاجتماعي" الألماني، الأستاذ شميتس (Schmidt) اليهود الألمان والإسرائيليين الذين ينتقدون السياسة

الإسرائيلية ويدعمون حملة المقاطعة بأنهم يتحدثون عن إبادة إسرائيل. هل يحسد هذا غياب؟ لقد أطلق مصرف هذا الرجل ل تلك الأسباب نفسها، [أي] لقد إسرائيل ودعم المقاطعة، في تشرين الثاني/نوفمبر 2014، ومن دون أي تردد، الحساب المصرفي لمنظمة "الصوت اليهودي من أجل السلام العادل"، المنظمة التي تعمل لمستقل الفلسطينيين والإسرائيليين معاً يمكننا أن نضحك على هذه النقطة، إن لم تجسّد الصحافة بعينها ونماذجها. يريد المصرف أن يوضح لنا بالفعل من خلال هذا التصرف كيف يجري توظيفه على نحو صحيح سياسياً، وكيف تُشكّل نماذج الأمور، بل الدعا أيضاً بكل شجاعة عن موافقه. لكن إذا ما نظرنا إلى هذه النقطة بمعنى أكثر، فيظهر لنا أن المواطنين المسؤولين في هذه المؤسسة هم أنفسهم المعادون للحفيظون للسامية؛ لماذا؟ لأنهم دوناً ما ينظرون إلى اليهود نظرة مميزة وعاصمة، وتحديدًا في ظل غياب المعرفة. وهذا بالضبط ما يمثل الخيانة. الجهل بالفعل يُطبق عليهم ولا يعلمون أنهم سيجعلهم هذا يكشفون لنا عن معادتهم للسامية. ثم إن إلغاء حساب مصرفي لأسباب سياسية يُعدّ اعتداء على حرية التعبير، فضلاً عن أنه يجسّد تمييزاً يحظره الدستور في ألمانيا. من الصعب حقاً تصوّر أن يقوم مصرف، يفخر بخطه الاجتماعي، حتى اسمياً كما يفسح اسم المصرف نفسه، بتصنيف رباته على أسس سياسية ويلقي حساباً مصرفياً لإحدى حركات السلام. وهذا ما يعني في المقابل أن كثيراً من الناس يختارون مصافهم وفقاً لمواقفهم الأخلاقية والسياسية. والآن بعد أن كُشفت هذه القضية للمصرف، فإننا نعرف تماماً ما نسعى إليه حملة المقاطعة BDS.

لقد تأسست منظمة "الصوت اليهودي من أجل السلام العادل في الشرق الأوسط" قبل ثلاثة عشر عامًا كفرع ألماني لمنظمة "الصوت اليهودي من أجل السلام العادل" الأوروبية. ومنذ ذلك الحين تعمل الحركة هنا في ألمانيا والاتحاد الأوروبي من أجل تطبيق حقوق الإنسان العالمية في إسرائيل وفلسطين، وكذلك من أجل حل سلمي عادل بين الشعبين. وقد شجّلت الحركة منذ عام 2007 كجمعية غير ربحية. وهنا يخسر الجمهور الألماني بالفعل أن المجتمع اليهودي هنا متنوعٌ ويزي بالتقد أكثر مما يصدوه لنا الممثلون

الرسميون للجالية اليهودية. والجمعية كانت على وعي تام أن نشاطاتها لن تنال إعجاب بعض الداعمين للحكومة الإسرائيلية. إلا أن العزم لم يدرك أن الأمر سيصل إلى درجة أن ينتهك مصرف ألماني الحق في حرية التعبير عن الرأي.

يمكن تلخيص ما جرى، في أن الجمعية تلقت في بداية تشرين الثاني/ نوفمبر 2016 رسالة من بنك الاقتصاد الاجتماعي أخبرها فيها أنه سيتم حتى نهاية السنة إلغاء الحساب المصرفي، طبقاً هكذا من دون ذكر أي سبب. لكن، في النهاية بعد محاولات مطولة لتوضيح سبب الإجراء هذا وبعد ممارسة ضغط كبير من جانب كثير من الداعمين، يزر البنك قراره بأنه سياسي: ذلك أن دعم منظمة الصوت اليهودي لحملة المقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات قد مثل بالنسبة إلى المصرف ما يشبه المخز في العين. أما من أطلع البنك على هذا الدعم فهو شخص يعمل في صحيفة جيروزاليم بوست الإسرائيلية، تلك الصحيفة المصطنعة في مسار الطيف السياسي اليميني. ربما بمجرد أن سمع مجلس بنك الاقتصاد الاجتماعي ألقاظاً مثل "القدس" و"اليهود" و"معادة السامة"... وسواها، حتى بدأ الهلع يتأبه ويتصب عرقاً. لكن حقيقة أن المصرف اشترك هنا مع العين المتطرف في إسرائيل، لهُو أمر لا يشك فيه مجلسه اليوم. وإضافة إلى ذلك فقد سار وفق التفسيرات السائدة والمسيطرّة [في ألمانيا]، مصرف النظر عما يحدده الدستور بشأن أيّ الأراء يمكن تبنيها وأنها لا، لكن لتقلها بكلمات أخرى: إن المصرف يمارس رقابة سياسية. وفي الوقت نفسه كان أعضاء المصرف هذا قد أعلموا جريدة جيروزاليم بوست الإسرائيلية بأن الحساب المصرفي [للجمعية] قد ألغي، وبهذا يكونون قد انتهكوا أيضاً السرية المصرفية التي يكفلها الدستور.

الأمر نفسه حصل معي كذلك مع البنك التجاري (Commerzbank) وبالفعل فقد كان عليّ أن أعلم من مقالة في جريدة جيروزاليم بوست اليمينية نفسها أنني من داعمي حملة المقاطعة، ولهذا جرى إلغاء حسابي المصرفي. لكن على عكس بنك الاقتصاد الاجتماعي لم يوضح في النهاية البنك التجاري أسباب إلغائه حسابي المصرفي. طبقاً ففتح حسابي مع المصرف من أكثر من أربعين

سنة. ولي صديق اسمه أوزي أفيري كان يستعلمني عما يحدث في ألمانيا، ثم أخبرني أن المصارف الإسرائيلية نفسها لا تلغي الية حسابات مصرفية لأسباب سياسية، ولكن قد تقوم بإيقاف حركتها إذا ما كانت هناك أسباب سياسية. أما في ألمانيا فالأمر يحدث بالعكس. لكن إذا كان الحال هكذا، فلربما يجب علينا فتح حساباتنا المصرفية في إسرائيل. لأننا لن نلهم حينذاك بأن حساباتنا المصرفية "تسعى لزعزعة استقرار دولة إسرائيل".

كانت المنظمة نفسها "الصوت اليهودي من أجل السلام العادل" قد أعلنت في بيان صحفي سبب دعمها حملة المقاطعة غير العنيفة ضد الشركات الإسرائيلية والدولية. وجاء في بيانها: "لننا نرفض مزاعم إدارة البنك أن حملة المقاطعة BDS موجهة ضد وجود إسرائيل". ويكمل "إذا ما تجاوزنا بنظرنا الحدود الألمانية، فيظهر لنا أن هناك شخصيات معروفة وعالمية، بمن في ذلك كثير من العلماء ذوي المكانة المرموقة، قد انضموا إلى حركة المقاطعة وهم على وعي وقدر عالي من المعرفة والضمير الذي تحمله هذه الحركة. نذكر مثلاً من بين هؤلاء الشخصيات: جوديث بلتر، وأنجيلا ديفيس، والأسقف فرموند توتو، ونالومي كلاين، وأليس ووكر".

هنا أود التأكيد أن قرازي بنك الاقتصاد الاجتماعي والبنك التجاري لم يسبأ لي ولا لمنظمة الصوت اليهودي أي ضرر. والحال أن منظمة الصوت اليهودي قد نقلت حسابها إلى بنك ألماني آخر هو "مصدق التوفير" (Sparkasse)، حيث لا يمكن إلغائه أبداً. كما قمت أنا أيضاً بفتح حساب جديد لي قبل سنوات عدة في بنك آخر. لكن أي فريق ضرر. لقد أضر هذا الإلغاء لحساب زبون المصارف نفسها التي فقدت ثمة السكان بها، وعليها الآن أن تقبل واقع أن يلغي زبائن آخرون حساباتهم عندها.

كانت المندوبة الرسمية باسم بنك الاقتصاد الاجتماعي شتيفاني روت (Stephanie Ruit) قد أوضحت الأسباب التي دفعت البنك إلى هذا الإجراء. ووفقاً لها فإن الأمر الحاسم في إلغاء الحساب المصرفي هو دعم منظمة الصوت اليهودي لحملة المقاطعة BDS، وهو ما يهدف إلى "زعزعة استقرار

دولة إسرائيل، وهذا أمرٌ يخالف قوانين البك*. وقد كتبت هذه السيفة في إحدى الرسائل الإلكترونية لأحد داعمي "الصوت اليهودي من أجل السلام" والذي كان يستعلم عن أسباب هذا الإلقاء "بالطبع إنك تعلم أن الجمعية العليا للرعاية اليهودية في ألمانيا هي واحدة من الأعضاء المؤسسين لبك الاقتصاد الاجتماعي الذي تأسس في عام 1923. نحن ملتزمون بتحقيق المصالحة بين ألمانيا وإسرائيل منذ نهاية الحكم النازي وتدعم حق الدولة اليهودية في الوجود".

استند المصرف أيضًا، لتبرير ذلك القرار، إلى تقسيم مؤسسة فريدرش ناومان (Friedrich-Naumann) التي توصلت إلى نتيجة في أحد بياناتها (عنوانه "مقاطعة السلام: حركة BDS والعرب" 6 تشرين الأول/أكتوبر 2015)، الذي يوضح لنا أن حركة المقاطعة BDS لا تسمى "سوى بشكل سطحي بهدف الإضرار بإسرائيل اقتصاديًا وذلك من خلال رفض التعاون معها. بيد أن دافعها في ذلك هو تشويه صورة إسرائيل الخارجية في المجتمع الدولي غير المعني بالأمر من خلال حملة تم التخطيط لها بدقة وعناية: إن حملة المقاطعة BDS تريد الوصول إلى العقول وليس إلى خزائن المال".

هنا، نذكر سريعًا أحد الشهود المهمين الآخرين الذين أعاد منهم المصرف، [أي] البروفسور الألماني المحاضر في علم الاجتماع الدكتور صامويل زالنبورن (Samuel Salzborn)، من جامعة غوتنغن، هو الآخر يصف الحملة بأنها تجسّد "تمييزًا عن المصالح الفلسطينية والمحقة بالأخلاقية الفلسطينية، إنها تعبير يهدف إلى زيادة الضغط السياسي على إسرائيل على الصعيد الدولي والإحاطة بالسياسة الفلسطينية". يقول زالنبورن: إن الحملة ليس لها الحق في أن تشير إلى النضال ضد نظام الفصل العنصري، الأبارتهايد، في جنوب أفريقيا، لأنها حملة "لا تسمى إلى النقد [...] بل تبنّيها معاداة السامية"⁽¹⁾.

أما الحكومة الألمانية فتري الأمر على نحو مختلف. لقد أحاطت هذه

(1) "Judenbait oder Antisemitismus? Kriterien für eine Unterscheidung," in Aiche und Herz/Neudorfer Theologische Zeitschrift, Heft 1 (2013).

الحكومة مرة عن تساؤل من كتلة حزب الخضر في البرلمان، المتمثلة بقولانكر بيك، فيما إذا كانت تصف حملة المقاطعة BDS، التي توجّه نشاطاتها ضد إسرائيل، معادية للسامية أم لا (مادة مطبوعة برقم 3870/18)، أجابت بأنها لا تملك معلومات عنها. لكن السؤال- ما الذي أجبر بنك الاقتصاد الاجتماعي على أن يسير بهذا الإلغاء الخفيف وغير المألوف لحساب مصري؟

لنشدد أن ما من نية لحملة BDS لسحب البساط من تحت أقدام الدولة الإسرائيلية كما يزعم اللوبي الصهيوني، بل إنها تكافح حصراً ضد الاحتلال، وأيضاً، وهذا ما لا يمكن أن يقال معظم الأحيان، تكافح ضد انتهاك القانون الدولي. أجيبوني من فضلكم، من يريد هنا في ألمانيا أن يكون أكثر دكاء من القانون الدولي؟ من الواضح أن بنيامين نتنياهو وحكومته يريدان في حملة المقاطعة هذه تهديداً حقيقياً لإسرائيل، لكليهما بهذا يرسمان عواقب عكسية وحاطة. فبدلاً من أن يُنهوا الاحتلال، نجدهم يقاتلون خصومهم.

وأخيراً، فإن حملة المقاطعة تكسب المزيد والمزيد من الشعبية، ليس بين السكان فحسب، بل أيضاً بين المصارف والشركات والمجموعات الموسيقية والكتاب، هذا في حين تقوم الحكومات الإسرائيلية بتوسيع سياسات استعمارها وتكتيقها. إنها بالفعل تلك الهجمات الإسرائيلية المتكررة على قطاع غزة والمواجهات العنيفة المستمرة منذ عقود بين جيش الدفاع الإسرائيلي (العبرية: تساحال) والمدنيين الفلسطينيين... إلى آخر ما هالك، نقول إنها تلك الإجراءات الإسرائيلية التي ألحقت الضرر بسمعة إسرائيل، وليس بالطبع من يقاوم ذلك أو يتد بتاتهاكات القانون الدولي.

يمكن الإشارة إلى أن الدعوة التي التزمتها منظمة الصوت اليهودي تخضع لشروط واضحة؛ فهي غير موشّعة ضد دولة إسرائيل المعترف بها دولياً، بل على نحو لا ليس فيه ضد سياسات الاحتلال والاستيطان والتهجير التي تعارضها حكوماتها. من هنا نجد أن المجتمعات المدنية في كل مكان تقاوم بوسائل غير عيفة الانتهاك المستمر للقانون الدولي من طرف الحكومات الإسرائيلية. لقد دعا سياسيون في ألمانيا، بالفعل، مثل هلموت شميت وريتشارد هون فايتساكر

وشخصيات مازرة أخرى، إلى فرض عقوبات على إسرائيل. ولغضاً عن ذلك، سحبت شركات أخرى استثماراتها من الأراضي المحتلة، مثل دويتشه بان (DB) [شركة القطارات الألمانية]، وشركة إسمنت هابيلبرغ وموخرًا شركة HS [شركة أسية]، وأغنى كثير من مصارف الكنائس الأميركية أيضًا استثماراته هناك وشحبت، واعتمد الأمر كذلك إلى الفئتين الذين حددوا حدود حملة المقاطعة للابارتهايد في جنوب أفريقيا وألغوا عروضهم في إسرائيل. بالطبع إن هذه الإجراءات تضر بالاسرائيليين، لكن هذا هو المراد بالضبط، لأن ما تهدف إليه هذه الحملات، وغيرها من حملات المقاطعة للمجتمع المدني، هو إحداث تغييرات من المستحيل تحقيقها بوسائل أخرى.

لكن ينبغي هنا الإشارة إلى نقطة أخرى: لا يدعم كل أعضاء منظمة الصوت اليهودي فعالية جميع مطالب حملة المقاطعة BDS، بيد أن الجميع يوافقون على الحق الذي يكفله الدستور وذلك في دعم هذه الحملة أو المشاركة بفاعلية فيها. وهكذا، تمثل حملة BDS صوتًا ملتحقًا تمامًا للدفع بالحكومة الإسرائيلية إلى التفكير مليًا في سياساتها للاحتلال والاستيطان، وهو الأمر الذي يصيب في مصلحة كل من الشعبين اليهودي والفلسطيني. لهذا فإن تهمة بنك الاقتصاد الاجتماعي بأن منظمة الصوت اليهودي تنكر حق إسرائيل في الوجود لهاي تهمة سخيفة، ليس أقله حتى ينظر كثير من الإسرائيليين؛ طمعًا إلا إذا كان المصرف يعني بأنه لا يمكن إسرائيل أن توجد من دون أن تكون قوة احتلال.

لقد تطاهر كثير من المنظمات وأعضاء مختلفون في البرلمان الألماني من اليسار والحزب الاشتراكي الديمقراطي وحزب الخضر وكذلك كثير من المواطنين ضد قرار المصرف إلغاء حساب زوني له. وإضافة إلى ذلك، وصلت أصداة هذه الحالة غير المسبوقة إلى الرقابة السياسية لجمعية يهودية في "جمهورية ألمانيا الاتحادية" وأيضًا إلى الخارج. وقد أعلن بعض المنظمات أيضًا أنه يعتزم كذلك إنهاء حساباته لدى بنك الاقتصاد الاجتماعي احتجاجًا على ذلك. وأمام هذه الضغوطات، وجب على البنك في نهاية المطاف سحب إلغاء الحساب المصرفي للمنظمة.

نشير أخيراً إلى مسألة هي أن هذا القرار لسك الاقتصاد الاجتماعي في إلغاء الحساب المصرفي مع حلول نهاية عام 2016، فهو قرار يجسد ما نغنيه إسرائيل. وهذا الكلام ممي ليس نظرية مؤامرة، بل يمكن فراءته في مقالة لبيامين وابثال في صحيفة جيروزاليم بوست هي 28 تشرين الثاني/نوفمبر 2016. لنقرأ مثلاً ما كتبه حطعماد أردان، وزير الأمن العام الإسرائيلي، الجناح اليميني: "لنني أرحب وأنتي على قرار البنك التجاري والسوك الأوروبية الأخرى بإغلاق حسابات منظمات المقاطعة". ويكمل: "إنه لأمر صحيح أن يتخذ هذا الإجراء، سواء من منظور قانوني أو مالي أو أخلاقي". لا بل وصل أردان إلى درجة مطالته بنية المضارف بأن تحدد حدو قرار البنك التجاري. وإلى اليوم، لم يعتذر البنك التجاري، بالمناسبة، عن إجراءاته ذلك ولم يتراجع أيضاً عن قرار إلغاء الحساب المصرفي.

هل هناك ما يدعو اليهود إلى القلق؟

في عام 2015، وفي ظل المجلس المركزي لليهود في ألمانيا، تأسس ما دعي "مبادرة القيمة" لتعريف القيم الأساسية الديمقراطية الحرة" وقد قامت بها حلقة الأصدقاء اليهودية في برلين. وفي ربيع 2017 نشرت "مبادرة القيمة" (Wertebewegung) هذه مواقفها في انتخابات البرلمان الألماني، كما استشهدت في الوقت نفسه من الأحزاب الألمانية عن مواقفها تجاه الجالية اليهودية ونجاح إسرائيل.

لقد أمل المبادرون بفتح نقاش مكثف للمطالب التي صاغوها بغية تعزيز "ثقافة رائدة حرة وديمقراطية" ومعارضة فاعلة ضد "معاداة السامية الإسلامية"، وهي القيم التي يعتبرها مجتمعنا مهمة وجديرة بالدفاع عنها. ووفقاً لتصور هذه المبادرة المستقلة فإنه يجب اعتبار ما ينظر إليه اليهود بأنه "مشكلة"، كونهم معرضين على نحو متزايد للعداوات، كما يُفترض، يجب اعتباره يهدد وجود الديمقراطية للمجتمع بأكمله.

إضافةً إلى الموضوعات المذكورة أعلاه، كان من بين ما استشهدت عنه "مبادرة القيمة" من الأحزاب الألمانية قضايا تتعلق بالحرية الدينية وعلاقة الألمان بإسرائيل. ومن الجدير ذكره أن حزب البديل لأجل ألمانيا (الحزب اليميني) علّق فحسب على بند فرعي وحيد وكرر صوغه وفقاً لبرنامج سياسته: "يجب أن تقتصر الجنسية المزدوجة [من يحمل جنسيتين] على الحالات الخاصة المبررة". أما موقف الحزب هذا من القضايا الأخرى فكان الصمت.

والحال أن "مبادرة القيمة" قد أوضحت في بيانها: "حتى عندما يتحدث كثيرون عن أن الشخص يمكن أن يحصل على جنسية واحدة فحسب، إلا أن هناك أسباباً نجبر المرء على اتخاذ جنسيتين التين، مثلاً مع المواطنين

الألمان-الإسرائيليين". لكن السؤال البداهي الذي من الممكن أن يطرحه كل مواطن: لماذا يُفضل الإسرائيليون مرة أخرى؟ هل لأنهم يهود؟ لا شك في أن ألمانيا تتحمل قدرًا من المسؤولية تجاه اليهود، وقد كان الأمر صحيحًا في ما جرى، مثلًا، مع والذي الذي أعيدت إليه جسيته الألمانية من دون مطالبة بالتخلي عن الجنسية الإسرائيلية التي حصل عليها سابقًا. هل يتعلق الأمر هنا، لهذا السبب، بمبدأ شامل أبدي لا بطاولة التغيير، أم ينبغي بالفعل إصلاح هذا المنهج بعد 70 عامًا من انتهاء حقبة السيطرة النازية؟

لقد أكد تحالف من الأحزاب الألمانية - الحزب الاشتراكي الديمقراطي وحزب اليسار والحزب الديمقراطي الحر - على نحو مفصل، وإلى حد ما بصيغ متشابهة، التزامه تجاه الحياة اليهودية في ألمانيا ومكافحة كل شكل من أشكال معاداة السامية، طبعًا وهو أمر يبدو أجوف الآن، لكن سأطرح تساؤلًا، لماذا لا يسمع المرء عن اندماج المواطنين اليهود في ألمانيا، في وقت نسمع فيه كثيرًا حذرًا عن موضوع اندماج المواطنين المسلمين؟ إنني أطرح هذا السؤال كوننا نعلم أن اليهود لا يزالون غير مدمجين رسميًا بل يُنظر إليهم فحسب على أنهم "يهود في ألمانيا". ولنعلم أن ما طرحته "مبادرة القيمة" في حديثها عن "اليهود الألمان" يُعتبر ثامنًا أول مرة يُستخدم فيها هذا التعبير، أي عن الألمان ممن يؤمنون باليهودية، وهو وصف استخدمه اليهود أنفسهم قبل صعود النازية.

الآن يرى التحالف في ألمانيا أن هناك "ما يدعو إلى الفرح"، لأن "كثيرًا من اليهود في ألمانيا يمكنهم رؤية وطنهم مرة أخرى"؛ ونجد أيضًا حزب اليسار "سعيدًا لأن حياة يهودية كانت في ألمانيا، ولا تزال، رغم الهولوكوست الذي حدث بحقيقتهم"، أما حزب الخضر فتراه "ممتنًا للحياة المتنوعة وإعادة تجلُّد الثقافة اليهودية من جديد"، ولا ينسى أيضًا الحزب الديمقراطي الحر أن يبدى "معادته بمرحور هذه الحياة اليهودية في ألمانيا". وبالفعل، تعبّر الأحزاب الألمانية الخمسة عن التزامها المسؤولية الألمانية الخاصة تجاه أمن إسرائيل؛ بل حتى اليسار نفسه أيضًا يعبر عن ذلك، رغم أننا غالبًا ما نسمع نقدًا من صفوفه لسياسات الدولة اليهودية.

ثمة غموض نوعاً ما يتخلل هذه العبارة اليهودية، "مبادرة القيمة"، بل إنها أحادية الجانب وشوقية، أما ما بلغت تحديداً فهو معادتها الصريحة للإسلام. لنقرأ مثلاً: "على ألمانيا أن تتوافق مع قيمها إذا ما أرادت أن تكون" بلذاً حقيقياً للهجرة، [الكن] ومع وصول ملايين المسلمين إلى أوروبا، تزايدت كراهية اليهود، كما أن موقف كثير من المسلمين من اليهودية لهو معروف على نحو كافٍ. والحال أن عملية مطاردة جديدة لليهود قد بدأت، أما الأغلبية فتجدها صامتة إزاء هذا، حتى اليسار نجده صامتاً أيضاً.

ها كذلك نجد أن موقف البيان اليهودي ذلك يدافع عن ثقافة ديمقراطية حرة رائدة، لكن لمصلحة من، لمصلحة المواطنين فحسب من الدين يفتقون في صف إسرائيل ويتحذرون انتقاد سياستها. ولقد عثر المجلس المركزي لليهود أيضاً عن رغبته في أمور مشابهة، وتحديداً التحقق من موقف كل لاجئ من إسرائيل، فإذا ما كان موقف اللاجئين مخالفاً لما يروم إليه المجلس المركزي، فيجندك ينبغي منعهم وإغلاق مساجدهم وملاحقتهم قضائياً، أي باختصار: أن يجري طردهم.

تشدد "مبادرة القيمة" اليهودية بوضوح، على أنها تأخذ في الحسبان قيم الدستور الألماني باعتباره مسيحياً-يهودياً، حتى وإن قيل إن اليهود لم يصنعوا حقاً الدستور، بل الذي صاغه المسيحيون من خلال مسيحيتهم، التي تستند [أصلاً] في الأساس إلى اليهودية". هل هم اليهود إذاً؟ لكن دعوني أثير هنا إلى أن قادة الدين اليهودي أنفسهم أعلنوا منذ قرون أن قوانين الدولة هي فوق القوانين الدينية، وهذا يعني ببساطة أن زعماء الدين اليهودي الأذكاء قد طالبوا منذ زمني بعيد بالاندماج، لكن بأن "لا يعارض ذلك القضايا الأخلاقية"، وهذا ينطبق على جميع البشر، وليس اليهود فحسب. ولهذا فإن الجملة التالية فهي جملة سخيفة وغبية: "وهذه هي الحال عندما تطالب الدولة بجرائم مدنية، كأن تطالب قتل مواطن يهودي، وهذا طلب لا يحوز لليهود أشاعه تحت أي طرف من الظروف". لكن ماذا عن غير اليهود؟ سيسمح لهم بذلك، اليس كذلك؟ أسأل هنا: أي دولة تطلب من "مواطنيها اليهود" ارتكاب جرائم قتل؟ لكن

عموماً، يمكن تصوّر هذا الأمر بالنسبة إلى في إسرائيل أكثر منه في ألمانيا. ولقرأ أيضاً في البيان نفسه هذه الجملة: "لا يمكن ترفع هذه القضايا في ظل الديمقراطية. ومع ذلك لا ينبغي تجاهل أن ثمة تناقضات لا يمكن التوفيق فيها بين الدستور الألماني والدستور الإسرائيلي في ما يتعلق بالحرية الدينية". لكن إسرائيل ليس لديها دستور. ويبدو بالفعل أن القوميين اليهود الذين صاغوا هذا البيان يعيشون ثماناً في عالم آخر حينما يرون أن "الإيمان ما عاد يفهم في معظم بقع العالم على نحو ديني، بل أساساً على نحو قومي (...)". وهذه الرؤية تنتشر ببطء في ألمانيا، وربما يكون هذا بسبب حركة الهجرة الحالية. أما في ما يخص التعامل مع الإسلام السياسي، فإننا نجد المطالبة كذلك بمع تأثيراته ودعمه؛ وهو الأمر الذي "لا نجده يؤخذ به في ألمانيا، وعلى نحو أقل في إسرائيل" (في مسألة تقويض الإسلام السياسي). من الصحيح أن إسرائيل لا تدعم الإسلام السياسي، وبالمناسبة ألمانيا أيضاً لا تدعمه، لكن إسرائيل تدعم خصوصاً اليهودية السياسية المتعصبة والاستعمارية القومية للمستوطنين ومنظمهم غوش إيمويم. هل يعتبر هذا الدعم أفضل؟⁽¹⁾

يقف البيان الحالي على نحو صريح ضد المسلمين؛ إننا نقرأ مع: ثمة سؤال يمكن طرحه راءنا ويتعلق بما إذا كان للتدفق القوي للمسلمين من الدول التي تخوض معها إسرائيل حرباً (المعني ثماناً: سورية) له تأثير سلبي في الوضع الأمني لليهود الذين يعيشون في ألمانيا. والحال أن أي شخص لديه علم عن الكراهية لليهود في معظم الدول العربية، تلك الكراهية التي ينشرونها حقاً في رباض الأطفال، سيقرّ بصدق أن الخطر على حياة اليهود ووجودهم في ألمانيا يتصاعد مع كل مهاجر مسلم من الشرق". وبالفعل يمكن أن تكون هذه السطور مأخوذة من المجلات المحرّفة للفترات الأشدّ ظلامية؛ إنها عصرية

(1) يعني غوش إيمويم "مطبعة المؤمنين"، وهي مطبعة دينية يهودية تعمل خارج إسرائيل في إسرائيل. أسسها في عام 1974 مربيو مركز الحاخامات توك (Moshé Halberstam)، آل هدف هذه المطبعة هو "استبعاد اليهودي لكل أرض إسرائيل" التي وعد الرب اليهود بها. وقد لفتت الفوتاجي ويشتّر أفرادهم بنسختي توك (1989-1993) وهو الحاخام "ألكندري الأول" لمسيح سليمان الأتلات البريطاني - واسم ربي حرد توك (1893-1982) من الأباء الروحانيين لهذه المطبعة.

ومثيرة للاشمئزاز. لكن لا ننسى أننا إذا نظرنا إلى ما يُعلّم في رياض الأطفال ومدارس المستوطنين القوميين المتطهّرين اليهود، سنجد على نحو مرعب العنصرية وكراهية العرب على أشدهما هناك.

لم يتو هذا الهراء الذي يقدّمه البيان، فلنقرأ أيضًا: "السوء الحظ، لا يمكن أن يتكيف المهاجرون المسلمون في وقت قصير مع المواطن الألماني العادي، الذي يعيش فترة ما بعد الهولوكوست، والذي نعلم كيف ينكر كراهيته لليهود ويتخلص منها". لكن أنا من جهتي أأمل أن لا يتكيف المهاجرون، الذين لا علاقة لهم بالهولوكوست ثانية، مع المواطنين الألمان ولا أأمل أن يتكروا كراهية اليهود التي لا يحملونها بالأصل ولا أن يتخلصوا منها.

طبقًا للحريص لم يتو، إننا نقرأ كذلك: "ليس من المعروف إلى الآن ما إذا كان اندماج اللاجئ سيجب تمامًا، بيد أن نجاحه مشكوك فيه. وطبقًا سيعاني اليهود في ألمانيا وفي جميع أنحاء الاتحاد الأوروبي أكثر من غيرهم في [مثل] هذه التحارب العاشلة. ووفقًا للأخلاقيات اليهودية، وليس من العفيدة أن يتعرض غير اليهود للأذى بسبب سياسات الهجرة المخاطئة". هكذا يستمر الكذب والسخافة. لكن لنعلم أن الأخلاق اليهودية تقول إنه ينبغي إشراك الغرباء واحترامهم وحمايتهم. ولا ننسى أن الحاخام هيليل¹⁷ قد لمخص جوهر ما تطلبه اليهودية حينما قال: "تجنب أن تتصرف مع الآخر بفعل لا ترغب أنت في أن يفعله بك". والحال أن اتهام اللاجئ والمسلمين عمومًا بتهمة معاداة السامية لهم أمر شائن، بل يجسّد سياسيًا خطأ يمكن أن يأخذ بثأره يومًا ما.

لا يمكنني، والحال هذه، إلا أن أنصح سيدات وسادة "مبادرة القيمة" هذه، طبقًا للمبادرة اللايودية، أن يهتموا بشؤون المهاجرين اليهود، مثلًا اليهود الذين أتوا من روسيا وأخذتهم ألمانيا، ذلك لأن هؤلاء المهاجرين هم أنفسهم يعيدون جيدًا من الاندماج. أما المبادرون، دعاة هذه المبادرة، فيبدون بالنسبة

(17) كان هيليل أحد أهم الحاخامات الغربيين في فترة تدفق اليهود إلى فلسطين (عائلته لزموا 10 إلى البلاد)، وهو رئيس السهرير ومؤسس مدرسة تفسير الكتاب المقدس، وإلى اليوم يرجع إليه اليهود.

إلى لا يسيرون وفقاً للدستور [الألماني]. إننا نقرأ من بيانهم: "يرى الألمان اليهود أنفسهم باعتبارهم مواطنين لهم ولاء لألمانيا، ولهم وطنهم هنا". ولكن بعد مضعة سطور يمكن أن يقرأ المرء من البيان نفسه: "يرى كثير من اليهود موطنهم الروحي في إسرائيل". هل هذا هو السبب إذاً في أنهم بحاجة أيضاً إلى جواز سفر إسرائيلي روحي؟ اليوم يطالب المرء الحكومة الألمانية بأن تكون حذرة في ما يخص "تحقيق الرغبة الفلسطينية في تقرير المصير"، أي بمعنى آخر أن تتجاهل هذا. لا بل نجد أيضاً كيف تحلّل الحكومة الفدرالية الألمانية من أن الجمعيات الإسلامية "تعارض مع الدستور" الألماني ويُذكر كذلك بأن "التحزب اليهودي والذبايح اليهودية الحلال (kosher slaughter) هي من أعمدة الديانة اليهودية" وتمثّل قوانين يهودية يتخفى السماح بها، أي في مقابل القوانين المحلية، طبقاً هذا على الرغم من الاعتراف منذ فترة غير طويلة أن قوانين البلاد هي فوق قوانين الدين.

وبالطبع لا ينبغي، مع هؤلاء، تفويت أي معركة ضد معاداة السامية، وهي دوماً تُفاد كما لو أنها تعويذة كلاسيكية: "هناك إجماعٌ سياسيٌ حقيقي في ما يخص الحرب ضد معاداة السامية الكلاسيكية. إنه المكره نفسه، لكن بغير عبادة، والذي يتلصص معايير مزدوجة كـ "قند إسرائيل" و"معاداة الصهيونية" وحركة المقاطعة". لكن لتعلم أن هناك الملايين من الإسرائيليين واليهود ممن يمارسون "قند إسرائيل"، وشعة الملايين من اليهود من "المعادين للصهيونية" وهناك الملايين من اليهود ممن يسيرون في حركة المقاطعة BDS؛ فهل هؤلاء جميعاً معادون للسامية؟ طبقاً ليس من الصعب هنا رؤية أن الأمر يرتبط بشيء آخر، ألا وهو أن تسود هناك سلطة عليا في تفسير الأمور، أي سلطة المعنى التي يجب الدفاع عنها بكل الوسائل حتى وإن كانت حائرة، ثم كيف يمكن المشرفين الكيماوي قياس الأمور، هذا إذا كان الأمر يتعلق افتراضياً بمعاداة السامية، بمعايير مزدوجة، وتحديدًا هؤلاء، ذلك أنهم يرون في ذلك ميزة أساسية للماذج المنطقية المعادية للسامية؟ لقد انتشر في الحقبة النازية شعار ساطر يقول: "الأمر الذي لا نرغب في أن يجعله امرؤ بك، نُصنّفه بامرؤ آخر"، وهذا بالضبط ما يفكر فيه سيدات وسادة "مبادرة القيمة"، لكن للأسف ليس على نحو ساطر.

بالتزامن مع نشر هذا البيان لليهود الليبراليين الديمقراطيون كانت صحيفة يوديشه أليمانيت قد نشرت استطلاعاً بين الحاخامات في ألمانيا بشأن أهمية القضية القبرية في ما يخص عملية السلام. والحال أن الإجابات كانت مخيبة وغير "ديمقراطية ليبرالية". هكذا مثلاً يرى الحاخام الأرثوذكسي أنيهاي أبل من مدينة فرانكفورت: "حقاً في أرض إسرائيل هو حق تاريخي، ولكن قبل كل شيء إنها هدية [لنا] كما هي التوراة. أرض إسرائيل تعني أرض إسرائيل بأكملها". أما الحاخام الأرثوذكسي إيشا بورتنوي من مدينة ديساو (في إقليم سكسونيا) فيرى: "لا يجوز لأي حكومة لأسباب أمنية التخلي عن سيطرة واحد من الأرض لأنها تراث الشعب، بل يضيف أيضاً: "الرب يقرر لمن يمتنع هذه الأرض". ربما اتصل بالفعل هذا الحاخام بورتنوي هاتفياً بالرب الذي ضمن له أنه منح الأرض بالتأكيد لليهود. لكن حتى لو اتصل بالرب، فإن الفلسطينيين هم "يهود" أكثر من اليهود الأشكناز أنفسهم، والذين ربما التحدوا جميعاً من شعوب الخزر.

لقد كتب الحاخام الأرثوذكسي رافائيل إفروز (Raphael Evers) من مدينة دوسلدورف: "أعتقد أن الرب وعد بإعطاء الأرض لشعب إسرائيل، حرفياً²⁴ وأسأل هنا ما إذا كان يعتقد "حرفياً" بالوصايا والمحرمات التي فرضها الرب؟ مثلاً بشأن احترام "الأحني" كما جاء في التوراة: "وإذا نزل عندك غريب في أرضكم فلا تظلموه. كالوطني منكم يكون لكم الغريب التازل عندكم وتعبه كنفسك لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر. أنا الرب إلهكم" (سفر اللاويين، الأصحاح 19: [33]-[34]).

يقول الحاخام أولريكه أوفنبرغ من الجالية الليبرالية من مدينة هامبورغ (في ولاية سكسونيا) إن "أرض إسرائيل أمر لا غنى عنه. لا يمكن التخلي عن الأرض". لكن ماذا بعد ذلك، لو أن الفلسطينيين اعتقدوا أنهم لا يستطيعون التخلي عن أراضيهم؟ وتجد كذلك حاخاماً ليبرالياً آخر اسمه سالومون أليميكياس-ريغل (Salomon Almekias-Reigl)، ينشط كعالم جغرافيا، يصرّح: "تتمتع أرض (إسرائيل) من الصحراء إلى لبنان؛ ويمثل الغرقات الحدود الشرقية لأرض الرب الموعودة. وتشمل هذه الحدود المتألفة أيضاً الضفة الغربية

وسورية ولبنان". لكن بالنسبة إلى سورية ولبنان، والأردن الذي نسيه الحاخام بالمناسبة في قائمته المنيحة هذه، لن يمثل ذلك "حدوداً مثالية"، حيث يعيش هناك المسلمون العرب فحسب، وهؤلاء لم يُحسبوا لأن الرب وهب اليهود فحسب (الأرض).

مع ذلك، نجد الإشارة إلى أنه رغم الاختلافات الجوهرية القائمة بين الحاخامات الأرثوذكس والليبراليين، فإن كل الاختلافات تزول حينما ترتبط بأرض إسرائيل والبقرة المقدسة لليهودية. فهم هنا في هذه القضايا متفقون، هناك فحسب اليهود الأرثوذكس المتطرفون وبعض الطوائف المسيحية يفكرون على نحو مختلف ويحاربون الصهيونية التي يرونها تتناقض مع اليهودية.

إن الدعم غير المحدود الذي تلقاه إسرائيل في جميع أنحاء العالم من خلال كثير من المنظمات اليهودية له دوره أيضاً في طمس التمييز بين الصهيونية واليهودية وبين الإسرائيليين واليهود. وهما يكمن دور متفدي الصهيونية بكل قوتهم لمنع هذا التمييز. إنهم يتفقدون نية المصالح اليهودية لمصالح إسرائيل. وليس من الغريب، والحال هذه، أن تُظهر أحياناً جماعة السعاليين، الداعمين السريين لإسرائيل آراء أكثر راديكالية من المسؤولين الإسرائيليين الرسميين أنفسهم.

حالياً نجد كيف تتزعزع شرعية التمثيل اليهودي في جميع أنحاء العالم: فهل تمثل هذه أعضاؤها اليهود أم دولة إسرائيل؟ كما أن الشعار السابق "نحن شعب" الذي أثبت فاعلية كبرى في نشر الصهيونية يُظهر اليوم أنه ليس أقل فاعلية في خلق معاداة السامية. وربما ما هو مهمّ التشديد عليه أن المعارضة لليهود اليوم لا تغذيها معاداة السامية "العادية" الأوروبية، بل تأتي من جراء الغضب إزاء ما يفعله الجيش الإسرائيلي بالفلسطينيين، كما كتبت صحيفة هآرتس عن هذه الظاهرة:

"وأيًا يكن الأمر، سواء أكان العناء أم اتعدام التضامن أم السخرية التي لا ترى النجاح إلا في سمو الهجرة، فإن إسرائيل، التي تعتبر نفسها الداعم الوحيد لجميع اليهود في العالم، فائضة على اكتشاف أنها مصدر مشاكلهم".

وهناك نقاد آخرون يرون أن الوضع تحكمه حلقة مفرغة حيث إن الدعم غير المحدود لإسرائيل من ناشطين يهود يعزز هو نفسه مسألة معاداة السامية، وهذه حلقة تنطوي تمامًا على دعم الصهيونية وتجعل إسرائيل بمنزلة الحامي الضروري ضد معاداة السامية؛ لقد كتب أوري أفنيري في هذا السياق:

"لقد شأنت بالنسبة إلى اليهود هنا حلقة مفرغة خطيرة، تصرفات شارون تثير العنصر والاشتراك في العالم، وهذا ما يعزز الصهيونية، ولتحسين هذا الخطر نجد مؤسسات يهودية تلعب في مسار حماية إسرائيل والدعم المطلق معها، وهذا التعاضد هو الذي يسمح للمعادي السامية بمهاجمة حكومة إسرائيل، بل ومهاجمة اليهود عمومًا، وهكذا دواليك. فإسرائيل لا تحمي اليهود من معاداة السامية، بل على العكس إنها تشج وتضخم معاداة السامية، وتهدد بهذا اليهود في جميع أنحاء العالم.

لماذا ما سلت، ستكون نصيحتي للمجتمعات اليهودية في العالم: تغلبوا من هذه الحلقة المفرغة، وارعوا سلاح معاداة السامية، تحلوا عن الإحاديث التلقائية في التعاضد مع كل أفعال الحكومة الإسرائيلية وتصرفاتها السيئة دعوا صناديكم هي ما يتكلم، ارجعوا إلى القيم اليهودية التقليدية المثقلة بما قالت به التوراة: "عليكم بالعدل فاقبوه" (سفر التثنية، الأصحاح 16: 120) "واتمسكوا بالسلام واتبعوا" (سفر المزامير، الأصحاح 34: 13)"

بالفعل، يرى معارصو الصهيونية أن ثمة ارتباطًا مباشرًا بين تصاعد الأحداث المعادية لليهود في كثير من البلدان في جميع أنحاء العالم وسياسة الحكومة الإسرائيلية. هكذا، فإن الادعاء الذي يقول بنمو معاداة السامية، ليس سوء بروباجندا كاذبة قوية.

وقد كتب الدكتور إسرائيل مردخاي راينوفيتش (Israel M. Rahmowitch) في العدد الأول من المجلد الثاني لليهودية (The Jewish Guardian) في نيسان/ أبريل 1974: "تعلّم الصهيونية السياسية ولاء مزدوجًا، وعندما تكون هناك فرصة، فإنه يتم توجيه هذا الولاء إلى إسرائيل، ليست الصهيونية السياسية متشقة عندما يرتبط الأمر بالمواطنة الصالحة، بيد أنها تحمل بذاتها بدور مشر معاداة السامية.

إنها تجسّد، ومنذ بدايتها، سياسة تهدف إلى التحريض على كراهية اليهود. ثم بعد ذلك يتحدث المرء وهو يُظهر الرعب، عن ترير دولة يهودية. وهذا يتوافق تمامًا مع المكيافيلية".

نختم في النهاية بالتشديد على أن كثيرين من معارضي الصهيونية اتهموا، ومن البداية، الصهاينة بإحياء معاداة السامية. وإنما نرى هذه الاتهامات اليوم أشد إقناعًا خاصة إذا ما وضعنا في الحسبان أن ساسة إسرائيليين، مثل شارون ونيتياهو وغيرهما، قد أقروا صراحة أنهم لا يخشون معاداة السامية، لا بل يرحبون بها، لأنها تدفع اليهود إلى أن يولوا وجوههم صوب إسرائيل.

خاتمة

ثمة كتلة مهمة من الصحافة الألمانية، خصوصًا تلك الصحف التي تعزى إلى مؤسسة النشر أكسل شيرنغر، تقف على نحو غير نقدي وبولاء وقوة إلى جانب إسرائيل. والحال أن هذا الولاء الأعمى لإسرائيل الذي تُشبهه مؤسسة أكسل شيرنغر يبدو كما لو أنه متفوش في حجر الغرائب في مبادئها الأساسية، ويُعتبر أهم تركة لها، حتى إنه يتوجب على كل موظف جديد لديها إضفاء ذلك. والمحرر الذي يعمل في المؤسسة ولا يلتزم هذا الولاء يُقال من عمله مباشرة. أما بقية المؤسسات الصحافية وربما لا تكون على هذا النحو من الالتزام، بيد أنها لا تقل أحادية. والحال أنه لا يكاد يكون لدينا صحيفة أو مراسل عنده الشجاعة لفعل ما يجب على الصحافة القيام به: تحليل الحكومات وسياساتها، ونقدها على نحو موضوعي، بل أيضًا نقدها على نحو شديد ومر دون هوادة. لماذا إذاً يجب استثناء إسرائيل من هذا النقد [خاصة في ألمانيا]؟ ولتعلم أن في إسرائيل نفسها يحدث نقد مماثل من أعلام مرموقة مثل جدعون ليفي وأوري أفنييري وعميره هاس وآخرين.

ولا يختلف الأمر في سلك القضاء. وتصرب هنا مثلاً يتعلق بحرية التعبير: في وقت حكمت فيه المحاكم في كل من فرانكفورت وميونخ لمصلحة الدستور، أعلنت محكمة برلين في 10 أبريل/ مايو 2017 وباسم الشعب حكمًا متناقضًا لذلك تمامًا بأن حرية التعبير في ألمانيا لها حدود في ما يرتبط بمصالح إسرائيل، حيث تقدمت عيزلا زيورغ (Kisela Seiburg) بشكوى ترتبط بحدوث فعالية أرادت تنظيمها في رحاب مؤسسة كاثوليكية في إطار فعاليات أيام

القاهرة في برلين وهي أثناء فعاليات كنسية بعنوان "خمسون عامًا على الاحتلال الإسرائيلي" بسلي الأ نفى صامتين". وبالفعل، فقد وقّع الطرفان المعبران العقد (من أجل ححر المكان) بعية تنظيم هذه الفعاليات في 13 حزيران/ يونيو 2016. لكن، قبل وقت قصير جدًا من موعد الفعالية، أعلنت الهيئة الكنسية في 30 آذار/ مارس 2017 عن انسحابها من العقد المبرم بهذا. فقد خشيت، كمؤسسة كنسية، من إلحاق الضرر بسمعتها وسمعة الكنيسة الكاثوليكية في برلين أمام المضاء العام، فيما لو سمحت بإقامة هذا الحدث في إحدى قاعاتها، في أثناء فعاليات الكنسية في برلين.

إن أمرًا كهذا ليس بالجديد؛ فغالبًا ما يحدث أن تنسحب مدن أو جمعيات أو جامعات وليس أخيرًا مؤسسات كنسية من عقود مبرمة. بيد أن الشئير للاهتمام في هذا السياق هو التقرير الذي قدّمه أحد القضاة الذي رفض الشكوى المقدّمة (من زيورخ)، بل أعاد تقريبًا ما قالته الكنيسة التي قدّمت ضدها الشكوى: "إن موضوع فلسطين بالنسبة إلى الكنيسة هو موضوع محايد ونسعى فيه الكنيسة أن نأخذ موقف التوسط. كما أن عنوان الفعاليات نفسه يشير تحديدًا إلى "الاحتلال الإسرائيلي" ويتحدى بمواجهته، وهو الأمر الذي يعني في هذا الصراع الحاد موقف لمصلحة أحد الأطراف المتنازعة. وهذا لا يمثل موقف الكنيسة من الصراع، بل يصدور على مستوى التأثير الخارجي موقفًا للكنيسة معاديًا لإسرائيل - في الأقل على نحو مجرد - حتى وإن كان ذلك عن غير قصد".

في الحقيقة كان على المحكمة أن تقرر فحسب في ما إذا كان الطلب المستعجل للكنيسة مقبولاً ومبررًا. وعلى الرغم من وجود هامش إلى حد ما في التقييم هنا، وبالفعل، فقد تطرت القضاة في فرانكفورت على نحو مختلف في الأمر باستخدامها حجة جيدة، لكنهم في برلين لم تكن لديهم الرغبة لاستخدام هذا الهامش.

لقد نوجب قراءة النص مرتين أو حتى ثلاثًا للتأكد من فهمه على نحو صحيح. أما السبب لذلك فقد كان مخزنًا بشكل لا يصدق. والحال أنه كان

يجب أن تشعر الكنيسة الكاثوليكية بالخلج وأَنْ تعرّض بصوت عالٍ بأنها تابعة لمرؤوسيه، وليست تعارض الظلم بل تخفيه وتسامح معه. وأعلم أن هذا ليس رأي جميع الشخصيات البارزة في الكنيسة الكاثوليكية، بيد أنه من الواضح رأي إدارة الكنيسة في برلين. وهنا يجب على المرء أن يتساءل لماذا يجب ألا تكون للكنيسة "وجهة نظر" في المواجهات والجدالات بشأن الاحتلال وإعصاع شعب آخر، فما هي إذاً وجهة النظر التي تحملها الكنيسة الكاثوليكية؟ هل موقفها ووجهة نظرها دائماً إلى الجانب القوي؟ وهل يوافق البابا على هذا أيضاً؟ للأسف، يجب دعوته ليكون شاعداً على هذا النزاع.

ما يدعو حقاً إلى الأسف أن كثيراً من تقع العالم يجب على المرء اتخاذ موقف شأنها، وفلسطين هي إحدى هذه القطع لكن القول إنه ليس لديهم وجهة نظر، فهذا بعينه وجهة نظر، وتحديداً وجهة النظر الخاطئة.

كتب الشاعر اليهودي هابشر هابنه قبل 200 عام: "أنا أفكر في ألمانيا في الليل، يعني أد أفند النوم" وقد كان هذا الشاعر مطارداً من الرقابة، وفي النهاية هرب إلى باريس، وأمضى بقية حياته هناك بحرية. بيد أنه لا يتوجب عليّ من جهتي الفرار للتعبير عن رأيي بحرية، خاصة أنني أعشى أن الدعايين مروجي السياسة الإسرائيلية سيبدون أيضاً أفواهاً هناك.

هل تريد أن يُعطي علينا هؤلاء الأيديولوجيون المتزمتون كيف نفكر وما يسمح لنا بقوله وأي فعاليات يُسمح لنا بإقامتها؟ حقيقة إنني لا أفهم كيف تكون معادياً للسامية في حفل عبري لأطفال عزة، كمثل ذلك الحفل الذي ألقى مؤقناً في مدينة ميونيخ في صيف 2016.

من المسموح لبرودر والمتطرفين الآخرين معه استخدام جميع المنصات، بينما نحن نُشتم ونشوه سمعنا من طرف هؤلاء الأشخاص، هذا فضلاً عن أن المحاكم والرأي العام، اللذين يتوجب عليهما حمايتنا، يشلان في ذلك. كيف يمكن أن يسمح قاضي في ألمانيا لمحرضي ومفتري، مثل برودر، بوصفي أنا وهابو ماير الذي نجا من الهولوكوست، بكل جدية إلى جانب أدولف هتلر؟ وكيف يُسمح لشارلوت كنولوخ أن تدعي علانية أنني شخصي "معادٍ للسامية سيئ

السمة" من دون احتجاج من الصحافة أو الرأي العام على ذلك؟ هناك بالفعل أقلية صغيرة عدائية وعديمة الضمير ومخزية تستخدم ما كلفه لنا الدستور في حرية التعبير من أجل حرمان الآخرين من حرية التعبير فحسب؛ أما الأغلبية فإنها صامتة حيال ذلك. هذا الأمر غير مسموح به.

عندما يقوم شخصٌ بما كتبتُ أفهم به لسوء طوالب، وما زلت، وتحديداً بانتقاد السياسة الإسرائيلية، ربما يحصل أحياناً من الجهة الخطأ علىثناء. لكن أيضاً على الكراهية من الجانب اليهودي الموالي لإسرائيل أو الصهيونية المتطرفة. أحمذ الرب حقاً أن جهاز حاسوبي يحوي مفتاح الحذف كي أحذف الرسائل الإلكترونية التي تصلني من مجهولين أحياناً، كما هذه الرسالة التي تقول لي: "ملنسر، إلى أي مدى ترغب فعلياً في السقوط. وعلى عكس برودر، سيكون والدك، الذي لن تصل إلى مستواه أبداً، خاصباً إذا ما كان بعد في قيد الحياة. أنت شخص فاشل. ولكن ماذا يمكن إسرائيل أن تفعله حيال ذلك؟" أو كهذه الرسالة: "ملنسر، قادر أبراهام، من بين جميع المهودوسين كارهي اليهود في العالم الناطق بالألمانية يذوق دموع التماسيح الكبيرة على إرهابي عربي ميت؛ أما اليهود المقتولون فيجتازون إلى الأمام هذه المسألة المثيرة للاستعزاز معطشتين غير مبالين". هذا "الصدى لإسرائيل" وأمثاله يرون أنني متوافق لعدم يكناني على المستوطنين والعنصريين المقتولين، لأنني في الحقيقة لا أرغب في ذرف دموع التماسيح. لكنني بالطبع أبكي على الإسرائيليين الأبرياء مثلما أبكي كذلك على الفلسطينيين الأبرياء المقتولين الذين يجري وصمهم كلهم بأنهم "إرهابيون عرب". لقد تعلمت أن أتجاهل هذه الإهانات عند أدنى مستوياتها؛ وهذا ما يُعضب أولئك الذين يتفهمون بهذه الحماقات بمعتقدهم.

لكن ما عسى المرء القيام به حينما يرسل شخصٌ يعرّف نفسه بالحرثين ر. ل. (R. L.) رسالة من هاتفه المحمول إلى صحافي مقيم في مدينة بريمن، اسمه آرون شتروماير (Arno Störmer) وفيها: "أنت شخصٌ قدر معاليه للسامية. احترس دائماً عند السير في الشارع". طبعاً ليست هذه رسالة إعانة بل تهديد واضح. والشخص نفسه كتب لي: "إليك تنصرفت منذ سنوات مثل أدولف (هتلر)، إنك شخصٌ نازي". والملاحظ أن هذا الشخص يتلقى دروسه من برودر.

لقد تكرر الأمر نفسه أيضاً مع آخرين مثل الصحفي ومثقل المواقع الإلكتروني "بوابة فلسطين" (The Palestinian-Portal) إرهارد أرنندت (Erhard Arendt) الذي تلقى مكالمة هاتفة وبلغوه: "أين أنت يا إرهارد، سطلق النار عليك عند مدخل بيتك في شارع باولينز، أنت شخصٌ أحمق"، أو "هرمان وأرنندت الطعنوهما، الطعنوهما، الطعنوهما"، أو "لقد انتهت المرحلة الأولى والثانية يا إرهارد، لقد وصلنا الآن إلى المرحلة الثالثة، أي إنها ستنتهي وجودك".

في النهاية، يساق مؤيدو السياسة الإسرائيلية دائماً وعلى نحو متزايد صوب اليمين ويفعلون ما يتهمون به ناقدو السياسة الإسرائيلية: أي استخدام المقارنات النازية والأنغماس في التخيلات التهويلية الممثلة بالعنف. وهذا بالضبط ما قام به برودر وما يقلده به آخرون. وهو أمر يجب اتخاذهُ على محمل الجد.

ملاحق

الملحق (1)

مجموعة فرانكفورت اليهودية

أعلن عدد من اليهود الألمان في خطبة تحية وُجّهت إلى المشاركين في التظاهرة في بون، تضامنهم مع الفلسطينيين:

لقد اشتدت في الأسابيع الأخيرة الإجراءات القمعية المستمرة من السلطات الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني. والسبب المباشر لذلك هو محاولة استبدال ممثلي البلديات المنتخبين للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة بنظام احتلال غاشم. وهذا ما تتم التغطية عليه بما يسمى "الإدارة المدنية" التي تجسد مهمتها في تسريع عملية ضم الأراضي التي تتبعها سياسة الاستيطان. وهذا يجسد سياسة تؤدي إلى التعبير والمصادرة والقمع وفي النهاية طرد الفلسطينيين.

إننا، وبصفتنا يهودًا، نشعر بمسؤوليتنا للتحدث ضد هذه السياسة الإسرائيلية.

وتضامن مع الشعب الفلسطيني في كفاحه ضد سياسة القمع الإسرائيلية وفي سبيل استعادة حقوقه.

إننا نعتقد أنه من دون الاعتراف بالحقوق الجماعية للشعبين العربي الفلسطيني واليهودي الإسرائيلي (بما في ذلك تقرير الحصار)، لا يمكن ضمان

عودة السلام إلى هذه المنطقة ولا حتى نجاة من يعيش هناك، بصرف النظر عن
أصله.

الموقعون:

Micha Bramlik, Susana Heeren, Mosche Pizzone, John Bunzl, Armando Karonet,
Chana Salomon, Daniel Cohn-Hershi, Cilly Kugelmann, Gabriel Scher, Dan Diner,
Martin Löw-Beer, Mosche Speiser, Amichai Dreyfus, Dalia Mianets, Sammy Speiser,
Mania Vingron

الملحق (2)

“النكية” في مدينة بريمن

بريمن، ضجة بشأن معرض “نكية” وطرد فلسطيني 1948.

كتابة: سوتكه هوندت (Sotke Hوندت)، جريدة يونغي فلت، 2015 / 2 / 13

لقد أدى المعرض الذي يحمل عنوان “النكية: اللجوء وطرد الفلسطينيين في عام 1948” الذي يعرض في المكتبة المركزية في بريمن من 18 شباط/حراير إلى 17 آذار/مارس إلى جدالات حادة، خاصة تلك التي حوت وراء الكواليس. وكان رئيس البلدية ينس بورن (Ines Bohnen) قد صرح يوم الثلاثاء خلال الجلسة العامة لبرلمان بريمن في مقابل استفسار ممثل حزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي (CDU) أنه لا يمكن منع المعرض من خلال الوسائل القانونية. وفي الواقع، فقد كان هناك كثير من المحاولات في هذا الاتجاه [أن يتم المنع بشكل قانوني]. ولا سيما من جانب المجتمع الألماني - الإسرائيلي (DIG) والجمالية اليهودية. وهناك أيضا مجموعة تنتمي إلى ما يسمى القضاء المعادي لألمانيا (وهي، بالمناسبة، مجموعة تطلق على نفسها “CS” وأعضاؤها محمولون) صرحوا في الإنترنت وطالبوا بـ “ألا تقدم أي منصة عامة لمعادي السامية المتطرفين لمدينة بريمن”.

ويؤكد ديتلف غريشه (Detlef Griesche)، رئيس الجمعية الألمانية الفلسطينية، لجريدة يونغي فلت: “بُذلت محاولات خفية لمنع المعرض”. ونظرًا

إلى عدم نجاح ذلك، فقد كان الشعار الجديد هو "الصمت". فلم يُشر إلى الآن سوى مساعدة واحدة في جريدة فاغشتايتونغ تحت عنوان "معادة السامة". ووفقاً لغريشه كان هناك يوم الأربعاء مؤتمر صحفي لم يكن فيه أيُّ ممثل إعلامي. لقد أراد منظمو المعرض (بما في ذلك منتدى بريمن للشرق الأوسط، ومنتدى السلام، ومنظمة العمل للشرق الأوسط DAK Nahost، والمجتمع الألماني-الفلسطيني، واللجنة الإسرائيلية لمناهضة هدم المنازل) أن يسحبوا مبكراً البساط من تحت أرجل من يتخذ أن المعرض يمثل نظرة أحادية الجانب هكذا، فقد دعيت الجمعية الألمانية الإسرائيلية لتقديم وجهة نظرها في لوح عرض في قاعة المعرض بشأن أحداث "المكبة" ولتسمية ممثلين خاصين اثنين لمناقشة كبيرة - بإدارة إذاعة بريمن والمذيع ثيو شلوتر (Theo Schlöter) - في قاعة المكتبة المركزية في 4 آذار/مارس.

افتتحت المعرض في 18 شباط/فبراير السفارة الفلسطينية خلود دعيس (برلين) ورولف فريغر (الويك). وقد سئل رئيس البرلمان كريستيان فير (Christian Weber) إذا كان يود الترحيب بالسفيرة. ووفقاً لغريشه أيضاً كان رده أنه لم يكن لديه وقت. ورغم ذلك، فقد كان هناك في كثير من الفعاليات المصاحبة كثيرون من المتحدثين المشهورين (بمن في ذلك المؤرخ إيلان بابيه وجف هالبر من اللجنة الإسرائيلية لمناهضة هدم المنازل)، وإضافة إلى هذا، فهناك أيضاً برنامج سينمائي متنوع في "كينو 46" (Kino 46) [مركز اجتماعي وترفيهي]، وحفل تضامني في قاعة استوديو مدينة بريمن بعنوان "موسيقى عالمية من أهل السلام" مصحوبة بـ "أوركسترا الشباب السمفونية بريمن - نورده" بقيادة مارتين لنتس (Martin Lenz)، هذا فضلاً عن حضور كثير من الضيوف الدوليين.

الملحق (3)

إعلان سلام برلين (شالوم 5767)

يعيش الشعبان الإسرائيلي والفلسطيني منذ عقود من الزمن جارين، وهناك كثير من الفرص للتعاون والتنمية بينهما، لكن بدل السير في هذا المسار نجد أن حياتهما يتم تسميعها بالحرب والعنف والتهديد والإرهاب والكراهة المتبادل والأذى وعدم الاحترام.

الذنب الأساسي في هذا يعود إلى الاحتلال الإسرائيلي المستمر للأراضي الفلسطينية منذ عام 1967 والذي لم يعن سوى المهانة وحرمان الفلسطينيين من الحقوق. وفي الواقع، فقد شل الاحتلال حياتهم الاقتصادية والسياسة والاجتماعية. وبغلاً عن ذلك، منع هذا الظلم الذي يعيشه الفلسطينيون يومياً من إحداث تعويض سلمي للظلم القديم الذي حلّ بالفلسطينيين منذ طردهم في عام 1948. وهذا بالعبث ما يساهم في استمرار دوامة العنف.

لقد حان الوقت لخرق هذا المسار المغلق وتهييد الطريق لإيجاد حل سلمي دائم من شأنه:

- تمكين الشعب الفلسطيني من العيش حياة كريمة بقرره هو فيها مصيره؛
- وأن يضمن وجود كلتا الدولتين في حدود معترف بها دولياً؛
- خلق حل سلمي دائم يهدئ المصطفة بأسرها، وهو من شأنه جعل العالم كله يعيش بسلام وأمان أكبر.

إن كلاً من المجتمعين، الإسرائيلي والفلسطيني، يحوي، ومنذ فترة طويلة، أصواتاً تدعم التضامن. وما زالت "الفالية حيف" تقف بمنزلة المثال الرائد على هذا www.gesfor-innovative.de. بيد أن هذه الأصوات تحتاج إلى الدعم.

مع ذلك، فليس هناك سوى القليل من الدعم الذي يأتي من ألمانيا. وهناك سبب لذلك: فقد انتهى مع هزيمة ألمانيا النازية قبل 61 عامًا القتل الجماعي ليهود أوروبا بقيادة الألمان. والحال أن العار والحرن يسبب هذه الجريمة قد أدوا بكثير من الناس إلى أن يصمتوا تجاه سياسة دولة إسرائيل اليهودية. بيد أن هذا الصمت نفسه يسمح بشيء ظلم جديد. هكذا، وبعية الخروج من هذا الوضع المتجمد، فمنا نحن اليهوديات واليهود من ألمانيا، بإصدار هذا البيان وثوقيه (كموقفين أساسيين). حيث إننا نرى بكثير من الخوف كيف أن دولة إسرائيل، التي قامت مع آمال كبيرة، قد أدخلت نفسها في طريق مسدودة للعصف.

إننا نحث الحكومة الألمانية والاتحاد الأوروبي على:

- التوقف عن التسامح مع سياسة الاحتلال الإسرائيلي؛
- إنهاء مقاطعة السلطة الفلسطينية في غضون مهلة قصيرة؛
- وأخيراً السعي الجاد لتحقيق دولة فلسطينية قابلة للحياة، في غزة وكامل الضفة الغربية المحتلة منذ عام 1967، بما في ذلك أيضاً القدس الشرقية، مع السيادة الكاملة وحرية الحركة.

وبهذا ستكون هناك ترتيبات لخلق وضع آمن لدول المنطقة، ولا سيما بالنسبة إلى إسرائيل، التي نشعر أنها مهددة، وكذلك لحيرونها. أما المسائل المتعلقة بحق العودة للفلسطينيين الذين طردتهم إسرائيل في عام 1948 فيمكن حلها باتفاقات متبادلة، إذا ما قامت إسرائيل كمؤشر على استعدادها للمصالحة بوصف طرد (الفلسطينيين) بالظلم. كما أن وضع القدس كعاصمة لكلا الدولتين يمكن كذلك أن يتوضح. وثمة اقتراح من الجامعة العربية للاتفاق مع إسرائيل، لذلك فإن الطريق إلى السلام ليست بالأمر البعيد.

وكان الحاخام هيليل قد لخص جوهر اليهودية منذ ألفي عام حينما قال:
 "تجنب أن تصرف مع الآخر يفعل لا ترغب أنت في أن يفعله بك". وهذا
 يجب أن يكون المبدأ الموجّه أمامنا للعمل الإنساني اليوم، وحتى أيضًا للعمل
 السياسي.

الموقعون الأساسيون على إعلان سلام برلين (شالوم 5767)

Vera Aushach (Berlin), Ursula Aushach (Berlin), John Aufield (Geschäftsführer,
 Buchholz), Dr. Hanna Behrend (Historikerin, Berlin), Dr. Friedel Beier
 (Rechtsanwältin, Berlin), Edna Bejarano (Sängerin, Hamburg), Esther Bejarano
 (Sängerin, Hamburg), Joram Bejarano (Musiker, Hamburg), Susan Berger (Berlin),
 Jona Bergi (Rennreiter, Weil am Rhein), Judah Bernstein (München), Sassy Blatt
 (Duisburg), Sharon Blumenthal (Junglin, Köln), Prof. Dr. Y. Michal Bodemann
 (Soziologie, Berlin/Toronto), Ina Borchardt-Hefetz (Biologin, Berlin), Marion
 Brusch (Journalistin, Berlin), Prof. Dr. Almut Sh. Bruckstein (Philosophin, Berlin),
 Tsafir Cohen (Journalist, Berlin), Gerty Colden (Rennreiterin, Berlin), Martin Colden
 (Maler, Berlin), Hilary Coleman (Arztin und Übersetzerin, Düsseldorf), Ruth
 Cricheas (Berlin), Marianne Degginger (Berlin), Prof. Dr. Wolfgang Edelstein
 (Bildungsforscher, Berlin), Ursula Epstein (Musikpädagogin, Aachen), Erica
 Fischer (Schriftstellerin, Berlin), Alfred Firschbacher (Journalist, Berlin), Dr.
 Michael Firschbacher (Biologe, Berlin), Benita Fränkel (Rehderterpädagogin,
 Berlin), Ruth Fruchman (Autorin, Berlin), Kurt Goldstein (Ehrenvorsitzender
 Internationales Auschwitz-Komitee, Berlin), Werner Goldstein (Journalist, Berlin),
 Ilan Grunberg (Paläontologe, Berlin), Kurt Gutmann (Berlin), Hella Händler
 (Berlin), Werner Händler (Berlin), Doreen Haron (Karikaturist, Berlin), Michal
 Kaiser-Evnoch (Psychotherapeutin, Berlin), Selma Kaiser (Studentin, Berlin), Dr.
 Inge Lammel (Autorin, Berlin), Dr. Kate Leisterer (Biologin, Berlin), Angelika
 Levi (Regisseurin, Berlin), Gabriel Levy (Psychologe, München), Dr. Oswald
 LeWinter (Autor, Seligenstadt), Dr. Inka Lischies (Arztin, Mühlheim/Ruhr),
 Dr. Edith Lutz (Lehrerin, Köln), Petra Mendelsohn (Bibliothekarin, Berlin),
 Abraham Melzer (Neu-Isenburg, Melzer Verlag), Gerhard Moss (St. Peter-Ording),
 Deborah Philips (freie Künstlerin, Berlin), Margalith Parnak (Zahnärztin, Köln,
 Hamburg), Sara Reiferberg (Rennreiterin, Berlin), Prof. Dr. Faary-Michaela

Reym (Informatik, Berlin) Michael Riese (Lehrer, Ahlfeld), Dr. Ruth Rosenberg (Tierärztin, München), Rafi Rothenberg (Kameramann, Köln), RuthRump-Braun (Innenarchitektin, Karlsruhe), Dr. Sonja Sager (Juristin, Berlin), Shelly Steinberg (Studentin, München) Dr. Klaus Stenberg (Lehrender, Berlin) Dr. Maria Strowe (Arztin, Neuss), Richard Süköte (Journalist, Berlin) Prof. Dr. Jonathan Tübe-Finkelstein (Germanist, Berlin) Prof. Dr. Ernst Tugendhat (Philosoph, Tübingen), Nora van der Walde (Lehrerin, Buchholz), Prof. Dr. Rolf Verleger (Psychologe, Jübeck), Dr. Susan Winnet (Literaturwissenschaftlerin, Hamburg), Dr. Andrea Zielinski (Anthropologin, Hamburg)

المراجع

Agassi, Hanna: *Eichmann in Jerusalem. Ein Bericht von der Banalität des Bösen*. München: 1964

Begun, Menachem: *The Revolt. Story of the Irgun 'Stormtroops'*, 1977

Herbarya, Esther: *Jude sein nach Gaza*. Hamburg: 2010

Breaking the Silence. Jüdische Soldaten berichten von ihrem Einsatz in den besetzten Gebieten. Berlin: Econ Verlag, 2012

Broder, Henryk M.: "Wir bleibt die Kinder Täter Eltern "und" Warum ich gehe." *Die Zeit* (27 February 1981).

_____. *Huma, wir kapitulieren*, wjs, 2006

_____. & Michel R. Lang (eds.): *Fremd im eigenen Land. Juden in der Bundesrepublik*. Frankfurt: Fischer Taschenbuch, 1979

Brumlik, Micha: *Kein Weg als Deutscher und Jude*. München: 1996

_____. *Kein Weg als deutscher und Jude. Eine bundesrepublikanische Erfahrung*. Berlin: Ullstein, 2000

_____. *Krank des Zionismus*. Hamburg: 2007

Huber, Martin: *Polnische Schriften*. Frankfurt: 2010

Die Bibel, Übersetzung von Dr. Martin Luther

"Die Mär vom liberalen Islam." *Die Welt* (26 June 2017)

Die Zeit no. 10 (5 March 2015)

Jaher, Klaus, Julius H. Schoeps & Sacha Stawski (eds.): *Verwahrte Judenhaus. Antisemitismus, arabisch-israelischer Konflikt und europäische Politik*. Berlin: Verlag für Berlin-Brandenburg, 2006

Finkelkraut, Alan: *Der angeblichste Jude*. München: 1982

- Flappen, Sonja: *Die Geburt Israels*. Neu-Iserburg: Melzer Verlag, 2005
- Flavius, Josephus: *Geschichte des Jüdischen Kriegs*
- Fleischmann, Ina: *Dies ist nicht mein Land*. Hoffmann und Campe, 1990
- Freie Jüdische Stimme*, no. 3 (September 1979)
- Fried, Erich: *Höre Israel*. Melzer Verlag Neu-Iserburg, 2005
- Grossbard, Ofra: *Israel auf der Couch. Zur Psychologie des Nahost-Konflikts*. Düsseldorf, 2001
- Halper, Jeff: *Ein Israel in Palästina. Widerstand gegen Vertreibung und Enteignung. Israel vom Kolonialismus erleben*. Berlin, 2010
- Hart, Alan: *Zionismus gegen Judentum*. Lambert Verlag, 2015
- Herzl, Theodor: *Utopien*. Leipzig: Hermann Seemann Verlag, 1902
- Honderich, Ted: *Nach dem Terror*. Neu-Iserburg, 2005
- "Israels in Berlin: 'Wie viele und was zieht sie nach Berlin?'" *Jüdische Zeitung*
- "Israelkritik oder Antisemitismus? Kriterien für eine Unterscheidung." *Kirche und Israel. Neukirchener Theologische Zeitschrift* Heft 1 (2013)
- Jüdischer Kalender, 2014-2015
- Kohlstruck, Michael & Peter Ulrich: *Antisemitismus als Problem und Symbol. Phänomene und Interventionen in Berlin*. Berliner Forum Gewaltprävention 52 (unter Mitarbeit von Franziska Paul und Jakob Quenert). 2. Korn. Auflage. Berlin: Landeskommission Berlin gegen, 2015
- Levy, Gideon: *Nähe, geliebtes Land*. Neu-Iserburg, 2005
- Lehmann, Hans-Martin: *Psychoanalyse und Nationalsozialismus. Beiträge zur Bearbeitung eines unbewältigten Traumas*. Frankfurt, Main: 1984
- Mansel, Jürgen & Viktoria Sparrer: *Angrenzungsphänomene in weiblichen Lebenslagen. Jugendliche Fremdgruppen ablesen*. Weinheim & Basel: Beltz Juventa, 2013
- Meyers, Hajo: *Das Ende des Judentums. Der Verfall der jüdischen*. Melzer Verlag, 2005
- Mischerlich, Alexander & Margarete Mischerlich: *Die Unfähigkeit zu trauern*. München, Zürich, 1985
- "Nahost-Konflikte erreichen deutsche Schulhöfe." *Die Welt* (24. Juli 2017)
- Neudeck, Rupert: *Ich will nicht mehr schwärzen - aber Recht und Gerechtigkeit in Palästina*. Neu-Iserburg: Melzer Verlag, 2005

Ostrowsky, Victor. *Geheimakte Mossad: Die schmutzigen Geschäfte des israelischen Geheimdienstes*. München: Goldmann Verlag, 1996.

_____. *Der Mossad*.

Pappe, Ilan. *Die ethnische Säuberung Palästinas*. Frankfurt, Main: 2007 (Neuauflage, 2014).

Ramm, David. *Die Schatten der Vergangenheit*. Basel, 2013.

Roth, Joseph. *Romane und Erzählungen*.

Sand, Shlomo. *Die Erfahrung des jüdischen Volkes*. Berlin: 2008.

_____. *Die Erfindung des jüdischen Volkes: Israels Gründungsmythos auf dem Prüfstand*. Berlin: Propyläen Verlag, 2010.

_____. *Warum ich antisionist bin, Jude zu sein. Ein israelischer Standpunkt*. Berlin: 2013.

Schreiber, Rainer. *Religion, Volk, Identität: Das Judentum in der Nachfolge des modernen Nationalismus*. Aachen/Burg, 2014.

Segal, Iom. *Die vierte Million: Der Holocaust und Israels Politik der Erinnerung*. Reinbek bei Hamburg: Rowohlt, 1995.

Senn, no. 4. Jahrgang 1989.

Strohmeier, Ann. *Warum für Israel Frieden unmöglich ist*. 2014.

Uri, Amery. *Israel ohne Zionisten*. München: 1972.

Wenz, Yfaat. "Ha'avara-Abkommen," in: *Dan Diner (ed.): Enzyklopädie jüdischer Geschichte und Kultur (LJK)*, Band 2 (Stuttgart/Wien: Metzler, 2012).

Widl, Petra. *„Parteilich und ethnisch: Säuberung in Palästina. Der zionistische Siedlerkolonialismus in Wort und Tat*. Wien: 2013.

de Winter, Iren. *Das Recht auf Rückkehr*. Drogenes, 2009.

Zackermann, Moshe. *Israels Schockal: Wie der Zionismus seinen Untergang bewirkt*. Wien: 2014.

فهرس عام

- ألمين: 99
أسيا: 231
أسيا الوسطى: 11
أوست، شيلان: 207، 216-219، 219
الإبادة المنهجية لشعوب البويرو: 57
إيالة الهند الحمر: 61
إيراهيم / أبراهام (التي): 98، 114، 178-179، 179
إيرهارد-سشنر، هورست: 211
أبل، أليخائي: 321
ابن ميمون، موسى: 153، 161
أبيون (الكتاب الإسكندراني): 51-53
الاتحاد الأوروبي: 142، 177-178، 229-230، 244-246، 306
319، 306
- البرلمان الأوروبي: 246، 297
- المفوضية الأوروبية: 177، 246
- وكالة الاتحاد الأوروبي للحقوق الأساسية: 266
الاتحاد السوفييتي: 11-12، 19، 109، 143-146، 151، 166، 189، 290
اتفاق إعلان المبادئ بشأن ترتيبات الحكومة
الثانية الانتقالية الفلسطينية (1993):
واسطن / اتفاقية أوسلو: 178
اتفاقيات جنيف: 304
- اتحادية وطن: 159
اتحادية عملاء (1933): 126-128
إثيوبيا: 189
الاحتلال البريطاني: 302
أشوربروش: 53-54
أعيرة يوس الكاثوليكية: 46
أعلى يسرويل: 31
أفلسون، شلفون: 147-149
أفرونت: 13
أردان، جلعاد: 312
الأردن: 132، 322
أرفغان، رجب طيب: 219، 228
الأرض المحتلة: 176، 183، 284، 287
أومبروستر، يورغ: 211
أوندت، إرهارد: 329
أوندت، حنة: 64-65، 129، 144، 154، 246-247
إرهاف / الهجوم الإسرائيلي 11 أيلول / سبتمبر
2001: 224، 289
إسبانيا: 8، 36، 58-59، 61، 153، 169، 232، 286
الاستخبارات السرية الفازية (الفستابر): 31
أستراليا: 57، 109
الاستعمار الصهيوني: 302
إستير (الملكة): 53
إسحاق (التي): 267

الإمبراطورية العثمانية: 59-61، 160،
232

أستردام: 56، 59، 212، 229
الأمم المتحدة: 33، 90، 140-141،
179، 224، 229، 247، 280،
303، 302

- الجمعية العامة: 264
- مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون
الإنسانية: 246

أميركا الجنوبية/ جنوب أمريكا: 61، 57
أميركا الشمالية: 57، 61، 265
أميركا/ الولايات المتحدة الأميركية: 42،
85، 101، 109، 111-113،
148، 168، 177، 197، 225-
226، 229، 239، 253، 262،
269، 285، 289، 297، 303

الأصول: 59
أثينا: 287، 295
الأندلس: 58، 60، 153
أوياما، باراك: 243
أوريان، فيكتور: 130
أوروبا: 13، 39، 41-43، 57، 61، 79،
85-86، 91، 100، 105، 107،
128، 153-155، 160، 168،
169، 174، 180، 184، 195،
201، 208، 231-232، 255،
262، 277، 279-280، 294،
296-297، 317

أوروبا الشرقية: 62، 152، 155
أوروبا الغربية: 62، 152
أوزمير، جيم: 255
أوستروفسكي، فيكتور: 194-197
أوغشتين، ياكوب: 43، 60، 94-95،
194، 195-199، 263-264
أوليفر، أوليفر: 321

اصطبل: 59
الإسكندرية: 59، 186
الإسكيمو: 57، 64
الإسلام السياسي: 291، 318
إسماعيل (الشي): 179
اشراكية الشباب الأخيلا: 41
الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: 301
إعلان القاهرة حول حقوق الإنسان في
الإسلام (1990): 301
إفرز، واقتيل: 321
أفريقية: 116

أمري، أوري: 32، 42، 96، 108، 110،
128، 180، 277، 308، 323، 325
الاقتصاد/ العالمية: 97
ألمانيا/ جمهورية ألمانيا الاتحادية/ ألمانيا
الغربية: 8، 11، 13، 17-18، 20-
24، 30-31، 33-34، 38-40،
43، 45-46، 48، 55، 57، 63،
65-66، 71-73، 78-79، 81-
83، 85، 89-93، 95، 99-102،
105-106، 109، 119، 126-
130، 132، 134، 139-141،
143-147، 149-156، 159-
160، 162-169، 173-177،
185، 193، 195، 197، 201،
204-208، 210، 213-214،
216-217، 223، 225، 227-
231، 240-242، 244، 253-
254، 256-257، 263، 266-268،
270، 273-276، 279-281،
285، 288-290، 292-295،
304-311، 319-321، 325، 327

أليكسياس، نيكولاس، سالومون: 321
إليسنور، يوسيف: 245
الإمبراطورية الرومانية: 42، 52-53

أوكراينا: 63	البرتغال: 133
أول، حافر، بوتر: 231	برغر، جون: 48، 93-94
أوليفكوت، أودو: 213	برغر، جينري: 166-167، 237
أولمبياد ريو: 267	برلين: 30-31، 43-46، 63، 66، 68-62
أومايو: 148	85، 97، 110، 117، 126، 144-146
أوجسان، أوفنس: 64، 77، 128، 266	147، 152، 154، 164، 166
أوران: 40، 123، 141-142، 148	177، 208، 210، 220، 229، 234
163، 168-169، 239-243، 257	257، 276، 293، 315، 326-327
أيرلندا: 303	برلين الشرقية: 92
إيزابيلا (ملكة إسبانيا): 96	بروهر، هنريك: 21-22، 29، 33-35
أيسلندا: 280	74-75، 85، 131-132، 146
إيسن: 303، 305، 306	152، 162-163، 165-166، 177
أيسنو، ميل: 27	184، 188، 193-194، 223، 227
إيطاليا: 140، 289، 296	229-231، 233-235، 243
إيلوز، إيمان: 237	254، 260، 266، 297، 327-329
أيسنتين، ألبرت: 144	بروك، باتسونا: 26
بابل: 166	بروغيليك، ميشال: 132، 152، 174-176
بابي، بار: 63	202، 223-227
بابيما، إيلان: 124	بريطانيا/ إنكلترا: 109، 128، 132، 230
باد زويرنهيلم: 20	296، 303
بادن فورتمبيرغ: 93	بريغر، ماري، مارك: 93
بار كوخيا، شمعون: 186	بريغليك، أندرس، بيترغ: 196
بارك، ليهود: 226	بريمن: 98-99، 254، 328
بارنويوم، فانييل: 45، 60، 193	بسمارك، أوتو فون: 40
بارتسكوف، جينر: 214	بطرس، القديس: 85
باريس: 130، 262، 327	بيتر كورن، يوهانس: 43
بارزل: 18، 152، 173	بلجيكا: 261
باشرافش، جيل: 164	بلغاريا: 232
بلغاريا: 167	البلقان/ دول البلقان: 8، 59، 160، 232
باو، بتر: 71، 231	293
بايرن (مقاطعة): 47	بأوي، نوويرت: 94
بيلز، جوفيتش: 80، 203، 308	بين شعان، إيلي: 110
البحر الأبيض المتوسط: 18، 174، 184	بين شيرولد، حسناي: 153
186	بين غوريوت، فاندا: 15، 106، 115
	125-126، 129-130

ترکیا: 40، 108، 145، 161، 169،

228، 232، 233، 262

تريستي: 14

تسمای، آرولد: 154

تسمای، شیفانی: 192

تسوکرماب موشیه: 81، 130، 287

تسوتس، لیوولد: 153

تسورتس، غرهارد: 28

تسیتک، یورغ: 211

تشمیرلین، هومن مشواروت: 44-45

تشموسکی، نوام: 64، 80، 108، 211،

277

التطور العربي: 15

تقرير غولدمان: 35

تل ایب: 107، 122، 228، 273

تسرد المکلیسین/الانتفاضة الطائفية

للمکلیسین: 52، 186

تنظیم داعشی: 100، 278

تنظیم القاعدة: 195، 211

التهمير الفسري: 48

توتو، هزموئل: 134، 308

توغولسکی، کورنت: 213

توشهوفر، یورغن: 199-201، 209

تورکیمادا: 55

توتس: 60

اللیت: 61، 108

ث

الثورات العربية (الربيع العربي): 291

الثورة البلشفية (1917): 114

الثورة الجنسية: 28

ثورة الفلاحين (أوروبا): 87

ج

جانبوتسکی، فلاديمير: 115

جائزة الأخوين شول: 48

جائزة ألبورت: 203

من ثلاث، آخر: 13

بیتس، فولفغانگ: 95، 210

البنديقة: 114

البنك الدولي: 248

بوابة براندس: 276

بواتیه: 196

بور، هارتن: 144، 153

بوريس، إيفانکس: 139-140، 149

بورسفام: 83، 234

بورتنوي، إلیشا: 321

بورمان، غيرت: 87-88

بوربي، لودفيغ: 154، 198

بوش، حید: 148

بول، مینتیه: 265

بولندا: 57-58

بول، 174-175

بر، هار جیورج: 27

بریتس، فولکر: 211

بریر، شمرون: 270

بیلن، مناحیم: 106، 123، 125، 175،

209، 227، 262

بیکن، فولریش: 90

بیکن، فولکر: 71، 162-163، 231،

254، 310

بیکن، لیو: 143

بیکر، أوفد: 254، 304

بیل، یوسي: 245

بيلاليس البطلی: 42

بیلر، مکسیم: 132، 150، 192

بینیت، نفتالی: 100، 115-116، 124

بیرنوف، إسمت: 92

ب

تجارة اليهود لوكومست: 204

ترامب، دونالد: 130، 148، 179، 297

ترایشکن، هاینریش فون: 40

الجزائر: 161، 165، 239
 جزيرة الشيطان الفرنسية في الكاروبي: 62
 جماعات اليهود الراديكالية: 61
 جماعة عظيم كوهين: 110
 الجمعية الألمانية الإسرائيلية: 98-99، 210
 الجمعية العليا للرعاية اليهودية (ألمانيا): 309
 جمهورية ألمانيا الديمقراطية/ألمانيا الشرقية: 31، 192، 288
 جمهورية أوزبكستان: 11
 جنوب أفريقيا: 29، 48، 57، 108-109، 113، 132، 134، 202، 227، 280، 302-303، 309، 311
 جنوب: 18
 جورج سافس (الممثل): 14
 جورباتو، رالف: 210، 239، 269

ح

حرب الثلاثين عامًا (1618-1648): 19
 حرب الخليج (1990-1991): 212
 الحرب العالمية الأولى (1914-1918): 40-41، 62
 الحرب العالمية الثانية (1939-1945): 41، 46، 83، 87، 92، 109، 127، 153، 180، 223
 الحرب العربية - الإسرائيلية (1967): 23، 105، 111-112
 الحرب العربية - الإسرائيلية (1973): 112، 241، 244
 الحرب على فيتنام: 28
 حرب غزة (2014-20): 80، 96، 146-147، 150، 200، 212، 232، 274-275
 حرب اليهود ضد الرومان (80 ق.م.): 52-53
 حركات السلام: 306

جائزة جوائز نوبل: 141، 165، 239، 242
 جائزة طوته: 119
 جائزة نيبس: 248
 جائزة لودفيغ بورسي: 198
 جائزة ماركسويل رايش ستراتيكي: 202
 جائزة نوبل للأدب: 239
 جائزة نوبل للسلام: 239
 جبال الأكب: 18
 الجمعية الشعبية لتحرير فلسطين: 96
 جريدة يهود تسليونغ: 8، 95، 102، 127-178، 268
 جريدة تافستاتونغ: 84، 90، 164، 207، 209
 جريدة تافستاتيل: 242
 جريدة دي تسليت: 91، 97، 164، 193-194، 241
 جريدة دي فلت: 90، 165-168، 177، 200-201، 207، 214، 216، 219، 241
 جريدة دير فرياند: 90، 263
 جريدة ديتشه بوست: 90
 جريدة ديمونيش تسليونغ: 85، 91، 200، 204-205، 207، 219، 257، 288
 جريدة شترومر: 200
 جريدة فرانكفورت الألمانية تسليونغ: 51، 90، 164، 214، 240، 256، 268
 جريدة فرانكفورت الألمانية تسليونغ أون لاين: 232
 جريدة فرانكفورت رونشتاين: 90-91، 175، 225
 جريدة هافوف الإسرائيلية: 119
 جريدة نيويورك تايمز: 147-148
 جريدة هانديبلات: 241
 جريدة يونغه فريهايت: 91

الحزب الاشتراكي الديمقراطي / الاجتماعي
الديمقراطي: 47، 109، 201، 240،
242، 266، 303، 311، 316

حزب البديل لأجل ألمانيا: 45، 102،
145، 159، 166، 168، 214،
218، 264، 315

حزب الجبهة الوطنية/التجمع الوطني:
130

حزب الجبهة الوطنية (فرنسا): 244
الحزب الجمهوري (ولايات المتحدة):
293

حزب الحرية الشعبي البيني (النمسا):
296

حزب الخطر: 71، 162، 231، 254-
256، 266، 288-310، 311، 316
الحزب الديمقراطي الحر: 90، 139،
242، 256، 266، 316

حزب الفايخ الألماني البيني المتطرف: 32
حزب العمال الألماني القومي الاشتراكي:
62

حزب العمال البريطاني: 296
الحزب القومي الاشتراكي النازي: 128
حزب الليكود: 175، 293

حزب المستوطنين البيني: 113
الحزب المسيحي الاجتماعي: 231
الحزب النازي: 44، 243

حزب الوحدة الاشتراكي (ألمانيا): 197
الحزب الوطني الديمقراطي: 218
حزب اليسار: 211، 231، 263، 279،
295، 316

حبيدة سالمار: 173
حسين، صفاء: 109
الحسيني، محمد أمين: 43، 128، 255
حق العودة: 121

الحركات الشبابية الاشتراكية الصهيونية: 17
الحركات المناهضة للذكور لونيائية: 60
حركة بانكس - كرستي التكتوليكية: 83

حركة برلين: 40
حركة ينيدي الجبهة: 102، 168، 213-
214، 270

حركة تركيا الفتاة: 99
حركة/تيار معادي الألمان/الألمانية/
المعادين للألمانية/المعادية
للألمان/مباداة الألمانية/عباء
الألمانية: 285-286، 288-292

حركة حماس: 275، 279-280
حركة السلام والبيئة: 211
الحركة القومية العربية: 255
حركة المستوطنين القبية القومية (خوش
إيمونية): 244، 318

حركة مسيحيون من أجل إسرائيل: 66
حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات
والعقوبات (BOICOTT): 178، 203، 295،
302-303، 307، 311، 320

حركة مناهضة الفصل العنصري: 302
الحركة المناهضة للسلطة: 25، 28
حركة الهبيز: 28

حركة اليسار/الحركة اليسارية: 289-290
حروب الاسترداد الإسبانية (1492): 55
الحروب الصليبية: 39، 57

حروب الغزو الألمانية: 192
حزب الاتحاد الاجتماعي المسيحي/
المسيحي الاجتماعي: 47، 167، 303
حزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي:
139-140، 144، 162، 166-

167، 254، 303-305
حزب إسرائيل: 294

الحكم العربي الإسلامي: 58

الحل النهائي: 58، 126، 128، 200-201

الحل النهائي الثاني: 202

حلب: 200، 214-215

حوشي، أياد: 15، 125

حيفا: 15-17، 129

———— خ ———

الخالدي، يوسف هيبا: 131

الخليل: 123، 132-134، 179، 244

خوري، فيس، بيت: 26

———— د ———

دار الأزياء، بيروت: 243

دارق (المطبخ): 189

دشموك: 153

دروست، ليخلاف: 288

دريغوس، القرد: 32، 62

دسكي، إيف: 28

دويتر، ماتياس: 99، 231، 240

دوسلدورف: 22، 99، 321

دولة البوير: 114

الدولة اليهودية/ دولة اليهود: 14، 83-84،

83-94، 99، 105، 108، 111،

121، 186، 230، 309، 316

دوسبرغ: 263

دير ياسين: 123

ديركس، هرماني: 263، 266

ديسار: 321

ديفيس، أليلا: 308

ديكلو، آن: 26

ديمه، ديترا: 27

و

رابطة مكافحة التشهير: 295

رابطة يهود الرايخ (في ألمانيا): 31

رايين، ليا: 278

رايين، شحاف: 124، 278

راينر، فالتر: 194

الرأسمالية: 62، 285

رام الله: 118، 247

رائان، هاليدا: 204-205

الرايخ الثالث: 11، 26، 71-73، 304

الرايخ الرابع: 289

رايش، فرانكي، مارسيل: 193، 215، 242

رايلاند: 57

الرملة: 125

رواندا: 61

روست، نورا: 140

روست، شيفاني: 308

روست، كلارديا: 71، 243

روتشيلد، توماس: 211، 217

روست، جوزيف: 192

روفس: 186

روز شفايف، فرانكس: 193

روسيا: 22، 58، 106-107، 114، 319

روما: 52-53، 55، 186-187

روشلن، يوهانس: 43

ريخيف، ميري: 267

ريغلين، وولف: 111

ريه، بول: 44

ر

راسبوت، جوزيف: 93

زورخ: 20

ريهره، رولف، بيترا: 218

———— س ———

سالمون، س: 56، 56

ساند، شلومو: 183

الستار الحفيد: 13

ستامسكي، ساشا: 91، 254

ستالين، جوزيف: 32، 61

سترويل، إيمريد: 216

- ملوك: 114، 189
المعمودة: 123، 143، 278
سيفيفه، نوم: 126، 240
سفر إستر: 53-54، 188
سفر التكوين: 179
سقوط جدار برلين (1989): 31، 288
سكوتيا: 199، 321
سرفقتا: 11-12
سورية: 60، 113، 132، 160، 165-
166، 169، 278، 318، 322
السويد: 109، 141، 298، 303
سويسرا: 18، 20، 152
سيلان، مالو: 72
سيليغمان، رافائيل: 211
سيمونيس، هاينريش: 242
_____ ش: _____
شايريك إستر: 91-92، 254-255
شايريك يتسحاق: 244-245
شارلمان: 86
شارون، أوييل: 148، 224، 254، 265،
278، 323-324
شامير، يتسحاق: 227، 262
شاول، يهوذا: 132، 245-246
شبه الجزيرة الإيبيرية: 59، 59
شبه الجزيرة العربية: 77
شايرمارك: 13
شاليناخ، أودو: 217
شامبندر، فرانك هانز: 142
شرايخه، هاينس كريستيان: 214، 296
شترافغر، يوليوس: 51، 193، 246، 244
شونفيلدم: 45، 93
شوروش، بياتريكس فون: 166، 297
شراير، راينر: 95-96
الشرق الأوسط: 8، 93، 101، 115،
119-120، 163، 166، 175،
- 201، 211، 219، 231، 242، 257،
278-280، 291، 293، 302، 304
شمارش-فريزل، مونيك: 96-97
شكبير، وليام: 29، 180
شمال أفريقيا: 8، 58-59، 77، 160
شميت، هلموت: 310
شويس، يوليوس: 91، 294
شوستر، جوزف: 140-143، 149-150،
159-160، 162-163، 166
168-169، 185-186، 231، 254
شوكن، هاموس: 267
شول-لاهور، بيتر: 211
شيشرون: 93
الشريعة: 63، 253
_____ ص: _____
صالح، حاييم: 147-149
صحيفة جانتل وورلد (الأسبوعية): 286
صحيفة جيروزاليم بوست: 203، 307،
312
صحيفة شيفيل أون لاين: 117، 168، 263
صحيفة هارتس: 110، 117، 148، 267،
377، 322
صحيفة يوميشه النعمانية: 80، 90، 92-
93، 141، 193، 208، 232، 321
صحيفة يوميشه رونفشاو: 286
الصراع/الصراع الدائر/الصراع الحقيقي
في الشرق الأوسط/صراع الشرق
الأوسط/الصراع الشرق الأوسطي:
7، 23، 29، 32، 35، 78، 83،
98، 165-166، 168، 177، 188،
224، 285، 291
الصراع العربي - الإسرائيلي: 108، 267
الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي/الصراع
بين إسرائيل والفلسطينيين: 46، 212،
305

العصارات بين اليهود والعرب: 168

صلاح الدين الأيوبي: 61

صناعة اليهود كروست: 204

الصومال: 278

الصين: 64

ض

الضفة الغربية المحتلة: 112-111، 123

118-119، 134، 177، 244-

247، 257، 277، 291، 321

ط

طريق الحرير: 11

الطقوس التطهيرية: 51

طابطة: 59

طهران: 257

طبيبي، يسام: 166، 255

ط

طريف، محمد جواد: 142

ح

العالم الإسلامي: 12، 41، 60، 161،

169-168

العالم العربي: 7-8، 143، 165، 232

العالم العربي الإسلامي: 160

العالم الغربي: 105، 177

العالم القديم: 51

العالم المسيحي: 60

عباس، محمود (أبو مازن): 140، 246،

264-263، 267

عبد الرحمن الثالث (الخليفة الأموي): 153

عبد الصمد، حامد: 165

العراق: 40، 100، 109، 163، 195

عصبة الأمم: 262

العقولة: 162

عملية السلام: 48، 140، 321

عوز، عليموس: 27، 119، 277

عبد حاتر كا: 185-186

خ

خاميريل، زيلدار: 134، 201، 257

خازيت، شلومو: 178

خالبية: 152

خالبينسكي، هاينس: 30-31، 149، 294

خاير-عسكيت، كروستيان: 232-233

خايسل، أليك: 287

خرائس: 13

خراس، غولدر: 201، 211، 219، 239-

243، 247، 249

خروامان، دهر: 132-134، 140، 147،

151-152، 255، 279-280، 288

خروس، ألفرد: 64، 198، 201، 208

خروسمان، ديفيد: 277

خريعات، شينيدان: 292

خريميلوك، هريمان: 292

خزفة، لطاع خزة: 13، 15، 23، 79، 83،

107، 111، 213، 244، 261

263-264، 268، 275، 280

291، 293، 295، 310، 327

خزو أرض كنعان: 187

الخزو الصهيوني، فلسطين: 123

خزو القدس: 53

خيارت، تات: 208-209، 217-219

خوت، يوهان: 140

خولدمستوف، وينشالود: 280

خولدمشتاين، ماروخ: 244

خيمبرال، يوستو تشي: 26

د

داير، كلاوس: 91

دايبوس، لوزيان: 142

داقزاله، لودفيغ: 209-210

دارنهافن، والهيل: 154

داوسرمان، ياكوب: 154

داختر، وينشالود: 44-45

داقزور، داتون: 201، 269

فوكسمان، أبراهام: 295	فانسانغر، وشارلوت: 310
فولدايروك: 8	فايبرست، شتيفان: 211
فولفويث، ميشائيل: 211، 216، 239،	فاينفيلد، أوتو: 44
242، 243، 249	فراينكفورت: 20، 22، 23، 27، 99،
فيلدروز، هيرت: 130، 296-297	139-140، 145، 162-163،
الفيلوسوفية: 65-67، 123، 234، 295	174-176، 203، 208، 254،
فينكلشتاين، نورمان: 237	296، 298، 303، 321،
فيتا: 128، 196	323-326، 396، 398
ق - - - - -	فرايسغ: 99
قارصلي، جمال: 286	فرديناند الثاني (ملك إسبانيا): 56
القانون الإسباني النواي: 302	فردير، رولف: 83، 108، 165، 277
القانون النواي: 48، 71، 98، 147، 279،	فرنسا: 45، 62، 77-78، 101، 109،
302-304، 310	132، 150، 262، 289
قانون النكية: 116	فروستوف: 13
القاهر: 61	فريد إريش: 223-224، 247
قبايل التوتسي: 61	فريدمان، ميشيل: 91، 152، 231، 242-
قبرص: 186	243
القدس: 42، 63-64، 86، 92، 94،	الفصل العنصري/الأبوتهايد: 29، 95،
106، 123، 128-129، 144،	109، 111، 113، 132، 134، 227،
149، 270، 297، 307	267، 302-303، 309، 311
القدس الشرقية: 23، 119، 177، 179،	معايير أيام القاهرة (يرلين): 329-328
186، 216، 233، 259	مكة العرق الأري النقي: 43
القدس الغربية: 262	ملايان، سيمحنا: 124
القدس اليهودية: 42	ملايتمان، ليا: 306، 317
قرطبة: 153	مقرنغ: 8
القطب الجنوبي: 57	ملسطين: 12-15، 29، 53، 72، 86،
القطب الشمالي: 57	96-98، 103-109، 124، 126-
قلعة صافا (مسجد): 187	130، 134، 140-141، 167،
ق - - - - - ك	179، 183، 187، 195، 224،
كازيمير (ملك بولندا): 57	237، 262، 279، 289، 295،
كاسترو، فيدل: 26	304، 306، 326-327
كاسيتشي، جون: 148	كاسياغ: 20
كاليفورنيا: 64	كوريومون: 102
كامبرون، ديفيد: 142	كوريبيث، جيمس وليام: 265
كانط، إيمانويل: 144	كوستر، هال: 27

- كرامير، شيفان: 149
 كروفت، جاك: 26
 كروغر، توماس: 210
 كرويت أريج: 244
 كريسفي، كريس: 148
 كسر سافا: 162
 كلارك سلفيت، بيتا: 92-91
 كلاين، نازمي: 80، 308
 كلينبرو، فيكتور: 26
 كلوكتر، يوليا: 166
 كلارك، سوزان: 211
 كندا: 109، 303
 كنونلوخ، شاولوت: 132، 140، 152،
 159، 163، 229، 231، 233، 327
 كوريا: 168
 كورتشاك، ياتوش: 144
 كوريا الشمالية: 113
 كولونيا: 18، 22، 33-34، 97، 212-
 223، 219
 كوهين، هرمان: 154
 كيب، تاون: 134
 كيري، جون: 142
 كيليفر، كورت جيمس: 92
 كيشون، إيلزيب: 67
 كيلك، نجلان: 195
 كينسله، أولريش: 211
 ل
 لاناش، ليو: 163
 لاس، عباس: 148
 لاسال، فرديناند: 154
 لاسكو-شولر، إيلز: 154
 لانغروف، سيرغي: 142
 لانتسمان، كلود: 268
 لانتسبرغ أم ليش: 62
 لانغ، ميشيل: 146
 لانغر، أرمين: 83
 لانغر، ميليسا: 210
 لانغ: 199، 288، 290
 لسان: 19، 40، 134، 175، 232، 267،
 322-321
 اللجنة الأمريكية اليهودية (يولي): 83، 85
 166-167، 210، 297
 لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية:
 269
 لينينغ، تيمور: 43-44، 247
 لينينغ، غوتفريد: 66
 ليتفينسكي، ستيفن: 111-113
 ليفنر، موشيه: 244
 لندن: 125، 225، 233
 لوبان، جان ماري: 130
 لوبان، مارين: 130، 297
 لوثر، مارتن: 56-57، 153
 لوهرز، ميشائيل: 211، 242
 لوس أنجلوس: 220، 261
 لوستيفر، أرون: 51، 210
 لوط (القي): 114، 188
 لوكفيلد، كارين: 211
 ليرمان، أليفدور: 188، 265
 ليوبلش، يشعياهو: 119، 183، 248
 لير، أيرلاند: 167
 ليبي، جدهون: 48، 108، 117، 227،
 323
 م
 مار، فيللم: 40
 مارتسال، باروخ: 96
 ماركس، كلارا: 108، 154، 184
 ماريوت، سيريل: 15، 125
 ماكارتني، جوزيف وليموند: 257
 مالر، غروست: 218-219
 مانفيل، نلسون: 262

مجلس إدارة الجالية اليهودية: 163	ماير، غوتتر: 211
مجلس التسيب الألماني لمؤسسات المجتمع المدني: 254	ماير، هيلو: 44، 198-199، 211-212، 234، 290-291، 327
مجلس شيوخ برلين: 31، 82	مايوكا: 140
المجلس القومي لليهود: 120	ماير، فولدا: 233
المجلس المركزي للمسلمين: 169	مهاجرة سلام - شالوم اليهودية (برلين): 83-84
المجلس المركزي (اليهود) / مجلس اليهود المركزي: 30-31، 79، 84، 89، 95، 97، 99، 132، 139-141، 143-145، 147-149، 151، 159	مهاجرة القنبلة لتعزيم القسيم الأساسية الديمقراطيةية الحشرات: 315-317، 320-319
162، 163، 167-169، 177، 183، 185، 207، 210، 239، 254-255، 270، 274، 276-277، 294، 315، 317	المجزرة الإسرائيلية بحق السكان في نطاق غزة (2008-2009): 35
مجموعة الغاية اللاسلطوية: 295	مجزرة ليلة الكريستال: 100، 129
مجموعة يوسف: 295	مجزرة / مجازر / مذبحه دير ياسين: 106، 123، 227
محكمة الإعدام: 59	مجلة إيمان: 216
محكمة برلين: 229	مجلة بارغون: 23
محكمة لأهالي: 135	مجلة باهاغاس: 286، 290، 295
محمد (الرسول): 46، 213	مجلة بوخ ماركت: 22
محور النهر: 177، 203، 227، 284	مجلة ناخليس: 234
محور الشر: 169	مجلة دير سميت - الصوت اليهودي الآخر: 223
مذبحة الحرم الإبراهيمي (1994): 244	مجلة دير شيليل: 109، 207، 215، 218-219، 241، 268
مذبحة وود نبي: 285	مجلة ذي الفلاحين: 148
مرتفعات الجولان: 23، 177	مجلة ذي يورويان: 273
مردخاي (أبي سفر إستر): 93-94، 188	مجلة زانكت ياكوب تاخيشتن: 207، 219
مرسوم المحرمات: 59	مجلة سميت: 29-30، 206
المركز الأوروبي لرصد المتصرفة وكراهية الآخرين / قره الأجانب: 263-266	مجلة لراي يوديشه رونداشوا: 206
مركز سميتون فيرنال: 44، 220، 261-264، 266-267، 269	مجلة لراي يوديشه شيمه: 203
مستوطنة جفعات شالول: 123	مجلة فوكوس: 243
مستوطنة عمونا: 118	مجلة كونفاكت: 34، 22
مستوطنة ينسجار: 244	مجلة كونكرست: 286، 292
	مجلة هالبرغر فو غونن ساجنولان: 241
	مجلس الأخلاق الألماني: 163

- المسيح / يسوع: 41-42، 95، 265، 179
 مشعل، خالد: 279
 مصر: 8، 60، 132، 161، 187، 241، 321
 مطار حيفا: 125
 مطار فرانكفورت: 24
 المظلة: 163
 معسكر اعتقال برغن-بلازن / معسكرات الموت: 20، 34
 معسكر أولمبيتز / معسكرات الموت: 17، 20، 22، 63-64، 81، 126، 153، 168، 189، 200-201، 203، 208، 211، 214-215، 233-234، 234، 237، 288، 290، 292-294
 معسكر تريبلينكا: 168
 معسكرات الغولاغ: 12
 المغرب: 59-60، 161، 255
 المقاومة الفلسطينية: 232
 منتدى برلين للمواثيق من العهد: 82
 متدلون، موسى: 143، 153-154
 منظمة إس إس العسكرية: 94
 منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو): 178-179
 منظمة أونسيت وبيورتنغ: 266
 منظمة أرستلي كونسرتد: 283، 285، 289
 منظمة التحرير الفلسطينية: 175
 منظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية "نسليم": 123، 131
 منظمة الصوت اليهودي من أجل السلام: 100، 229-230، 302، 306-308
 منظمة السلام العادل في الشرق الأوسط: 229، 306، 305
 منظمة العمل الدولية: 503
 منظمة كسر الصمت لحقوق الإنسان: 243
 منظمة كيرين هايسود الصهيونية: 204، 227
 منظمة المؤتمر الإسلامي: 301
 منظمة ميومن وايس ووتش: 303
 مهر جان كان السينمائي: 263
 موابيت: 195
 مونتنيخ، رولف: 109
 المؤتمر الإسرائيلي - الألماني: 234
 المؤتمر الصهيوني (37: 2015 القدس): 63
 المؤتمر العالمي اليهودي / اليهودي العالمي: 275
 مؤتمر قاتزي (1942): 128
 المؤتمر الفلسطيني في أوروبا: 208
 المؤتمر اليهودي الأمريكي: 266
 موريس، بيني: 241
 مؤسسة برنارمان: 80
 مؤسسة فريدموش إيرت: 73
 موسكوفيتش، روفن: 211
 موسى (الني): 184
 مورخو، فيديريكا: 142، 178، 305
 موفاز، شلومي: 133، 254
 مورمان، يورغن: 90، 254
 موزون، تيودور: 40، 151
 الميثولوجيا اليهودية: 186
 ميركل، أنجيلا: 66، 71، 147، 159
 214، 220، 293
 ميناء حيفا: 14
 مينورات: 121
 ميونخ: 27، 32، 47-48، 91، 99
 152، 173، 303، 323، 327
 ناخمان، فرتر: 146

هاسكالا: 154	هاسكاهو، بنيامين: 69، 86، 100، 109-
الهالغانتا: 125	110، 115-118، 124، 148،
هالتر، غيورغ: 91-92	130، 177، 179-180، 188،
الهالاجاه (الشريعة اليهودية): 120، 122-	220، 241، 264، 278، 280،
123	296، 310، 324
هالبر، جيف: 93-94	نجمة مارت: 75، 120
هالبر فورد، ديف: 200، 209	تحتلوا، إيمانويل: 240
هامان: 53-54، 188	الترعة الفيلوسوفية الألمانية: 66
هامبرغر، أرنو: 210	نظام آية الله: 142
هامبورغ: 21، 99، 248، 288	نظام الجدار العازل: 112
هامبلن: 321	نظام المطامع الصاروغي (الثقة الحديدية):
هالندر، يوزف: 286	112
هاليند، هالترش: 41، 44، 156، 202،	نظرية العرق النقي: 43
248-249، 327	النظرية العرقية: 41، 43
هانز، أدولف: 12، 18، 39-40، 54،	نقاء الدم: 55
62-63، 71، 123-124، 128،	النمسا: 13، 45، 128، 296
195، 198-199، 209، 235،	نهر الأردن: 17
265، 286، 327-328	نهر الغراف: 321
هجمات باريس الإسرائيلية (2015): 86	نهر الميسيسيبي: 17
الهجمات في كوبنهاغن (2015): 86	نورد رين فسفاليا: 256
هحاس-هاندلسمان، ياكوف: 234، 273-	نومان، ميشائيل: 240
280	توبيلك، ووريغند: 247، 277
هزرتل، ثيوهور: 62، 113-115، 121،	نيل، ديرك: 242
121، 152، 173	نيتشه، فريدرش: 77
هرتسوغ، حاييم: 281	النهر غانا: 27
هرتسوغ، رومان: 139	نيرون: 55
هرمز، يوهان: 66	نيو جرسي: 148
هرمان، هالتر: 212-213	نيوزيلندا: 280
هشت-غالينسكي، إيفلين: 294	نيو كولن: 189
هملر، هالترش: 63	نيويورك: 30، 225
الهند: 312	_____ هو _____
هو غمهاستر، لوتس: 211	هارنوك: 263
هو غر، إيتند: 200	هارت، أكي: 178
هولاند، فرانسوا: 86، 263	هاس، غيمر: 277، 325
هولسمان، ديف: 26	هاسبارا الإسرائيلية (وزارة الداخلية): 7

هولندا: 48، 292، 296-297، 303	وايتال، بيتامين: 203
الهولوكوست/المحرقة/الإبادة الجماعية:	وحد بلفور (1917): 114
7، 13، 20-22، 39، 41-42، 46،	الوكالة اليهودية: 12-13، 124-127،
61، 63، 74، 81-82، 95-96،	130
105-106، 108-109، 111،	ووركز، أليس: 308
139، 142، 152، 162، 174-	ووركز، سكوت: 148
175، 180، 188-189، 198،	ويسكونسن: 148
204، 214، 231، 283، 291،	ويل، غلين: 111-112
293، 314، 319، 327	ي
هولبرود: 148	يال: 225
هوتنريش، تيد: 292، 224-227، 290	يغروب (النبي): 247
هيليل (حاخام): 144، 319	اليهود الأشكناز: 180، 321
و	اليهود السفارديون/اليهودية السفاردية
وارسو: 215	(السفارديم): 58، 59-60، 180
واشنطن: 7، 132، 148، 179	يرميا، جميلة: 162
وايزمان، حاييم: 129	يوسفوس، فلافيوس: 51-53
وايزمان، هيرش: 139	اليرنات: 35، 187، 232

